

لوحات من القرن التاسع عشر

لبنان - فلسطين - سيناء

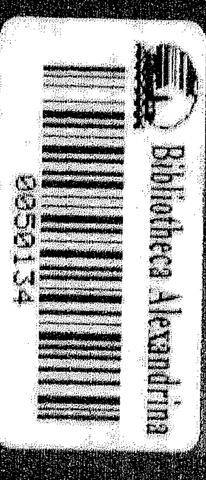
١٥٠ لوحة/وثيقة مع نص مونوغرافي متميّز

لوحات

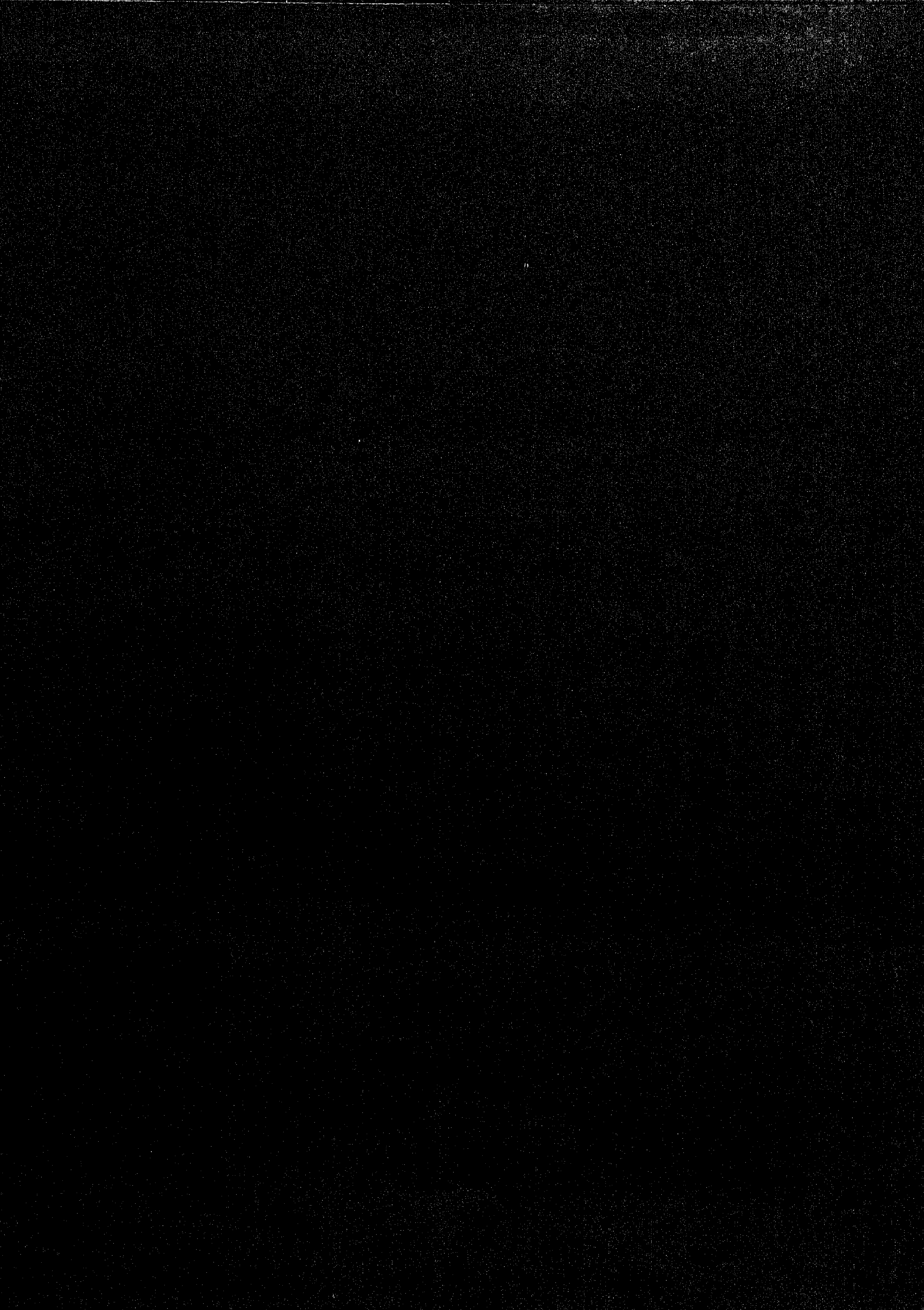
من القرن التاسع عشر

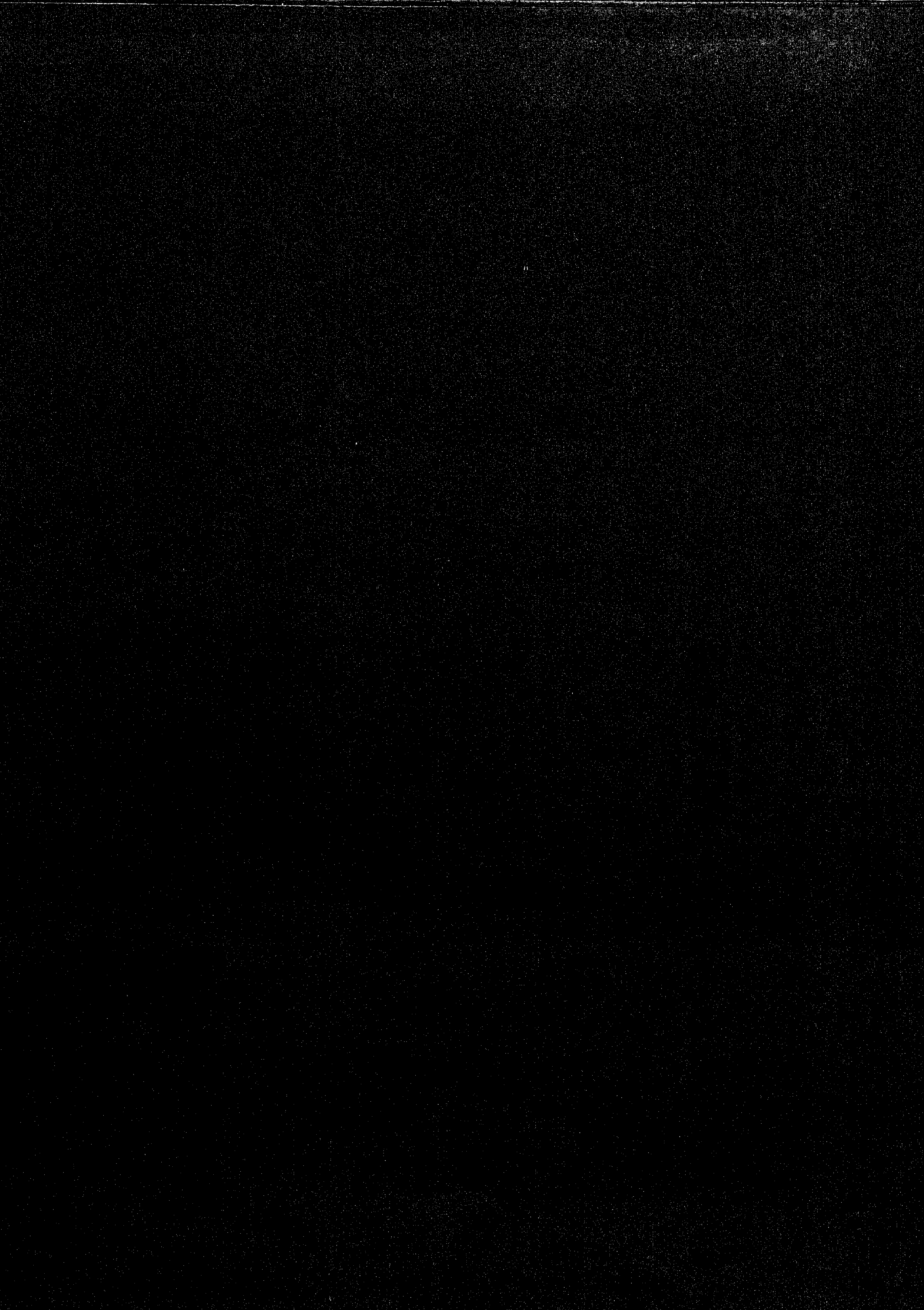
حرره وأعده

سير شارلز ويلسون



تصميم الغلاف : جومانا ابو شقرا





لوحات
من القرن التاسع عشر
لبنان، فلسطين وسيناء

لوحات
من القرن التاسع عشر
لبنان، فلسطين وسيناء

١٥٠ لوحة /وثيقة مع نص مونوغرافي متميز

حرّره وأعدّه

سير شارلز ويلسون

ترجمة

د. محمد شيا

شركة المطبوعات



للتوزيع والنشر

بناية الوهاد - شارع جان - دارك
ص.ب. ٨٣٧٥
بيروت - لبنان

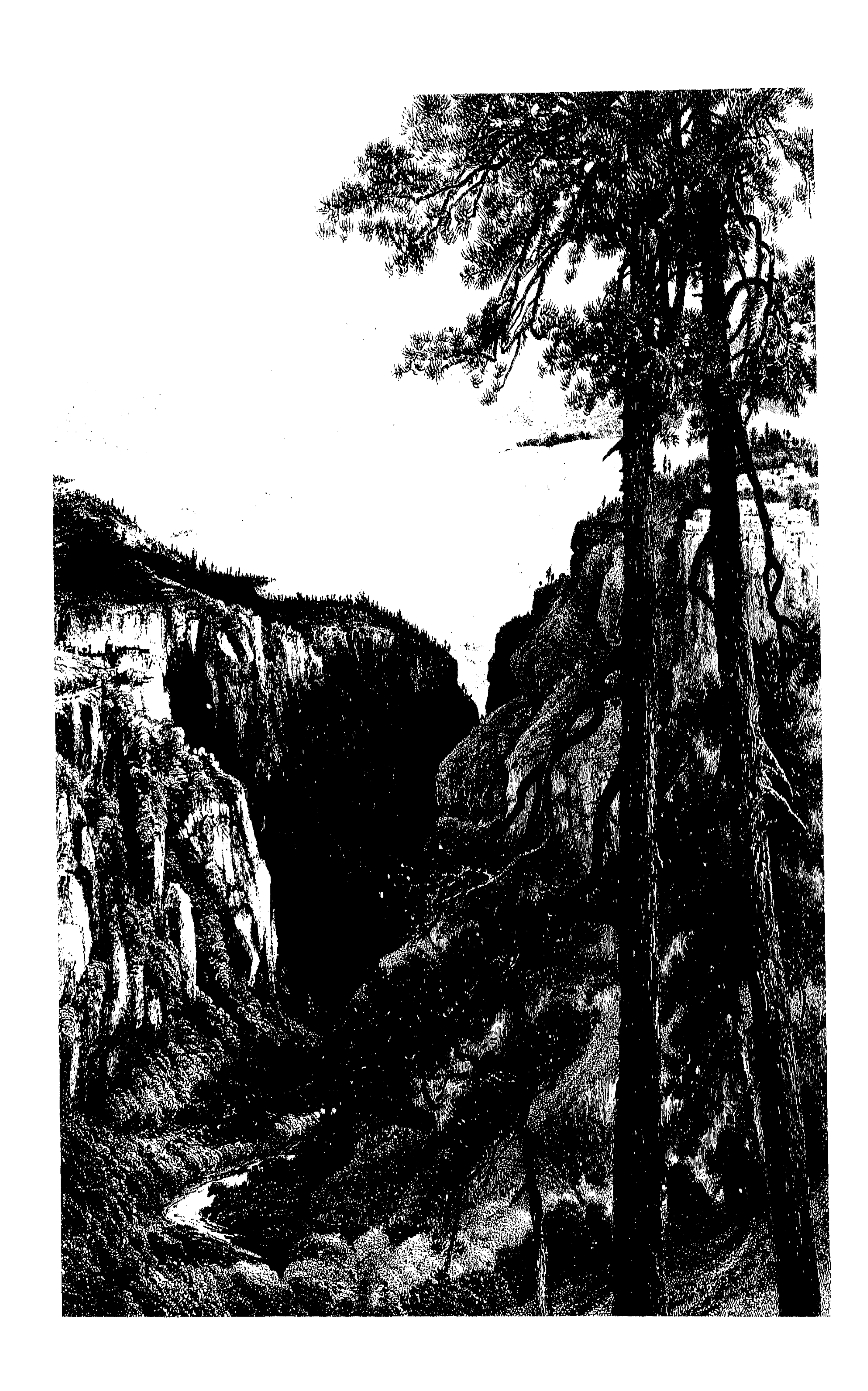
هاتف: ٣٤٤٢٣٦ - ٣٤٥٤٦٠ / ٢ - ٣٥٠٧٢١
فاكس: ٠٧-٥٢٢١ - ٩ - ٣٥٧ / ٢٩-٦٠٢٠-٩٦١١
تلكس: ٢٢٦٦١

الطبعة الاولى ١٩٩٥ م

الاخراج الفني: منى التالي



دير سانت كاترينا في جبل سيناء



خارطة فلسطين

SCALE OF ONE ENGLISH MILE

EXPLANATION

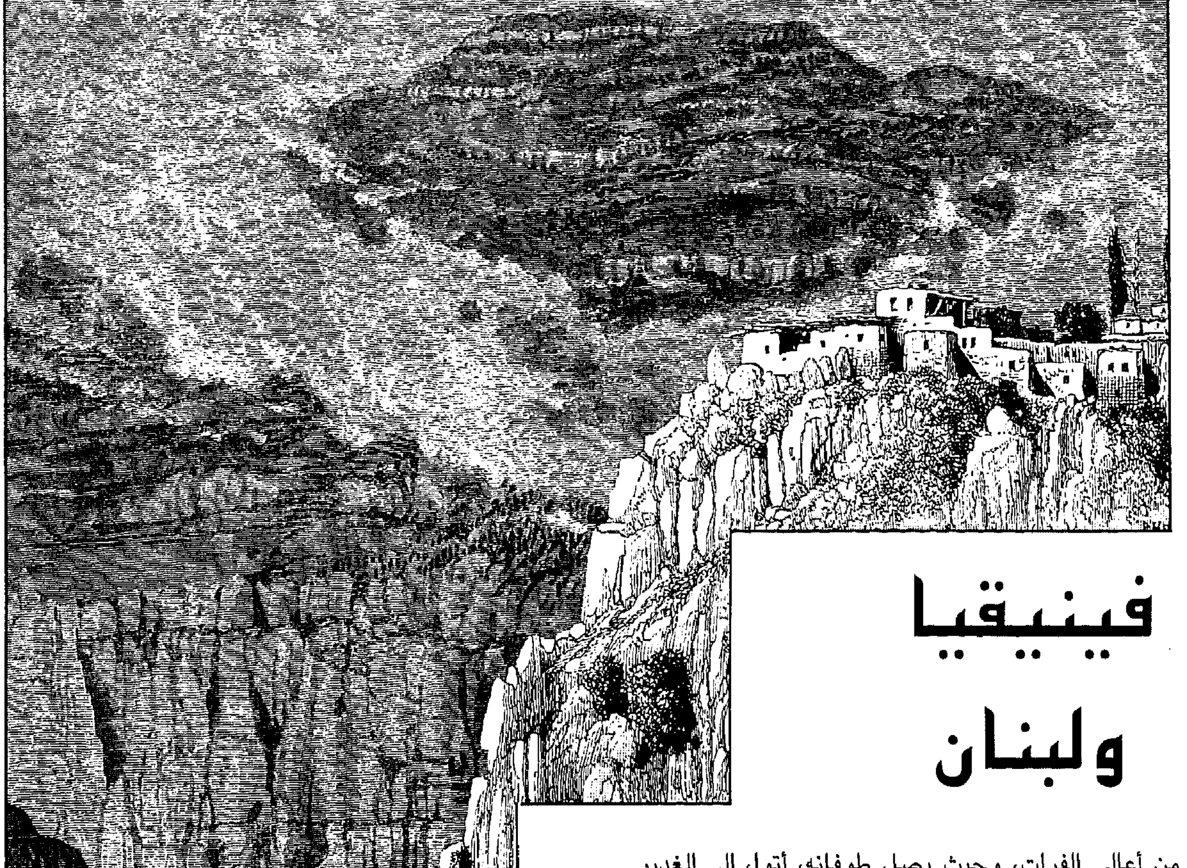
- I Franciscan Convent
- II Church of the Sepulchre
- III Greek Convent
- IV Hezekiah's Pool
- V Muristân
- VI Christ Church (Protestant)
- VII Armenian Convent
- VIII Protestant School
- IX Pool of Bethesda
- X Dome of the Rock
- XI Mosque el Aksa
- XII Wailing Place of the Jews
- XIII Robinson's Arch
- XIV Tomb of the Virgin
- XV Gethsemane
- XVI Tombs of Jehoshaphat & Absalom
- XVII Tombs of St. James & Zechariah
- XVIII Fountain of the Virgin

MEDITERRANEAN SEA

Modern names ___ El Khulil, BAHR LÛT.
Biblical ___ Hebron, DEAD SEA.
Classical &c. ___ ELEUTHEROPOLIS, LEONTES.

34° 30' Longitude East of Greenwich

Scale of English Statute Miles



فينيقيا ولبنان

من أعالي الفرات، وحيث يصل طوفانه، أتوا، الى الغدير الذي يفصل أرض مصر عن أرض سوريا يحملون معهم بعل وعشتار».

«وولدت لكنعان صيدون، الابنة البكر، وبعدها الحثيون والاركيون والسينويون والاروادیون والزمريون والحمويون».

تعتبر هذه الوثيقة الإثنية الواردة في الفصل العاشر من سفر التكوين، الأقدم عهداً، أول تأريخ مكتوب للفينيقيين الأوائل. أما حدود فينيقيا القديمة هذه فكانت حماه Hamath في الشمال الشرقي وعكا Acre الى الجنوب الغربي.

احتل الصيداويون الساحل الممتد من بيبلوس (جبيل) شمالاً الى عكا في الجنوب، واحتل بعض الحثيين شيخم Schechem وجيبون Gibeon، بينما احتل آخرون منهم السلسلة الممتدة من بعل حرمون الى حماه. اما الأركيون Arkites فقد عاشوا في السهل الذي يمتد بين جبال عكار والنهر الكبير، في شمال لبنان، ومازال اسمهم على تل عرقة ونهرها.

حصرون، قرية مارونية في شمال لبنان، على قمة صخر عالٍ في الجانب الجنوبي من وادي قاديشا (النهر المقدس) وادي قاديشا (النهر المقدس)

والى الشمال من ذلك، فان أحد أهم المواقع الأثرية في شمال سوريا هي «قلعة قدموس»، على مسير اثنتي عشرة ساعة جنوب شرق اللاذقية، والتي ربما كانت الموطن الاصلي لقدموس الذي أدخل الحرف، لأول مرة الى أثينا... هوذا الحد الشمالي لرحلتنا في بلاد فينيقيا.

وكي نتمكن من انجاز رحلتنا العتيدة هذه، كان لا بد من أن نبدأ من أقصى الشمال ثم نتجه جنوباً، وفي رفقة الأب س. غصوب من طرابلس، والبروفسور دودج Dodge من الكلية [الأميركية] في بيروت . وكانت البداية في آثار العمارة الفينيقية القديمة في شمال سوريا المسماة «حصن سليمان»والتي لم تكتشف معالمها الا حديثاً. وقبل ذلك كنا قد قضينا ليل الثلاثاء في مهاردي Mahardee بالقرب من قلعة سيجار Sigar على العاصي (Orontos)، شمالي غرب حماه؛ ثم انطلقنا صباح الاربعاء نحو الجنوب الغربي لنبلغ محيط جبل النصيرية، وتسلقنا بعد ذلك منحدراً صخرياً حاداً يرتفع بضع مئات من الاقدام، وسط غابات من شجر السنديان وصولاً الى القمة قرب المنطقة التي تدعى «عين شمس»، وانحدرنا بعد ذلك غرباً في وادٍ ضيق نحو «عين الذهب» ثم انحرفنا جنوبا فوق هضبة مستديرة عالية، لنصبح بعدها مباشرة أمام واد أخضر منعزلٍ تقوم في وسطه تماماً آثار«حصن سليمان». تبدو اثار الحصن، الذي لا يعرف مصدره أو تاريخه على وجه الدقة، موغلة في القدم فهو يحتوي، كما قلعة بعلبك، على ثلاثة انواع من العمارة: الفينيقية الضخمة واليونانية والصليبية. وأول ما يلفت النظر في آثار الحصن قاعتان فسيحتان مربعتا الزوايا قريبتان الواحدة من الأخرى ولكن غير متصلتين. تمتد القاعة الجنوبية، وهي الاوسع، على شكل مستطيل كبير في ٤٥٠قدماً طولاً و٢٨٠قدماً عرضاً مع حائط علوه الأصلي حوالى ٤٠ قدماً. وفي وسط كل جانب من جوانب القاعة بوابة ضخمة في عرض ١٠ اقدام وفي ارتفاع يبلغ ٢٠ قدماً وبسماكة ٨ اقدام. وفوق قنطرتي البوابتين الشرقية والغربية يقوم تمثال لنسر هائل بين مخالبه صولجان، ويحفّ به من الجانبين ساقيا خمر يونانيان. تشبه آثار الحصن آثار بعلبك ولكن دونها بكثير فخامة ودقة وزخرفة. امضينا في« حصن سليمان» حوالى ست ساعات في نقل تصاميم تلك الآثار لصالح جمعية الآثار الأميركية الفلسطينية APES، وكانت هذه التصاميم والتخطيطات أولى الصور التي تنشر في أوروبا وأمريكا لتلك الآثار. فوق البوابة الشرقية عتبة ضخمة بطول ٢١ قدماً وعرض ١٠ اقدام وارتفاع ٥ أقدام، يبرز منها إفريز تزخرفه منمنمات وزهور منحوتة بينما مجسم رأس الملك يتوسطها جميعها. وعلى كل طرف تمثال شخص مجنح، نافر وعالٍ وتتكسر ثنيات رداء يبدأ من الخصر نزولاً، ويسند الجزء العلوي من الافريز بكتفه والساعدان الى فوق، وعلى أسفل الافريز كتابة منقوشة باليونانية تقول ما معناه: «هو ملك ثيوباتيوس، بناه عماله وخدمه في سنة ٦٨ الثانية». أما افريز البوابة الغربية فيحتوي على منحوتات وازهار ومنمنمات ووجوه بارزة أو نافرة. والعتبات تلك هي في حالة انشطار أو انهيار، ولم تسلم غير عتبة البوابة الشرقية التي بقيت في حالة كاملة، بينما انشطرت عتبة البوابة الغربية الى شطرين والشمالية الى ثلاثة، وانهارت الجنوبية تماماً. وداخل البوابة الشمالية وعلى لوح ارتفاعه ٦ أقدام وعرضه ٣ اقدام كتابات يونانية ولاتينية ويفيد النص اللاتيني، كما ترجمه د. ووردWard، ان الأمبراطور ڤاليريانوس وابنه غاليانوس وحفيده سالونيانوس قد اعتمدوا اركسوس واوريلوس (وآخرين) على مقاطعات آسيا وأمروهم بالقضاء على تمرد باريثانوس في المقاطعات البعيدة. وتاريخ الكتابة هو بين ٢٥٣ و ٢٥٩ م. الا ان تاريخ الكتابة يبدو متأخراً الى حد كبير عن تاريخ البناء نفسه، ولعله مقتلع من مكان آخر، اذ ان كتابة أخرى عليه تبدو ممحية.

يقوم الحصن على شكل مستطيل مبني من حجارة ضخمة يقوم أضخمها في الركن الشمالي الشرقي في طول يبلغ ٣٠ قدماً، وارتفاع ٩ اقدام و٩ انشات، وعرض ٤ اقدام وسبع انشات وتعلو عن الأرض من جانبها الداخلي ٣٠ قدماً. ومعظم الحجارة متساوية الطول الا أن بعضها اكثر سماكة من بعضها الآخر، كما أن بعضها أقصر وأعرض من البعض الآخر. أما الحجارة الواقعة في الجانب الجنوبي فعريضة، خشنة، وتبدو غير منتهية الصنع، اذ ان آثار النحت بادية على سطوح بعضها.

أما المحجرُ Quarry فعلى منحدر الهضبة على مسافة بضع قصبات* عند الزاوية الشمالية الشرقية، وفوق هذه الزاوية منحوتة أسد بدائية بارزة فوق الجانب الشمالي. وفي الزاوية الشمالية الغربية المقابلة منحوتة أسد يستريح تحت شجرة سرو. والنمط البدائي هذا غير الدقيق أو المتقن من منحوتات الأسد ما زال الى اليوم يزين مداخل المنازل السورية الحجرية، بل تستعمله النساء العربيات في زخرفة الحيطان الطينية الداخلية لمنازلهن البدائية. وعلى الجانبين

* وحدة قياس قديمة تساوي ٥،٢٩ متراً [م].

الداخلي والخارجي من البوابة الشمالية مشكاة فارغة تظللها سعفة عالية. وعلى الجانب الداخلي من حائط القاعة آثار رواق كان يمتد باتساع ٤٥ قدماً وعمق ١٧ قدماً، سقفه واعمدته متداعية ومعظمها مطمور تحت الركام. وتعود قواعد الأعمدة على الجدران الاساسية الى النمط الكورنثي الأول.

وفي الجزء الجنوبي الأوسط من المستطيل يقوم الهيكل الأيوني Ionic في ٧٥× ٤٥ قدماً. وإلى جانب منه مجموعتا أدراج في عرض واجهة الهيكل وبطول ٦٠ قدماً شمالاً. وبُني الهيكل من الصخر الكلسي نفسه الذي بنيت منه القاعة، إلا أن حجارته أصغر حجماً بكثير وهي تتدرج من ٦ الى ١٠ اقدام طولاً ومن ٣ الى ٤ أقدام عرضاً وارتفاعاً، وهو محاط بأعمدة نصفية تصبح في الزوايا أعمدة ثلاثية أو رباعية، أربعة منها في طرف الهيكل الجنوبي وخمسة على كل جانب، وجميعها على ٣ اقدام و ٥ انشات في قطرها و ٢٧ قدماً إرتفاعاً. وإلى الداخل بقايا صفوف غير منتظمة من الأعمدة النصفية. كما تجري شتاءً عين ماء من تحت الهيكل، وهي كانت كما في نبع فيجي او أفقا كما يبدو، مراكز جذب متصلة بعبادات تلك الأيام والتي ما زالت تفاصيلها سراً مغلقاً. ومياه العين تلك باردة صافية، سلسة، تنبع من تحت الحائط الغربي من السور، اما منبعها الأصلي فغير ظاهر ومطمور تحت الركام.

والآثار الشمالية من الحصن مستطيلة كذلك، تقع الى الشمال الغربي من القاعة الكبرى لتشكل زاوية معها. وهي تضم مجموعة معابد صغيرة، واحد على الزاوية الشمالية الشرقية، وواحد على الزاوية الجنوبية الغربية، وآخر خارج الحائط الغربي قياسه ٤٥×٥٠١ قدماً. ووراء الساحة عند الزاوية الجنوبية الغربية قواعد أعمدة كثيرة كانت، ربما، تحيط بالمعبد ويمتد فوقها رواق طويل. وللمعبد الصغير في الزاوية الجنوبية الشرقية رواق يرتفع ١٠ اقدام وقياسه ٢٦ × ١٣قدماً، مع ردهة مساحتها ٢٦×٤٠ قدماً. والبوابة بينهما، وهي ركام الآن، عرضها ٧ أقدام وارتفاعها ١٠ أقدام، بينما تمتد العتبة التي فوقها ١٣ قدماً طولاً وعليها محفورات ومنحوتات غير مكتملة لزخرفات وأزهار شبيهة بتلك التي على بوابتي القاعة الكبرى مع حمامة باسطة جناحيها. والحجر الذي على العتبة هو في ١٥ قدماً طولاً أما الحجارة فمرصوفة، من دون مؤونة وتتصل بشكل جميل وعلى نحو يشبه نمط بعلبك وبالميرا Palmira (تدمر). والبناء الوحيد الذي جرى استخدام المؤونة في رصف حجارته هو الكنيسة الصليبية على الجانب الشرقي وبخاصة في الجزء الناتئ منها صوب الشمال الشرقي. لكن اللافت هنا هو أن أي إسقاط Projection نصف دائري لتخطيط الحائط الشمالي يؤشر مباشرة الى نتوء سابق في صرح أكثر ضخامة كان قائماً في المكان نفسه.

وتبقى طبيعة الموقع الأثري برمته سراً من الأسرار إلا أنه يتضح أنه كان أحد أماكن Arvadites المقدسة، كما كان حصناً في الآن نفسه. وفي تقريره حول بقايا العمارة الصليبية العسكرية في سوريا يصنف مسيو راي، من باريس، هذا الموقع باعتباره الأكثر أهمية في سوريا. ويشير اسمه الشائع «حصن سليمان» الى أصله، ربما، وحسب ما هو سائد من الروايات. فلقد نسب العرب بناء هياكل بعلبك، وتدمر/بالميرا الى عمل سليمان، بمساعدة الجن،.وهو ما ينطبق وفق الروايات على هذا الموقع الفينيقي وربما كان قريباً من المنطق الافتراض ان سليمان وقد بلغ حماه Hamath Zoba قد رغب ببناء أماكن أو مراكز لخزن الحنطة في المنطقة فأمر عماله ببناء هذا الحصن ولفظة حماه Hamath تعني الحصن - وشهرة سليمان طبقت مناطق حكمه بأسرها قبل ان يسكنها الفينيقيون والحثيون - ولعله جرى اختيار هذه البقعة النائية مكاناً لبناء موقع قوي حصين تخزن فيه الحبوب لسكان شمال سوريا، بالاضافة الى وظيفته كحصن عسكري. اما المعابد الصغيرة فيبدو أنها أضيفت في أزمنة لاحقة.

بعد مغادرتنا الوادي الجميل هذا، قصدنا «برج صافيتا»، أو القلعة البيضاء، التي بناها الصليبيون والتي تشغلها الان كنيسة انجيلية ومدارس. وتشبه القلعه، كما يوحي اسمها، بقعة بيضاء على صفحة جبل قاتم اللون. وفي الاول من حزيران، انحدرنا نزولاً لحوالى ست ساعات عبر الهضاب الطبشورية نحو الساحل ولنصل مباشرة الى مدينة طرطوس الحديثة، التي تقوم اليوم مكان انتارادوس Antaradous الفينيقية القديمة. تضم البلدة اليوم حوالى ١٥٠٠ ساكن، أربعة أخماسهم مسلمون والباقون ارثوذكس. وتعيش غالبية السكان داخل جدران القلعة، وهي مبنى حصين حيث الأسوار والأبراج التي بناها الصليبيون لاتزال في حالة ممتازة. وتحاذي القلعة الشاطئ، يحميها من مدّ البحر

أعمدة وحيطان ضخمة تتدرج صعداً . أما لجهة البر فهي محاطة بحائطين يتخللهما خندقان، واحد من الداخل وآخر من الخارج. ولايزال معظم هذه التحصينات في حالة حسنة وبخاصة في الجهة الشمالية الشرقية، وتبدو العمارة القديمة هذه جميلة وقوية خصوصاً اذا ما قورنت بهزال معظم الإضافات الأحدث عهداً.

واستقلينا من طرطوس مركباً شراعياً، او «الشختورة» العربية عبرنا بها مسافة الميلين ونصف الميل نحو الجزيرة القديمة أرواد، توأم طرطوس. يزيد محيط الجزيرة عن ثلاثة أرباع الميل ويقطنها حوالى ألف ساكن وكانت الجزيرة، في ما مضى، محاطة بسور يمتد حولها من حافة الماء، يحميها من البحر من جهة ويصلح حصناً عسكرياً من جهة ثانية ولا تزال بعض بقايا ذلك الجدار قائمة. وهي تتألف من حجارة صخرية قد يبلغ بعضها الخمسة عشر او العشرين قدماً طولاً. وشكل هذه الحجارة الضخمة غير المصقولة يشير الى أصلها الفينيقي. اما داخل الجزيرة فقد حفرت خزانات في الصخر بهدف حفظ المياة لسكان الجزيرة؛ كما أن في بعض صخور الجزيرة نقوش يونانية تبدأ بكلمات: «الشيخ والسكان ...» Senate. يقع مرفأ الجزيرة في الجهة الشمالية الشرقية ويحميه من أمواج البحر حاجزان مكونان من حجارة ضخمة جلبت من مقالع في عمريت Amrit ومعظم سكان الجزيرة اليوم صيادون تحمل مراكبهم السمك الى اللاذقية وطرابلس، وربما بلغت كذلك بيروت. كما قد تشحن الخشب من سفوح الجبال المجاورة الى مدن فينيقيا الجنوبية. تحالفت أرواد مع صيدون لكنها احتفظت بملكها الخاص يمثل التاج الفينيقي فيها. وبحارة هذه الجزيرة شجعان، قساة، وقد نافسوا الصوريين والصيداويين في التوغل في المتوسط والبحار السود. ويعود للبحارة هؤلاء فضل بناء المدينتين المقابلتين على الشاطئ انتارادوس (او طرطوس الآن) وماراتوس (أو عمريت) حيث نجد فيها بقايا العمارة الفينيقية في ابهى صورها وأكثرها أهمية. والرحلة من طرطوس الى أرواد هينة ممتعة صيفاً كما في معظم أيام الربيع، الا أنها ورغم مهارة بحارة أرواد أكثر صعوبة وقسوة في باقي شهور السنة.

ومن طرطوس وبمحاذاة الشاطئ نحو عين الحيّة وعمريت وكان موسم الحصاد على الأبواب والبلاد بأسرها في حلة ذهبية قشيبة، حيث الهضاب تموج بالسنابل، والثيران بدأت تدور وتدور على البيادر المستديرة الشكل تدرس أكوام الحنطة وتفصل الحب عن القشور. والى الجنوب الشرقي من طرطوس تقوم كاتدرائية الصليبيين وهو مبنى جميل يقع في ٣٠ ١×٩٣ قدماً ويفصل الصحن عن سائر الكنيسة صفان من الأعمدة المتقاربة. والكاتدرائية الآن وكما الحال في سائر المدن السورية، في تصرف المسلمين، وقد شاهدنا فيها شيخاً مسلماً يعلمّ اطفالاً صغاراً قراءة القرآن، وقد افترشوا جميعاً حصيرة بسيطة. ورغم ان البناء هو جزئياً من دون سقف، الا انه لم يتداع؛ والمنظر محزن ولافت لكنه شائع ومألوف في المنطقة الواقعة بين حلب وطرابلس. فمعظم القلاع والابنية التي شادها الصليبيون، وبخاصة الفرنسيين والانجليز، بكنائسها القوطية وجدرانها العالية هي اليوم اما حطام وحظائر، او أمكنة لاستخدام عمال الاترال وموظفيهم وخدمهم.

وبعيد تركنا كاتدرائية طرطوس بلغنا بعد مسيرة ساعة أو يكاد، آثار عمريت Amrit ، والتي اكتشفها م. رينان Renan وأبان تفاصيلها وجمالاتها بكثير من العمق والتعاطف في عمله المنشور تحت عنوان "Mission de phoenice" . واثار عمريت (أوتل عمارة) أخاذة ولافته، وهي أكثر بقايا العمارة الفينيقية في سوريا كمالاً تنتصب في ثلاثة تماثيل شامخة ضخمة، أولها على قاعدة مساحتها ١٦ قدماً وتعلو ١٦ قدماً مع اسود منحوتة على الزوايا، وترتفع فوقها مسلّة الى ١٤ قدماً. والثاني على قاعدة مساحتها ١٥ قدماً وارتفاعها ١٠ أقدام، تقف عليها منحوتة حجرية اسطوانية الشكل ضخمة، وجميعها محاط بصخرة مخروطية الشكل يبلغ أقصى علو لها ٣٣ قدماً وتحت كل واحد منها غرف محفورة في الصخر، تتفرع الى غريفات صغيرة مساحة كل منها ٢/ ١ ٨ × ٤/ ١ ٣ قدماً. أما النصب الثالث فمدمر. وحسب لينورمانت Lenormant فإن الأنصاب المخروطية تحمل معاني معينة في عبادات البعل القديمة. « ففي بافوس Paphos الحجر يمثل عشتار* هو مخروطي الشكل، وكذا في مالطة، في أحد المواقع الفينيقية،«قدس المقدس» النصف

* اله الخصب عند الفينيقين

الدائرية، جيجانتيجا Gigantega صخر مخروطي، كما في بافوس، رمز لطبيعة الاله ولعبادته» ولا معنى هنا للدخول في شروحات المضمون الأصلي المتضمن في الرمز المخروطي وقداسته.«فقد كانت هناك مسلّتان متشابهتان تنتهيان الى مخروطين، او رأسين مستديرين، دعاهما العرب «مغازل» موضوعتين على مدخل معبد اتارغاتيس Atargatis في بامبيس Bambyce ويحتمل أن بعضاً منها أو مايشبهه كانت يقوم أيضاً في معبد ملكارت في صور. وفي معبد اوروشليم، وفي مسعى لإزالة كل بقية رمزية تنقض روح تعاليم الرب، استبدلت المسلتان بعمودين على قاعدتين برونزيتين، جاسثين Jachin وبواز Boaz ويمكن الى اليوم مشاهدة ثلاث مسلات من هذا النمط وسط آثار عمريت».

ويصعب على المرء اليوم بالتأكيد تحليل النوع الاخلاقي الديني القائم في روح ونسيج عبادة البعل الفينيقية القديمة: «كان بعل وعشتار ومعهما الالهة الوثنية كلها يقفون امام جرائمهم الوحشية الاكثر سوءاً».

ففي نظامهم الديني، أو في الممارسات التي تكوّن هذا النظام أو تتبعه، تجتمع على نحو بدائي، ولكن رمزي، مجموعة من الطقوس المرعبة، منها المآدب والبغاء على شرف المقدس، وكما هو الحال في سائر الأديان الطبيعية القديمة وينقل لينورمانت عن كريزور قوله «ويسكت هذا الدين المشاعر السامية كلها في الطبيعة الانسانية، ويحقّر عقل الانسان بطقوس فجة، متهتكة، وعبثاً نبحث في هذه الممارسات عن معنى للخير». وتضحيتهم بالبشر وسواها لبعل مولوك Moloch كانت تعقبها احتفالات ومآدب يتعاقب فيها على نحو فطري قبيح الحزن الشديد والفرح الشديد. ولطالما وصف المؤرخون القدامى الفينيقيين بالعناد والاسترقاق، بالقسوة والوحشية، بالفساد والتهتك. بالانانية والنهب وبالخلو من الايمان. لا نستطيع بالتأكيد ألا أن نتذكر هذه الخصوصيات المعتقدية والسلوكية بينما نتقدم جنوباً بين مدن الساحل التي بناها هذا الشعب، او بين مواقعه الجبلية الحصينة وهياكله الكثيرة.

والى الشمال تماماً من المسلات المخروطية الثلاث في عمريت يقوم معبد لافت محفور في الصخر في «عين الحية» والاسم يناسب المكان تماماً. اذ لا مكان آخر في سوريا تملأه الأفاعي السامة أكثر مما هي عليه في هذه الهضاب الاروادية. ففي كل نقلة لنا في المنطقة كانت تطالعنا روايات هذه الافاعي السامة. وفي واحدة منها بينما كنت اتقدم المرافقين سمعت خربشة بين سنابل القمح، ثم جفل حصاني الى الخلف لأرى أفعى ضخمة في سماكة الزند وطول يزيد على القدمين تبتعد ببطء نحو رجمة قريبة، وقبل أن يصرخ الولد المرافق لنا « انتبه أفعى». لقد كانت تلك أحدى أكثر أنواع الأفاعي سماً وخطراً. ومن المفيد هنا أن نذكر ما رواه ميشو في تأريخه للصليبيين أنه حينما وصل الجيش الصليبي الى ضفة النهر الكبير على بعد حوالى ١٥ ميلاً جنوب عمريت، بقي هناك مخيماً لثلاثة أيام هوجم في أثنائها من أفاعي سامة تدعى تارنتا Tarenta حيث لسعة الواحدة تجلب الموت مما أثار دهشة الجنود الصليبيين وهلعهم؛ إلا أن ما كان اكثر دهشة هو طريقة معالجة السكان المحليين لهذه الحالات: كان العلاج للسع الأفعى على قدر من القذارة مما يذكر بعبادات البعل البائدة التي كانت تمارس في هذه السهول بالذات.

والى الشمال الشرقي من العين هيكل صخري يبلغ طوله حوالى ربع الميل ينتهي في اعلاه الى حوالى ٩٠ قدماً قبل أن يهبط في درجات نحو الاسفل. يتألف الهيكل المحفور في الصخر من قاعة مساحتها ١٥٠ قدماً مربعاً، حفر منها ٩ أقدام تحت الارض ومفتوحة للناحية الشمالية لتشكل ممراً نحو ساقية الماء. وفي وسط الفتحة الشمالية حجر صخري مربع محلي المصدر مساحته ١٦ قدماً ونصف مربعاً وارتفاعه ٩ أقدام. وتقوم على الحجر أربعة أحجار أخرى: واحدة على كل جانب واخرى خلفها، وفوقها حجر بمثابة سقف صخري مساحته ١٤ × ٢/١ ١٢ قدماً مربعاً، وسماكته ٧ أقدام. قعره تجاه الاسفل بما يشبه التعريشة او التاج. وداخل هذه المشكاة او التجويفة كان هناك في الماضي، كما يبدو، تمثال لأله او معبود الاروادين وحول الآثار تلك بقايا نواويس وجدران واشارات الى مدينة قديمة. والمكان جميل اجمالاً فالى جنوبه يمتد سهل عكار الأخضر بمحاذاة الخليج والى مسافة بعيدة وصولاً الى مدينة طرابلس وجزرها على بعد حوالى ٣٠ ميلاً. ووراءه الى الجنوب الشرقي، ترتفع القمم الثلجية الشاهقة لشمال لبنان بينما تتلألأ غرباً مياه بحر الروم الزرقاء (البحر الأبيض المتوسط اليوم).

على مسافة ثلاث ساعات جنوبي طرطوس تقوم عين ماء رائعة تنبع من ثغر لا يبعد اكثرمن عشرين قصبة عن الشاطئ تجري غزيرة قبل أن تلتحق بالبحر ويعرف المكان بـ «عين الهيشي Ain el Hishi ». وقد اشتهر طويلاً بكونه ملجأ للعصاة وقطاع الطرق الذين يجدون في مغاور الشاطئ مخابئ لهم تمكنهم من الانقضاض على طرائدهم ثم العودة الى ملاجئهم. وكان رجال البريد التركي والمسلمون هدفاً دائماً لغارات قطاع الطرق النصيريين في هذه المنطقة الوعرة. إلا أن ما يلفت هو ان تاجراً يونانياً كان يبني في أثناء مرورنا بالمنطقة بيتاً له هناك، بهدف الاقامة. كما أننا صرفنا ليلة لنا في ذلك المكان من دون ان نصادف ما يعكر صفو مقامنا. والأكثر إثارة من المنطقة هم سكانها أنفسهم والذين يسمون النصيرية. فهم يتحدرون عن الكنعانيين القدامى وهم لا ينتسبون لليهودية او النصرانية او الاسلام بل يحتفظون بعبادة الكنعانيين للنجوم والبعل، مع شعائر سرية تقام على التلال العالية، الى إضافات أخرى دخلت من الأديان الكبرى الثلاثة. وإلههم على حد قولهم هو عليٌّ وحينما يقولون الله فهم يعنون علياً. ولهم احتفالات في الختان تقدم فيها، الخمرة في شعائر خاصة سرية ومقدسة، وتعاليمهم هي أساساً مجموعة تجديفات ولعنات ضد الفرق الأخرى. أما اسمهم الحالي فهو مشتق من ابي شعيب ابن نصير ٨٦٠ م. وقد بدأوا كجمعية سرية مع إشارات سرية ومفاتيح اصطلاحية خاصة بهم. وحينما يموت الواحد منهم فالشائع عندهم هو الايمان أن المريخ أو جوبيتر قد نزل فأخذ روحه الى السماء لتغدو نجمة في درب التبانة. وهم يؤمنون بالتناسخ، او انتقال الأرواح، ولكن على طريقتهم إذ إنهم يعتبرون أن أرواحاً تذهب الى الحمير، وأرواحاً الى الخنازير، وأخرى الى القرود، بينما تنتقل ارواح الموتى النصيرية الى أشخاص آخرين. وليس مسموحاً للنساء عندهم الإطلاع على تعاليمهم السرية ولا حتى حضور احتفالاتهم أو شعائرهم المقدسة. فقد خلق الشيطان من آثام الرجال والنساء من آثام الشيطان. والروح تترك الجسد من الفم ولهذا يثير الاعدام شنقاً الرعب. ولهذه الأسباب وتحت دعوى أنهم كفرة، شن عليهم الاتراك حملات قمع، وباساليب بالغة الوحشية أحياناً والى حد الإفناء. ويصرّ بعض الكتاب المحليين، ومن قبيل المبالغة والاثارة، أن شيوخ النصيرية يقدمون نساءهم لضيوفهم حينما يزور بعضهم بعضاً لكننا لم نجد أي تأكيد لذلك عند أكثر من شاهد ثقة. وعلى المستوى الفيزيولوجي، السلالة النصيرية نبيلة ولكثير من شيوخهم طلة رائعة، كما أن صبيانهم وبناتهم يتلقون اليوم العلم في المدارس المسيحية في اللاذقية وسواها، كما سائر اطفال العرب السوريين، لا يقلون عنهم ذكاء او قدرات.

لم نصادف جنوب طرطوس غير قرى نصيرية قليلة أما بعد دخولنا المنطقة اللبنانية، بعد طرابلس، فلم يكن هناك غير مسلمين ونصارى ودروز.

بعد عبورنا سهل عكار الفسيح نصل الى تل عرقه Arka، على نهر يحمل الاسم عينه حيث آثار الأركيين Arkites، والتل، كما يبدو، هو موقع العاصمة الاركية القديمة. وتتناثر في الوادي الصخري الذي يجري فيه نهر عرقه، وعلى المنحدر بقايا أعمدة ونواويس وآثار أخرى.

وعلى مسافة أربع ساعات من هذه البقعة تأخذنا الطريق الساحلي عبر نهر البارد الى «عين البداوي»، أو «شيخ البداوي» والمعروفة بـ «جامع السمك المقدس» ففي الطرف البعيد لسهل طرابلس الخصب الذي يتصل بمنحدرات خضراء جميلة، تقوم بركة مياه كبيرة تصبّ فيها عين ماء حلوة نقية وقريبة. يبلغ قطر البركة حوالى ١٠٠ قدم وعمق الماء فيها بين قدمين وثلاثة أقدام، وينتشر فيها بكثافة سمك، سمين، ملونٌ، يصل طول بعضه الى ٢٠ انشاً، ويطعم السمك زوار المسجد القريب الذين يتقاطرون من طرابلس، على بعد ثلاثة أميال او من المناطق القريبة، لزيارة ضريح «شيخ البداوي» في المناسبات او للتبرك بالسمك المقدس. ويشيع الاعتقاد أن أرواحاً بشرية تسكن هذه الاسماك وقتلها جريمة بالتالي. ومن الاعتقادات المتصلة بذلك أنه في أثناء حرب الاتراك مع روسيا اختفى عدد غير قليل من هذه الاسماك وغار تحت البحر لمحاربة الروس. وفي اعتقادهم كذلك أن من يأكل من لحم هذه الأسماك يموت سريعاً. إلا أنه في وسعي التأكيد وبعدما أكلت من لحمها في بيت عائلة ارثوذكسية ارستطقراطية في طرابلس قبل عشرين عاماً أن الاعتقادات تلك ليست غير خرافات.

أما الرحلة بعد ذلك نحو طرابلس نفسها، فأمر يبعث على البهجة والسرور. فالطريق معبّد بالحصى، حسن الرصف؟ ويشق السهل الفسيح بين بساتين الزيتون الى اليمين، لجهة البحر، وبساتين التين والتوت الى اليسار. وإذ نتقدم اكثر بدت بيوت طرابلس أمامنا بسقوفها البيضاء ومناراتها ترتفع رويداً رويداً. ومع وقع كانت حوافر أحصنتنا تضرب في طريق باب التبانة المعبدة، كنا اذذاك على مدخل طرابلس، وكان كل ما هو أمامنا يوحي أننا إنما ندخل مدينة ذات خصوصية شرقية واضحة.

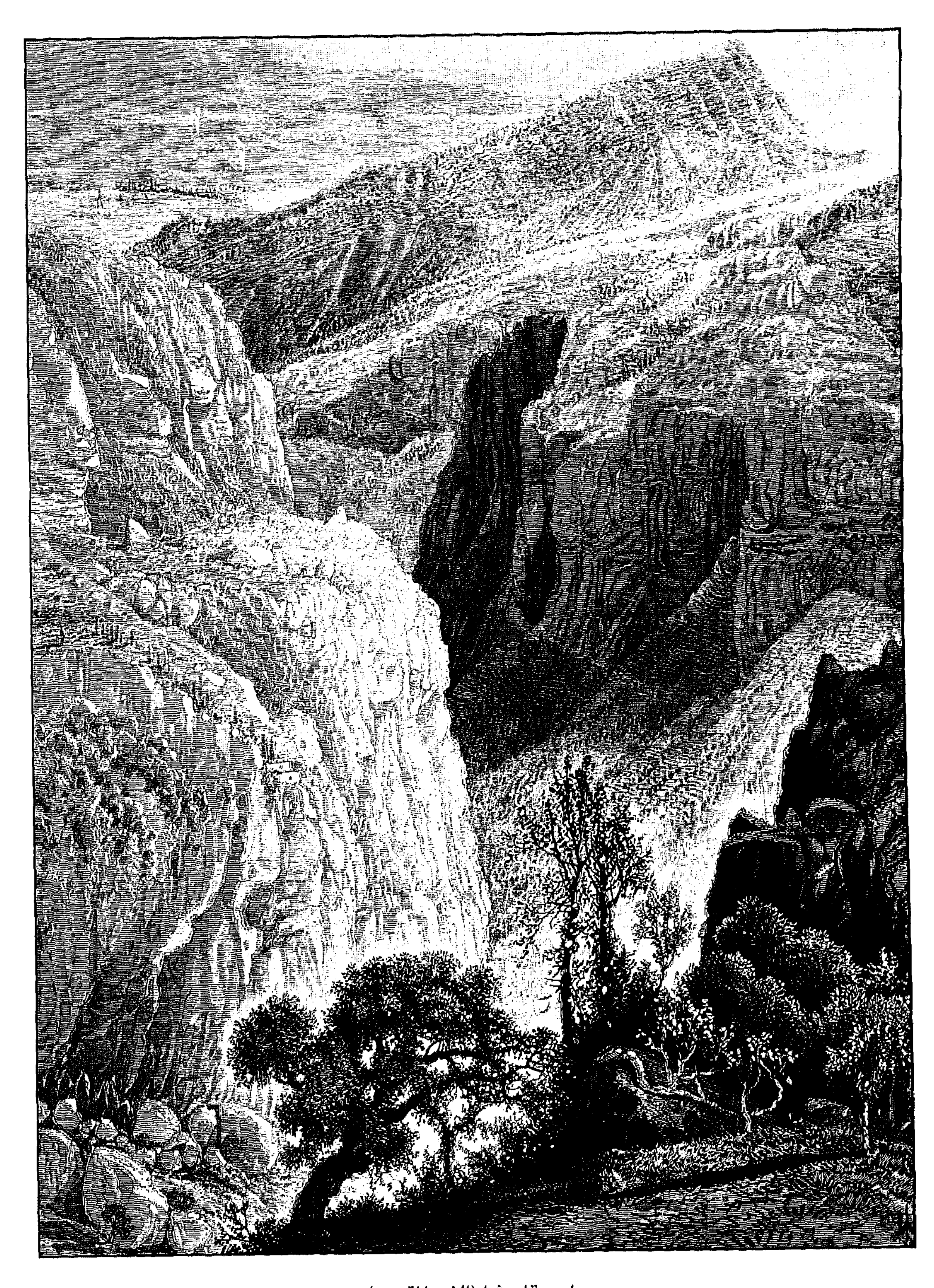
لايسع الداخل الى طرابلس اليوم إلا ان يقف مشدوهاً أمام هذا الانتقال السريع والغريب من الخانات القديمة والمزارات الاسلامية والاسواق المقببة وقوافل سائقي الجمال البدو، الى الحافلات اللماعة المزخرفة على خط ترامواي طرابلس، والذي يبلغ هاهنا آخر محطة له شرقاً. إنه التقاء الشرق بالغرب او سوريا الماضي بسوريا المستقبل.

انشئت طرابلس في حوالى سنة ٧٠٠ قبل الميلاد الا أن تاريخها جرى على تقطّع. فقد أقام الحاكم ديميتروس الاول قصراً له هناك ثم تبعه عمّاله الرومان الذين اقاموا قصوراً جميلة وانشاءات أخرى. لكن الزلزال عاجل طرابلس آنذاك فازال معظمها ولم يبق غير القليل من المدينة القديمة. ثم كانت نهضتها الكبرى مع الفتح الاسلامي. ومع مطلع الحملات الصليبية على الشرق، لم يتمكن الصليبيون من دخول المدينة الا بعد خمس سنوات من احتلالهم لانطاكية سنة ١١٠٤. مع دخول الجيش الصليبي المدينة جرى تدمير احدى أعظم مكتبات العصر، التي كانت تضم اكثر من مئة الف مجلد، الى تحف ومخطوطات نادرة من ثقافات الفرس والعرب والمصريين واليونان. كان في المكتبة على الدوام اكثرمن مئة ناسخ يعملون على استنساخ المخطوطات القديمة. وكان قاضي المدينة يرسل عماله الى سائر البلدان يحصلون منها على أهم الكتب وأكثرها ندرة. وما حدث بعيد الدخول الصليبي أمر مروع. فقد دخل أحد الرهبان التابعين للكونت برنار دي سان جيل غرفة في المكتبة جمعت فيها نسخ كثيرة من القرآن فما كان منه إلا أن أفتى أن مكتبة طرابلس لا تضم غير كتب محمد. وعليه فقد جعل ذلك الصرح العلمي الضخم طعماً للنيران. ويجعل ابن ابي طي عدد مجلدات المكتبة ثلاثة ملايين، وأن النصارى قد فعلوا بمكتبة طرابلس ما فعله العرب بمكتبة الاسكندرية بعيد دخولها. الا أن النوباري يثبت عدد مجلدات مكتبة طرابلس في حدود المئة الف. والى ذلك، يروي المؤرخون أنه حين دمر السلطان قلاوون المدينة سنة ١٢٨٩ كان فيها ٤٠٠٠ نول لنسج الحرير، ومنها شهرة زنّار الحرير الطرابلسي المعروف الى اليوم. دعا العرب المدينة طرابلس، وهو اسم مشتق من اسمها القديم تريبولي Tripoli اما الاتراك فقد دعوها «لوباك شام» أو دمشق صغيرة وهي تسمية في محلها تماماً.

تقع طرابلس عند الطرف الشرقي لسهل مثلث الشكل عرضه حوالى الميل الواحد وتستند قاعدته الى هضاب الكورة التي ترتفع من ١٠٠ الى ٣٠٠ قدم، لتبلغ أقدام سلسلة جبال لبنان.

يجري نهر قاديشا المقدس، وقبل ان يبلغ طرابلس من بشري على حافة أرز لبنان ويجري لاثني عشر ميلاً في واد رهيب ثم يتلّوى بين هضاب أقل وعورة ولثمانية عشر ميلاً، الى أن ينتهي في مجرى يضلله شجر كثيف يصل به الى سهل طرابلس حيث تنتشر المدينة على ضفتيه. ولشدة هديره في الشتاء دعاه المسلمون «نهر ابو علي»، يجري وسط المدينة وعليه جسران حجريان بالقرب من الجسر الحديث المخصص لمرور الترامواي. وعلى التلال الواقعة على الجانب الايمن من النهر تقوم منازل متواضعة للفلاحين الموارنة، أما القسم الآخر بين النهر وباب التبانة فيسكنه المسلمون. يقوم الجزء المسيحي من المدينة في أقصى شمال النهر، بينما يمتد الجزء المسلم من طرابلس وصولاً الى بوابة الحدادين الجنوبية. ويتألف سكان طرابلس من ١٢ الف مسلم و ٤٠٠٠ روم ارثوذكس، و٥٠٠ ماروني، وأعداد صغيرة من اليهود والانجيليين والروم الكاثوليك. وتعيش كل طائفة في حي منفصل؛ وكذلك تحتل كل تجارة، كما في دمشق سوقاً مخصوصاً بها.

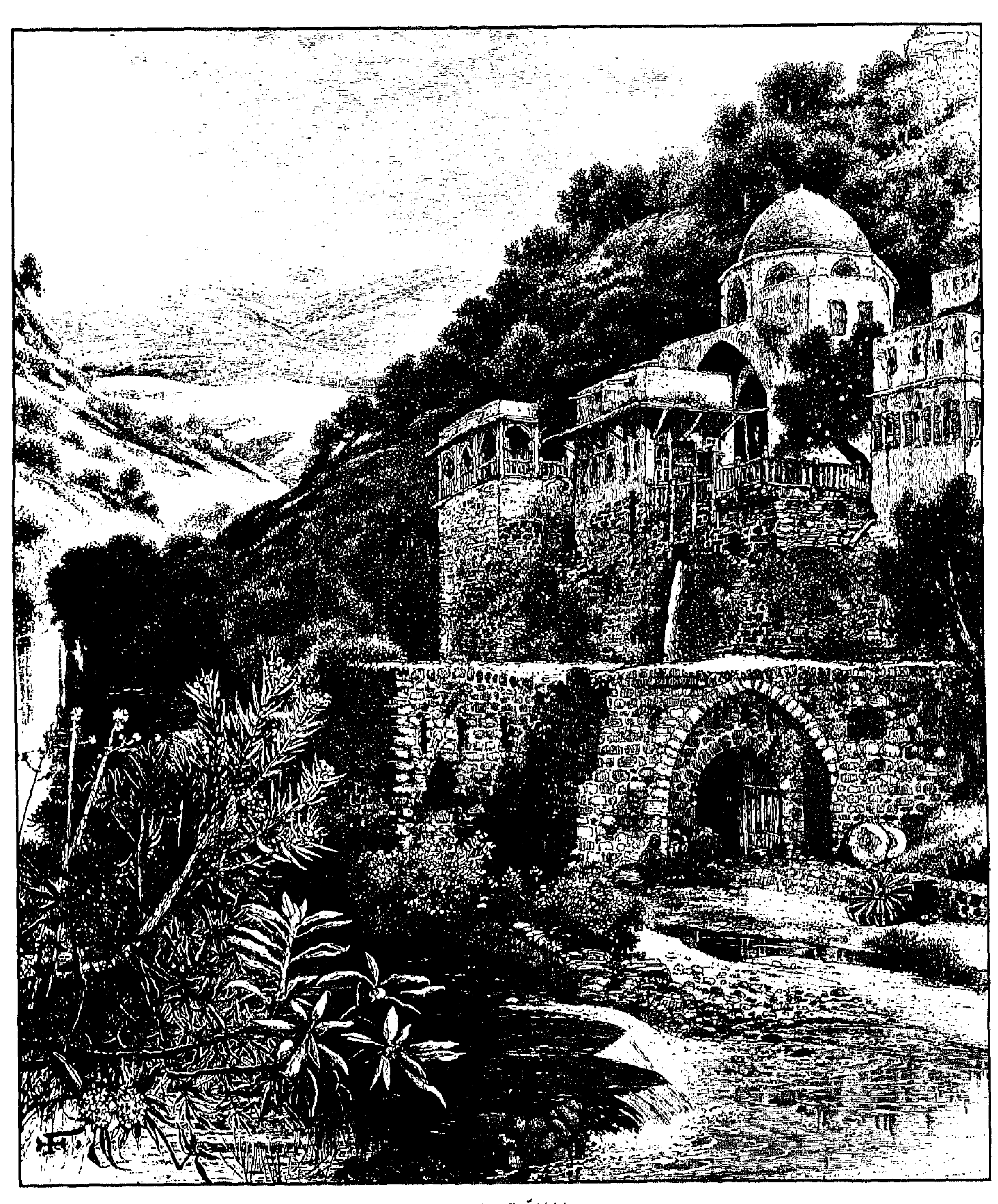
وعلى بعد خمسة أميال الى الشمال الشرقي من طرابلس تجري المياه من قرب زغرتا في قناة ثم تقطع نهر قاديشا على بعد ميل من المدينة في قناطر البرنس(قناطر الامير) وهي التي انشأها ريمون دي تولوز الذي كان لفترة كونتاً على



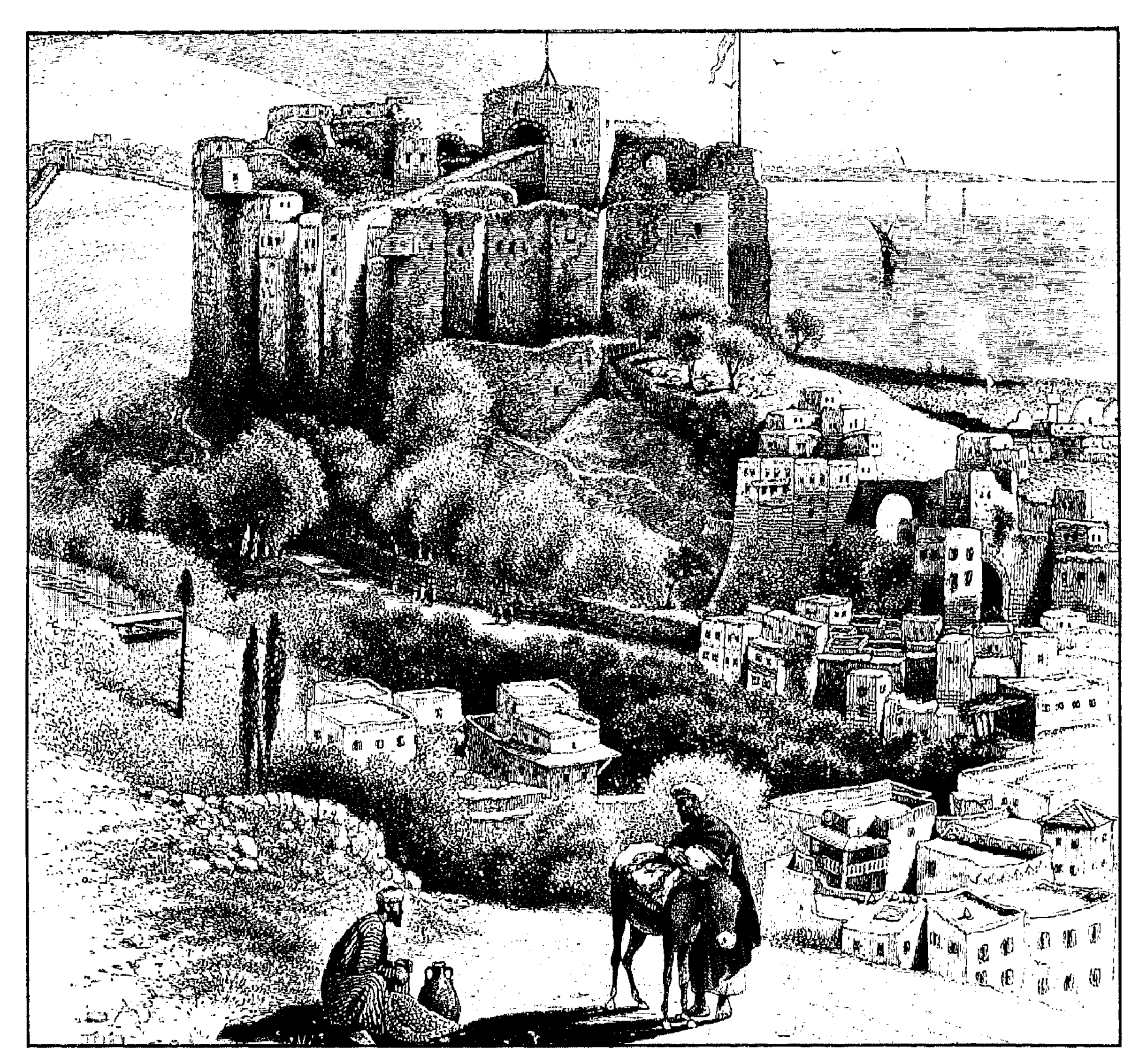
وادي قاديشا (النهر المقدس)
وفي البعيد البحر المتوسط وميناء طرابلس

طرابلس أيام الحكم الصليبي. ثم تصل المياه الى الخزان المركزي الذي يقوم في غرفة صغيرة تحت القلعة، فيها ثقوب صغيرة في قعرها، قطر الواحد منها بضعة إنشات، توزع فيها مياه نظيفة تجري في أنابيب أرضية الى سائر أجزاء المدينة. وهكذا ففي كل منزل وجامع في طرابلس بركة تصب فيها المياه ليل نهار، مما يرطب هواءها وينعش جوّها صيفاً لكنه يغرقها بالسيول شتاء. ومعظم بيوت المدينة مبني من حجارة رملية صفراء مقتطعة من صخور الشاطئ بينما قليلها فقط مبني من حجارة الصخر العادية. وأرضيات معظم المنازل ترابية رطبة وبعضها مرصوف بالبلاط الصخري، وكل السكان ينامون ليلاً في الطبقة الثانية من منازلهم. وشوارع المدينة في معظمها حسنة الرصف، تعلو بعضها السقوف ذات القباب، ولتبدو احياناً اشبه بسراديب، كما حال بعض اسواق بيروت وصيدا الداخلية. وتلفت الاهتمام عتبة صخرية فوق بوابة «الحمّام الجديد» في طرابلس حيث الحجر الوسطي في قنطرة العتبة والحجران على الجانبين مع حجر يتدلى من الوسط فوق الباب منحوته جميعها في حجر ضخم واحد. وآثار العمارة العربية في طرابلس لافتة وتثير الاهتمام وبخاصة القناطر والبوابات.

وبين آثار طرابلس اللافتة قلعة ريموند دي تولوز التي مازالت في حالة حسنة الى اليوم وقد جعلها مدحت باشا اخيراً سجناً تابعاً للولاية. ويمكن أن تكون القلعة قد انشئت قبل العهد الصليبي، ولكن ريموند دي تولوز أعاد ترميمها. والى الخلف من القلعة نزولاً نحو مجرى النهر، وعلى مسافة بضع دقائق فقط بين الشجر والزهر والمياه الدافقة، ودار الملاّوية، وبساتين الليمون بينما ثلوج لبنان في البعيد تلامس الغيم. والى الغرب يمتد السهل فسيحاً يحاذي زرقة البحر تقطعه عند الشاطئ المدينة البحرية، او الميناء والابراج الخمسة على امتداد الشاطئ الشمالي؛ وسقوف المدينة البيضاء والقباب والجدران والاسوار والمنارات تتناثر أمامك أو بين يديك. وفي وسع زائر طرابلس، إن اسعفه الحظ فأقام في نزل عمره سنوات وسنوات، ان يمتع ناظريه وعلى الدوام بجمال البناء والبساتين المحيطة الغناء، وينعم بكرم هؤلاء الناس وضيافتهم.



دير الملاوّية، طرابلس
ومن بعيد القمم الثلجية لجبال لبنان، وفي الاسفل مياه قاديشا،
التي تدعى كذلك نهر ابو علي. وعند البوابة
يمكن رؤية دولاب المياه وحجري طحن.



قلعة طرابلس، حصن صليبي قوي
وقد حوّلت الى مركز اداري ايام حكم مدحت باشا على
سوريا، وتقوم على هضبة ضيقة تنحدر غرباً صوب المدينة
وشرقاً صوب قاديشا.

والى الخلف من القلعة نزولاً نحو مجرى النهر، وعلى مسافة بضع دقائق فقط بين الشجر والزهر والمياه الدافقة تصل الى دار دراويش الملاوية، حيث يحيي الدراويش رقصاتهم الدينية المتميزة بعد ظهر نهارات الجمعة وفي مناسبات معينة. ولقد صادف ان رأيت جماعة منهم، الرجال في الساحة بينما النساء في الأعلى خلف الستائر، حيث بدأ ثمانية او تسعة من الدراويش، يرتدون ثياباً واسعة فضفاضة مدهشة، بالرقص والدوران حوالى الساعتين، ولم ينفرط الجمع الا بعد ان سقط الراقصون، واحداً تلو الاخر مغشياً عليهم. وهذه البقعة الخضراء الساحرة هي ملتقى الطرابلسيين في شهر نيسان حيث شذا زهر الليمون وعبق الرياحين يضفيان على المكان جواً ساحراً يصعب على زائره نسيانه.

وتنتشر على امتداد الشاطئ الشمالي بين مصب قاديشا والميناء، أبراج جميلة مبنية بالحجارة تقف كما الحراس

على طول ذلك الشاطئ. والأبراج هي برج رأس النبع، برج السبع، برج التكيّة، برج المغاربية، وبرج الشيخ عثمان. ومن الواضح ان الأبراج يعود بناؤها الى زمن متأخر لكنها تقوم على أسس وقواعد من الغرانيت تعود الى الحقبتين اليونانية والرومانية. الا أن هذه الأبراج تسير بسرعة نحو التساقط والزوال ويجري على قدم وساق سحب حجارتها لأغراض البناء الحديث في طرابلس.

أما سكان الميناء (راجع ص ٥) فهم حوالى ٧٠٠٠ ساكن، معظمهم من الارثوذكس الصيادين، او الغطاسين وراء الاسفنج؛ فيحصلون من ذلك ما يكفي احتياجاتهم الضرورية ويبلغ ثمن الاسفنج المستخرج حوالى ٢٠٠٠٠ جنيه سنوياً.

وتمر في بوابة الميناء سكة ترامواي طرابلس الفولاذية قبل أن تتجه نزولاً مع شاطئ البحر.

ويفخر الطرابلسيون كثيراً بحدائقهم الجميلة وبساتينهم المثمرة ومياههم المترقرقة، وبمناظر البحر والجبل الخلابة. كما أن نساء طرابلس السوريات الارثوذكسيات على قسط وافر من الجمال، والكثيرات منهن قد حصّلن مقداراً عالياً من العلم في المدارس المسيحية، ويتمتعن بذكاء لافت كذلك تقدم مدارس الارسالية الاميركية تعليماً عالياً للصبيان وللبنات، وتُكسب الشباب من الجنسين مستوى تعليمياً متقدماً وللاخوات الفرنسيات للاحسان، مؤسسة للبنات. كذلك افتتح الروم الارثوذكس مدارس عدة، كما أسس المسلمون جمعية «المقاصد الخيرية الاسلامية» لتوفير المدارس للصبيان والبنات. ويبقى أنه اذا اكتمل تنفيذ الخط الحديدي المقترح من طرابلس الى حمص ووادي الفرات Eu-phrates، فان ذلك كفيل بجعل طرابلس أهم ميناء تجاري على الساحل السوري قاطبة.

ومن طرابلس الى سلسلة جبال لبنان التي تمتد حوالى المئة ميل، والتي هي ثروة جيولوجية ونباتية واقوامية وأثرية لا تقدر بثمن. فالجبل اللبناني بهضابه العالية وقممه الشاهقة، بثرواته وبخيراته الجوفية، بينابيعه وشلالاته البديعة بأرزه الجليل، بكرومه وزيتونه، بآثار هياكله وعماراته القديمة والتي لا يُعرف تاريخها، بأديرته، وكنائسه وخلواته (معابد الدروز)، بقصوره، بتركيبه الجيولوجي، بقراه الالف والمائتين وبسكانه الشرقيين الاقحاح يؤلف بفعل هذه العناصر جميعها حقل اهتمام ودراسة واستكشاف لا ينضب لعابر السبيل كما للدارس الأكاديمي المتخصص.

ولبنان أو جبل سوريا الأبيض يشتق اسمه من إشراقة بياض صخوره الكلسية، وقد قسم العرب لبنان الى ثلاث مناطق طولية: السهل، والوسط، والجرد.

السهل هو المنطقة الساحلية، او حزام النخيل يتدرج من مستوى سطح البحر الى ارتفاع ١٥٠٠ قدم وتقع في هذا الحزام مدن فينيقيا الحديثة، وهي طرابلس، وجبيل، وبيروت، وصيدا، وصور، وعكّا. وتربة هذا السهل هي الأكثر خصوبة، ومناخه معتدل ملائم أكثر فصول السنة ومناظره الطبيعية خلابة، وتكثر فيه زراعات النخيل والزيتون والتوت والليمون والصنوبر والمشمش والسنديان والخوخ والعنب والزنزلخت، الى الخضار كافة وعلى مدار السنة.

والوسط، أو المنطقة الوسطى أو ما يمكن تسميته بحزام الجوز، يتدرج من ارتفاع ١٥٠٠ قدم الى ٤٠٠٠ قدم فوق سطح البحر. وتتألف هذه المنطقة من هضاب عالية معروفة بقراها الكثيرة المتناثرة وبمعامل حريرها وأديرتها وفي هذه المنطقة يقيم معظم السكان. اما مناخها فلطيف معتدل، صيفاً شتاء ولعله الأجمل والانسب في العالم.

والجرد أخيراً، وهو حزام من القمم الجبلية الجرداء عموماً يرتفع من ٤٠٠٠ الى ١٠٠٠٠ قدم فوق سطح البحر. ويمكن تسميته بحزام الأرز، اذ فيه غابة الارز والكثير من الينابيع الثلجية الباردة العذبة، الى مساحات جرداء واسعة وتمتد جبال هذا الحزام الى أكثر من مئة ميل من الشمال الى الجنوب. وبالرغم من ندرة الغابات في هذه القمم العالية، الا أنها تطل على بعض أجمل مناظر العالم.

كان لبنان ينقسم، قبل مذابح ١٨٦٠ الى قسمين: لبنان الشمالي يحكمه قائمقام مقام ماروني، ولبنان الجنوبي يحكمه الدروز: وكان ذلك ترتيباً دقيقاً موضوعاً بعناية ليضمن العدالة بين السكان والاستقرار في البلاد. لكن الأتراك

كانوا مصرّين على كسر هذا الترتيب الأوروبي فعملوا على ازالته وأحلوا بدلاً منه باشا عثمانياً على سائر لبنان. وكانت نتيجة ذلك حروب ومذابح في دير القمر وحاصبيا وراشيا وفي دمشق، والتي انتهت بتدخل أوروبي مباشر ووضع نظام جديد للبنان يضمن تعيين حاكم مسيحي على الجبل كله تحت حماية الدول الأوروبية الست ويلي الحاكم القائمقامون. وقد جرت العادة على اختيار قائمقام المنطقة من بين أفراد الطائفة المحلية الاكثر عدداً. ومن الواجب الاشارة هنا الى الحاكم الحالي رستم باشا (ثالث والٍ وفق النظام الجديد) لخصائل حسنة كثيرة فيه؛ من كرهه الشديد للرشوة الى عدالته وجهوده في سبيل إعمار البلاد وتمدين السكان وانشائه العديد من الطرق والجسور في جنوب لبنان ووسطه، وهو يعد بالمثل في هذه المنطقه الشمالية غير النائية.

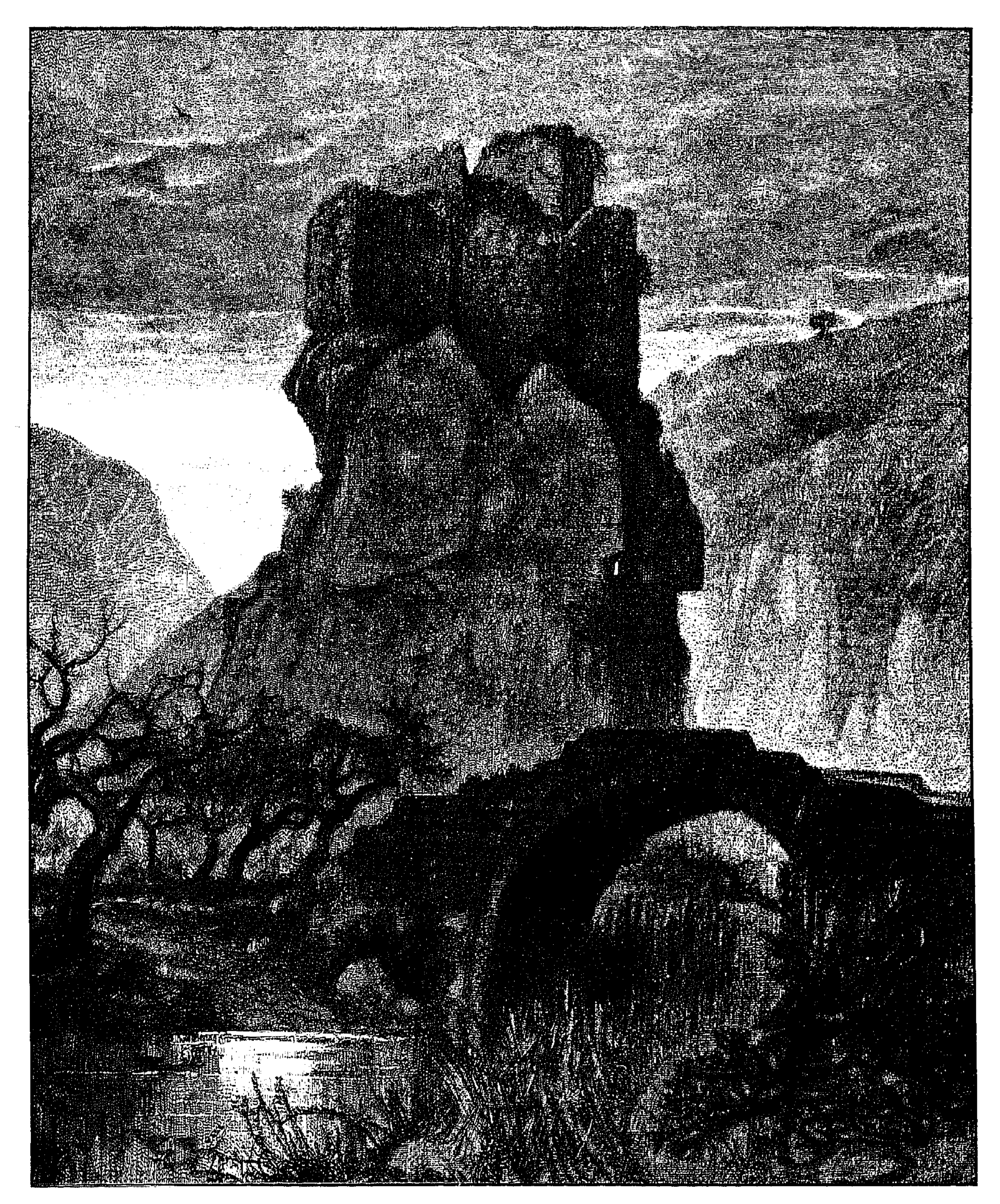
وقبل التحول شرقاً والصعود باتجاه الأرز العالي، تابعنا تقدمنا في محاذاة الشاطئ بين الصخور الكلسية البيضاء لرأس الشقعة لزيارة وادي نهر الجوز وقلعة المسيلحة. تمر الطريق الساحلية التي تصل طرابلس ببيروت في خلال هذا النتؤ الصخري الحاد والذي دعاه الاغريق قديماً ثيوبروسوبون (أو الرأس الجليل). والطريق في جانبه الجنوبي متعرج خطر غير ثابت بل هو يستعين بالممرات التي شقتها سيول المطر والتي قد تتغير من سيل الى آخر او من سنة الى سنة. وفي أقصى طرف هذا المنحدر على الضفة اليمنى من نهر الجوز تنتصب كتلة صخرية مرتفعة، منعزلة متوحدة، دعاها الاقدمون قلعة المسيلحة، أي حصن السلاح او المسلحين وترتبط التسمية بأعمال النهب والسلب التي تجري في هذه المنطقة والتي لا يضاهيها غير وادي القرن الممر الجبلي الشرقي باتجاه دمشق. والقلعة هي أحد المواقع اللافتة في الشرق، ترتفع ككتلة صخرية متفردة عالية فتبدو وكأنها امتداد طبيعي للصخر نفسه، ويحيط بها شجر وارف وخرير المياه.

وانعطفنا بعد المسيلحة نحو سهل الكورة ثم شرقاً باتجاه كوسبا فنهر قاديشا وتابعنا مسيرنا صُعداً نحو اهدن البلدة الجبلية العالية. تقوم إهدن على مرتفع في الجرد ربما بلغ ارتفاع ٥٠٠٠ قدم فوق سطح البحر، وتطل منها على بعض أجمل المناظر في لبنان وفي جوار إهدن تتدفق من نبع مار سركيس مياه عميقة غزيرة عذبة وشديدة البرودة تروي البلدة ومحيطها فتعلو أشجار الجوز والسرو والتوت والصنوبر والسنديان الى الخضار الصيفية والحنطة والبطاطا تزرع بكثافة. واهدن هي جنة الرهبان الموارنة حيث لهم وكما في بشري وحصرون وكسروان، سلطان لا ينازع مع أن صلاحياتهم وحدود سلطتهم قد تقلصت في عهد الحاكم المدني الحالي لتبقى في الشأن الديني حصراً.

لا تتسع هذه الجولة السريعة الى أكثر من إشارة مختصرة الى تاريخ الطائفة المارونية المسيطرة الآن في لبنان. يشتق اسم الموارنة من مار مارون، الناسك الذي عاش في أقصى البقاع قرب نبع نهر العاصي، في القرن الخامس وكان مجلس بيزنطية قد أدان سنة ٦٨١ اتباع مار مارون باعتبارهم أصحاب عقيدة الطبيعة الواحدة، فطردوهم من مدن سوريا وبلداتها، فالتجأوا الى جبال لبنان . وفي سنة ١١٨٢ أعلنوا ولاءهم وانتماءهم الى الكنيسة البابوية، وهم اليوم فخورون جداً باخلاصهم لبابا روما لكن الأمر احتاج يومذاك الى قرنين آخرين اي حتى سنة ١٤٣٨، كي يشمل اعترافهم بسلطة البابا المسائل والطقوس الكنسية. وكهنة الأبرشيات عندهم متزوجون وهم يستخدمون اللغة السريانية في خدمة القداديس في الكنائس. ويدين بطركهم وهو اليوم بولس بطرس مسعد، ويتخذ اسم بطرس بمثابة لقب رسمي، بالولاء المعنوي للبابا شخصياً. وتحت سلطة البطريرك ١٣ مطراناً وألف كاهن، و١٢٠٠ راهب و٧١ ديراً. يبلغ تعداد الموارنة مئتين وخمسين الفاً (٢٥٠٠٠٠) معظمهم أميون والاملاك الشاسعة التي تتبع الأديرة مكرسة لإعالة الرهبان، ويدفع من مردودها لقلة تدير الاملاك. أما عدد الأديرة الاجمالي، ولكل الطوائف، فهو ١١٧ ، وفيها ٢٥٠٠ راهب وراهبة.

وبالعودة الى اهدن نقول إنها قرية لبنانية نموذجية فيها عدد من الدور او المنازل الكبيرة تحيط بالواحد منها بيوت الفلاحين ذات السقوف الترابية. واهدن معروفة بكنائسها ذات الصوت الداوي، بديرها عند مار سركيس، بمياهها الغزيرة، بتنورها البدائي وهو عبارة عن حفرة في الأرض، وبشبانها الأقوياء وصباياها المفعمات بالعافية مع زينة فريدة على الرؤوس وحيث الحجاب الأبيض. ومعروفة كذلك ببيوتها الصغيرة الفقيرة حيث ينام الفلاحون على

الأرض غير بعيدين عن غنمهم وماعزهم، واحياناً في غرفة كبيرة واحدة تتسع للأب والأم وأطفالهما.



قلعة المسيلحة

تقوم على صخر حاد قرب نهر الجوز، في وسط وادي
تملأه الغابات، وتسيطر على الممر المجاور. وكانت الى عهد
قريب ملجأ لقطاع الطرق.

ومن اهدن الى حصرون حيث جمال نسائها وبناتها لافت، بل ان الاكثر إلفاتا فيها هو الشعر الأشقر والعيون الزرقاء.

وبعد مسيرة ساعتين ونصف الساعة نزولاً، فوق ركام من الاتربة والحصى بفعل السيول تمتد شرق أهدن وبمثابة طوق يحيط بسقف تلك الجبال الشاهقة، نصل الى بشري عند الطرف الشرقي لوادي قاديشا. وتعتبر بشري أكبر بلدات المنطقة سكاناً كما أنها عامرة بكنائسها وأديرتها، بمائها وشجرها، وتتفجر الى الشرق منها الينابيع الدافقة التي تغذي النهر المقدس. واذا قيض لك ان تترك بشري وان تصعد اكثر نحو قمة ذلك الجبل فستغدو وجهاً لوجه امام غابة منعزلة متوحدة تضم أشجار الأرز او ما يدعى بأرز لبنان او أرز الرب.

واذا كان مسيرك في نيسان فلا يسعك الا ابطاء الخطى فوق البقع الثلجية المتبقية او فوق الحقول الموحلة وكذا في آب فوق الأرض الجافة المغبرة والمشققة. تضم غابة الأرز تلك ٣٩٣ شجرة، عشر منها او اثنتا عشرة على اتساع ضخم رغم أن أعلى شجرة فيها لا تتجاوز الثمانين قدماً. والشجرات الأثنتا عشرة الضخمة، هي حسب اعتقادات الفلاحين، الرسل الاثنا عشرة. بل إنهم ليؤمنون أن الرب ورسله الاثنا عشر قد جاءوا هذه البقعة وتركوا فيها عصيهم فنبتت أرزات ضخمة في القرية، وفي الغابة معبد ماروني صغير، كما ان السلطة الوحيدة على الغابة المقدسة هي للبطريرك الماروني. وتشيع الأوساط الكنسية الاعتقاد أن من يقطع شجر الارز تعاقبة العناية الالهية بالمرض، ولا يسع المرء الا ان يبتهج حين يرى أن واحدة على الأقل من بين الآف الأساطير التي تملأ سوريا تتضمن فائدة عملية للسكان، وتتمثل بالمحافظة على تلك الاشجار الثمينة*، وهناك ما يكفي من الأدلة للافتراض أن سلسلة جبال لبنان العالية كانت في وقت ما مغطاة بغابات الأرز. ولقد اتيح لنا زيارة إحدى عشرة غابة أرز في غير بقعة من هذه الجبال:

١ ـ غابة «ارز الرب» فوق بشري، ٣٩٣ شجرة أرز. ٢ـ غابة صغيرة عند نبع إهدن ٥٠ شجرة. ٣ـ الغابة الكبرى بين الحدث ونيحا تضم عشرات ألوف الأشجار وتمتد على مسافة ١٢ ميلاً مربعاً. ٤ ـ غابة أصغر حجماً جنوب ذلك الموقع، ٥ ـ أشجار ارز متناثرة فوق دوما. ٦ ـ غابة عين زحلتا، ١٠ الآف شجرة قطعها مراد اكتيل، ويجري استنباتها من جديد. ٧ ـ غابة اصغر عند منحدر المدق El Meduk ٨ ـ مجموعة صغيرة قرب قلعة البزات Bizzet. ٩ ـ الغابة الجميلة عند «معاصر الفخار» تضم ٣٠٠ شجرة بعضها ذو أحجام ضخمة، ١٠ ـ غابة جرد الباروك وتضم آلآف الاشجار. ١١ ـ غابة الباروك الشرقية وتضم ٢٠٠ شجرة.

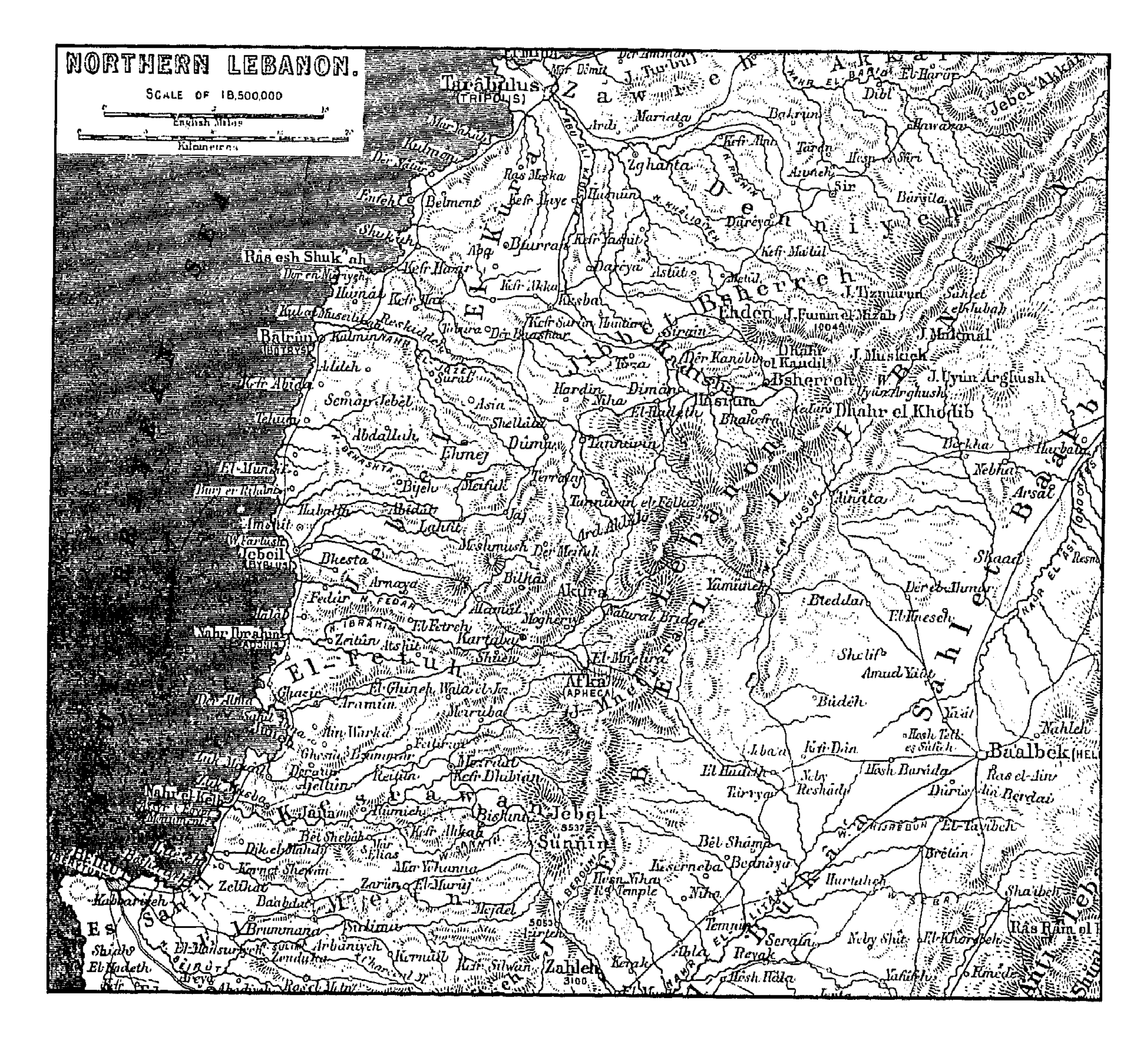
أما أول ذكر لأرز لبنان في التاريخ فيرد حينما ابتنى سليمان لنفسه قصراً من خشب الارز (صموئيل) ثم أمر ان يبنى الهيكل ايضاً من خشب أرز لبنان فعمل ٤٠٠٠ حطاب في الجبال على قطع الاشجار التي كانت تسحب بحراً من جبيل الى يافا.

وفي سنة ٥٣٦ قبل الميلاد استأجر زروبابل Zerubbabel فينيقيي صيدا وصور «لجلب خشب شجر الأرز من لبنان الى بحر جوبا Joppa؛ كذلك استخدم الأرز قديماً في صناعة السفن وفي اقامة هياكل وتماثيل للالهة. وبعد انتصار حملات Tigath pilsner على Khatti والحيثيين واخضاع كرشميش، زار لبنان كيله شرغات Kileh shergat. للحصول على شجر الأرز لتزيين المعابد والقصور وهكذا أزيلت تقريباً غابات أرز لبنان قبل حوالى ٣٠٠٠ سنة من قبل ملوك البلدان المجاورة، الى درجة أن الجبال العالية تعرت تقريباً من غاباتها وتكفل بالباقي قطعان الماعز وإهمال الفلاحين الأمر الذي قضى على فرص استنبات غابات جديدة. واذا لم تبادر حكومة لبنان الى اتخاذ خطوات عملية لحماية الغابات القليلة المتبقية فان الجبل بأكمله مهدد بأن يفقد ثروته الحرجية الجميلة.

يعود التكوين الجيولوجي للبنان الى العصر الثالث، العصر الطباشيري، مع طبقة من الصخري الرملي الهش تمتد

* من مآثر رستم باشا تسيجه بحائط حجري حماية لها.

من اقصاه الى اقصاه، تقطعها بين الحين والحين صخور وشقوق بركانية. وفي الصخر الرملي طبقة خفيفة من الفحم الحجري جرى استخراج بعضه في موقع بالقرب من بلدة قرنايل في المتن شرقي بيروت. ووجد البروفسور لويس من



خارطة لبنان الشمالي

كلية بيروت الكلس في غير بقعة ومكان ووجد في مجدل شمس على سفوح جبل حرمون بصيلات جوراسية تحتوي الامونيات المتبلور وغيره وبكميات كبيرة .

كانت الطبقة الصخرية في لبنان، خلال التاريخ عرضة لاضطرابات جيولوجية داخلية عنيفة، بحيث يمكن ملاحظة حدة زاوية انحنائها في أكثر من مكان. ففي عريض اكلوك* Akluk قمة تدعى جبل Akluk يبدو من بعيد كما

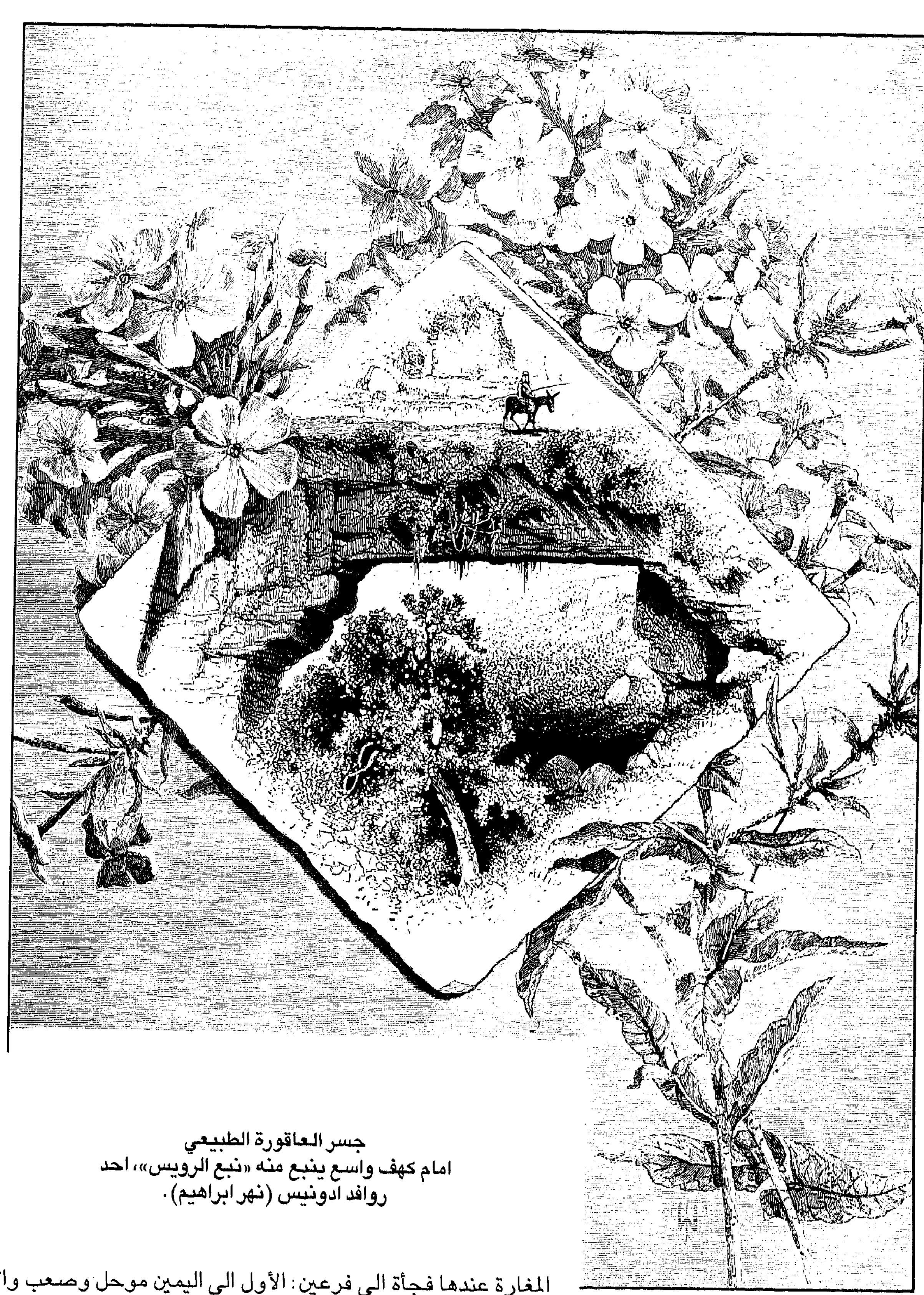
* يرجح انه اللقلوق [م]

لو كان حصناً بناه بشر. واذا نزلنا غرباً، ثم الى الجنوب الشرقي، نصل بعد حوالى أربعة أميال الى العاقورة عند نهاية وادٍ عظيم هو وادي المحجرية وفيه بعض النقوش. والى الشرق من العاقورة يمكن مشاهدة حائط صخري يرتفع حوالى ١٠٠٠ قدم وينشق ليفتح طريقاً باتجاه الشرق وأخرى الى عين الرمة والأرز وبعلبك عبر اليمونة. والعاقورة بلدة جردية صغيرة إلا أن جانبي الوادي تملأهما الخضرة والمزروعات الصيفية فيكثر الجوز والتوت والاشجار المثمرة الأخرى، الى حقول قمح وشعير.

وعلى بعد نصف ساعة جنوباً من كعب ذلك الحائط الصخري الهائل المعلق فوق الوادي تصل الى جسر العاقورة الطبيعي وتحته كهف طبيعي. نشأ الجسر من سقوط صخر عظيم كان في وقت ما سقفاً لمدخل الكهف ثم انفلت ليغطي الآن قناة نبع الرويس التي تنبع من داخل المغارة. تركنا أحصنتنا على الجسر تحت الحائط الغربي، وحملنا عصينا وتسلقنا الدرج الصخري الذي يوصل الى مدخل المغارة ثم دلفنا الى الداخل مستعينين بمصابيح. يعلو سقف المغارة بين عشرة وعشرين قدماً وأمكن لنا أن نسير فيها الى مسافة ٤٠٠ قدم، اي الى النقطة التي تنشطر

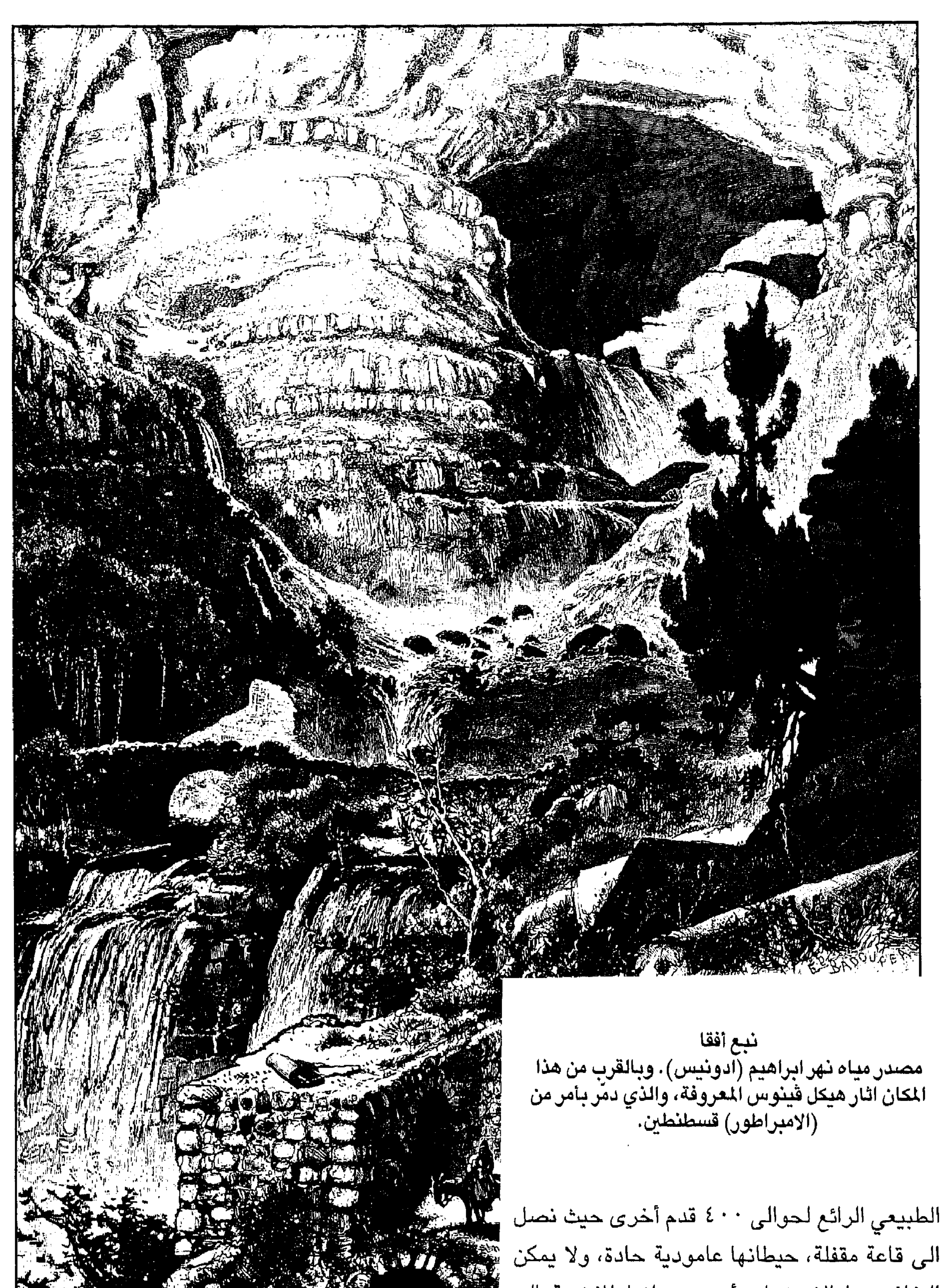


شير العاقورة، في وادي المغيرية، لبنان
وقد زرعت كل زاوية يمكن زراعتها في الوادي،
وتملأ جنباته الاشجار المثمرة وحقول القمح.



جسر العاقورة الطبيعي
امام كهف واسع ينبع منه «نبع الرويس»، احد روافد ادونيس (نهر ابراهيم).

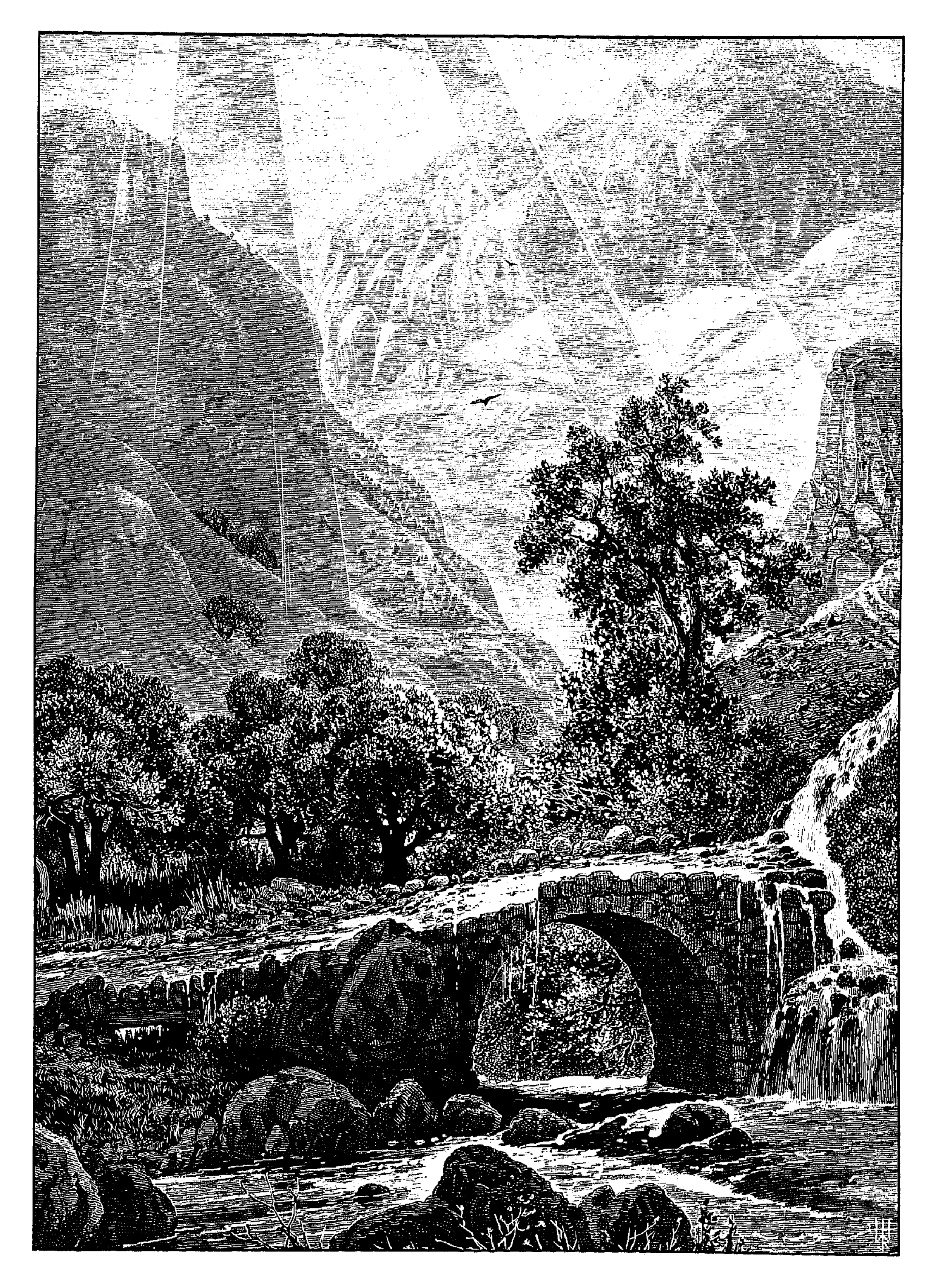
المغارة عندها فجأة الى فرعين: الأول الى اليمين موحل وصعب والآخر الى اليسار نظيف تحيط به من الجانبين وتعلوه اقواس وزخرفات واشكال كأنما نحتت من الشمع، وداخل المغارة ساقية ماء تجري صافية كالبلور والى الحد الذي جعلني أدوس في بركة في عمق قدم واحد معتقداً أنها جافة. ونكمل طريقنا بين جنبات هذا المعرض



نبع أفقا
مصدر مياه نهر ابراهيم (ادونيس). وبالقرب من هذا المكان اثار هيكل فينوس المعروفة، والذي دمّر بأمر من (الامبراطور) قسطنطين.

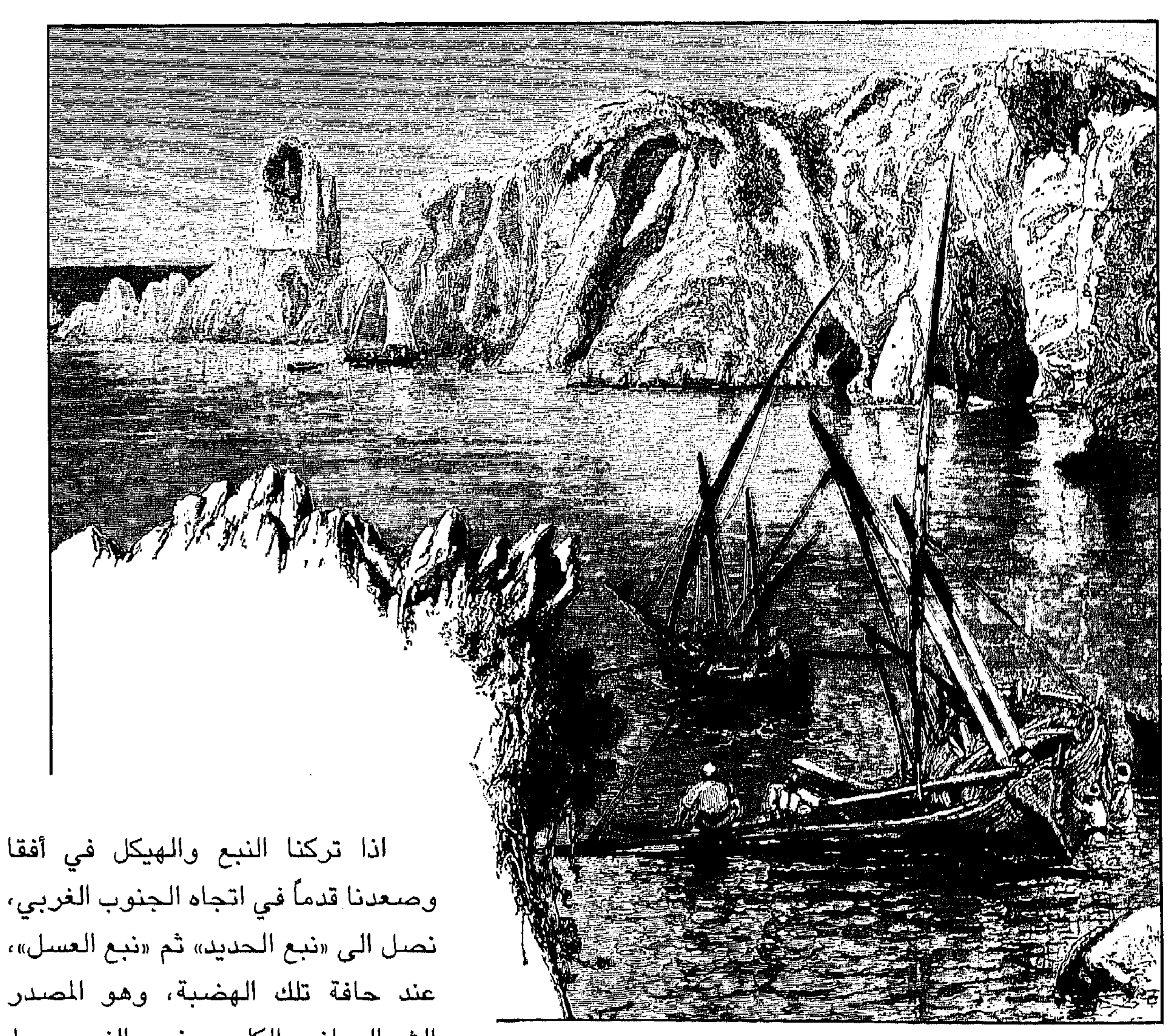
الطبيعي الرائع لحوالى ٤٠٠ قدم أخرى حيث نصل الى قاعة مقفلة، حيطانها عامودية حادة، ولا يمكن النفاذ منها إلا بتسلق أحد جدرانها المفضية الى مغارة أعلى واسعة لكن ذلك كان متعذراً من دون سلالم فعدنا أدراجنا الى المدخل من حيث أنطلقنا.

بين العاقورة ونبع افقا مسافة ساعة ونصف الساعة تعبر خلالها مسطحاً يعلو الوادي الذي تملأه حقول القمح الى اشجار تتناثر هنا وهناك، ثم نتجه في طريق



نبع أفقا على الجسر القديم

صخري متدرج، نحو الجنوب الشرقي، الى المنيطرة، البلدة المارونية التي تواجه النبع من جهة الجنوب. يخرج نبع أفقا التاريخي من المغارة وتحديداً من الطبقة الصخرية تحتها، والذي يتدرج نزولاً كما السلم نحو وادي نهر أدونيس العميق (نهر ابراهيم) ويرتفع الشير او الحائط الصخري فوق النبع من ١٠٠٠ الى ١٥٠٠ قدم ويتفجر الماء من فجوات او شقوق نشأت من انحراف الحائط الصخري من الشمال الى الجنوب، باتجاه الغرب ثم تندفع نزولاً الى بركة في الصخور على عمق حوالى ٥٠ قدماً ونعبر البركة فوق جسر يقودنا الى آثار هيكل قديم مساحته ١٠٠ × ٥٠ قدماً وهو على الأرجح معبد فينوس القديم الذي أمر الامبرطور قسطنطين بهدمه في القرن الرابع ولا تزال ساقية ماء تجري من تحت ركام المعبد وتظهر في اكثر من زاوية تحت ركام الهيكل مخارج عديدة للمياه. تشكل مياه النبع المصدر الرئيسي لنهر ابراهيم، او نهر ادونيس كما كان يعرف قديماً والمكان هذا هو مسرح أحداث أسطورة أدونيس وعشتروت القديمة وحيث كانت صبايا فينيقيات يبكينّ ادونيس في الاحتفالات السنوية. كانت اناشيد الصبايا ترتفع في ذلك الوادي «تعالوا نندب أدونيس، أدونيس الجميل مات، أدونيس مات، إبكِ ايتها الآلهة» ادونيس هو آدون Adon او الإله البعل او الشمس وهو عين معنى مفردة تموّز عينه، الاسم العربي لشهر يوليو شهر احتفالات أدونيس. ولا يزال هناك من يعتقد، الى اليوم، أن لون شقائق النعمان في لبنان هو من لون دم أدونيس.

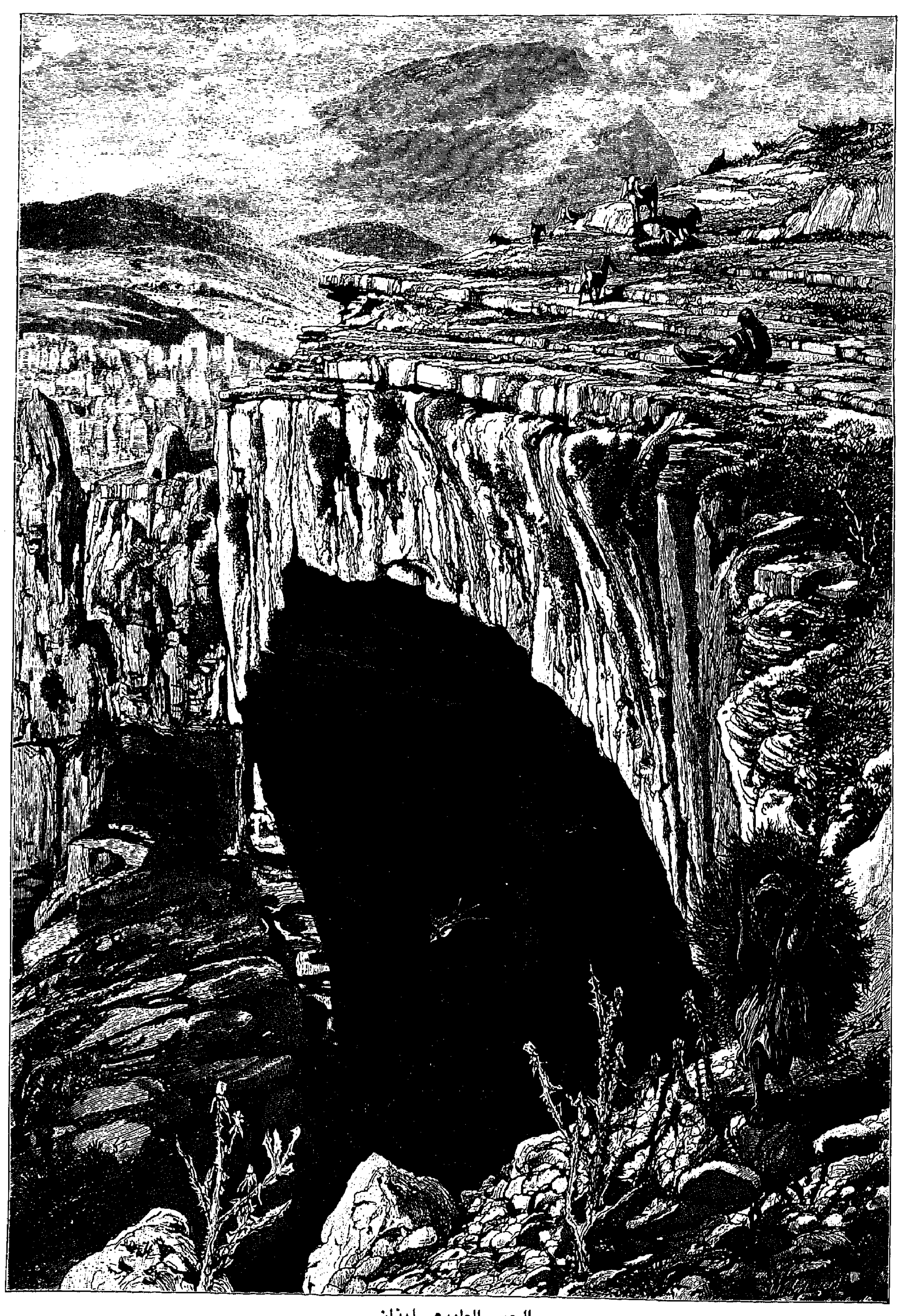


الساحل اللبناني قرب مصب نهر ادونيس
وفي الشتاء تجرف التربة الملّونة بلون الحديد الى الماء، وتذهب مياه النهر الملّونة الى مسافة كبيرة داخل البحر الازرق. وهو ما يعطي الانطباع ان النهر قد اصطبغ بدم ادونيس، في ذكرى موته في كل عام.

اذا تركنا النبع والهيكل في أفقا وصعدنا قدماً في اتجاه الجنوب الغربي، نصل الى «نبع الحديد» ثم «نبع العسل»، عند حافة تلك الهضبة، وهو المصدر الشمالي لنهر الكلب. يخرج النبع وسط كتل صخرية ضخمة، على حافة المنحدر الشمالي الغربي لجبل صنين، ثم تنساب مياهه الصافيه غرباً بين ضفتين

صخريتين خاليتين من الشجر. وفي الشتاء تغمر المجرى مناسف ثلجية عالية ويصبح الوصول الى النبع شبه مستحيل. وعلى مسافة نصف ساعة من نبع العسل يخرج نبع آخر هو «نبع اللبن»، وكانت العرب تقول «نبعا اللبن والعسل يذهبان الى مصب الكلب». على مسيرة نصف ساعة من نبع العسل، باتجاه الغرب، نصل الى «جسر الحجر» أكبر جسر طبيعي في سوريا يتدفق تحته نبع اللبن وقد يعبر المرء ذلك الجسر من دون ان ينتبه الى كونه جسراً، اذ أن سطحه هو في نفس مستوى الحقول المجاورة على طرفيه. ومن على الجسر تكفي نظرة واحدة لتكشف لنا عمق المنخفض الذي يشكل الفرع الجنوبي لنهر الكلب، ويحمل الماء من نبع اللبن الذي يقع على مسافة ١٥ دقيقة عند أسفل الجبل.

ونستدير حول الجسر نهبط الوادي من الجهة الجنوبية الغربية فيبدو لنا الجسر كاملاً مهيباً. يبدو الجسر كما لو كان قنطرة أو قوساً عالياً في نصف دائرة على امتداد ١٢٥ قدماً وارتفاع ٨٠ قدماً تقريباً. أما سماكة الصخر الذي يشكل القوس فهي ٣٠ قدماً، وعرض الطريق فوق الجسر هي في حدود ١٠٠ قدم. والقنطرة المستديرة عند الجانب الشمالي مكسورة قليلاً، أما المنخفض الذي ينحدر باتجاه وادي فاريا فتتناثر فيه اشكال مختلفة من الحجارة تعكس تعاقب الأزمنة على هذه المنطقة.



الجسر الطبيعي لبنان
ويدعى بالعربية «جسر الحجر»، وهو يمتد فوق الانخساف
الذي ينبع منه نبع اللبن، أحد روافد نهر الكلب

وتركنا الجسر الحجري نزولاً مع مجرى نبع اللبن المتعرج حتى أعالي كسروان ، ثم اسرعنا الخطى نحو دير عجلتون الكبير الذي يقوم منفرداً على تلة صخرية مكسوة. تقف التلة الصخرية عامودياً، وقد عرّتها الامطار



صخور كلسية، عجلتون لبنان
تقدم في المنطقة، والمعروفة بكسروان، جبال وعرة تخفي في الكثير من جنباتها مغاور كما تعلو بعضها أشكال معمارية عجيبة ويبدو دير عجلتون الى اليسار.

والعواصف من القشرة السطحية الناعمة، فلم يبق غير أضلع صخرية يرتفع الواحد منها الى ٤٠ او ٥٠ قدماً. وتظهر هذه الأضلع في أشكال عجيبة تشبه الاعمدة، او الحجارة المشذبة والمنازل، او الأبراج المستديرة والمربعة، والقلاع والحصون؛ ويشبه بعضها القباب والمسلات، وتمر الطريق بينها ضيقة ومتعرجة. اما القسم الغربي من البلدة فبخلاف ذلك تماماً منطقة ملائمة للسكن، وكل حبة تراب فيها تقوم فوقها، ربما، شجرة توت، النتاج الرئيسي لهذه المنطقة في لبنان. والمنطقة هذه هي كسروان، او «المنطقة المنكسرة» broken Region، وهي عبارة عن هضاب جبلية متقاطعة ومتداخلة شكلت على الدوام حصن الموارنة الحصين وجبلهم المقدس. وتملأ الاديرة والكنائس كل زاوية في كسروان. ومعظم الاراضي الصالحة للزراعة يملكها الرهبان بينما معظم السكان مرابعون عندهم. إلا انهم كذلك حرفيون مهرة؛ ويتبدى ذلك في قطعهم الصخور، يعالجونها بكفاءة عالية ثم يبنون بها حيطاناً حجرية لا آخر لها تدعم وتحفظ ما تبقى من تربة جوانب تلك الجبال فينتزعون من تلك الأرض الوعرة ما يكفي حياتهم واحتياجاتهم. لقد دفعت القلاقل وفقدان الأمن في السهول الواسعة شرقي لبنان، وفي شماله الشرقي، الناس الى طلب الأمن في هذه الجبال المنعزلة. كذلك الحروب الاهلية في لبنان حيث هزم الدروز،جنوب طريق دمشق، الموارنة في كل مكان، فجعلت هذه الجبال ملجأ لا غنى عنه. والموارنة شعب لامع يستطيعون أن يتحولوا الى قوة فاعلة في الشرق شرط أن يتحرروا من الطغيان الكنسي للمطارنة والرهبان وأن تستخدم الأملاك الشاسعة للرهبان في خدمة ترقيهم العلمي والتربوي. وهو تماماً ما يحدث اليوم تدريجاً، حيث يشقون طريقهم صعداً ويتسنمون على نحو متزايد مواقع نافذة في سوريا ومصر.

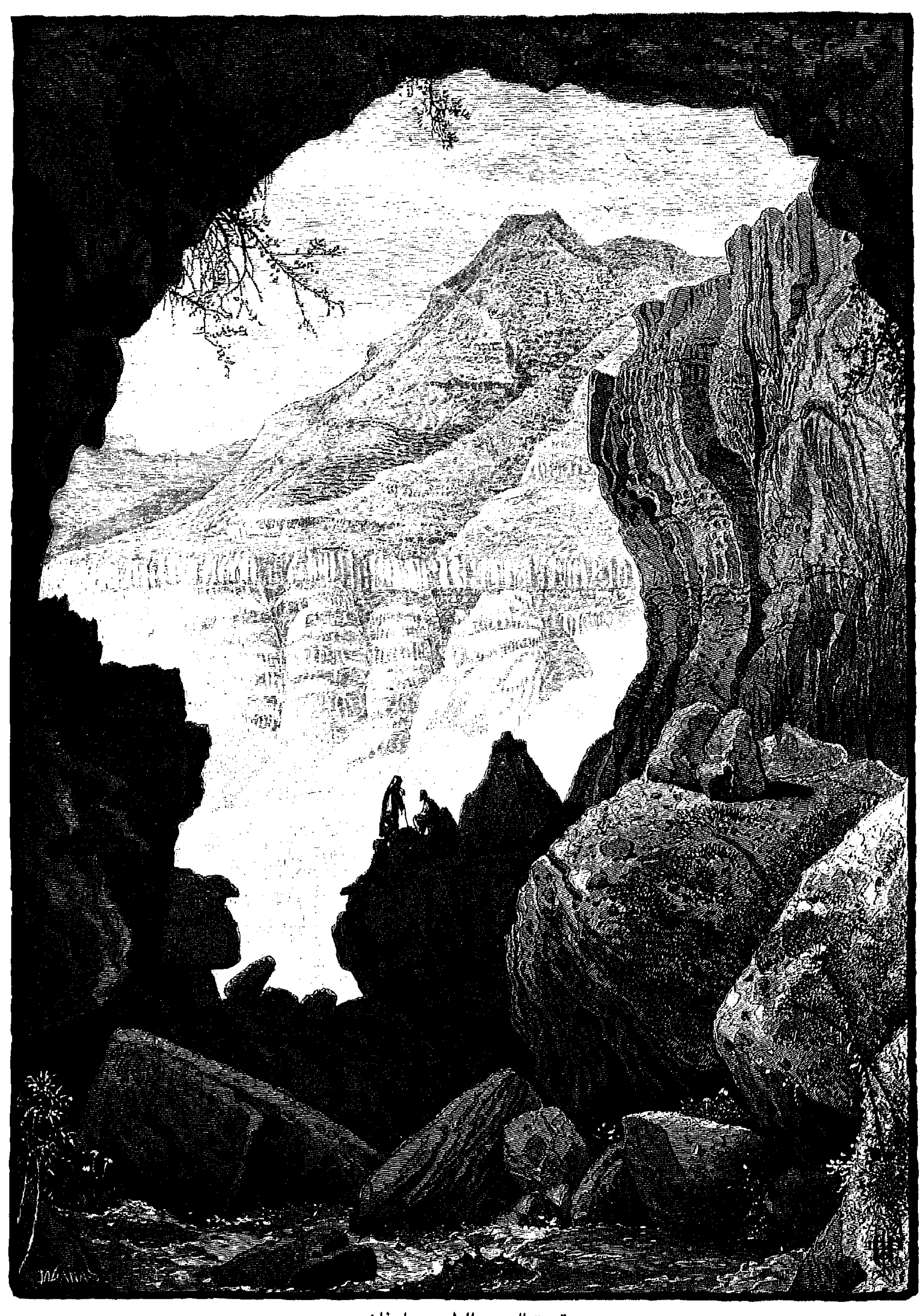


شق نبع اللبن
فوق جسر الحجر تماماً



جسر روماني قرب جونية
يعبر جدول ماء شتوي يدعى نهر المعاملتين
وينبع من التلال المطلة على خليج جونية الجميل،
ويحاذي الجسر خان سوري

ومن عجلتون نزولاً صوب البحر، عبر طريق صخري، على يسارنا وادي نهر الكلب العميق وأما منا على نحو عشرين ميلاً الى الغرب المنظر الخلاب لرأس بيروت الداخل في البحر. وفي محيط نهر الكلب على بعد ثلاثة أميال من المصب، شمالاً هناك ثلاث مغاور تخرج المياه من اثنتين منها، ومنهما تأتي في الصيف معظم امدادات المياه بعدما تحوّل ينابيع نبع العسل لأغراض الري. وكان دكتور طومسون مؤلف «أرض الكتاب المقدس» هو أول من اشار الى وجود المغاور الثلاث، الا أن الكشف الكامل عليها لم يجر إلا في ايلول سنة ١٨٧٣ على يدي ي .ت. ماكسويل يعاونه هـ. ج. هاكسلي، دكتور بلّس (رئيس كلية المرسلين البروتستانت في بيروت) ودكتور بريج ستوك Dr. Brig stocke . دخل هؤلاء حاملين قارباً صغيراً ورمثاً من جلد الماعز، ومعهم تجهيزات اضاءة كافية وشريط ماغنيزيوم؛ وبعدما تجاوزوا المدخل الوعر بلغوا مجرى مائياً مسطحاً فامكنهم الدخول الى عمق المغارة الرئيسية مستخدمين قاربهم والرمث، الى مسافة ٦٠٠ قدم فوق مياه البحيرة الداخلية الساكنة. وعند هذا الحد كان هناك صخر كبير بعلو ١٥ قدماً يسدّ المجرى. اضطر الفريق الى ترك قاربهم حيث هو ثم تسلقوا الصخرة ودلفوا منها الى مسافة ٧٠٠ قدم اخرى بين التضاريس الجانبية والنتوءات والقناطر الصخرية، ثم ليصعقوا بالمشهد الذي رأوه حينما أضيء سلك الماغنيزيوم ونترك الكلام لواحد منهم فيقول:« كانت رواسب تشبه الثريات المعلقة تتدلى من السقف ذي القناطر، او تخرج من الحيطان العامودية كما المنحوتات في ألف شكل، وكانت الصخور والنتؤات والاشكال يتداخل بعضها ببعض كأنما يد فنان ماهر قد حفرتها فابدعت الصنع، بينما تخرج من الأرض بين الحين والحين بقايا ورواسب صخرية وكلسية، وعلى نحو مخيف، ولتتصل أحياناً بالثريات المتدلية من السقف».



تحت الجسر الطبيعي لبنان
ينحدر المجرى، بعدما يمرّ تحت الجسر، نزولاً على
جانب الجبل في واد عظيم قبل يتكسر زبداً على الصخر



لوحات نهر الكلب وجدران صخرية.
ترتفع عند الرأس الصخري الذاهب بعيداً في البحر، ويصل علوها الى مئة قدم او اكثر

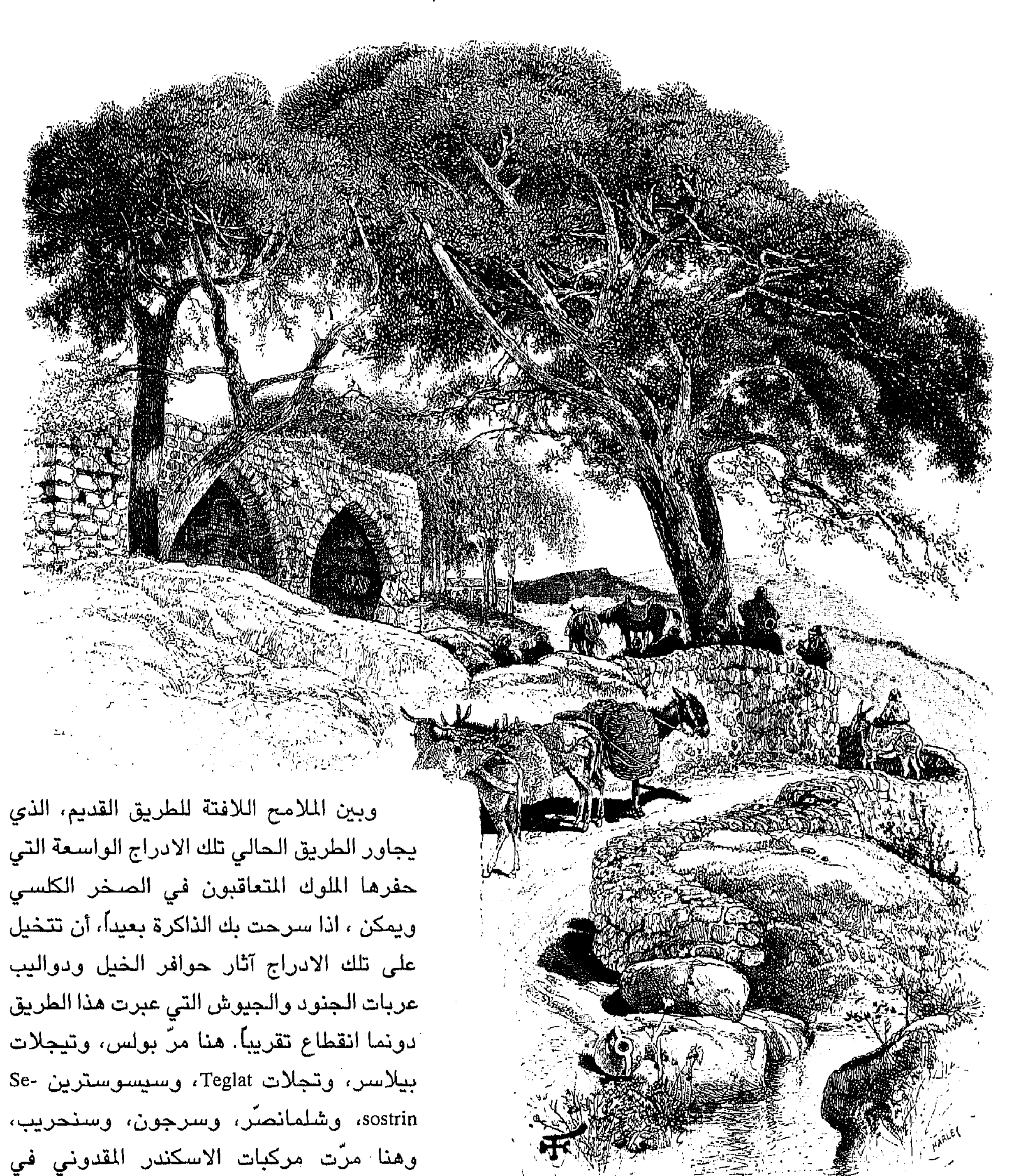


غادرنا المغارة وهبطنا مجرى النهر بمحاذاة قناة الجر والسياج اللذين انشأتهما شركة «أعمال المياه اللندنية» ثم بمحاذاة القناة الرومانية القديمة على الضفة الشمالية، حيث كان المهندس المعماري الهولندي مستر لويتد Loyted قد عثر قبل وقت قصير على اكتشاف أثري هائل وذلك بمساعدة د. هارتمان من المستشارية الالمانية. ففي خط غير بعيد عن الجسر الروماني القديم، وجد لويتد وهارتمان سلسلة كتابات بابلية محفورة على صخر طوله ٨,٤٠ م وارتفاعه ١٢ متراً، تمر فوقه القناة الحديثة. ولم تجر الى الآن ترجمة كاملة لتلك الكتابات، إلا أن المؤكد هو ان واحداً منها يعود الى عهد نبوخذ نصّر، حيث يتردد اسمه أكثر من مرة في تلك اللوحة. واذا عبرت الجسر القديم من النقطة تلك فستقع عيناك على كتابة عربية تكاد تمّحي على قاعدة صخر طوله على الضفة الجنوبية، يفترض أنها للسلطان سليم وتعود لسنة ١٥١٧م. والى مسافة ابعد قليلاً ناحية البحر، الى اليسار من الطريق المعبّد محفورة لاتينية تعود لسنة ١٧٣م. حول قناة لوسيس حيث نهر الكلب فيها هو نهر الذئب. وهناك كتابة لا تينية أخرى أقصر قليلاً لناحية الغرب لجهة البحر تعود لأنطونيوس. وعلى جانب الطريق الذي يمرّ بالرأس الصخري جنوب نهر الكلب يمكن مشاهدة مجموعة لوحات

نهر الكلب
وجسر قديم يتصل بطريق الشاطئ المحفورة في الصخر. ويمكن عبور النهر عند هذه النقطة صيفاً.

أشورية ومصرية، ثلاث لوحات مصرية وست آشورية يرتبها مستري. ت. شاد بوسكوين كما يلي:

النوع	الرأس	الارتفاع	العرض	العمق	التاريخ
١ـ مصرية	مربع	٧ قدم و٦ انش	٨،٢	٦	رمسيس الثاني مهداة الى Phtha آشور
٢ـ اشورية	مربع	٧،٦	٥،٢	٤،٥	ريسيليم ١١٤٠ ق.م.
٣ـ اشورية	مربع	١،٥	٤،٢	٥	بتجلات بيلاسر ١١٤٠ق.م
٤ـ اشورية	مستدير	١،٦	١/٢،٢ ٦	٤ ١/٢	آشورنا سيربار ٨٨٥ ق.م.
٥ـ اشورية	مستدير	٤،٦		٥	شلما نصر ٨٦٠ ق.م.
٦ـ مصرية	مربع	٦،٧	٩ ١/٢،٢	٥ ١/٢	رمسيس الثاني
٧ـ اشورية	مستدير	٣،٧	٨،٣	٥ ١/٢	سنحريب ٧٠٢ ق.م
٨ـ مصرية	مربع	٤،٧	٨ ١/٢،٣	٥ ١/٢	رمسيس الثاني مهداة الى آمون طيبا
٩ـ اشورية	مستدير	٦	٨،٣	٦	اسرحادون ٦٨١ـ ٦٧١ ق.م.
			١،٣		



نزل ومقهى لبناني.
على ساقية جبلية، تظلله اشجار غضة. موقع النزل دائم هو مكان استراحة وتخييم للمسافرين، لأنه غالباً ما يكون قرب سبيل مياه عذبة.

وبين الملامح اللافتة للطريق القديم، الذي يجاور الطريق الحالي تلك الادراج الواسعة التي حفرها الملوك المتعاقبون في الصخر الكلسي ويمكن ، اذا سرحت بك الذاكرة بعيداً، أن تتخيل على تلك الادراج آثار حوافر الخيل ودواليب عربات الجنود والجيوش التي عبرت هذا الطريق دونما انقطاع تقريباً. هنا مرّ بولس، وتيجلات بيلاسر، وتجلات Teglat، وسيسوسترين Se-sostrin، وشلمانصّر، وسرجون، وسنحريب، وهنا مرّت مركبات الاسكندر المقدوني في طريقها الى مصر؛ وهنا مرّ الرومان والاغريق المتأخرون والعرب والأتراك والصليبيون؛ وهنا مرّ كذلك التجار والرحالة.



قناة جر مياه حديثة البناء على نهر الكلب
اكتشف بجوارها حديثاً ألواح اشوريه
تعود الى نبوخذ نصر

والى الجنوب من نهر أدونيس، عند الشاطئ، تعبر جسراً معبداً عالياً، وتمر بعدة خانات وقباب أضرحة تقوم الى اليمين من الطريق، ثم نزولاً حيث تمر بنتوءات صخرية تدخل في البحر قبل خليج جونية. ونمر بعدها في طريق روماني قديم على حافة جرفٍ عالٍ فوق الماء، يفضي الى شاطئ رملي يحاذي نهر المعاملتين. وتقوم فوق مجرى السيل هذا قنطرة رومانية لا تزال في حالة جيدة. هي تدعى المعاملتين، أي المقاطعتين، باعتبارها الحدود في ما مضى، بين ولاية طرابلس وولاية صيدا وقرب القنطرة خان سوري يقدم نزلاً مريحاً للعابرين واستراحة لبعيرهم.

عبرنا الشاطئ الرملي نحو نهر بيروت، في مايشبه العدو، تشدنا اللوحات الطبيعية الفاتنة. فمنظر رأس بيروت تكلله البيوت ذات الحجر الرملي البنّي، الى القصور والكنائس والجوامع والكليات والمدارس، تنتشر من حافة الماء الى أطراف الجبل تظللها غابات الصنوبر على الوهاد الشرقية للمدينة، منظر لن تجد ما يدانية الا في خليج نابولي. وسان جورج او مار جرجس، كما يدعوه نصارى الشرق هو

القديس المفضل في الروزنامة السورية. والمسلمون يدعونه الخضر. ولإسم الخضر جامع او مزار قرب الجسر ذي القناطر السبع على نهر بيروت، حيث يعتقد أنه دفن، وأبعد قليلاً صوب المدينة برج مهدم الى الشمال من الطريق يقال أنه المكان الذي قتل فيه مار جريس التنين وغسل يديه من دمه الفاسد.

وندخل بيروت، مركز فينيقيا الحديثة، والمدينة الاكثر جمالاً والاكثر ثقافة فيها الآن. اما موقعها الجغرافي، على المنحدر الشمالي للرأس وعلى امتداد ثلاثة اميال من نهر بيروت الى رأس بيروت ففيه كل ما يمكن ان تتمناه. فتقلبات المناخ تجري مع الشهور المتعاقبة، تدريجية هينة، حيث الخريف يسلم الشتاء دون ان تكاد تشعر بذلك، والشتاء نفسه



حمّام ومقهى ، بيروت
اعتني في السنوات الاخيرة كثيراً بالصيد على الشاطئ. ويمكن في ليالي الصيف مشاهدة الصيادين على الضخور عند الشاطئ مع مشاعل ومصابيح يقال انها تجذب أنواعاً معينة من السمك.

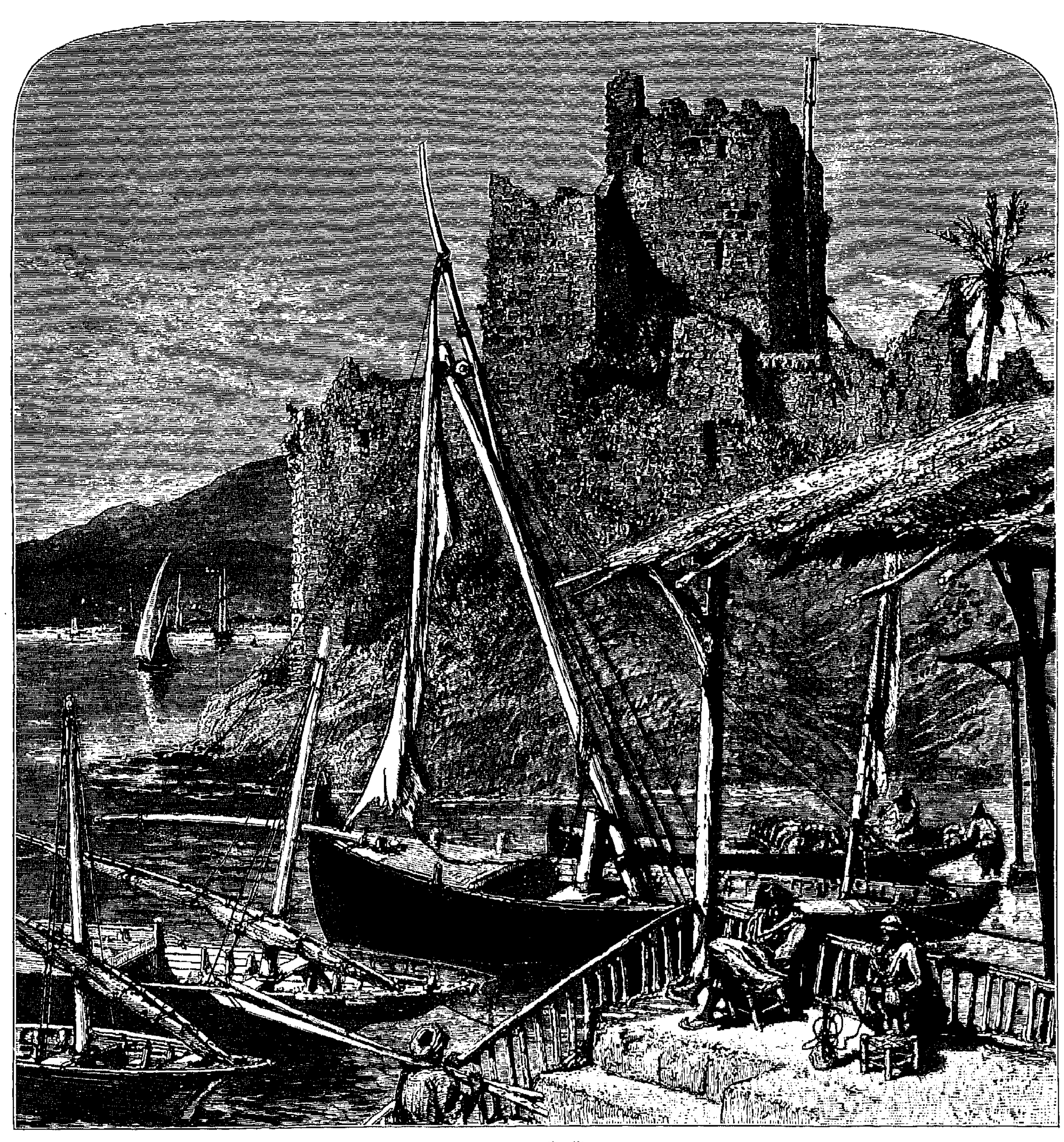
ربيع، والربيع يمهد للصيف حيث لا ترتفع الحرارة اكثر من نصف درجة في النهار الواحد. هنا باختصار كمال المناخ فلا تعجب بالتالي ان يدعوها الشاعر الاغريقي «حاضرة الحياة الهادئة».

وبيروت هي «بيريتس» Berutus عند الاقدمين، ويحتمل ان يكون الفينيقيون هم الذين أنشأوها. ومن المتفق عليه، عموماً ان اسمها مشتق من بئر او آبار كانت تكثر في تلك البقعه لكن رينان Renan ينفرد في كتابه «رسالة فينيقيا» بتفسير خاص، فيذهب الى أن بيريتس او بيروث هي من بينتو Pinto أو الصنوبر. لكن ما من أحد يجاري رينان في رأيه. فالنشيد الذي يرجع له رنيان (Canti ; 17) وفيه كلمة Chalde بيروث تترجم عند قانديل بالسرو. وروبنيسون يعني ببيروث السرو والصنوبر معاً وبيروت عرفت دائماً بابارها وصنوبرها في الأزمنة القديمة، في آن معاً. واذا كان الصنوبر هو الأكثر إلفاتاً بالتاكيد. الا أن وزن الآبار في الازمنة القديمة أكثر وضوحاً وهو المرجّح. ويذكر Starbo المدينة لأول مرة سنة ١٤٠ق. م. حينما قام تريفون بتدميرها خلال حكم ديميتريس نيكاتار. لكن الرومان اعادوا بناءها واستوطنها متطوعو الفيلق الخامس المقدوني والفيلق الثامن الاغسطيني. وهنا حوكم ولدا هيرودس الكبير غيابياً وحكما بالموت من قبل والدهما القاسي وغير العادي والابن الاكبر أغريبا Agriba أحب المدينة فزينها بالمسارح والملاعب الرائعة ، الى جانب الشوارع والحدائق وملاها بالالعاب والاحتفالات الضخمة، ومن ضمنها عروض المصارعة وفنون القتال الرومانية. وهنا ايضاً ، وبعد تدميره اوروشليم، احتفل تيتوس Titus بعيد ميلاد والده فيسباسيان بعروض مشابهة حيث كان يضحى بالكثير من الأسرى اليهود.

وفي بيروت في منتصف القرن الثالث، أنشئت مدرسة القانون الروماني. وكان الطلاب يأتون المدرسة تلك من بلدان كثيرة، ومن أشهرهم غريغوريوس وتوماتيرجوس وآبيون Apion الشهير. وعلّم ابو لونير «المبادىء» هنا، وذلك في القرن الرابع. وبعد وفاة جوليان الابوستاتي Julian of Apostate طلب الامبراطور جوفيان اعادة بناء كنيسة بيروت التي دمرها الماجنوس Magnus، على نفقته. كانت الفترة الممتدة بين ٢٥٠ ـ ٥٥٠ م، هي العهد الذهبي لبيروت فبلغت ثقافتها وآدابها الذروة في عهد الامبرطور جوستنيان، الذي خصّ بيروت برعاية خاصة. لكن التاسع من تموز لسنة ٥٥١ ميلادية كان يحمل أمراً آخر رهيباً لبيروت، فقد دمر زلزال مروع المدينة بكاملها، فتفرق من نجا من سكانها ولجأ قسم كبير من مثقفيها وعلمائها الى صيدون. وفي القرن السابع اي بعد ذلك بحوالى قرنين من الزمن، أمكن لخالد، «سيف محمد»، ان يدخل المدينة، فسقطت بيروت في أيدي المسلمين بسرعة وبكاملها.

وفي العام ١١١٠ احتل الصليبيون بقيادة بلدوين الاول، بيروت وظلت في ايديهم فترة طويلة مركزاً دينياً وعسكرياً مستفيدين من موارنة لبنان كحاجز حليف في وجه المسلمين في الشرق احتل صلاح الدين المدينة لفترة قصيرة، الا ان الصليبين لم يخرجوا من المدينة فعلاً الا بعد معركة حطين سنة، ١٩٨٧. وساد بيروت من ذلك التاريخ والى عهد الامير الدرزي الشهير، فخر الدين، قدر كبير من الفوضى والغموض. اعاد فخر الدين بناء المدينة وأحاطها بأحراج الصنوبر. وفي سنة ١٨٤٠ ضرب الاسطول الانجليزي المدينة لإخراج جيش ابراهيم باشا المصري. وفي آب ١٨٦٠ احتلّ ستة آلاف جندي فرنسي المدينة، بعدما أرسلهم نابليون الثالث للمساهمة في وقف الحرب الاهلية والمجازر التي اندلعت في كل مكان. آثار بيروت الظاهرة محدودة تقريباً والسمة الغالبة عليها الأعمدة الغرانيتية او البروفيرية، تتناثر في كل مكان، والقلعة القديمة على مدخل المرفأ. تبرز في بيروت الحجارة القديمة والتواويس وبقايا الأعمدة على أعماق بسيطة، في اساسات المنازل والابنية مثلاً، كما تجد في حالة سليمة أعمدة ثلاثة ضخمة قرب الكنيسة الروسية، وأرضيات موزاييك رومانية تكتشف هنا وهناك، كذلك هناك كتابة يونانية ما زالت في حالة جيدة فوق باب الديركي Dirkeh ،وبقايا طريق روماني على بعد دقائق من الجسر الحديث فوق نهر بيروت الذي اقامه رستم باشا ويعثر الى ذلك باستمرار، على خزفيات وفخاريات وقطع زجاجية وحلي قديمة.

وكانت بيروت، وبفعل هذا التاريخ الغني زاخرة بالقصور والقلاع والاسوار والابراج. أربعة منها كانت ولا تزال حتى عهد قريب في حالة سليمة، أبرزها اطلاقاً برج عسّاف يقوم عند الزاوية الجنوبية الشرقية للمدينة القديمة، الا انه بيع اخيراً الى متعهد محلي هدمه سعياً وراء بيع حجارته. والمستشفى العسكري يقوم على موقع برج مستدير قديم أما البرجان الآخران فكانا يحرسان مدخل المرفأ. ويبدو ان الصليبيين هم الذين بنوا هذه الابراج على أنقاض بيروت القديمة وقواعد هذه القلاع انما تقوم على أعمدة بيروت القديمة وحجارتها. الا أن ما يبهج زائر بيروت هو بيروت الحديثة النامية باطراد، فقد عادت مدينة جوستنيان المفضلة القلب الثقافي والادبي لسوريا ومفخرتها في آن. ففيها تنهض اليوم المدارس العالية والكليات وتتأسس المستشفيات والكنائس والجرائد والمطابع.



قلعة بيروت
بناها الصليبيون، وجزئياً من حجارة ومواد كانت في انشاءات أقدم عهداً ، بدليل الاعمدة الغرانيتية التي وضعت في الاجزاء السفلية من الأسوار

ففي الشأن التربوي سبق المرسلون الاميركيون سنة ١٨٢٠ سائر الارساليات والبعثات فامكن لهم بذلك تدريس الآف الشبان وهم يديرون الآن ١٠٤ مدارس فيها اكثر من ٤٠٠٠ تلميذ، ولديهم مؤسسة طبية وثلاث مدارس للبنات و ٨ مدارس للتعليم العالي (ثانوية) وهكذا ارتفع عدد سكان بيروت من بلدة لا يزيد تعداد سكانها عن ٨٠٠٠ الى مدينة يقطنها ٨٠٠٠٠ ساكن. وممرات الصبير القديمة غدت اليوم شوارع مرصوفة تزينها منازل حسنة العمارة مفروشة بالاثاث المحلي الصنع ينافس أحلى ما في أوروبا. وتبدو المدينة في حمى نهوض وتنافس تربويين بل أن الطوائف الاكثر تحفظاً تجاه هذا التحول تبدو واقعة الآن تحت تأثير شبان وبنات متعلمين. ويتسابق اليوم المحمديون والارثوذكس والموارنة الكاثوليك واليهود في تأسيس مدارسهم، كذلك افتتحت جمعيات كثيرة، مثل الجمعية السورية

البريطانية، جمعية قيصر بروسيا، وكنيسة اسكوتلندا مدارس عدة للبنات والصبيان. ففي بيروت اليوم ٣٥٠٠ طفل في المدارس البروتستانتية و٧٠٠٠ في المدارس الوطنية. ومن بين ١٢ صحيفة تصدر الآن في بيروت سبع منها في ايدي البروتستانت، واربع أخرى للسوريين الوطنيين. وكل الطوائف والجماعات تمتلك اليوم جمعيات أدبية وخيرية وتربوية، وتبدو الروح الدينية القديمة الضيقة الى زوال. فالمحمديون يتبارون في تعليم بناتهم، كذلك أسست النساء الارثوذكسيات «جمعية الشابات الارثوذكسيات» بهدف تقديم فرص تعليم أوسع. وفي سوريا وفلسطين هناك اليوم ٢٤٤ مدرسة بروتستانتية فيها ١٣٠٠٠ طالب ويعمل فيها ١٢٠مبشراً ومدرساً أمريكياً وأوروبياً، اضافة الى ٤٣٢ مدرساً محلّياً. والقلب في تلك الحركة الغنية هي بيروت من دون أدنى شك. وأبرز معالم المدينة اليوم هي الكلية البروتستانتية السورية، مستشفى القديس حنا، معاهد اليسوعيين الموارنة ومدارس البنات المختلفة الى الأخويات الاميركية والبريطانية والالمانية البروتستانتية والكاثوليكية وسواها. بل إن عدداً غير قليل من الافراد الوطنيين البارزين اليوم، مدينون بمكانتهم لمركزهم التربوي او لاسهامهم في الحياة الأدبية. والمطابع تملأ البلاد بمواد للمطالعة بعضها منقول عن اللغات الاوروبية والبعض الآخر موضوع. وعلى العرب اليوم وكما في أيام خلفاء بغداد، أن ينبشوا كنوزهم العلمية والادبية القديمة وان يستخرجوها من اللغات الأوروبية.

وتقف الكلية البروتستانتية السورية في ذروة المؤسسات الادبية في سوريا، ولغة التدريس فيها هي الانجليزية وهي تعد الشبان المناسبين في شتى الحقول الطبية والادبية والعلمية ولأعلى المراتب في المستقبل. والى الانجليزية تدرس العربية جنباً الى جنب مع الفرنسية والتركية واللاتينية. وأحوال المناخ والرصد الجوي تنقل يومياً عبر اسلاك التلغراف الى اسطنبول ولندن وواشنطن. وتعّد مدارس البنات الاميركية والبريطانية والالمانية البروتستانتية المئات من أفضل البنات السوريات. كذلك اسس اليسوعيون كلية لهم ومطبعة على قدر عال من الأهمية، وتقوم معاهد الموارنة والكاثوليك والارثوذكس والمحمديين بتدريس عدد كبير من الشبان بينما في جمعيات المحبة والاخويات أكثر من ٧٣٠ فتاة عربية يتدربن في حقول المعرفة والخبرة المختلفة.

لقد دفعت مجازر ١٨٦٠ الآف المسيحيين من داخل البلاد الى الانتقال الى بيروت، وباتت المدينة للكثيرين منهم مكان الاقامة الدائم. فمناخها اللطيف ومياهها النظيفة، وتقديماتها التعليمية وأهميتها التجارية، اضافة الى الأمن من شر الحروب الاهلية ومجازرها جعل من بيروت الملجأ الآمن للطوائف والطبقات كلها. وتتصل بيروت بدمشق عبر طريق معبد اقامه الفرنسيون تنطلق عليه مرتين في اليوم قافلة من عربات الخيل.

وبالنسبة الى جهاز الادارة يعين السلطان المتصرف وكبار المسؤولين الاداريين والقضائيين، اما المجالس المحلية فمنتخبة من الشعب. ويزيد المسيحيون من الطوائف كافة، المحمديين بنسبة اثنين الى واحد. وهناك ايضاً ، اقلية يهودية متنامية بالاضافة الى جاليات اوروبية صغيرة. عرفت بيروت لقرون طويلة. ببضاعتها الحريرية وصائغوها ونسّاجوها متفوقون اليوم في جودة انتاجهم الحرير وسواه مما تخرجه معاملهم مخرم موشى بالذهب او بالفضة، فباتت الموضة في العديد من البلدان المتمدنة؛ وكذا الستائر والوسادات والديوانيات. أما الستائر والثياب الحريرية الموشاة بخيطان من ذهب والمنسوجة في الزوق فهي تزين اليوم الكثير من قصور أوروبا نفسها. إلا أن الاهمية المستقبلية لبيروت تعتمد في النهاية على انشاء خط حديدي يمتد من المتوسط الى الهند. ولكن مركزها الثقافي، باعتبارها مندرجاً للامعين من ابناء سوريا، فيبقى امراً لا جدال فيه. وابناؤها المتحدرون اساساً من طوائف لبنان المختلفة واعدون وقادرون على تحقيق الكثير. والمدينة تنمو يوماً بعد يوم، في جمالها كما في نفوذها في الشرق، ومؤسساتها تكاد تبز ما كانت عليه جامعتها المشهورة ايام جو ستنيان الذهبية.

وعلى مسافة حوالى الميل جنوب غرب الكلية ينتهي رأس بيروت بقطع صخري عند الروشة وهي الأسم السرياني لرأس Head Land. وينشق القطع على تجويف صخري، او كهف عميق لا يمكن بلوغه الا بالقارب من جهة البحر وفي مقابل التجويف الصخري تقوم لجهة البحر، وعلى قاعدة نصف الدائرة هذه، جزيرتان صخريتان شاهقتان رائعتا الجمال يسكنهما الحمام، وتحت اكبرهما نفق طبيعي وتضفي اسراب الحمام، الى السمك الكثيف عند



صخرتا الحمام، (الروشة) بيروت.
وتحت الحائط الصخري المقابل فجوات أو كهوف صغيرة،كما هناك تحت الصخرة الأكبر حجماً نفق تدخله الزوارق الصغيرة

حافة الصخر، جوّاً رائع الجمال. كما تضفي طبيعة الصخر الكلسية بطبقاتها الطباشيرية البيضاء والسوداء يتدرج بعضها فوق بعض، وعلى نحو متماشٍ في الجزيرتين منظراً لافتاً ومثيراً للاهتمام. وفي زيارة حديثة له، وبينما عاصفة تضرب الشاطئ من جهة البحر، بدا المنظر مهيباً أقرب الى الجلال وعلى نحو لا يبارى. كانت الأمواج العاتية تأتي من أعالي البحر، تضرب بقوة على حفافي الجزيرتين وخلفهما، فترغو وتزيد وتغدو بيضاء في لون الحليب، ويعلو هديرها قوياً بينما رذاذ مائها يرتفع ليصل حتى رأس الجرف قبل ان يهبط ثانية الى الخلف من حيث بدأ.

وعند الجهة الجنوبية من المدينة، على نحو أربعة أميال من الشاطئ تقع كثبان الرمل المتحركة او ما يدعى بـ «رمل بيروت» والتي ظلت تزحف ببطء ولأجيال، شمالاً وشرقاً مهددة بتدمير المدينة. وقد تقدمت في بعض المناطق خلال الخمس والعشرين سنة الماضية على حد علمي، إلى نحوٍ من ١٠٠ قدم. كما أن الرياح القوية التي تهب من الغرب تدفع بالرمل من الكثبان القريبة للشاطئ الجنوبي الغربي فتراه ينتشر فوق المدينة في أشهر الصيف التي لا مطر فيها وكأنه حبيبات ثلج متساقطة.

لقد أزالت الرمال منازل عدة وغطت عدداً آخر من الحدائق. وقد استحصلت بلدية بيروت الحالية المنتخبة الإذن من الباب العالي لإزالة الرمل او على الأقل للحد من تقدمه ووقف انتشاره.



بيروت، من جعيتا
وهي قرية جميلة الموقع شمال نهر الكلب على مرتفع يطل على واد ضيق. وفي البعيد خليج مار جرجس، كما يظهر الرأس الرملي لبيروت.

ونترك بيروت الى صيدا فنمر في حرج الصنوبر الكبير الذي زرعه الأمير فخر الدين وبالبساتين الواسعة الغنية بالزيتون وأشجار الفاكهة، ثم نعبر شاطئ القسس Kossis الى آثار خلدة، ثم لنصل الى الجسر الحديدي فوق نهر الدامور. ومن هناك الى خان النبي يونس حيث قبة ضريح بيضاء حيث دفعت الاسماك النبي يونس الى هذا المكان وفق اعتقاد المسلمين. ويعرف هذا الجزء من لبنان، الواقع بين بيروت وصيدا بلبنان الدرزي، نسبة الى الدروز، الشعب غير العادي Extra ordinary الذي يعيش هنا. يقوم دينهم على نظام ديني - سياسي سري، حيث الحاكم هو إلههم المخلّص، وهم وان كانوا مسلمين في المبدأ الا أنهم يبقون دروزاً في قلوبهم. والدروز لطفاء شجعان متحدون ومهرة؛ وهم

في سوريا الأحجية او المسالة التي لم تجد حلاً بعد. هم يتكلمون العربية الصافية لكنهم في السياسة انجليزيو الهوى.

وبعد مسير ثلاث ساعات بين الشطّان الرملية والشعاب الصخرية نصل الى نهر الأولي حيث يمكن الإطلالة على مدينة صيدا القديمة بكاملها.

صيدون او صيدا

«آلهة صيدون ...... صيدون الجميلة»

هاتان الاشارتان هما لشاعرين لاتينيين متأخرين، يسلطان الضوء على ملمحين اساسيين في تاريخ صيدا، آلهتها الضاربة في القدم من جهة، وطبيعتها الجميلة من جهة ثانية. كانت صيدون هي المدينة المقدسة التي اعطت الآلهة للفينيقيين ومنهم لليونان وايطاليا وقرطاج. من صيدون أخذت اورشليم عبادة البعل وفي صيدون كانت تجري عبادة الثنائي المقدس في الديانة الفينيقية بعل صيدون وعشتروت، وهما نفسهما تموز وعشتار في جبيل، وبعل هامون وتانيث في قرطاج، وشاد وشيدات عند الحثيين، وحداد واتارغات في دمشق. هذه هي بلاد:

«استورات التي دعاها الفينيقيون استرات [عشتار]،

ملكة السماوات ذات القرون، والتي يرفع لها ضوء

القمر كل ليلة، لها تغني العذارى الصيداويات»

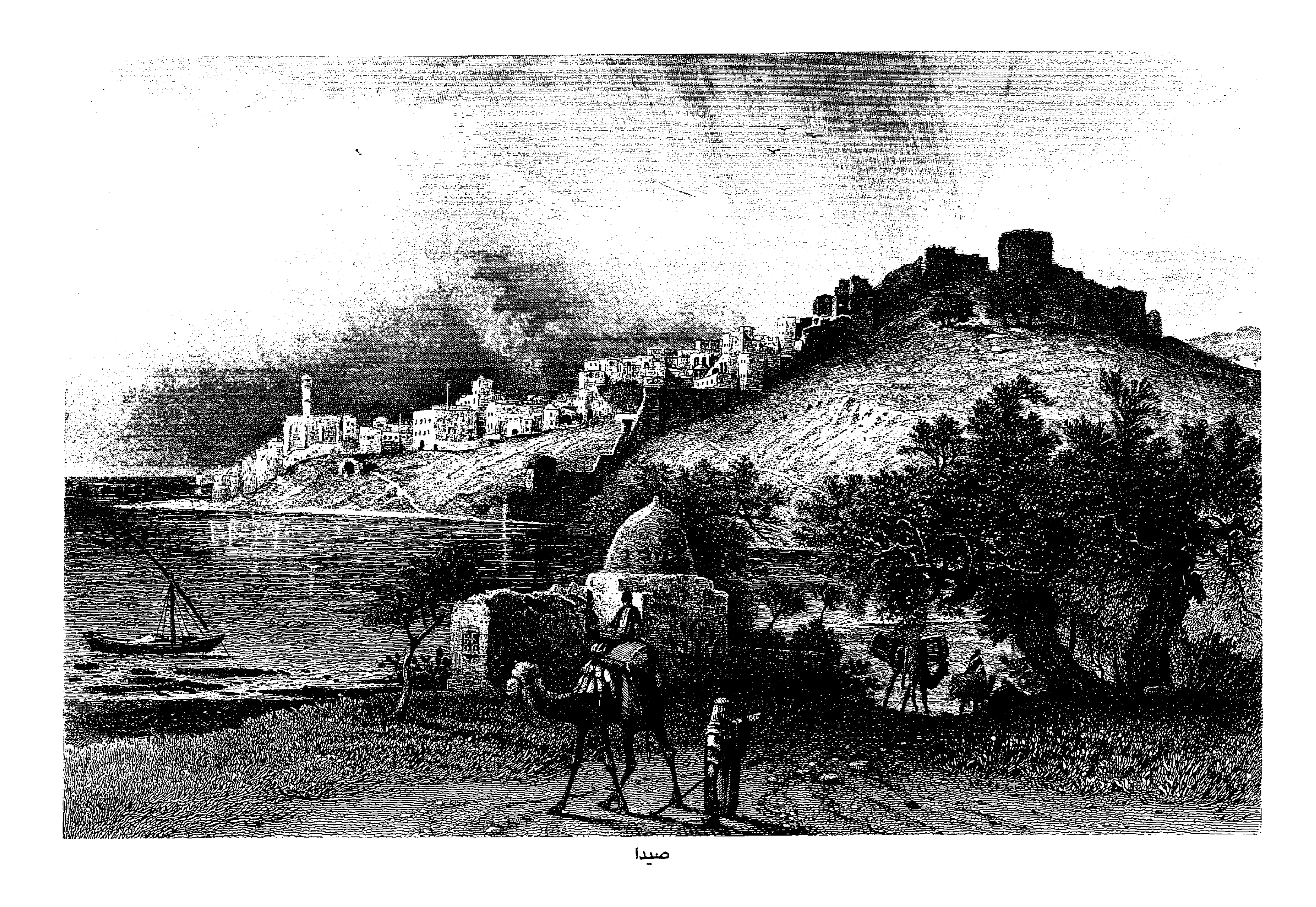
وحينما كان بحارة صيدون وصور الاشداء يدفعون مغامرتهم قدماً نحو الاوكسين Euxine وأوجين Aegean ، والى ما بعد أعمدة هرقل، فقد حملوا معهم، في جملة ماحملوه، ديانتهم ومقدساتهم الخاصة. فغدت عشتروت أفروديت عند الاغريق ومعبد تاسوس في الأوجين انما كان لعبادة ملكارت، هرقل صور. ولم تزل محفورة في جزيرة مالطة نقوش وكتابات تتحدث عن « الاله ملكارت، بعل صور».

وصيدون القديمة، التي منحها اسمها Great Zidon جشوا Joshua، الابن الاكبر لنوح، ربما تكون المدينة الأقدم عهداً في العالم، وهي تستطيع الى ذلك أن تعتز لكونها ذكرت في سفر التكوين، كما في أشعار هوميروس. فهوميروس يتحدث عن غنى صيدون بالمعادن النفيسة، كانت تجلب اليها من بلاد بعيدة في معظم الأحيان، باستثناء الحديد الذي كان يستخرج من الجنوب اللبناني. كان التنك يأتي من بريطانيا واسبانيا والقوقاز، والفولاذ من لولشيز Lolchis والذهب والنحاس من البحر الاحمر وقبرص؛ لكن الصيدونيين والصوريين كانوا صناعاً مهرة في طريقة استخدام هذه المعادن وتصنيعها وبلغوا في البرونز خصوصاً شأواً متقدماً.

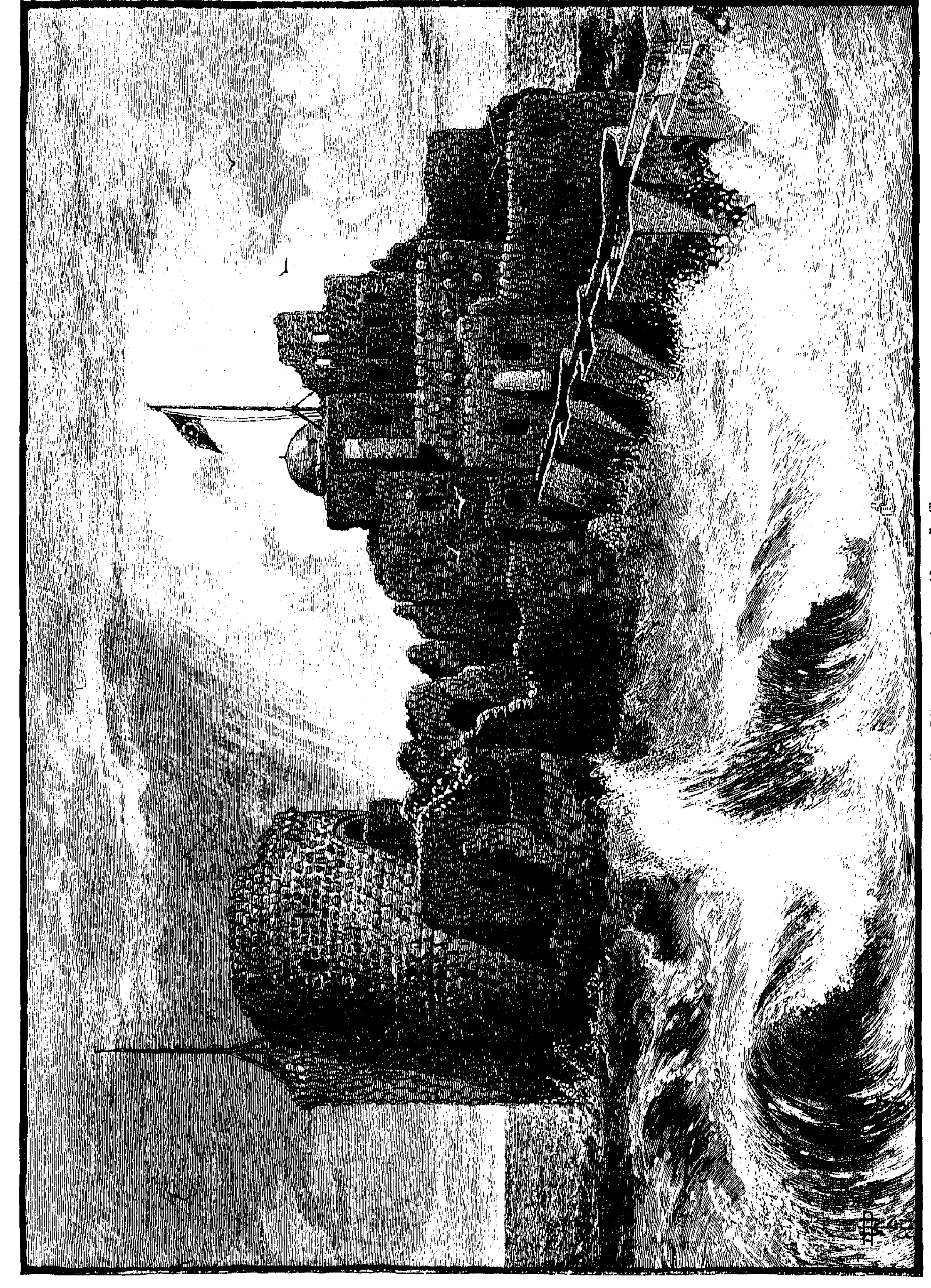
وحينما طرد المصريون القدامى ملوك الرعيان، كان الصيدونيون شعباً تجارياً، وقد خضعوا للمصريين بين القرن السابع عشر والقرن الثالث عشر قبل الميلاد. وفي صفحة بردي محفوظة في المتحف البريطاني رواية عن رحلة قام بها ضابط مصري الى سوريا في نهاية حكم رمسيس الثاني، وفيها اشارات الى بيروت وصيدون وصور بوصفها محميات مصرية آمنة.

زوّد الصيدونيون مصر القديمة ببحريتها التجارية والحربية، وبلغت تجارة صيدون في هذه الفترة حيث لم يكن هناك بحرية منافسة، ذروة توسعها وازدهارها. فقد أبحر تجار بيروت وصيدون الى ما بعد وادي النيل، على طول شواطى افريقيا، فانشأوا كامب Cambe او قرطاج في ما بعد، وهيبوHippo . كان المصريون يخشون البحر الى حدّ الرعب، باعتباره نحساً وميداناً لـ«ست» Set او إله الشر، عدو اوزيريس، اله الخير. لم يكن هناك، فعلياً بحرية مصرية، فقاد الضباط والبحارة الصيدونيون الاساطيل المصرية في المتوسط والبحر الاحمر، وتجارة سليمان بين أوفير وايلات Elath وازيون جيبر Ezion Geber كان يتولاها الصوريون احفاد البحارة الصيدونيين القدامى. ولكن، يا للمفارقة، فصيدون العظيمة تلك هي الآن مجرد صيدا صغيرة أو مكان الصيد. وبحارتها القدامى العظام هم الآن بحارة سواحل لا أكثر يدورون بين موانئ الشواطئ السورية، بينما مرفأها الصغير يتسع بالكاد لشراع صغير.

والمدينة القديمة التي طالما بنيت وهدمت ثم أعيد بناؤها، هي اليوم بلدة كبيرة تضم حوالى ٩٠٠٠ ساكن، وهي في عيشها ونمط أعمالها مدينة شرقية بالكامل. لم يقهرها الاسرائيليون البتة، لكنها خضعت للمصريين والاشوريين



صيدا



قلعة وميناء صيدا، صيدون القديمة

تسمى قلعة البحر، تقوم على جزيرة صخرية مقابل الطرف الشمالي الشرقي من المدينة، والتي اتصلت به بممر على اقواس حجرية.

والفرس، كما فتحت بواباتها للاسكندر ذي القرنين سنة ٣٣٢ قبل الميلاد. وفي ظل الرومان كانت صيدا مدينة غنية، وكذا في حقبة العهد الجديد، عندما زار يسوع الرب حدود صور وصيدا. ووجد القديس بطرس هنا رفاقاً له في المسيحية بينما كان في طريقه الى روما. كما ان مطرانها ثيودوروس كان عضوا في مجمع نيس لسنة ٣٢٥ للميلاد. وخلال العهد الصليبي تبادل الصليبيون والمسلمون احتلالها غير مرة، وعانت ما يكفي من بطش الجيوش المتقاتلة التي تبادلت عليها.

تقع المدينة على المنحدر الشمالي الغربي من الهضبة التي تهبط برفق الى ان تدخل البحر. وتنتشر امام واجهتها البحرية سلسلة جزر صخرية صغيرة من الشمال الى الجنوب كانت تحمي مرفأ كبيراً كان يتسع، في ما مضى لخمسين شراعاً، إلا أن الأمير الدرزي فخر الدين أمر بطمره بالصخور لمنع دخول المراكب التركية، أما اليوم فالمرفأ الحالي صغير الحوض ضحل المياه وعلى قياس مراكب «كوستا جين» Jiz أو ما شابه. وتحيط صيدا الاسوار، وهي بخلاف بيروت التي خرجت من أسوارها وامتدت عدة أميال، ما زالت محصورة داخل الأسوار الضيقة. ويصعب تصور ازدهار مدينة في مثل حال صيدا اليوم، ليس فقط لأن أزقتها شديدة الضيق ولا تتسع لمرور جملين محملين اذا التقيا في اتجاهين متعاكسين، وانما كذلك لأن المنازل هي من الضخامة بحيث جعلت عقودها فوق الازقة؛ وبحيث يستطيع المرء ان يعبّرها من حدها الى حدها في انفاق مسقوفة وشبه مظلمة. وفي المدينة خانات كبيرة يدعوها السكان الوكالات وهي ابنية ضخمة، مربعة الشكل مبنية الى ساحات واسعة مرصوفة، ترتفع الى طبقتين مع عدد من الغرف لاقامة وخدمة المسافرين والتجار وتجارة بيروت راهناً تفوق بما لايقاس تجارة صيدا، والقوافل التي تجلب القمح والشعير من حوران الى بيروت وتعود بالمنتوجات الاوروبية، لا تدخل صيدا بل تمر خارج الاسوار. ويتوزع سكان صيدا بين ٧٠٠٠ من المسلمين، و ٥٠٠ يهوداً. والباقون كاثوليك وموارنة وبروتستانت. وفي صيدا مدرسة للبنات اقامتها الارسالية الاميركية تقيم فيها ٤٥ طالبة الى تسعين أخريات في النهار الى مدرسة عالية للصبيان. وأقامت أخوية المحبة الفرنسية مدرسة للبنات، واليسوعيون مدرسة للصبيان. كما اقامت المقاصد الخيرية الاسلامية مدرسة للصبيان أيضاً.

اما بساتين الفاكهة والاشجار المثمرة في صيدا فتمتد لأكثر من ميل ونصف الميل خارج الاسوار، وهي مفخرة الصيداويين، وتضم الليمون والحامض والليمون الحلو والتين والمشمش والتفاح والسفرجل والموز والرمان والخوخ والبرقروق واللوز وسواها. ومنتجات هذه البساتين تصدر بحراً الى بيروت والاسكندرية، او براً الى سائر مدن لبنان والى دمشق. ومنظر السهل في نيسان، من منطقة النبي يحيى على نحو ميل شرقاً منظر خلاب تماماً. وخضرة هذه البساتين وجمالها لا تعدلها حتى المناظر الساحرة في جنوب انجلترا. لكن الخضرة لا تطال السهل كله بل هي تقتصر على الاراضي التي يرويها الأولي فتبقى خضراء نضرة طوال العام، بينما تحرق شمس الصيف اطرافه البعيدة والهضاب المجاورة فتغدو جرداء مغبرة.



خان النبي يونس
يقوم بالقرب من مزار على اسم يونس. وفي جواره أشجار
توت، وخلفه غابة زيتون وتين تتبع قرية النبي يونس وتدعى أيضاً الجيّة

وآثار صيدا الاكثر إلفاتاً هي بقايا المسطحات المرصوفة بالموزاييك شمال المدينة، وتل الموركس المكسور في الجنوب الغربي حيث كان يستخرج الصباغ الصوري الارجواني والناكروبوليس Necropolis او الاضرحة المشهورة جنوب شرق المدينة، او مدينة الأموات، كما وصفها رينان. تحتوي المنطقة هذه على عدد كبير من الأضرحة والنواويس وفيها مغاور مستطيلة، هي الاقدم، تدخلها في درجات حفرت على جوانب المنحدر فتقود الى غريفات صغيرة حفرت في الصخركما عند المصريين وفي المغاور سلالم صخرية وافاريز للنواويس حيث لا يزال بعضها في مكانه. وفيها، الى ذلك، مغاور مصقولة بالكلس وتعود الى النمط اليوناني الروماني، في بعضها كتابات يونانية. وفي مغاور أخرى نواويس رخامية من النمط الفينيقي القريب من شكل الانسان على قياس جسد محنط وهناك كذلك نواويس من رصاص، عثر على العديد منها في القرى الواقعة شرق المدينة. اما الأضرحة ذات القبات، داخل البساتين فهي من الطين وهي مربعة الشكل، مزخرفة بالاكاليل وغيرها من المنمنمات والمحفورات.

وعلى مسافة ١٠ دقائق جنوب شرقي بوابة عكا في صيدا يقوم كهف أبولون حيث اكتشفت سنة ١٨٥٥ نواويس بازلتية سوداء رائعة هي الان في متحف اللوڤر في باريس. واقتطعت الكتابة الفينيقية على جانب الضريخ وجرى حفظها على نحو جيد، وهي تتألف من ٩٩٠ كلمة، وقد كان للبحاثة الاوروبيين اكثر من ترجمة لها، الا ان الترجمات تتفق في الخطوط الاساسية التي تذهب كما يلي:

«في شهر بل Bul، في السنة الرابعة من حكمي، انا اشمونزار، ملك الصيدونيين، انتزعت قبل الاوان مثل ماء النهر

كل فرد من السلالة الملكية، وكل شخص، يفتح هذا المدفن، او ينقله من مكانه، سوف لن يكون له مدفن يوم وفاته، ولن يكون له في قبره ذخائر مقدسة، ولن يترك خلفه ابناً او ذرية ... وسوف تقطعه الالهة المقدسة. ولن يزرع له جذر، او يكون له ثمرة، لأني اشمون نزار ملك الصيدونيين، ابن تابنيث ملك الصيدونيين، والدتي ابمياستوريث كاهنة عشتار ملكتنا المتوجة ابنة اشمون نزار، ملك الصيدونيين... نحن الذين بنينا هيكل الالهة في صيدون الى البحر وجعلته الالهة عشتار الأعلى. ونحن الذين اصلحنا معبد أشمون، ومدافن آن دليل في الجبل... معبد بعل صيدون، ومعبد عشتار، مفخرة بعل سيد الملوك الذي منحنا دورا وجوبا والأراضي على اطراف دان Dan....»

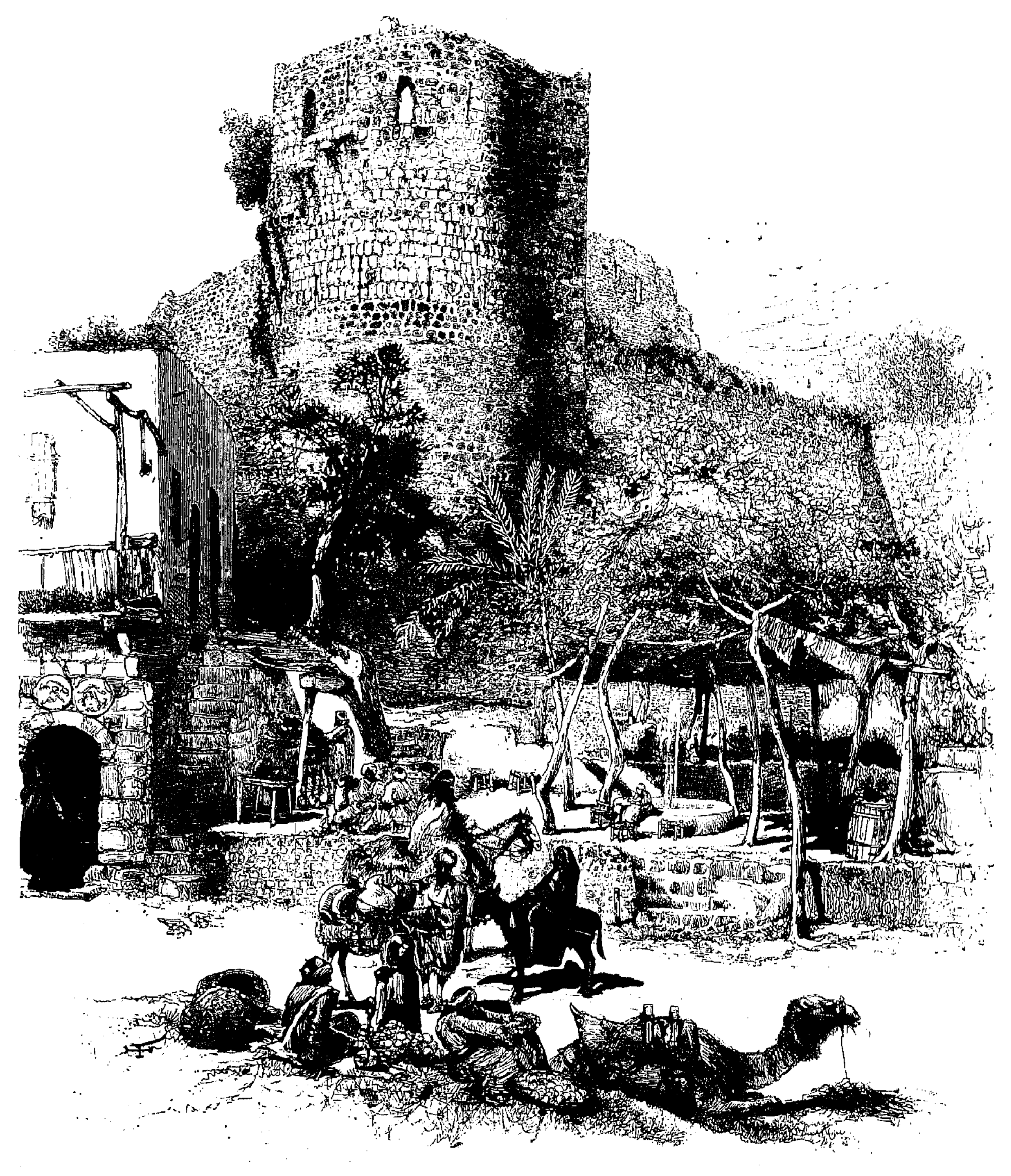
تحمل هذه النقوش بوضوح الروح الفينيقية، وهي أحدى اهم الكتابات الفينيقية المكتشفة، وتليها من حيث الأهمية كتابات مشا Mesha على حجر موبيت Mobite Stone او لوح سيلوم*(أوشولوم) Siloam table وهي ذات أصل بيوني PUNIC. كان للمدن الفينيقية سجلات وأرشيفات منظمة، تحفظ بعناية ولأزمنة طويلة، أهمها السجل الفينيقي اليوناني لسنكونياثون البحّاثة البيروتي، والذي قرىء على آبي بعل ملك بيروت. وفي رأي البروفسور سايس Sayce ان بقايا المكتبات الفينيقية يجب أن تكون موجودة في مكان ما في سوريا داخل المواقع الاثرية الكثيرة التي لم تكتشف بعد. ولطالما عثر بستانيو صيدا على كنوز أثرية في اثناء نكشهم الأرض او حفرهم أسس أبنية جديدة. وفي صيدا برج قديم هو حصن أو قلعة المزيح MEIZCH، كما يدعوه العرب، ويقال إن الذي بناه هو لويس الرابع سنة ١٢٥٣. ويقوم بالقرب من قاعدة البرج نصبان اكتشفا حديثاً. أما قلعة البحر فتقوم على جزيرة صغيرة تتصل باليابسة بواسطة جسر

---

* لم يكن لوح سيلوم قد اكتشف بعد حين كتب كولونيل ويلسون وصفه لقناة سيلوم وبركها (راجع ص ١٠٢، ١٦٠) وعليه فان بعض الاشياء يجب ان تضاف.

فقد اكتشف اللوح تلميذ للهر شيك، سنة ١٨٨٠، وهو مهندس معماري اقام طويلاً في القدس، فقد كان هذا يجول عند القناة التي تنقل الماء الى بركة سيلوم العليا منذ نبع العذراء حينما زلت به القدم وسقط في الماء، وحينما كان يحاول الخروج من الماء لاحظ اشارات تشبه الكتابة منقوشة على الجانب الداخلي الصخري للقناة والتي لا يبلغ عرضها هنا اكثر من قدمين؛ بينما يبلغ طولها ١٧٨٠ قدماً في حين ان الخط المستقيم للمسافة بين العين والبركة هو ١١٠٤ اقدام فقط. ويعلو الركام في مواقع محددة مجرى القناة (راجع ص ٧٨،ج ١). وكان ضروريا تخفيض منسوب المياه في القناة لنسخ الكتابة، ثم أمكن ليشن وبروفسور سايس وليواتنان كوندور استنساخ نسخ منها وتوزيعها، من ثم جرت اكثر من قراءة لها لا يختلف كثيراً بعضها عن بعض. وتفيد الكتابة، وفق قراءة سايس وآخرين، ان القناة قد حفرت من الجانبين في البدء ثم التقيا في الوسط: انظر للحفريات.. انه تاريخ النفق وبينما كان عمال الحفر يرفعون القطع.. اندفعت المياه نحو البركة في مسافة الف ذراع...» M.E.R.

حجري يقوم على تسع قناطر. بنيت القلعة في القرن الثالث عشر، إلا أن حجارتها الضخمة تعود الى بناء أقدم عهداً. وكانت الجزيرة تتصل في ما مضى لجهة الغرب، والجنوب الغربي، بحائط بحري يحمي الميناء، ولكن مع ردم فخر



قلعة صيدا، صيدون القديمة
تدعى اليوم قلعة المزية Mezzeh تقوم عند طرف المدينة الجنوبي الشرقي وفوق تل من الركام لا تزال تشاهد عليه بقايا الصدف الأرجواني.

الدين للميناء آل الحائط الى الخراب وانتزع السكان حجارته لأغراض البناء، وباتت مياه البحر تصل، مع ارتفاع الموج، الى الشاطىء. والمدرجات الفينيقية المبنية لأغراض فنية أو للمبادلات التجارية آلت بدورها الى الخراب والزوال. ولا

يذكر اليوم الا القليل عن تجارة صيدون، مثلها مثل ارواد وجبيل وصور، بينما تستأثر بيروت بتجارة سوريا. كذلك زال الى غير رجعة فن استخراج الصباغ الارجواني من أصداف الموركس، حيث يمكن العثور الى اليوم على الملايين من



إمرأة فلأحة تخض جلد صنع الجبنة.
والكيس هو عبارة عن جلد ماعز اعيد إقفاله، يملأ جزئياً بالحليب وتقفل فتحتا الجنبين باحكام، ويعلق في مكان ثم يربط بأربعة خيطان من مكان الساقين؛ ويخضّ بعدها بانتظام الى الامام والى الخلف، الى أن تكتمل العملي

بقايا او كسر الموركس على تلٍ بالقرب من المدخل الجنوبيِ الغربي لصيدا. وكذا الفنون المتصلة بشغل الذهب والفضة، ونسج الحرير والصوف فقد تركت كلها صيدا وصور نحو الأسواق الاكثر اتساعاً في بيروت ودمشق.



موقع سريبتا
كانت المدينة في القرن الثالث عشر خراباً، ولم يبق منها اليوم غير بقايا قواعد أبنية فوق مرتفع يسمى عين القنطرة وعلى الشاطئ جنوباً ولحوالي الميل ويمتدح مؤرخو الاغريق والرومان الأوائل الخمرة التي كانت تنتج في سريبتا

السهل الفينيقي

يمتد الطريق من صيدا الى صور على شاطئ البحر، وهو يخلو عموماً من الخضرة او مما هو لافت، الا انه يبدو في يسره وخلّوه من الرؤوس الصخرية نقيضاً للطريق الساحلي في فلسطين. ورغم أنه ما من شيء يحجز ماء البحر الا ان الحزام الرملي على الشاطئ المتباين في سماكته استمر قائماً ويمتد الى ما لا نهاية. ووراء هذا الحزام الرملي يمتد السهل الفينيقي الضيق ولكن الغني بتربته وبمائه. فينابيعه وآباره كثيرة وتعطي في الغالب ماء عذباً صافيا رغم أن بعضها هو على مسافة بضعة أقدام من مياه البحر. وعلى أطراف السهل ترتفع التلال الصخرية الحادة. وتقطع السهل بين الحين والحين انهار او جداول اقيم فوقها ايام الرومان أو في عهود متأخرة، جسور كثيرة ذات قناطر ما يزال بعضها قائماً، بينما ذهبت بأكثرها سيول الشتاء والاهمال ولم يبق منها غير أعمدة او أجزاء تنتشر هنا أو هناك. وهذه الجداول غزيرة جداً في الشتاء ويصعب مقاربتها او السباحة فيها، مثل نهر الزهراني (سمّي كذلك لزهر الدفلي الذي كان يكسو ضفتيه)، وهي قبل الصرفند التي تقوم في مكان زارفييت Zarerpath في العهد القديم، او سريبتا Sarepta في العهد الجديد. واليوم لا شيء تقريباً يشير الى المكان القديم الذي اقام فيه لفترة اليشع والى الأرملة الطيّبة حيث بارك الزيت في ابريقها. فالمكان القديم المفتوح من دون أي حماية طبيعية آل منذ زمن طويل الى الخراب، وانتقل سكانه الى مكان جديد يبعد حوالى الميلين الى الداخل، في حماية التلال التي أعطوها اسمهم، بعيداً عن غارات خيالة البدو. وكل ما تبقى من زاريبت القديمة هو بضع أكوام من الحجارة، فالجزء الاكبر منها نقل الى بيروت لأغراض البناء. ومع هذا، فهناك مقام صغير لولي يسمى «الخضر»، أو الاسم العربي للقديس جورج، الذي هو قديس وولي للمسيحيين والمسلمين في آن، ويظن ان الولي هو الذي خلف الصليبيين على القصر الذي شادوه في المكان نفسه الذي كان بيتاً لأليشع. ويغدو الاهتمام بالمكان مضاعفاً حين نفترض (احتمالاً ودون اية مستندات تاريخية دقيقة) ان سريبتا هذه قد بوركت ليس فقط بأليشع وانما بالرب نفسه حيث جرت فيها حادثة الرحمه بابنة المرأة السورية ـ الفينيقية. فما نعرفه تاريخياً هو أن القرية التي زارها هي في مكان ما على الشاطئ بين صيدون وصور. ولأن الرواية تقول أنها وراء صور، فسريبتا هي الوحيدة التي تمتلك هذه المواصفات. أوليس طبيعياً الافتراض ان الرب قد زار المكان الذي أقام فيه أليشع

طويلاً؟ وفي كل الاحوال فإن سكان الصرفند المحدثين قد نقلوا معهم الى موقعهم الجديد المكان المقدس، اذ في وسعهم أن يسيروا اليوم إلى منزل الأرملة والمكان الذي التقى فيه الرب الأرملة السورية ـ الفينيقية. ويبقى أنه ما من شيء ثابت سوى ان المكان كان، حتى أيام الصليبيين في جوار الشاطئ.

ونتقدم، على طول السهل الساحلي الخصب ولكن القليل الزراعة، صوب صور. ويأخذك التاريخ بعيداً فتحار كيف أمكن لهذا المكان المقفر أن يكون أحد أهم المشاعل التي صنعت فجر الحضارة، لكن البربرية وشريعة القوة عادت بالفينيقيين نحو الجبال الصخرية، فبات على الفلاح، الذي غادر السهل الى الجبال سعياً وراء أمنه، ان يصرف نصف نهاره في قدومه الى السهل او رواحه منه عند المغيب حاملاً عدته على كتفيه.

تسير الطريق الى صور على حافة شاطئ البحر ومن دون ان تمر بقرية واحدة لاشيء سوى اضرحة واعمدة قديمة تطالعك بين الفينة والفينة. ونمر ببضع سواقٍ صغيرة الى أن نصل الى ضفاف القاسمية، او ليونتيس Leontes قديماً، والذي مازال في جزئه العالي يحمل الاسم عينه، الليطاني. ننعطف عند القاسمية الى الداخل قليلاً لنمر في بقايا



ميناء صيدا من سريبتا
والمسافة المباشرة من سريبتا الى صيدا، هي عشرة أميال، عبر الخليج. الى اليمين يحجبها الشجر آثار على تل البراق Tell Burâk، وقريباً منها خان البراق.
وفي البعيد القمم المغطاة بالثلوج في جبل لبنان.

طريق روماني باتجاه احد الجسور القليلة التي نجت من الاهمال والخراب. وبخلاف ما سبق، يبدو السهل والوادي عند القاسمية مستثمرين على نحو حسن، وتقوم حقول وبساتين وخضرة واضحة. وبالقرب من النهر خان بحالة جيدة، لخدمة العابرين، كما تنتشر في الوادي بضع قرى، احداها جنوب الجسر تماماً ولأن مجرى النهر عميق عند

هذه النقطة والمياه غزيرة، كان وجود الجسر أمراً لا مفر منه، فكان من الضروري بالتالي اعادة بنائه وهو ما لا يحدث كثيراً في هذه البلاد.

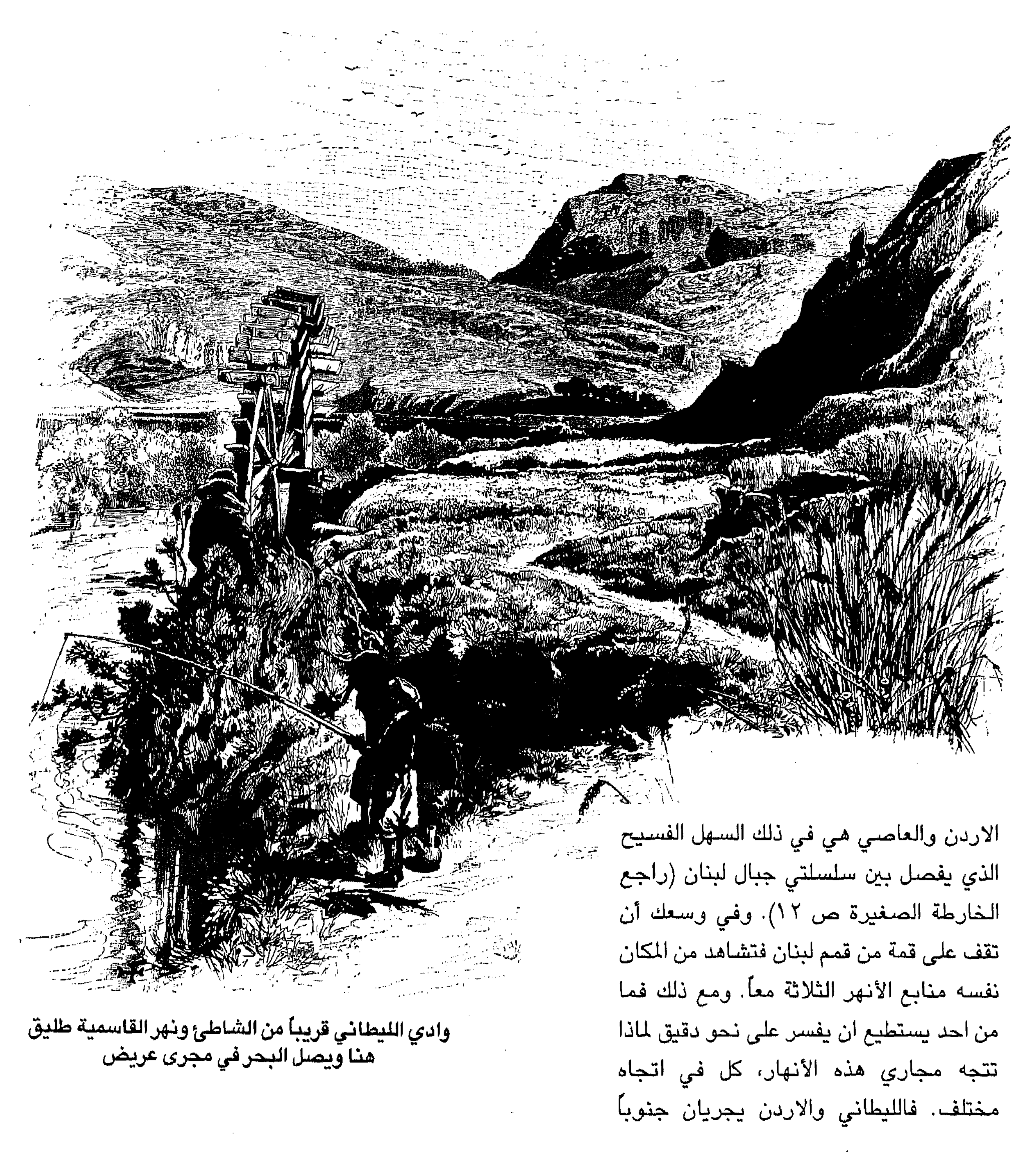


جسر على نهر الليطاني (القاسمية)
على الطريق الروماني القديم، تمر عنده اليوم اسلاك التلغراف والقسم العالي من النهر يدعى الليطاني.

ومن القاسمية لا يحتاج المسافر الى أكثر من ساعة واحدة من الزمن ليصل الى صور Tyre ، العاصمة التاريخية للفينيقيين. إلا أننا أضعنا نهاراً كاملاً في استكشاف الجزء الوعر من مجرى الليطاني، حيث يشق النهر طريقه في سهل غني بزراعة الحنطة، ولعدة اميال، قبل أن ينعطف فجأة وفي زاوية مستقيمة بعد اصطدامه بهضبة صخرية هي جزء من الهضاب المسماة حائط الجليل. ومعظم السهل خالٍ من الشجر، بينما يملأ شجر الدفلي ضفتي النهر، إلا أن السهل غنيٌّ بالحنطة وخصوصاً في الضفة الشمالية للنهر. وتقوم على أطراف السهل عند حفافي التلال بقعة أخاذة يملأها شجر الزيتون بظلاله الباسقة بينما تقوم خلفها عند أقدام المنحدر قرية جميلة. ولا يحتاج الوصول الى التلة اكثر من نصف ساعة من المشي إلا أن تسلق منحدرها بدا صعباً على الخيل، وبشق النفس. ومع ذلك فالمشاهد الرائعة من على التلة كانت تستحق بالفعل هذا العناء؛ إذ تناثرت مجموعة قرى حول التلة، وأبعد قليلاً كان منظر السهل والشاطئ والبحر ساحراً. تبعد القرى تلك، واحدتها عن الأخرى، ثلاثة أو أربعة أميال، واللافت أن اسماءها مشتقة من العبرية مثل راسية، وزرارية وزارا، وعتشيت، وشوكين وما شابه.

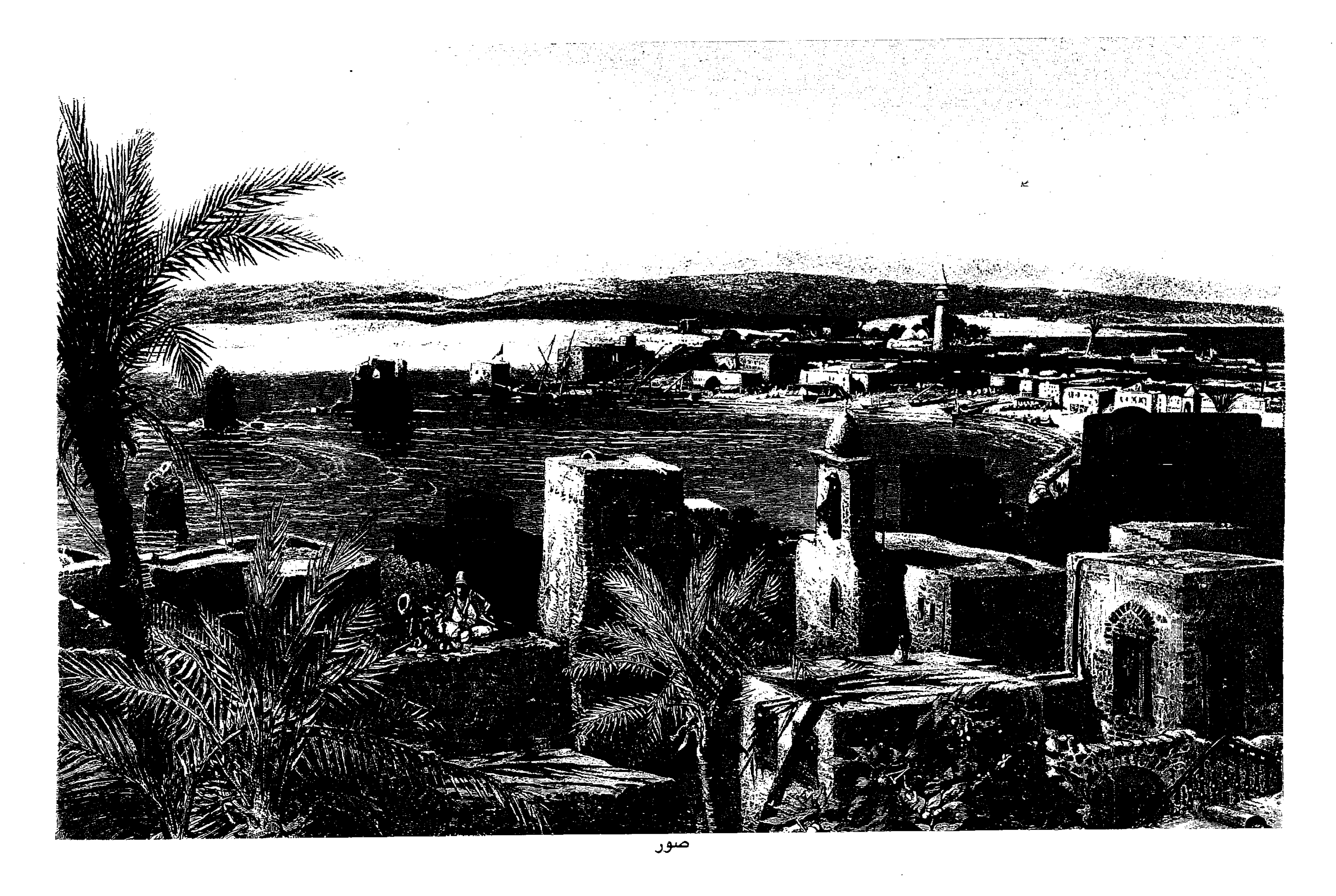
ورغم أهمية المنطقة، إذ استوطنتها قبيلة آشور، ومع ذلك ما من بحث قد كرّس، حتى الآن لتعيين هويتهم خلا الاسماء القليلة التي وردت في كتاب جشوا. وتحيط بكل واحدة من القرى تلك غابة من شجر التين تمنح تلك الجبال بعض الخضرة في الصيف، لكنها تعود عارية شتاء، وفي ساحات العديد من تلك القرى بقايا حصون او أسوار فينيقية قديمة.

كان كل ما في المنطقة، خصوصاً اذا تقدمنا اكثر، يوحي بأننا في جيرة الليطاني، ومع ذلك فقد خلا الكتاب المقدس من أي إشارة الى النهر، رغم أنه الأكبر بعد نهر الأردن. ينبع الليطاني بعيداً الى الشمال قرب بعلبك، وينابيعه كما ينابيع



وادي الليطاني قريباً من الشاطئ ونهر القاسمية طليق هنا ويصل البحر في مجرى عريض

الاردن والعاصي هي في ذلك السهل الفسيح الذي يفصل بين سلسلتي جبال لبنان (راجع الخارطة الصغيرة ص ١٢). وفي وسعك أن تقف على قمة من قمم لبنان فتشاهد من المكان نفسه منابع الأنهر الثلاثة معاً. ومع ذلك فما من احد يستطيع ان يفسر على نحو دقيق لماذا تتجه مجاري هذه الأنهار، كل في اتجاه مختلف. فالليطاني والاردن يجريان جنوباً على نحو متواز أولاً، ولعدة أميال بينما يتجه العاصي، على نقيض ذلك، شمالاً. والهضبة التي تفصل بينهما تعلو بالتدريخ مكونةً حوضاً مائياً يفصل لبنان عن حرمون، وتمتد الى أن تتصل بالمنحدرات التي يبدأ منها ما يسمى بحائط الجليل، حيث ينعطف الليطاني بعد اصطدامه بها غرباً . بعد أن يتجاوز النهر وادياً عميقاً جداً وقبل أن يصل الى قلعة الشقيف، يصطدم الليطاني بحاجز جبلي هو جزء من السلسلة التي تتفرع شرقاً وغرباً. ولأن لا مهرب آخر للنهر الذي يصطدم على نحو مستقيم بالجدار العالي فهو ينعطف غرباً في زاوية مستقيمة حافراً مجراه الضيق عميقاً وعلى نحو لا يراه العابر حتى يصل الى حافته، في ما يشبه الاستدارة حول الجبل. وتخلو المنطقة التي تقع شمال النهر من التلال العالية او الوديان العميقة وذلك بدءا من الهضبة الواقعة فوق مصب القاسمية (او الليطاني في قسمه العالي، وهو الاسم الفينيقي الاصلي قبل ان يحرّفه اليونانيون الى اليونتس) وخارج الشقيف والسلسلة الجبلية التي تحتوي حوض الأردن.



صور

ونترك مجرى الليطاني الى السهل الفينيقي من جديد الذي يمتد الى حوالى ستة أميال أخرى على طول الساحل وبين كثبان رملية تتفاوت كثافتها. ولا يقطع هذا الشاطئ غير رأس سربتا شمالاً، يشكل أحد طرفي القوس بينما تشكل صور طرفه الجنوبي الآخر.

لم تعد صور جزيرة، كما كانت، وانما هي الآن شبه جزيرة تدخل في البحر، حتى الثمالة، وأنّى أتيتها من الشمال او من الجنوب. ويربط شريط من الرمال الميناء بالسهل، والذي غدا أخيراً واحة من بساتين التوت والليمون والاشجار المثمرة الأخرى، على خطى بساتين سهل صيدا. لكن الواحة لاتتصل الشاطئ، بل تبقى الى يسارنا؛ بينما الشاطئ على يميننا ركام أعمدة وأخشاب وهياكل زوارق صدئة كأنما انواء بحرية عنيفة دفعتها الى الشاطئ. وفي مواجهتها تماماً ينبوع ماء يضلله مبنى قديم يقوم على قناطر ويحتوي على برك ماء يغذيها الينبوع، وهي منتزه هذه الجهة من المدينة. كانت صور قبل عشرين عاماً بلدة صغيرة خربة، مهملة؛ ورغم ان شيئاً من ذلك ما زال موجوداً إلا أنها أفضل حالاً في اسواقها ومتاجرها وفي تعداد سكانها الذين يبلغون الآن سبعة الآف ساكن. وعلى جانبي المدخل الشمالي للمدينة، حيث دخلنا، محلات وورش حرفية صغيرة، كما يشاهد عدد من زوارق الصيد في الميناء الداخلي. ويمتد سوق لابأس به فيه القماش، والجلد المدبوغ، والمطاحن من حوران، وهي تشكل مع التبغ عنصر التجارة الأساسي في صور. ومعظم الصوريين يجد رزقه في صيد السمك، وبعضهم يعمل في الدباغة، رغم ان الصباغ الصوري القديم لم يعد موجوداً كما انك لن تعثر البتة على الأرجوان الصوري. والشوارع في معظمها أزقة بائسة، خلال مكان هنا أو هناك يتسع فيه الطريق وتضلله سعف النخيل بينما تتناثر بين الاعمدة الغرانيتية والحجرية الضخمة أكواخ بلا نوافذ، ارضيتها من طين، وفي حال بادية من الفقر والفوضى. والشريط الرملي الذي يصل الميناء بالبوابة هو الممر الذي ربط به الاسكندر الكبير المدينة بالبر. فصور جزيرة في الأساس مساحتها ١٢٥ هكتاراً تقريباً، وتبعد عن الشاطئ حوالى الميل، حيث كان الجزء الأكبر من المدينة «باليوتيرس» Puleotyrus. ويمكن الى الآن مشاهدة أجزاء من جدران المرفأين القديمين على جانبي شبه الجزيرة الشمالي والجنوبي، ويتكون معظمها اليوم من مساحات مترامية تصلح ان تكون، وبخاصة الى الغرب من المدينة الحديثة، مكاناً مثالياً تنصب فيه الخيم على بعد ياردات من الموج. وعلى حفافي الاعمدة الغرانيتية والحجرية الضخمة التي تتكسر على صفحة الماء فتتصل قعر تلك المياه الصافية.

وآثار صور البادية فوق المياه قليلة في الواقع، فخلا جدران المرفأين هناك القليل مما يذكّر بعظمة ماضي صور الفينيقي وسلطانها، قبل أن يقهرها الأسكندر الكبير.

هناك بناء واحد، فقط يعيد الى ذاكرة العابر قصة سيدة البحار وملكة التجارة وام الممالك القوية. تحتل كاتدرائية الصليبيين موقعاً استراتيجياً عند الزاوية الجنوبية الشرقية للمدينة المنكمشة على ذاتها الآن. ورغم ان المبنى هو من دون سقف وطرفه الغربي مدّمر، فإنه ما زال عموماً في حالة ممتازة نسبياً. والكاتدرائية هي أكبر الكنائس التي تركها الصليبيون في سوريا وهي أقيمت في موقع بناء أسبق عهداً هو باسيليكا قسطنطين Pasilica of Constantine. وقد حصلت الحكومة الالمانية قبل بضع سنوات على حق حماية الكاتدرائية وكان ذلك أمراً حسناً وسبيلاً لحمايتها من العبث والتدمير. كما أنهم قاموا ببعض الحفريات، داخلها وجوارها، وجرى الكشف على مجموعة انجازات معمارية. ويضع كونت دي ڤوغ، واضع أول مرجع ثقة في العمارة السورية، تاريخ بناء الكاتدرائية في حدود سنة ١١٢٥، وموقوفة الى سانت مارك. الا ان تاريخ البناء يبدو أقدم من ذلك بكثير. فالكنيسة الأصلية بناها قسطنطين، حيث كان بولينوس مطراناً عليها، وحيث كان للمؤرخ اسبيوس، كما يرد في تاريخه الكنسي خطاب إحتفالي في مناسبة رسم بولينوس مطراناً يقول انه لتكريم شخص خاص ذي عقل منفتح. وفي الكنيسة تلك ترقد عظام الأب العظيم للكنيسة أوريجن Origen. ولكن الكنيسة القديمة آلت في سنوات الفوضى الى دمار ودون ان نعرف تحديداً ماذا حدث، الى أن أقام الصليبيون كاتدرائيتهم في الموقع نفسه. يبلغ طول المبنى ٢٥٠ قدماً وعرضه ١٣٦ قدماً ورغم اننا لم نتجرأ على نقض قرار دي ڤوغ، فإنه من الواضح لكل من يراها أن إعادة البناء انما تمّت وفق خطوط الكنيسة القديمة ذات النمط اليوناني الباسيلي وليس على النمط اللاتيني. فهناك ثلاثة نتوّات بارزة عند الطرف الشرقي لا تستطيع الا الحكم انها

مثل الزوايا السفلية للحيطان، من بقايا البناء الأصلي لقسطنطين، وكانت الأكواخ، ولبضع سنوات خلت تملأ الفناء الداخلي لكنها أزيلت الآن ولم يبق سوى قطع الاعمدة الغرانيتية الحمراء التي كانت تحمل السقف. ويتراوح قطر هذه الاعمدة، وبعضها مزدوج، بين ٦ و ٨ أقدام وطولها حوالى ٢٦ قدماً، إلا أنها اليوم مجرد بقايا او حطام ومما لاشك فيه أنها هي نفسها قد انتزعت من قبل قسطنطين من أبنية او هياكل هي أقدم عهداً. ورغم أن بعض هذه الأعمدة قد أزيل، غير مرة، من قبل المسلمين، ألا أنها كانت دائماً اقسى من ان تكسر بسهولة واثقل من ان تحمل إلى أماكن أخرى. اما عن



آثار كاتدرائية صور

ويصف ايسبيوس البناء بانه الأجمل بين هياكل فينيقيا، وبين الاثار عامود مزدوج من الغرانيت الاحمر، الى الأرض، مع تاجين متوازيين ضخمين.

موقع اوريجن القديم فما من شيء بقي منه او يذكرّ به. ويعتقد أن بعض جثمان فريدريك بربروسا هو تحت إحدى هذه النتوْات. فقد مات الامبراطور في طرسوس Tarsus وجرى لجثمان هذا القائد الصليبي العظيم احتفالات دفن على طول الساحل السوري الى أن دفن في انطاكيه، لكن عظامه حملت لتدفن في مكان أبعد ضمن الاراضي المقدسة. قليلة هي بالتأكيد الكنائس التي تنافس كاتدرائية صور في تاريخها العريق هذا.

ومع هذا تبدو الكنيسة، اذا تسلقت أحد جدرانها القديمة وأطللت على كثبان الرمل والبحر وبقايا الأعمدة البنية الى يميننا، وكأنها تنتمي الى الأمس فقط قياساً بالتاريخ السحيق الذي يطل من كل زاوية هنا. فمصر وآشور أقدم عهداً بكثير؛ ولكن ما صلة ذلك بفينيقيا؟ أين ذلك الشعب الغريب العجيب؟ لم ينزل الفينيقيون اليابسة الا لماماً. فهم مثل بعض طيور البحر التي لا تقارب الشاطئ الا لتطعم صغارها، وقبل أن ترحل من جديد. لم يطلب الفينيقيون أرضاً ولم يستعمروا شعباً ومع ذلك فهم في كل أرض وعلى كل شاطئ. ونسأل أيضاً عن مستوطنات صور وصيدا اين هي؟ فعلى طول ذلك الشاطئ السوري المستقل طويلاً، رغم أنه ما من حاجز طبيعي يحميه، يمكن للعابر اليوم أن يتخيل روح التجارة والمغامرة التي ملكته في الأزمنة الخوالي، وأن يشتمها او يراها في وقع خطوة على الرمل هنا، او في عامود او بقية كتابة هناك، او في الجزر الصخرية التي تضرب عمقاً داخل البحر. وكما لقلاق البحر وقف عليها الفينيقي او استراح عندها، لبرهة من الزمن بين مغامرة ومغامرة. ومثلُ صور في جزرها الصخرية وريفها البحري، مثل صيدون وبيرتس وجبيل وبوطرسيس وتريبولي وارادوس (او صيدون وبيروت وجبيل والبترون وطرابلس وارواد في اسمائها الحديثة)؛ معظمها يتشابه في الموقع وثلاث منها جبيل، والبترون، وطرابلس، هي كصور في ريفها الصخري الضارب في البحر في موازاة الجبال خلفها. ورغم أن صور هي ابنة صيدون، الا انها نمت بسرعة فغدت سيدة الفدرالية الفينيقية. فبماذا لا تدين أوروبا في مدنيتها لهذه القرى، اليوم؟ لنعد فقط الى سجلات إيزقيل Ezekil لنرى المدى والعمق اللذين بلغتهما تجارتهم. كانت صور رائدة صناعة الزجاج فاحتفظت بسره وظلت سيدة هذا المجال لقرون. ومن صور حمل بعض الكهنة الحجاج من نورث او مبريا N.Ombrea الزجاج الى انجلترا، واستنبتوا على ضفاف الوير Wear أول أعمال الزجاج في الغرب في أيام السبعية السكسونية Saxon . ومن هنا جاء أعظم الصباغين الذين زخرفوا أفخم الحلل والثياب الملكية، ومن هنا جاء البرونز والحديد اللذان جهزا جيوش العالم القديم. حملت سفن فينيقيا صناعاتهم الدقيقة هذه الى بحار لم يعرفها أحد من قبل، وعادت الى الشرق محملة بأخبار عالم يقع خلف أعمدة هرقل. شغل الصوريون مناجم اسبانيا وحملوا سفنهم بتنك كورنوال Corn wall. من هنا خرج الرجال الذين ارتادوا الشواطئ الغربية للمتوسط وزرعوها مستوطنات ومواقع لهم. انها أم قرطاج التي عادت فتفوقت على سيدة البحار، ونافست روما على حكم العالم ردحاً من الزمن. لكننا فوق ذلك كله مدينون بأبجديتنا لفينيقيا. فمن هذه الشطآن حمل قدموس الحرف الذي غزل به هوميروس أشعاره، وغدا الاطار التعبيري لكل لغة في اوروبا.

متى بدأت هذه المدينة العظيمة؟ لا نملك الا القليل لنجيب، إذ لم يبق شيء من أدبها المكتوب خلا بعض النقوش وإشارات على بقايا قطع من عملتها تخبرنا عن ماهية لغتها. في عهد إكسورس(١٤٥٠ق. م) كانت صور، كما يروي جوشوا (29 XIX Joshua) قوية؛ كما كانت معروفة، في عهد داوود، لا ببحارتها الشجعان فقط وانما بفنونها وحرفها كذلك؛ فقد حمل له بحارتها خشب الارز من لبنان وبنى قصره بناؤوها ونجاروها. وفي عهد أقرب كان تفاهم بين حيرام وسليمان اللذين ارتبطا بمعاهدة تحالف وتجارة. وقدمت المدينة العظيمة المهندسين والايدي العاملة المهرة الذين اشتركوا في بناء الهيكل، الى مواد أخرى ايضاً. لكن شيئاً لم يبقَ من صور الايام الغابرة تلك خلا بعض جدران مرفأها القديم وحجارة منها. لقد نجت صور وشقيقاتها طوال فترة السيطرة الفاريسة من التدمير ومن سوء المعاملة. فقد كان الصوريون اذكياء بما يكفي لتسيير تجارتهم، وعقدوا لذلك التحالفات والمعاهدات المناسبة، ونأوا عن كل مطمح في أرض او يابسة، فأمكنهم أن يكونوا منافسين شرفاء ولم يتحولوا قط أذلاء او تابعين. وحتى حين وقعت صيدا في يد الهكسوس، ظلت صور حرة والى ان سقطت في يد الاسكندر بعد حصار دام سبعة أشهر. والعدد الهائل من الاعمدة التي تنتشر على الشاطئ لتشكل وسادة للبحر انما تنتمي كلها لصور الثانية التي قامت من تحت الرماد لتزدهر من جديد حتى نهاية القرن الثاني حينما دمرها باسكينوس نايجر B. Naiger. ثم انتعشت وازدهرت ثانية ولقرون عدة وحتى مجيء الصليبيين. وتحولت صور مع الصليبيين الى أحد اهم مراكزهم الدينية وكانت كاتدرائيتها، كما رأينا بعض آخر مظاهر العمارة الصليبية في الشرق قبل انكفاء آخر وحدة صليبية عائدة الى أوروبا. وكان انبعاث صور الأخير مع الفتح العثماني لسوريا سنة ١٥١٦ .

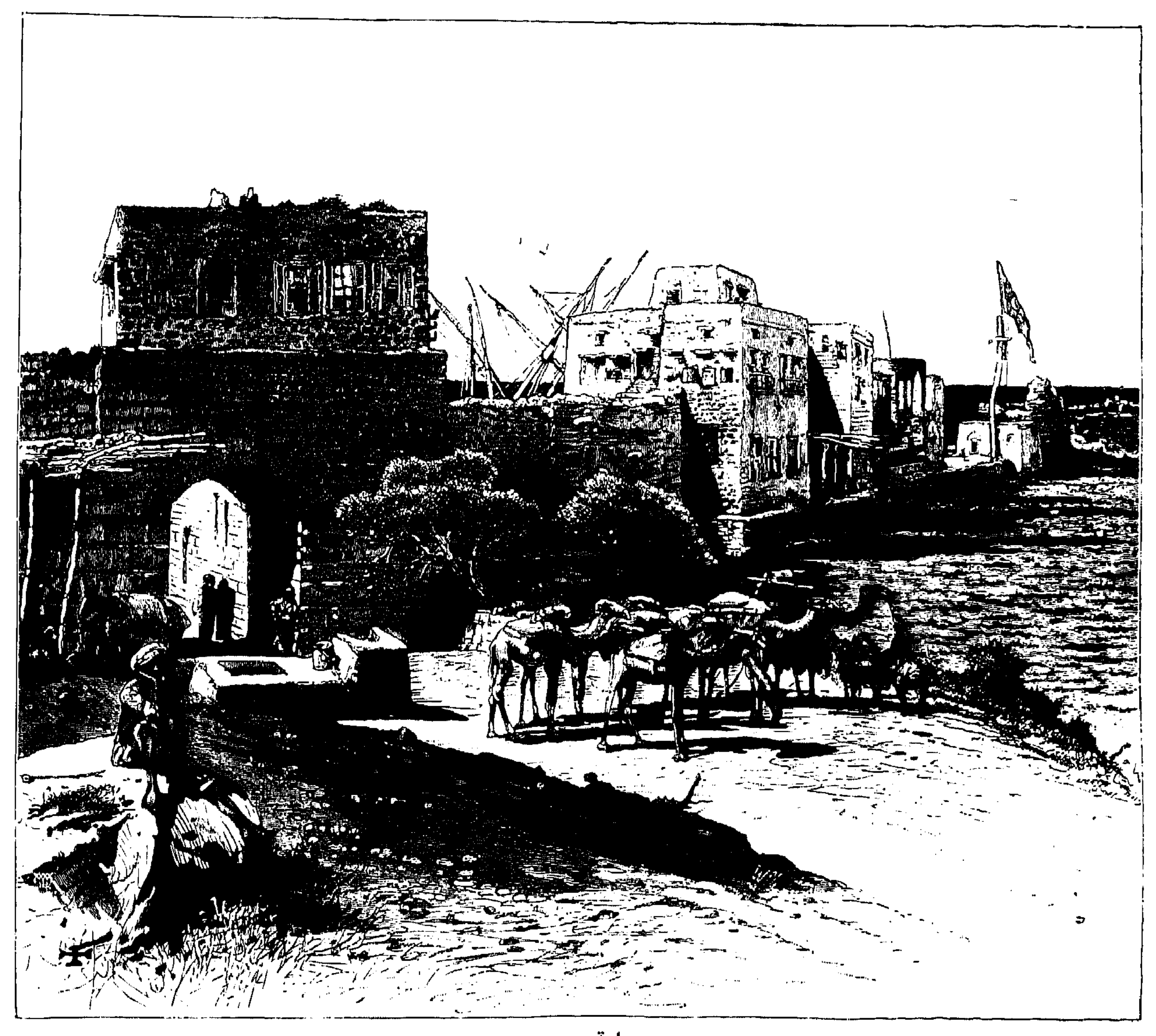
لكن التجوال بين روايات تاريخ صور هو في الحقيقة من باب الفضول الزائد، ففي خرابها وأعمدتها التي تملأ كل مكان شواهد تكفي للدلالة على ذلك الماضي، اما الأعمدة الأسعد حظاً فقد غدت محاجر لعدد كبير من أبنية الساحل وصولاً الى بيروت وعكا. هوذا قدر الأمكنة التي كانت مسكونة ومشغولة على الدوام ان تغدو آثار موتها شاهداً على الحياة التي كانت لها. والشواهد على حياة صور الضاربة في القدم ماثلةٌ امامك أنّى اتجهت. فلو تقدمت أكثر على الشاطئ، وبخاصة عند الجهة الجنوبية للرأس، لبدت الارض كما لو أنها فرشت بقطع لا تنتهي من الفخار والحصى البحري الناعم، بينما الأعمدة العتيقة مرمية في كل اتجاه يعلوها الرمل او يعرش حولها الطحلب والعلّيق.



آثار من صور

تعطي مشاهد الجانب الجنوبي فكرة واضحة عن تصميم المدينة القديمة وموقعها حيث القواعد الضخمة والجدران الحجرية الهائلة التي كانت قائمة، وينشر الصيادون اليوم شباكهم فوقها بينما تلامس الاعمدة وقواعدها صفحة الماء كأنما «حجارتها وغبارها في وسط البحر». كانت الجدران الضخمة من هذه الجهة، كما يبدو، بهدف حماية الميناء المصري، كما كان يعرف والذي هو اكبر من الميناء القائم اليوم عند الطرف الشمالي من الجزيرة، والذي كان يعرف بالصيدوني، ويحتمل ان الشريط الرملي الواسع القائم اليوم جنوب ممر الاسكندر انما كان أرصفة لرسو السفن ومنشآت لأغراض التحميل والتفريغ والخزن. وكان الممر في البدء شريطاً ضيقاً إلا أنه اتسع تدريجاً بفعل الركام والاضافات والمياه الضحلة حتى غدا في اتساع الجزيرة نفسها او يكاد. حدث هذا التحول في زمن قديم مضى، إذ يقوم عند الزاوية الجنوبية الشرقية، وفوق ما كان يوماً بحراً، ما يسمى ببرج الجزائري وهو امتداد من التحصينات المتهدّمة والتي كانت قد ابتنيت من مواد مباني وانشاءات أقدم عهداً، رغم أنه هو نفسه يعود للحقبة

الصليبية بل ربما كان جزءاً من خطوطهم الدفاعية . ويحتمل أن البوابة الحالية تقوم هي ايضاً على موقع يعود الى العصر الوسيط، ورغم الحراسة التي مازالت عليها إلا أنها تبدو الان رمزية اكثرمما هي واقعية، فأجزاء صغيرة فقط من السور المحيط بالمدينة مازالت قائمة، والمكان مفتوح في كل المواقع والى كل الاتجاهات، ويمكن القول أن كل شارع في صور ينتهي في الواقع الى مخرج يقود الى خارج السور. واذا تجولت بين خرائب صور يمكنك أن تلاحظ فوراً أن



بوابة صور
هناك ينبوعا مياه عذبة عند الطرف الشمالي من شبة الجزيرة، احدهما بالقرب من البوابة ويظن أنهما يتصلان بينابيع راس العين.

هذا المكان قد استخدم جيلاً بعد جيل محجراً تقتلع منه الحجارة لأغراض البناء. ولقد رأينا بالفعل في موقع ملاصق للابنية الحديثة حفرة على عمق حوالى ١٠ أقدام استخدمت كمقلع لحجارة البناء. ورأينا عند هذا العمق جدراناً قديمة واعمدة مكسورة وعناصر أخرى من انشاءات أقدم زمناً، مما يعني ببساطة ان صور القديمة، صور احيرام وسليمان، لا بد من أنها مدفونة تحت هذه الجدران او أعمق بقليل.

ثم تابعنا جولتنا فلفتتنا أكوام على السهل غير بعيدة عن الشاطئ، فاذا هي أكوام من الاصداف البحرية من نوعين او ثلاثة أنواع Murex brandaris و Murex Trunculus ومن النوع الذي يستخدم في بلاد الشمال، في الدنمارك مثلاً، لأغراض الاستخدام في المطبخ، ولكن طبعاً من دون الاحساس العميق بالتاريخ. أما هنا فهذه الاصداف شاهد على صناعة متفردة كانت لصور. كان صباغ الأرجوان ينتزع من السمك او الحيوان البحري المقيم في هذه الأصداف، نقطة واحدة من كل صدفة. أو يَكون غريباً بالتالي أن يكون هذا اللون غالي الثمن؟

ثم نسير في الجهة الجنوبية باتجاه برك رأس العين، حدود صور القديمة او باليوتيريس Palio Tyrus وكان الاعتقاد السائد دائماً أن صور البحرية هي الأصل، مع انه في وسعنا الشعور بعد جولتنا أن الجزيرة كانت مسكونة ومحصنة ومركزاً تجارياً رديفاً للمدينة البرية. تبعد رأس العين عن قلب المدينة حوالى أربعة أميال ونصف الميل أي



برك رأس العين وجزء من القناة الرومانية.
عند هذا الموقع كانت تقوم باليوتيريس والتي لم يتبق منها شيء اليوم فموادها جرفها الاسكندر لبناء الممر الذي ربط صور البحرية باليابسة.



مسافة ساعة من الزمن. تنتشر المدينة البرية على طول الشاطئ في جانبيه، لم تكن صور هنا مقفلة، بل كان هناك تداخل مع الضواحي، لذا كانت البساتين وأشجار الفواكه تنتشر باتجاه التلال. لكنها زالت كلها تقريباً والباقي مزروع بالحنطة أو مهمل. وفي إمكاننا أن نتبع اليوم القناة التي كانت تجر المياه من هذه الينابيع الى الجزيرة. وراس العين نفسها هي مجموع لوحات جميلة، من آثار ومطاحن مائية واكواخ واشجار تنعش الجو والينابيع متعددة وغزيرة. ويبدو ان مجاري المياه الداخلية في طبقة الصخر الرملي في المنطقة تتركز باتجاه هذه البقعة لتظهر من ثم في قوة واندفاع. ويتجمع الماء في برك صخرية، الواحدة منها محفورة او مبنية حول نبع كبير تصب فيها كميات ضخمة من المياه وباندفاع واضح. والهدف الأصلي من هذه الانشاءات، والتي تذكر ببرك سليمان قرب بيت لحم هو دفع المياه الى أعلى، وتحديداً الى ارتفاع يكفي، كي تصب في القناة الرومانية. ورغم ان القناة

قناة، راس العين
سراسنية Sarscenic، على عقود مقوسة قليلاً تكاد الخضرة تخفيها.

مدمرة الان إلا أنه يمكن استعادة الخط الذي كانت تسلكه عبر السهل حيث تتجه اولاً الى المدينة البرية في مواجهة الجزيرة فتصل الى ما هو اليوم ركام ضخم من الحجارة يحتمل أنه كان خزاناً آخر، تنطلق منه القناة من جديد غرباً صوب الشاطئ وحجارة القناة ونوع القناطر التي تستند اليها يدلان الى انها انشئت، على الأرجح، في الحقبة الرومانية، إلا أن خزانات المياه الضخمة يمكن أن تكون عائدة الى فترة أقدم عهداً فبعض الكتابات القديمة والوسيطة تنسب بناءها الى الملك سليمان بينما ينسبها محدثون آخرون الى الاسكندر. إلا أنه يصعب تصور أن الفاتح الكبير الذي عاندته المدينة طويلاً قد وجد من الرغبة او الوقت ما يكفي لإنشاء مثل هذا المشروع الضخم. عندنا، بالمقابل غير دليل على ان هذه الانشاءات هي شاهد صامت آخر على عبقرية الفينيقيين القدامى، كما اني لم أرَ عملاً مماثلاً شاده الرومان في اي مكان آخر. واحتمال أن الرومان هم الذين بنوا هذا الإنجاز المعماري، إحتمال يمكن قبوله على قاعدة أنه أنشئ على قناة سابقة، لأننا أكيدون ان العمل الذي كان ينجزه كل من يحاصر المدينة، مصرياً كان ام أشورياً ، فارسياً يونانياً او رومانياً، هو تخريب امدادات المياه قبل التفكير بجرها. إلا أن هناك في الواقع قناة واحدة تعود الى حقبة متأخرة الى العهد الصليبي، وهي تبدأ من الخزان الرابع الأصغر، ولها قناطر ذات أطراف حادة، وكانت بغرض ري السهل اما الخزان الأكبر فهو سداسي الشكل قطره ٦٦ قدماً وارتفاعه ٢٥ قدماً وجداره مغطى بطين كثيف، ويميل الى الداخل بلطف من القاعدة الى القمة حينما يصبح عرض الحائط حوالى ٨ اقدام. وقد جرى تثبيت حجارة الجدار على هذا الارتفاع الهائل بأنقى وأقسى أنواع الطين المعروفة. كان الماء ينقع بالكلس ثم تطلى به حيطان الخزان، وكذلك الصواعد في محيط الحوض والدرجات وداخل قناة الجر. اما الاستعمال الوحيد المتبقي لتشغيل اليوم من ذلك العمل الضخم فهو دولاب مائي لمطحنة حنطة مجاورة بينما تجري المياه عبر او فوق الاجزاء المتهدمة لتضيع في البحر. ولقد جرى ذكر هذه الينابيع للمرة الاولى في سجلات صور القديمة حين خرّبها شلمانصّر بعيد ارتداده عن حصار المدينة مما يشير الى أهميتها في ذلك التاريخ المبكر. وكانت المياه تستخدم في العهد الصليبي، لري السهل بكامله الذي كان مزروعاً بمختلف انواع الاشجار المثمرة وخصوصاً قصب السكر وعلى نحو يخالف تماماً حال السهل الراهنة.

ولكن ما كان حال هذا السهل وحال صور القديمة في أيام اسرائيل؟ كانت حصون صور منيعة لا تغلب واساطيلها تحكم البحر، وقصور امرائها التجار تنتشر خلال السهل لأميال عدة نحو الجبال (لم تمتد التحصينات الى باليوتيريس) وحيث الثروة والفن لبناء وتزيين اجمل القصور والحدائق والممرات في صور التي «أكمل البناؤون جمالها» فبلغوا بها ما لم يجر بلوغه من قبل. الإبنوس والعاج، والجواهر من الهند، والحلي من الشرق والتنك من كورنوال Cornwall والذهب من ترشيش ، التوابل من الجزيرة العربية والكتان من مصر، والفضة والحديد والرصاص من أقاصي الأرض، والمرجان والعقيق من سوريا، والقماش من بلاد ما بين النهرين، وغيرها وغيرها، من كنوز صور القديمة أم التجارة وزينتها. لكن صور تلك «أفلت شمسها آلان وشمس تجارتها ولم يبق غير آلاثار والاعمدة المنكسرة في البحر» ورغم هذا الشعور بالحزن الذي يسكنك بين أطلال صور فما من شيء ابهى، ربما، من نزهة ليلية، في ضوء القمر من رأس العين الى صور بينما الاشعة الفضية تتكسر بعيداً على صفحة الماء التي خلت الآن من عجقة الاشرعة وصراخ البحارة ولم يبق غير الظلال السوداء للاعمدة الرخامية تحرس الشاطئ، أو تنوح، في ضوء القمر على عز المدينة الذي انقضى.

وتبقى زيارة قبر حيرام Hiram ويمكن أن تصله بيسرٍ من رأس العين أو من صور نفسها باتباعك مجرى القناة لحوالى الميلين، ثم تنعطف باتجاه التلال التي تبدأ هنا بالارتفاع تدريجاً فوق مستوى السهل. وبالقرب من قبر حيرام، ناحية الجنوب تقوم قرية «حناوية» تحيط بها بساتين الفاكهة والزيتون مع أضرحة أخرى متناثرة على جوانب التلال. ولقد جرى العثور حديثاً في هذه الاضرحة على مقتنيات وقطع زجاج فينيقية، او على الاقل ما قبل رومانية وعثر هذه السنة بالذات، بينما كان يحفر عند جذع شجرة كبيرة، على آنية زجاجية رائعة، كما هي داخل ضريح صغير ولم تعبث بها الأيدي، مدفون تحت صخر طمره التراب والركام. وعلى كل زاوية من زوايا الضريح الأربع كان هناك مدمعة Lach-rymatory، أكبر من الطراز الروماني المتأخر مع عنق اكثر طولاً. وعند الجزء العلوي من الضريح ركز صحنان مسطحان

قطر أحدهما ستة انشات والآخر اثنا عشر انشاً، لأضحيات اللحم والخبز للميت وكأس قديمة فخمة للخمرة.



قبر حيرام
وخلفه قرية حنّاويه، ولمحة من شبه جزيرة صور
كما تظهر من هذا المكان.

والاضرحة في هذه التلال تعد بالآلاف، إلا أنها وعلى توالي الأيام فتحت ونبشت مرة بعد مرة، وبعضها شغل في حقب متباعدة ومتعاقبة، إذ أننا نجد على سبيل المثال أضرحة فينيقية تعرف فوراً من نمط حجارتها أضيفت لها واجهة رومانية او يونانية بأشكال مختلفة، وأفاريز للتماثيل، كلها مضافة الى الاصل. وكشفت حفريات أرضيات بعض الكهوف عن أضرحة واسعة تتسع للجسم المدفون لكنها غير دقيقة النحت كما أن هناك اخدوداً رفيعاً على القسم العلوي من جوانبها بهدف تثبيت الغطاء الخارجي. وفي الضريح ناووس من الرخام النقي يعود الى عهد متأخر. وحينما تفحصنا الضريح ثانية وجدنا الى الإضافة السابقة، إشارات مسيحيه تعود الى حقبة مسيحية روما الصليب المتساوي الأضلاع مع رموز مقدسة في غير صورة وشكل (مثل ـه و ـ وما شابه).

إلا أن الأكثر أثارة للاهتمام هو بالتأكيد ضريح أو قبر حيرام Hiram ، كما هو شائع هنا، بالقرب من قرية حّناوية الصغيرة. يقوم الضريح وحده الى جانب الطريق عند حافة الهضبة، وخلفه حقول حنطة وأمامه بعض البساتين، ولا يملك أحد اثباتاً قاطعاً حول ما اذا كان هو حقاً قبر الملك الفينيقي ام لا. الا أن الدليل الساطع على قدمه هو بساطة بنائه الزائدة

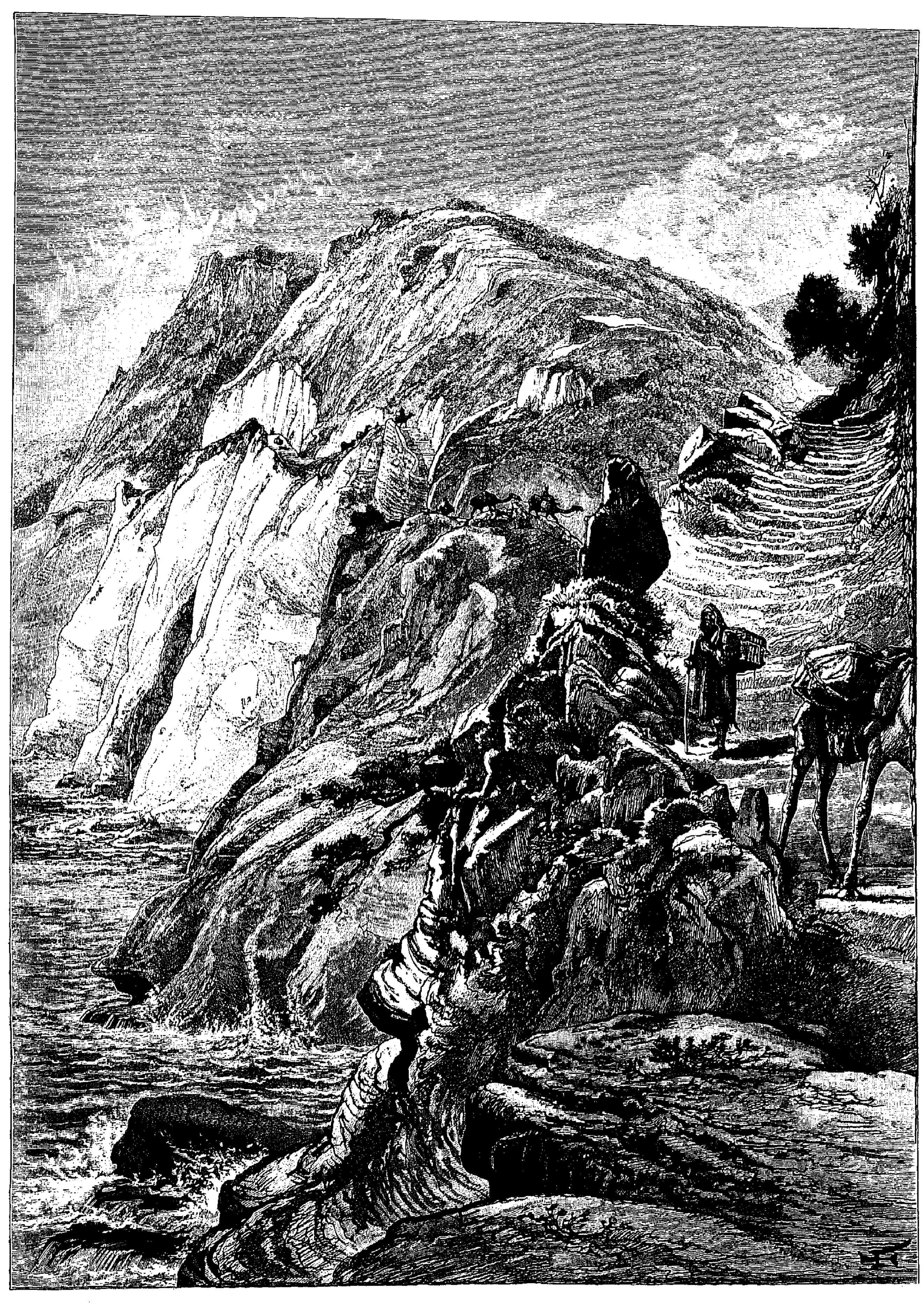
التي تختلف عن الأضرحة العائدة لعهود الإغريق والمشغولة باتقان ودقة. وبالمقارنة مع مجموعة النصب الموجودة في سهل عمريت Imrit في شمال سوريا، وماراثوس القديمة في مقابل أرواد، يبدو أنها تشترك جميعاً في خلوها من النقوش. ويثبت رينان انها تعود كلها الى حقبة أقدم بكثير من عهد الاسكندر الكبير. لكن ما يجمع النصب الأخيرة هو اشتراكها مع مواصفات تجعلها متأخرة زمناً عن عهد قبر أحيرام، رغم أنها تستمد منه نمط بنائها الأصلي. والاستنتاج الذي يخرج به من يقارن لأول مرة أضرحة ماراثوس بضريح صور، هو ان بنّائي أضرحة ماراثوس كانوا على بينة من نمط بناء ضريح حيرام بينما هم سابقون للبناء الاغريقي او السوري الاغريقي ولا فكرة لديهم عن شكل أو نمط منحوتاته. يتألف قبر حيرام ونحب أن ندعوه كذلك، من ناووس حجري ضخم يقوم فوق قاعدة صخرية مكسية، ولكن من دون ذلك الميل المعماري الفينيقي او اليهودي. ويقف القبر في مواجهة البحر وعلى مرأى من صور التي كان حيرام ملكاً عليها. تقوم قاعدة الناووس من ثلاث طبقات من الحجارة الضخمة بحيث تزيد الواحدة منها عن ١٢ قدماً طولاً و ٨ عرضاً و ٦ ارتفاعاً. والطبقة الثالثة، التي تقبع فوق الطبقتين الاوليين، هي الأضخم وعليها وضع الناووس؛ وفيه تجويف داخلي للجثمان؛ وفوقه حجر أصغر حجماً على شكل هرم Pyramid ، يضيق كلما ارتفع الى أعلى. طوله ١٢ قدماً وسماكته ٥ اقدام. وخلف الضريح صفان من الأدراج، أزيلا حديثاً، ويقودان الى غرفة داخلية ليست تحت الضريح وانما خلفه تحديداً. ولقد تفحص رينان هذه الغرفة لكنه لم يعثر فيها على نقوش او تاريخ أو اشارة إلى غرض ما.

وعلى بعد نصف ساعة من قبر حيرام، في اتجاه الجنوب تقع قرية «قانا»التي مازالت تحتفظ باسمها منذ ايام جوشوا (يشوع) Joshua عندما كانت بلدة للآشر Asher. والمنطقة بكاملها ملأى ببقايا النواويس إلا أن هناك إلى ذلك منحوتات فينيقية مهمة وغير معروفة تماماً، على جانب تلة صخرية تتدلى من الشمال عند منتصف الطريق نحو قانا في ما يسمى بوادي العقاب او الأفيد El Afid وتقوم في المكان مقالع حجارية كانت تستخدم في الأزمنة الغابرة، وتتوزع الصخور في غير مكان، وهي مقطوعة على نحو مستقيم على صفحة بعضها أشكال منحوتة غير دقيقة هي عبارة عن أطر تقترب من النمط المصري، ولكن داخلها يذهب في اتجاه نمط آخر. وعلى صفحة احد الصخور شكل تسعة أشخاص في قارب، أضخمهم جالس في الوسط يحيط به أربعة وقوفاً من كل جانب، واللباس آشوري اكثرمما هو مصري. والاشكال محفورة على صفحة الصخر من دون ان تكون متقنة النحت أو دقيقة الصنع.

ومن قانا نتقدم اكثر باتجاه الداخل الذي يستحق ان يقضي فيه المسافر يوماً آخر او يعكس اتجاهه نحو وادي آشور Asher ونفتلي Naphtal الى أن يصل الى قلعة تبنين المهمة والتي يرجع تاريخ بنائها الى العصر الوسيط. تمر الطريق على حافة وادي آشر، وادٍ ضيق مع منحدرات حادة متعرجة تتصل بالشاطئ، والممر فوقها صخري ضيق في منتصفه والى الحد الذي يصعب معه على راكب حصان أن يتجاوز جملاً محملاً بل في وسعه أن يلامس بعصاه جانبي المنحدر. والمنحدرات من الداخل حادة جرداء تغيب عنها الغابات ويقوم بدلا منها العليق والعشب وأشجار الجودس مزهرة جميعها مع بساط من أزهار متنوعة تختلف تماماً عن تلك الموجودة في اسدرادون Esdaradon والجليل، وتأخذ كثيراً من انواع نباتات لبنان، وخصوصاً بعض العلّيق الموجود في شمال لبنان.

وعند نهاية الوادي ينبسط سهل صغير على صخور طرفه الشمالي بعض المنحوتات التي تثير الاهتمام. فعلى جانب المنحدر الصخري منحوتة منعزلة مساحتها حوالى ٣٢ انشاً مربعاً وسماكتها ٣٠ انشاً، وهي محاطة بإطار يتصل بخمس درجات، عمق الواحدة منها انشان ومحفورة في الصخر وعلى الحائط الخلفي للإطار او المشكاة قطعة في الصخر ذات نحت متقن لكنها متآكلة الى حد كبير. وهناك مجموعة من ٥ أشخاص أوسطهم جالس واثنان واقفان من كل جانب، وفي وضع من يحمل او يتقدم بهدايا، وفوق اللوحة رمز الابدية المصري مع الجناحين المفتوحين والقرص والافاعي ورموز أخرى. وكما يلاحظ ففي الكثير من الآثار الفينيقية بقايا او تأثيرات مصرية، وآشورية في بعض آخر لكنك لن تجد في اي منها ما يذكر او يشبه بالنمط الحثّي.

وحينما نصل الى آخر وادي آشير Ashur شمالي قرية كفرا، تتبدى لك، اذا تسلقت التلة العالية، مناظر خلاّبة.



رأس البياض درج صور
من الجهة الجنوبية. يعلو الطريق الصخري بدرجاته المسطحة،
وفي أماكن معينة ما يقارب المئتي قدم فوق البحر



فتحتنا بحوالى ٣٠٠٠ قدم ينبسط الشريط الفينيقي، بينما صور في وسطه تخرج عنفها الرملي نحو المتوسط. وإن ادرت الطرف بدا حرمون وهضاب اللجا، من الشمال الى الجنوب، مع القلعة الكبرى في منطقة الشقيف ترتفع كمنارة صخرية ضخمة جنوب غرب حرمون. وتلوح الى الخلف بقعة صغيرة من الثلج لتشير الى بداية سلسلة جبال لبنان بينما بدت قلعة تبنين على تلة منعزلة لجهة الشرق تقوم كحصن منيع يشرف على منطقة واسعة.

ونعود من جولتنا بين تلك التلال الساحرة الى رأس العين، وبعد نظرة أخيرة على بركها واحواضها واقنيتها نتقدم جنوباً مع الشاطئ لنصل الى المنطقة الصخرية في «رأس البياض» White cape، الذي يشطر الساحل فيدخل حاداً في البحر مؤشراً بدقة الى حدود السهل الفينيقي. يعرف المرتفع الصخري الطباشيري هذا غالباً باسم «درج صور» Ladder of Tyre وهو كذلك فعلاً، لكن الاكثر إلغاتاً فيه هو أن الطريق قد «حفرت عند حافة الجرف الصخري تماماً ومن دون جسر او سياج، معلقة فوق البحر على علو ٢٠٠ أو ٣٠٠ قدم، وكأنه الاختبار الذي يسبق تثبيت رتبة الرهبنة. ومن على حافة الجرف يتبدى الشاطئ الفينيقي مهيباً وباعثاً للذكرى. شاطئ رملي ضيق عارٍ ، كما السهل خلفه، وان

رأس البياض
يبدو الشاطئ الصوري شمالاً. وفي أقصى الصورة برج حراسة تركي، حيث ترفع الرسوم، وهو يسيطر على المر في الاتجاهين.

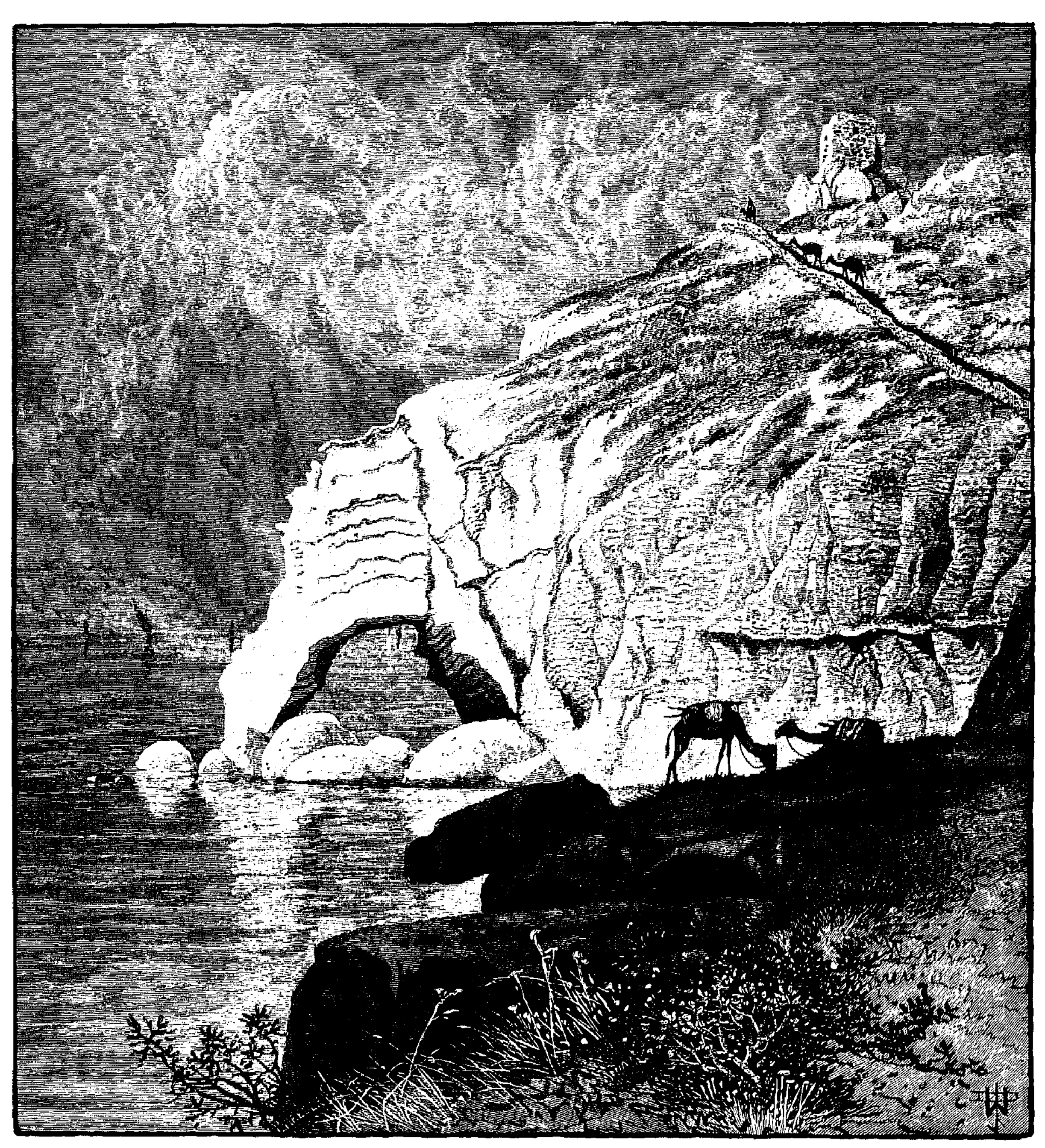
كان الأخير يخضوضر عند أوائل الصيف، وقبل أن يجري صعداً باتجاه رأس صور. ثم يدخل ثانية في اليابسة ليرتفع تدريجاً حتى رأس الصرفند، الذي يشكل الطرف الآخر للقوس. وتتدرج سلسلة التلال فوق رأس البياض بين اللون والظل، من الارجواني الى الأحمر فالأصفر فالى بياض رمادي حيث نقف الآن. بينما يلوح في البعيد جبل صنين وجبل



ناحية صور من الناقورة
وشجرة زيتون قديمة في مقدم الصورة، وخلفها ضريح اسلامي قديم.

الشيخ تكللهما الثلوج على مسافة تتراوح بين ٤٠ و ٦٠ ميلاً. وينبسط بعد درج صور مسطح صخري ضيق على شكل هلال الى نحو ستة اميال على خط مستقيم او نحو ثمانية أميال سيراً لينتهي عند المرتفع الثاني وهو رأس الناقورة حيث يقع خلفه مباشرة سهل عكا. وبين الرأسين، بعيداً عن الشاطئ قليلاً، تقوم آثار مدينة قديمة لا نعرف كثيراً عن تاريخها خلا أن الاسكندر الكبير قد أقام مخيمه فيها بعيد استيلائه على صور. فنشأت في مكان المخيم بلدة حملت اسمه ومازالت تسمى الى اليوم اسكندرونة. ويقطع شاطئ الخليج هنا مدرج صخري يرتفع تدريجاً نحو

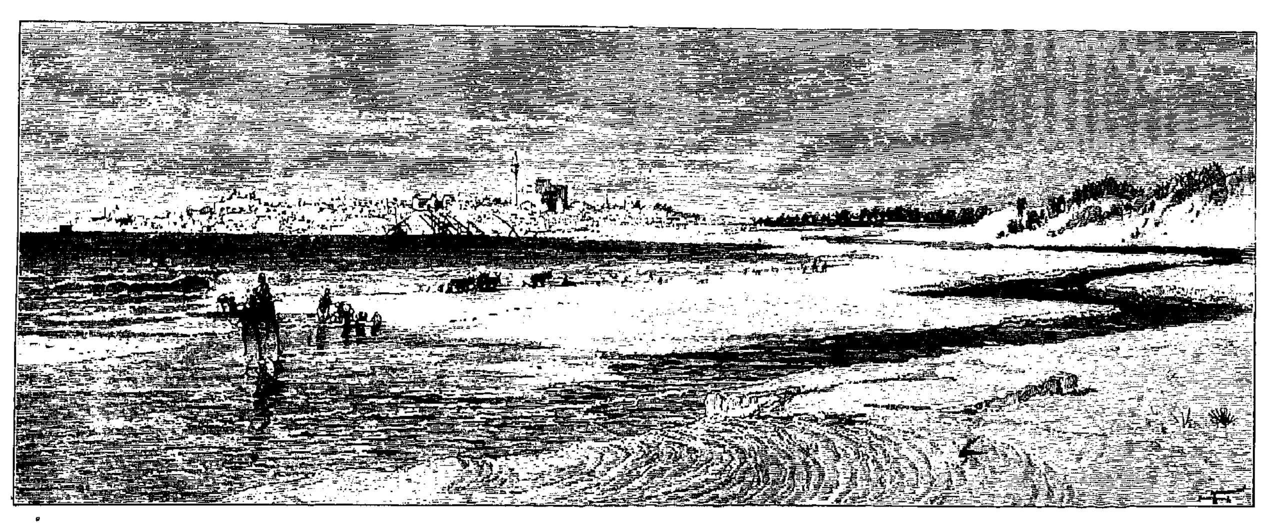
الهضاب. ويقف في خلاء قريب عامود دوريكي، وحيداً، مع بضعة تيجان أعمدة أخرى، كانت كما يبدو من بناء أو صرح ما. وفي مكان أبعد قليلاً تبدو شبه مطمورة عيون رخامية وممرات مرصوفة وبوابات وانشاءات أخرى الى



راس الناقورة.
جرى أخيراً تحسين هذا الطريق الذي يدعى ايضاً « درج صور»
والى الجنوب منها هناك عين ما تدعى « عين المشيرفه»

منحوتات مكسورة على بعض منها رموز عشتروت او الهة القمر. إلا أنه لا نقوش كتابية في المكان كذلك ليس هناك من ساكن على طول الخليج قبل الناقورة. ويمتد الطريق الصخري بمحاذاة الشاطئ ويرتفع رويداً رويداً حتى يداني مرتفع رأس الناقورة، او درج صور الثاني، كما يبدو في الصورة .

وحالما تصل الى قمة المرتفع تطالع العابر فوراً مناظر جديدة أخاذة. يتصل المسطح الصخريّ بجبل مشاقة بينما ينبسط أمامك سهل عكا الفسيح، او على الاقل القسم الساحلي منه وحتى الكرمل. وعلى مدى النظر على مبعدة حوالى خمسة أميال زيب Zib ، او أشيزيب Achzib القديمة، البلدة التي كانت تشكل حدود آشر القديمة. وأبعد قليلاً الى الخلف بقعة رملية أخرى تتكوكب حولها أبنية عكا التاريخية، أحد الأماكن القليلة في سوريا التي ما انفكت محوراً للاهتمام على نحو متواصل ولأكثر من ألفي عام، والتي يرتبط كل جزء فيها بتاريخ حقبة معّينة وتبدو وراء عكا وبالمنظار، بقعة



مدينة عكا من الجنوب.
مصب نهر نعمان، او بيلوس قديماً، ويروى أن صناعة الزجاج بدأت عرفاً هنا.

بيضاء وسط هلال أخضر يتصل بالكرمل وهي «يافا» المتنامية باطراد هذه الايام. أطلينا الآن، وللمرة الاولى، على الكرمل من جهة الشمال. ورغم أنه بالإمكان التقاط حجم الجليل كما هو، الا ان الكلام عليه يبقى دون الأصل جلالاً ومهابة، فبعدما ينحدر الجبل تدريجاً صوب البحر يعود يرتفع فجأة، لجهة الطول، مشكلاً حاجزاً يحجب الأفق لكن المنظر من قرب يبدو ألطف قليلاً، حيث تنتشر خضرة السهل لعدة أميال لتلتقي بغابات الزيتون التي تتماوج كسجادة رمادية زرقاء، وكل غابة منها تحضن قرية في وسطها، مما يعطي نقيضاً لوحشة الساحل الفينيقي.

يمتد الطريق الى عكا في محاذاة الشاطئ، ولكن لا داعٍ للعجلة فأشياء كثيرة تستحق التوقف والتدقيق. وأولى هذه المحطات Zib التي يكفي اسمها سبباً للتوقف عندها. وزيب قرية حديثة أقيمت على ركام من الآثار، عند نهاية واد، هو وادي القرن تجري فيه ساقية تحمل الماء قبل أن يضيع تقريباً في رمال زيب؛ والتي يعتقد أنها كانت قديماً خليجاً صغيراً تلجأ اليه زوارق الصيادين. وتأتي الساقية التي يكثر فيها السمك من هضبة تتصل بالسهل، كواحدة من هضاب الجليل، الا أنها تفصل عملياً سهل عكا عن سهل اسدرالون Esdraleon * وبعد مسيرة اربع ساعات ونصف الساعة من البساه El Bussah نحو الجنوب الشرقي، نصل الى الحصن المسمى قلعة القرن، او المونت فورث، والذي يعود الى العصر الوسيط. ورغم أن عدد الذين يزورون الحصن محدود، إلا أنه يبقى أحد أهم المعالم الأثرية في فلسطين. هو واحد من سلسلة الحصون القوية التي تمتد من البحر الى حرمون، او الخط الدفاعي الذي أقامه الفرسان الصليبيون ضد اي هجوم يأتي من الشمال. والمونت فورث هو رأس المثلث الذي تشكل قلعتا صور وعكا طرفي قاعدته. والمسير منه لبعض النهار شرقاً ينتهي عند قلعة تبنين. وعلى مسافة بضع ساعات منه تنتصب قلعة الشقيف (بلفوارت) التي تسيطر على مجرى الليطاني. والى الجنوب من الشقيف وتبنين، ومن على التلة التي تقوم عليها اليوم قرية كوكب الهواء كان بلفوار يشرف على مجرى نهر الاردن والجسر جنوب بحر الجليل وحيث هونين الى الشمال تسيطر على سهل الحولة. وفي مدى النظر كذلك الحصن القوي في صبيبح Subeibh فوق بانياس في حصن حرمون

* أو مرج ابن عامر، لكننا احتفظنا بالتسمية كما وردت في النصف [م]

ويحمي المداخل الشرقية باتجاه حوران. كان في وسع كل حصن من هذه الحصون، في معايير حروب العصور الوسطى، أن يحوّل اذا توفر له الجند الكافي، سداً منيعاً يقطع الطريق تماماً على محاولات الاختراق نحو الداخل.

ولكن ما من واحد من هذه الحصون، على تفاوت حالها اليوم يداني قلعة القرن في الحال الممتازة التي ما زالت عليها. على بعد سبعة أميال من الشاطئ وعلى ارتفاع ١٠٥٠ قدماً فوق سطح البحر و ٥٦٠ قدماً فوق مجرى النهر، يقوم لسان صخري بين فكين عاموديين بعرض لا يزيد عن ٢٠ ياردة وبطول يبلغ ٢٠٠ ياردة ويفصل بين اللسان الصخري والجبل خلفه خندق عميق جرى حفره، ثم جرى إلباس جوانبه، حين بدا ذلك ضرورياً، بالحجارة، كل صف منها منحن، عند اتصاله بصف آخر، الى الداخل والصف الاخير متقدم الى الامام بحوالى ٣ انشات، مما يجعل تسلق جدران الحصن امراً مستحيلاً. وعلى سطح الحصن اربعة أبراج، كل منها موقع دفاعي يمتلك تحته خزاناً واسعاً مستقلاً يكفي حاجته من المياة ولمدة طويلة. ومن ملاحظة الطبقات السفلية من الحصن يتبين انها تعود الى العهد الفينيقي، ثم جرى بعد ذلك تعزيزه وتوسيعه وربما أعيد بناؤه على ايدي اليونانيين ـ والسوريين، او الرومان الى أن وصل الى فرسان الصليبيين. والحصن هو في الواقع أحد أهم بقايا تلك الحقبة التي كلف انجازها أجدادنا العناء الكثير، ثم كلف الحفاظ عليها ما هو اكثر بكثير. ومع ذلك كان كل ما تبقى من تاريخ الحصن هو ان هرمان سيد فرسان التيتونيك قد بناها سنة ١٢٩١. وهم في الواقع انما عززوا الحصون والتحصينات التي كان قد أقامها من قبل الفاتحون الأول، مثل الفينيقيين اليونان، وبلاد ما بين النهرين وربما الرومان في أعمالهم المتأخرة كذلك.

ومن حصن او قلعة القرن يمر الطريق الى عكا، ولنحو أربع ساعات، في سهل متموج يملؤه الشجر ينتهي اليه نهر بيلوس في اسمه اليوناني القديم أو نهر نعمان كما يسمى اليوم. وتجري شعاب هضاب الجليل المنخفضة نزولاً تشكل



مدينة عكا من الشمال الشرقي

حاجزاً يفصل سهل عكا عند سهل أسدرلون ومن هذه الشعاب تجري الينابيع التي تغذي قناة المياه الى الشمال. ويجري نهر بيلوس، بحوضه السبخي، من الجهة الجنوبية الشرقية نحو شاطئ البحر إلا ان مياهه تضيع تقريباً في الرمل وقبل بلوغ البحر.

والسهل حول عكا، وبخاصة عند حفافي التلال المحيطة، مزروع بقرى ذات بيوت طينية ما زال بعضها يحمل اسماءه القديمة ولكن من دون ان يحتفظ من هذا الماضي بأي شيء آخر. وهكذا فأنت تجد الى الجنوب الشرقي من عكا كبول Kabal جشوا والملوك، والى شمالها أمكا Amka او بيت اميك القديمة، سميريه او شريفرون ميرون قديماً، عبدي Abdeh او عبدون، جعفات او جوتوبايوس، الى سواها وتبدأ شهرة نهر بيلوس من الرواية اليونانية القديمة أن صناعة

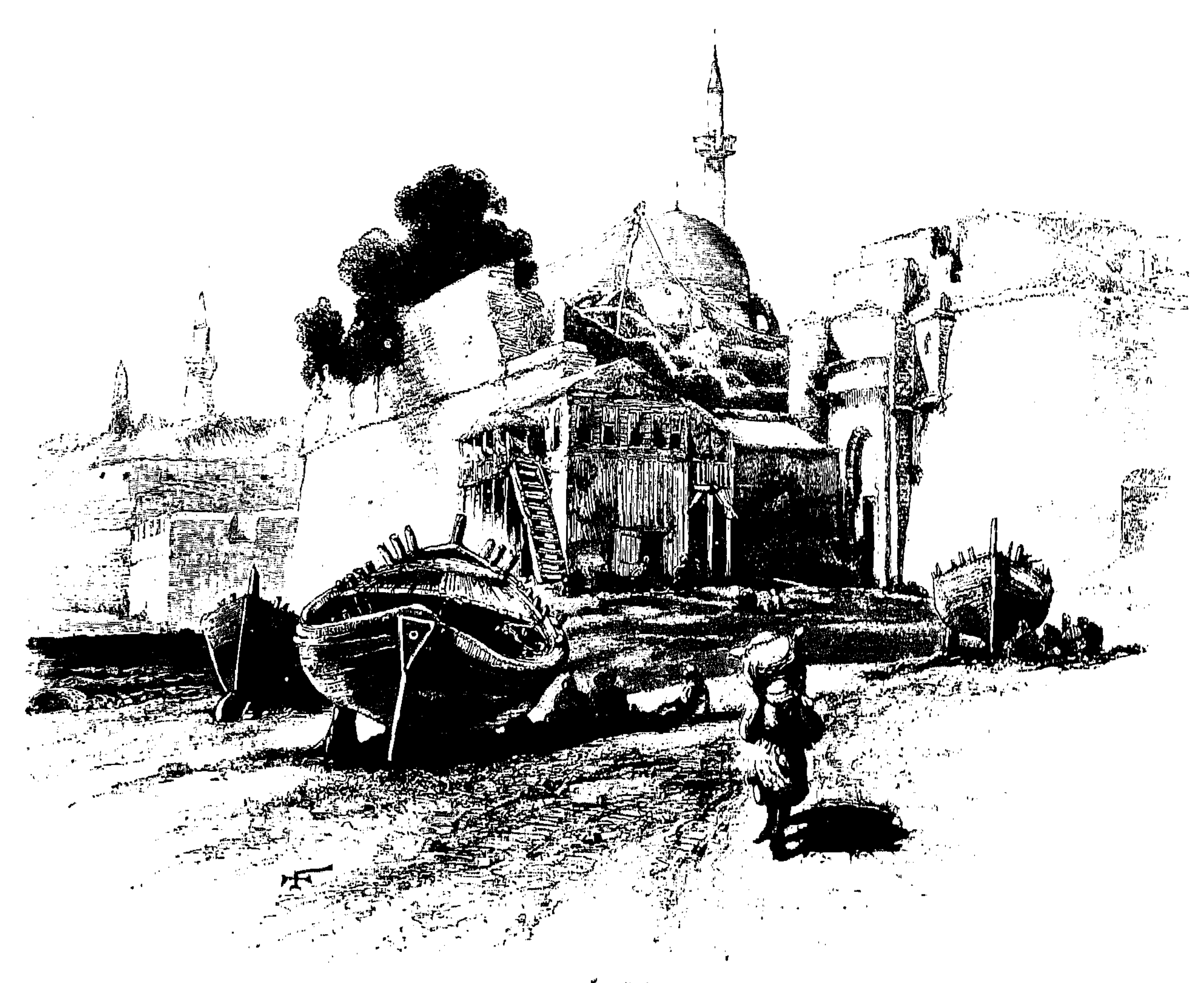
الزجاج انما اكتشفت لأول مرة وبالمصادفة على ضفتي بيلوس، وذلك حينما أقام بعض البحارة مخيماً لهم هناك واشعلوا ناراً حينما اتت على حبيبات الرمل والطين احالتها بفعل الحرارة الى قطع زجاجية لماعة. ورغم أنه لا أثر لأعمال مشابهة متبقية هناك لكننا نعرف أن الصوريين القريبين جداً من هذا المكان كانوا الصناع الأول للزجاج، والروايات تحمل دائماً قدراً كبيراً من الحقيقة.

وفي وسع العابر أن يبلغ، بعد ينابيع نهر نعمان الى شفا عمر، إحدى اكبر بلدات المنطقة، وذلك عبر منحدر كثير الشجر.ولا نعرف شيئاً عن تاريخ البلدة القديم. إلا أن أهميتها برزت في عهد الصليبين حينما اتخذها صلاح الدين في أثناء حصاره عكا مقراً لقيادته. وفوق تلة البلدة آثار قلعة كبيرة ذات طراز معماري Saracenic تعود الى العصر الوسيط. ويمكن الاطلالة منها على مناظر جميلة لعكا وحيفا والسهل وعلى التلة المقابلة، على مسافة حوالى الميل جنوباً، آثار قلعة أخرى أصغر حجماً هي البرج. ومعظم سكان شفاعمر مسيحيون وفيها كنيسة ومدارس للجمعية الكنسية التبشيرية.

ومن شفا عمرالى سوفيرا Sefurieh اوسفوريس القديمة، وديك كساريا عند الرومان وكيترون جشوا، على بعد حوالى ٨ أميال، يحيط بها الزيتون، عبر طريق جميل تظلله الغابات - ويبقى القسم الأجمل على جانب نهر الأردن - إلا أن فؤوس المشحّرين* تنذر بافناء هذه الغابات وفي سوفيرا آثار تشير الى الدور الذي كان لونويس القديمة في تاريخ هيرودتس وفي الحقبة الصليبية. والجزء الاساسي من الكنيسة الصليبية في البلدة ما زال قائماً، وفوقها على التلة قامت القلعة لاحقاً حيث جزؤها الأسفل يعود الى عهد هيرودتس أو ربما أقدم ايضاً بينما البوابة والقناطر ذات الاقواس المحددة تعود الى الحقبة الصليبية. والمكان الذي كان يوماً جوهرة رومانية غدا اليوم اقرب الى الركام والقذارة. ويمكن من سوفيرا ان تتجه في طريق جميلة نحو نازاريا والشاطئ.

---

* اي الحطابين الذين يقطعون الشجر لصنع الفحم الخشبي



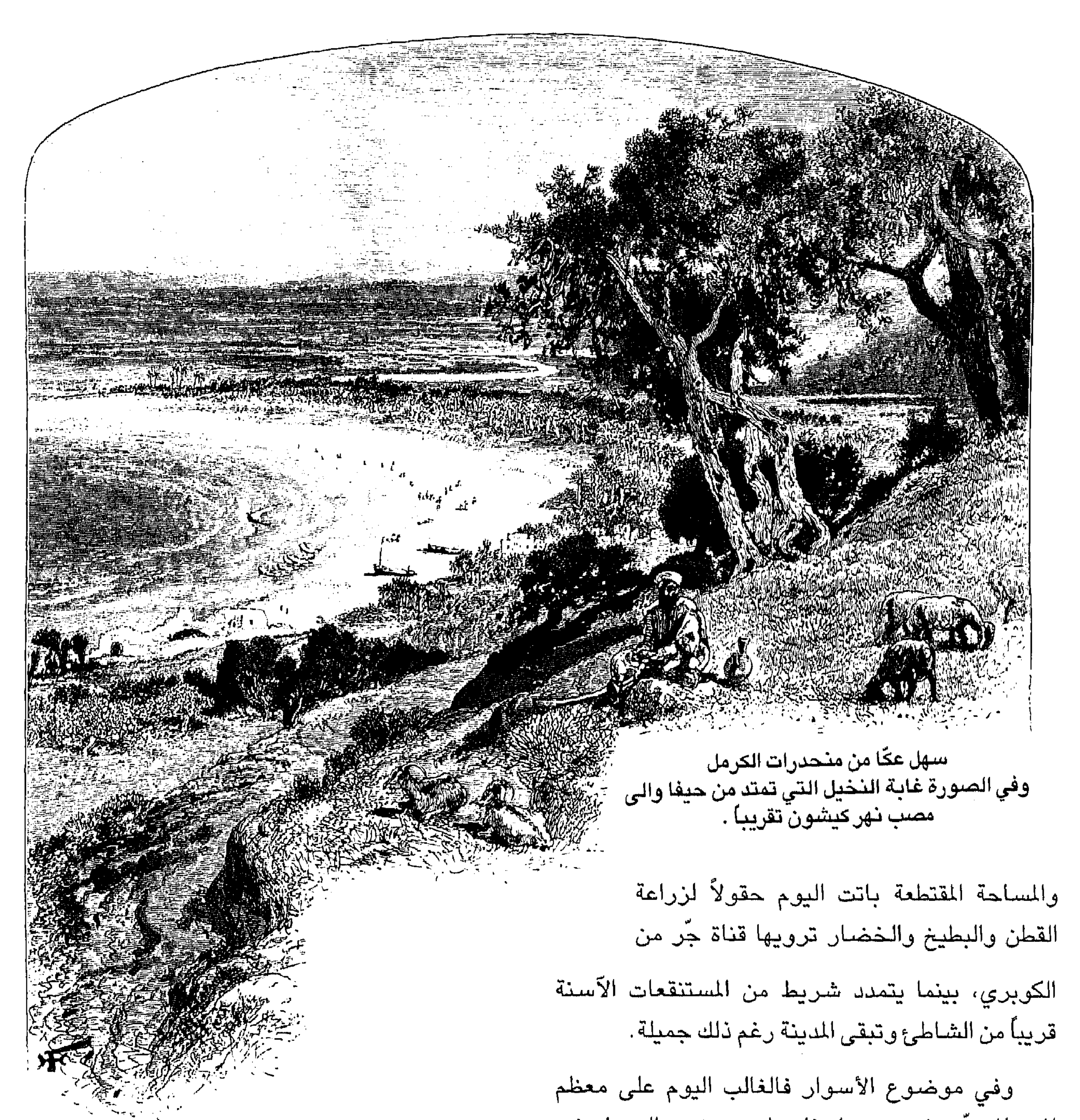
بوابة عكّا.
المدخل الوحيد الى المدينة، قرب الطرف الجنوبي
للسور الشرقي البرّي قريباً من ميناء قليل العمق.

عكا او بوابة فلسطين

أنّى قاربتها، من الشمال او الجنوب، من البحر في شراع، أو على ظهر مركب يدخل ميناءها في ليلة مقمرة خصوصاً، فعكّا بهية وفي منتهى الروعة.

وفي مواجهة البحر ترتفع الواجهة الغربية للمدينة كلها بأسوارها الدفاعية العالية وأبراجها المربعة ومنارتها على الطرف الجنوبي. ومن الجهة الشمالية تعلو مئذنة جامع جزار باشا الكبير تعكس على نحو جميل ضوء القمر والى جانبها قلعة المدينة الحصينة. ما من مدينة أخرى في سوريا وفلسطين تعيد للمرء التاريخ الصليبي والوسيط مثلما تفعل عكا وبخاصة حينما تنظر اليها من البحر: فلو لم تكن مئذنة جامع الجزار الشامخة لتذكرنا باسلام المدينة وهويتها لكان خيل إلينا اننا ندخل حصناً قوياً لا يزال في أيدي ملوك الصليبيين وفرسان القديس حنا - ولا يزال هنا في عكا مكان يحمل اسمهم. ثم ننسل حول الحصن المنيع عند الطرف الجنوبي لرأس المدينة او الريف الصخري الذي اقيمت المدينة فوقه ولتتمدد آمنة ناحية الخليج جنوب الميناء في المياه الضحلة. وحينما تلف السهل في الليلة غلالة بيضاء من الضباب تبدو الهضاب المتدرجة للجليل لجهة الشرق البعيد، وكذا جبل الكرمل في الجنوب، عالية واكثر مما هي بالفعل وكأنها هياكل تحوم من دون أساس لها في الارض. وما ان ينجلي الصباح ويزول الضباب وخداع رؤاه حتى تقارب المدينة عن قرب وكما هي فعلاً.

أول ما يلفتك في عكّا هو طابع العزلة الجرداء التي تحيط بها. وبخلاف واقع الحال الراهن، كما يتذكر بعض معمري عكّا، كان السهل شمال المدينة في السنوات التي تلت موت الطاغية الجزار سنة ١٨٠٤، مزروعاً بالصنوبر والحور السريع النمو والمنتشر في سوريا وفلسطين، على بساط أخضر ناعم تزرره البساتين والرياحين في غير شكل ولون. غير ان الشجر كله، وحتى مسافة ميل وربع الميل من المدينة جرى قطعه بناء على اوامر عبدالله باشا (الذي خلف سليمان باشا على حكم عكا سنة ١٨٢٠)بحجة أن هذه الغابات قد تصلح مخابئ للغزاة الطامعين بالمدينة.



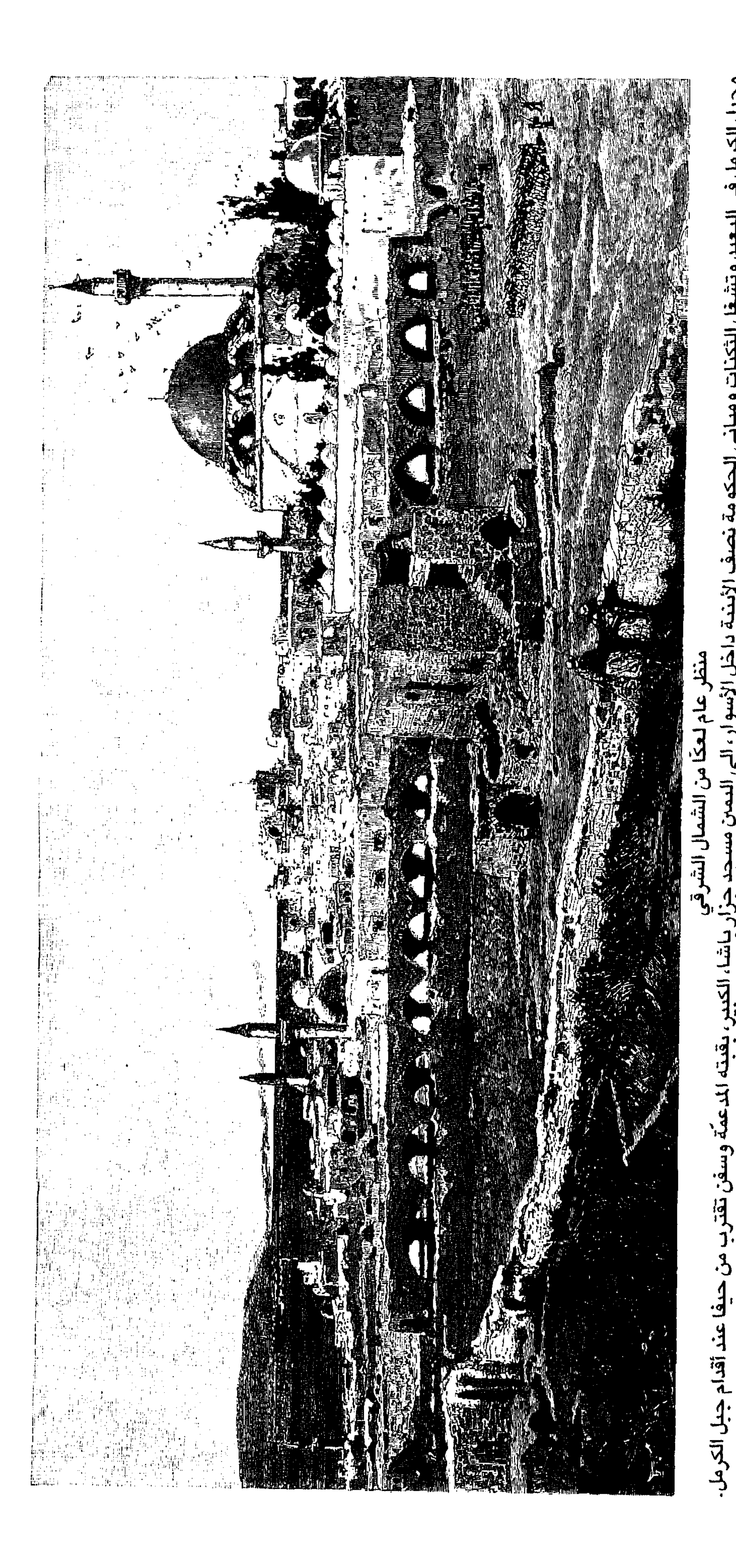
سهل عكّا من منحدرات الكرمل
وفي الصورة غابة النخيل التي تمتد من حيفا والى مصب نهر كيشون تقريباً.

والمساحة المقتطعة باتت اليوم حقولاً لزراعة القطن والبطيخ والخضار ترويها قناة جّر من الكوبري، بينما يتمدد شريط من المستنقعات الآسنة قريباً من الشاطئ وتبقى المدينة رغم ذلك جميلة.

وفي موضوع الأسوار فالغالب اليوم على معظم المدن المسوّرة في سوريا وفلسطين هو تمدد العمران في هذه المدن الى خارج الأسوار ولتفقد بالتالي طابعها التقليدي. ففي بيروت تهاوت الاسوار كلها ولم يبق غير جزء صغير عن الجهة الشرقية، وهو نتاج طبيعي لحال السلام والبحبوحة. وحتى مدينة القدس فهي الآن في طور تمدّد سريع خارج الأسوار، ولكن صوب الجهتين الشمالية والغربية لحسن الحظ. ويصف كولونيل سير شارلز ويلسون انطباعه بعد زيارته الأخيرة للمدينة فيقول:« كانت زيارتي للقدس هذه المرّة مدعاة للحزن والألم. فعندما

تركتها سنة ١٨٦٦لم يكن هناك خارج الاسوار غير الدير الروسي وبيتين اوثلاثة. أما اليوم فالقدس الجديدة تكاد تكون في حجم القدس القديمة. لقد احببت دوماً القدس كمدينة ذات أسوار وبوابات تقفل ليلاً وتحيط بها بساتين الزيتون والتي لطالما فتنتني، وكنت اتوقع أي شيء الا أن أجد هذه الخطوط الحديدية المستحدثة في ضواحي تشبه مدينة ايطالية من الدرجة الثالثة».

ما يتحدث عنه سير ويلسون هو دخول المدينة من جهتها الجنوبية الغربية عبر خط العربات الآتي من يافا. لكن عكا تختلف تماماً، ليس في القريب على الأقل، فشكل المدينة غير منتظم ومساحتها تقدر بخمسين فداناً . واجهة عكا على البحر هي الأطول في المدينة، بل هي تجعل الناظر من بعيد يتوقع مدينة اكبر مما هي عليه فعلاً. اما لجهة البّر شمالاً وشرقاً، فهناك خط من التحصينات المزدوجة مع خندق عميق. الخط الدفاعي الخارجي اقامه الجزار سنة ١٧٩٩ وذلك بعيد تقهقر نابليون عن المدينة اثر حصار فاشل استمر ستين يوماً وثماني هجومات فاشلة. وكان الاميرال سير سميث قد نجح في تضليل سفن النقل التابعة لنابليون والتي كان مقرراً ان تفرغ



منظر عام لعكا من الشمال الشرقي وجبل الكرمل في البعيد وتشغل الثكنات ومباني الحكومة نصف الأبنية داخل الأسوار. الى اليمين مسجد جزار باشا الكبير بقبته المدعمة وسفن تقترب من حيفا عند أقدام جبل الكرمل.

معدات وتجهيزات ثقيلة لاستخدامها في دخول عكا. فكان أن افرغت في يافا ثم استعملت هي نفسها في الدفاع عن عكا ويتقدم السور الخارجي، والذي بدأه الجزار وأكمله وحسّنه خليفته اللاحق عبدالله باشا سنة ١٨٢٠، عن السور الداخلي بحوالى ٤٠٠ قدم والسور الداخلي هو الذي انشأه الشيخ ظاهر العمر الذي اتخذ من عكا سنة ١٧٤٩ مقراً له بعد سيطرته على وسط فلسطين ومن غير المستبعد ان يكون الخطان الدفاعيان قد ابتنيا على تحصينات صليبية سابقة. أما السور البحري جنوب المدينة فهو متين للغاية، مبنيٌ من حجارة ضخمة جداً مع ابراج متقدمة وعقود صخرية ناتئة وهي ميزة التحصينات الصليبية. أما الميناء فقد اقيم جنوب غرب المدينة عند تجويف في الريف الصخري الضيق والذي ابتنيت عكا فوقه، على خط مواز لتجويف في الجهة الجنوبية الشرقية المقابلة من الشاطئ وتبدو تحت المياه بقايا حائط قديم يمتد شرقاً من الطرف الجنوبي الشرقي للريف. ولكن متوسط عمق المياه عند هذا الخط لا يتجاوز الثلاثة أقدام. وسبب ذلك يعود جزئياً لتراكم الطين لكنه يعود أساساً لإقدام امير الدروزالمتمرد فخر الدين في القرن السادس عشر، والذي بسط سلطته الكاملة على سوريا وفلسطين بين ١٥٩٥ ـ ١٦٣٤، على ردم الميناء لمنع السفن التركية من الدخول اليه. واتيح للمدينة في عهد فخر الدين ان تزداد منعة وأن تنتعش تجارتها؛ وهو الذي بنى الخان الكبير قرب الطرف الشرقي للريف الصخري الذي يدعى خان الفرنج (لكثرة اشغاله من قبل التجار والجاليات الاوروبية). يمتد ميناء عكا حوالى ١٠٠٠ قدم من الشمال الى الجنوب، و ٧٠٠ قدم من الشرق الى الغرب الا أنه ضعيف الحماية قليل الأمان في أثناء العواصف والطقس السيء، وهو ما يجبر السفن على اللجوء الى الجهة المقابلة الآمنة على الخليج لجهة مرفأ حيفا ، والذي يقوم على تجويف كبير داخل الشاطئ عند اقدام جبل الكرمل .

وفي هذه البقعة من حيفا تمكن ابراهيم باشا، ابن محمد علي والي مصر، وقائد الجيش المصري من انزال مدفعيته وذخائرها استعداداً لحصار عكا في نوفمبر سنة ١٨٣١ . وكانت خيالته والقسم الاكبر من مشاته قد عبرت الصحراء قادمة من مصر فدخلت فلسطين من العريش واحتلت من دون مقاومة غزه ويافا. وافى ابراهيم باشا جيشه في يافا على رأس اسطول ضخم قادماً من الاسكندرية يحمل عدة الحصار وباقي قواته، فنزل مع أركانه في يافا ثم تقدم شمالاً على رأس جيش تراوح عدده بين ٣٠ و ٤٠ الف رجل، ملتفاً حول رأس الكرمل ليصل مباشرة حيفا. وفي ظل الرعب الذي أحاط بأهالي المدينة تمكن الاسطول من الرسو في حيفا بسلام وانزل عدة الحصار واسلحته. ثم تابع ابراهيم باشا سيره نحو عكا قاطعاً الخليج بينما تقدمت عمارته البحرية مهاجمة المدينة من البحر، وتمكنت قواته البرية في اثناء ذلك من اخذ مواقعها حول المدينة فارضة عليها الحصار من موقع القوة والأفضلية وذلك في السابع والعشرين من نوفمبرسنة ١٨٣١.

ورغم عنصر المفاجأة، والافضليات الاخرى، لم يكن الحصار سهلاً بالنسبة الى المصريين. فالاشهر الخمسة من الحصار والقصف المدفعي العنيف الذي طاول قلب المدينة، باكثر من ٣٥٠٠٠قذيفة موقعاً خسائر بشرية ومادية ضخمة،لم تؤد الا الى خسائر طفيفة في الأسوار والتحصينات. والاختراق الذي تم في شباط بعد محاولتين سابقتين فاشلتين أمكن معالجته وجرى ترميم الكسور فوراً. نفد صبر محمد علي للتأخير الحاصل وللذخيرة المستهلكة من دون نتيجة فأرسل روزيت، وهو أحد كبار المهندسين الفرنسيين العاملين معه، الى عكا لإعادة تنظيم الحصار ولتسقط عكّا من ثمة بعد ١٥ يوماً رغم الدفاع الصلب والشجاعة التي ابداها عبدالله باشا. جرى الهجوم الأخير على المدينة في ٢٧ ايار ١٨٣٢ عند طلوع الفجر واستمر القتال عنيفاً طوال النهار ولم تستسلم المدينة الا في ساعات بعد الظهر المتأخرة بعدما سقط فيها مئات القتلى بنتيجة ثغرة نجح المصريون في احداثها في الاسوار ـ وكان ذلك بعد ستة اشهر تماماً من بدء الحصار ـ غدت المدينة بعدها عرضة للنهب والمجازر. خضعت المنطقة بأكملها لسلطة محمد علي، ثم سرعان ما نهضت عكا نفسها من بين الركام ولكن بوصفها الآن حصناً مصرياً. فأعيد ترميم المباني العامة والاسواق والبازار، واقيم مستشفى عسكري على نفس الموقع الذي كان لمستشفي فرسان القديس حنّا، كما عززت الأسوار فباتت اكثر منعة وأصعب على الاختراق. وجرى في الان نفسه تشجيع السكان الذين كانوا فروا من عكا في اثناء الحصار على العودة اليها واعادة تأسيس أعمالهم وحياتهم فيها. وأعطيت دفعة واضحة للتجارة. واختارت المدينة نخبة الجيش المصري وفي طليعتهم الكولونيل سيف (الذي عمل سابقاً مع الماريشال ناي) مكاناً للاقامة كما حفظت

فيها كميات كبيرة من الذخيرة والمؤونة تكفي لخمس سنوات. وعزز ابراهيم باشا السور البحري الغربي بحجارة ضخمة جلبت من حصن عتليت. وكان ارتفاع السور من ٣٠ الى ٤٠ قدماً، يقوم في وسطه برج الحديد والى الشمال برج آخر يعرف ببرج الكريم، بينما أقام ابراهيم باشا البرج الثالث، برج سنجق من حجارة عتليت أيضاً ليحمي الزاوية الجنوبية.

ولكن ما كادت المدينة تشفى من جراحها البالغة التي اصابتها بنتيجة حصار ١٨٣٢ حتى كانت من جديد عرضة لقصف مدمّر آخر. ففي الوقت الذي كان سكان عكّا قد اعتادوا حكم ابراهيم باشا الصارم قدمت اساطيل انجلترا والنمسا وتركيا بغرض العمل على طرد المصريين من سوريا وفلسطين. ولكن الحصار لم يدم هذه المرة غير فترة قصيرة رغم انه ترك نتائج اكثر هولاً. فقد ظهر الاسطول البريطاني قبالة عكا في الثالث من نوفمبر سنة ١٨٤٠. فارتفعت الاعلام المصرية على الفور، فوق القلعة وبرج سنجق علامه التحدي والتصميم على النزال. كان الادميرال ستوب فورد يقود العمليات من مركبه البخاري، والكولونيل نابييه Napier يقود الجناح الشمالي والكابتن Collier الجناح الجنوبي، فقاد الجميع سفنهم في مواجهة الحصن، وعند الساعة الثانية كان هؤلاء قد اخذوا مواقعهم في مواجهة الحصن تماماً تحت غطاء كثيف من بطاريات المدفعية. ولم يرد في خلد المصريين ان الاسطول قد يغامر ويتقدم الى مثل هذه المسافة القريبة من التحصينات، ولذلك كانت رمايات مدفعيتهم تنصّب كلها الى مستويات أعلى من تلك التي أحتلها الاسطول. وبينما كانت السفن تصب نيرانها من مواقع قريبة، وعلى نحو مرعب، كانت مدفعية الابراج تذهب بعيداً ومن دون أي تأثير. ثم حدثت الكارثة عند الساعة الرابعة، حيث وقع انفجار رهيب على اليابسة داخل التحصينات، فقد أنفجر مخزن يضم ٥٠٠ برميل من البارود وتجهيزات قتالية أخرى بين وحدات الجند، فقتل فوراً افراد وحدتين كانتا في الجوار تعدادهما ١٦٠٠ رجل على الاقل، وقتل كذلك عدد غير معروف من النساء والأطفال والحيوانات. ودمر كل شيء في مساحة ١٦٠ الف ياردة مربعة، وانفجرت مبانٍ قريبة وتطايرت الشظايا الى ارتفاعات عالية لتسقط على الاسوار والابراج محدثة فيها الدمار. وسرّع الحادث في نتيجة المعركة المحتومة. ومع غروب الشمس توقف القصف من السفن والبطاريات وتراجع الاسطول الى عرض البحر. وبعد منتصف الليل بقليل تقدم زورق صغير قادم من الشاطئ حاملاً من بعض العيون في الداخل رسالة الى الاسطول تفيد أن المصريين يخلون المدينة بسرعة فتقدمت على الفور قوات الاسطول ونزلت على الشاطئ آخذة المدينة من دون مقاومة. وهكذا عادت عكا من جديد حصناً وموقعاً تركياً. وانقضى ذلك النهار على دمار وخراب لم تشهد المدينة لهما مثيلاً: لم ينج منزل في المدينة تقريباً من اصابة، وتركت في المدينة معدات حربية كثيرة من كل الأنواع وفي حالة ممتازة إذ ما من حصن قد جهز بأفضل مما جهز به حصن عكا من أسلحة وذخائر، لكن الانفجار الضخم والخسائر الجسيمة في الارواح كانت من الضخامة ما فاق قدرة المحاصرين على الاحتمال. كان مشهد الانفجار في مستودع الاسلحة والذخائر، في رواية شاهد عيان يشبه انفجار بركان ضخم، ترك فجوة في الارض تقارب دائرتها الميل الواحد يحيط بها دمار من كل نوع وتنتشر الجثث الى مسافة بعيدة. كما حدث انفجار آخر في المكان عينه بعد يومين حينما انفجرت خمس وحدات ذخيرة على التوالي وطالت لسؤ الحظ عدداً جديداً من الضحايا، من بينهم النساء اللواتي كن يبحثن عن جثث أزواجهن بين الأنقاض.

وكان هناك في البدء صعوبة كبيرة في حفظ النظام في المدينة بسبب فوضى الأوامر واختلاط اللغات، لكن الامور استقرت بعد ذلك وأمكن فرض السلطة والنظام تحت القيادة الحازمة للضباط الانجليز والاتراك فبدأت على الفور أعمال إزالة الانقاض وإعادة الحياة الى عكا من جديد. ولما بلغ خبر سقوط عكا محمد علي في مصر أرسل تعليماته على الفور الى ابراهيم باشا بالاخلاء الفوري لكامل سوريا وفلسطين، وهكذا عادت المقاطعتان الى السيادة التركية.

ونعود الى عكا، حيث لا يمكن الدخول اليها من ناحية البرّ الا من بوابة وحيدة عند برج كبي (برج البوابة)، قرب الطرف الجنوبي للسور البري الشرقي القصير الذي يتصل بالسور البحري في زاوية مستقيمة عند رأس الميناء. وبعد البوابة ممر فوقه قناطر على شكل حذوة حصان على الناحية الجنوبية من البرج، وبعد ان تمر تحتها عليك ان تتحول

الى اليسار، اي غرباً كي تستطيع الولوج الى داخل المدينة. وهذه عموماً ميزة مداخل المدن المسورة في الشرق حيث يندر أن يكون المدخل الى المدينة مباشراً. ومن بوابة عكا تنفتح طرق عدة، ولكن لا يصلح واحد منها لمرور العربات بينما هي ممكنة الى حد ما لمرور الخيل والبغال والحمير والجمال مع صعوبة اضافية في فصل الامطار والسيول. واولى الطرق التي تبدأ من عكا أو اليها طريق السهل القديمة من الشمال الى الجنوب، والطريق التقليدي من جنين عبر سهل اسدرالون ومن صفد وسوفيرا ولكن يبقى الطريق الاهم الآتي من حوران أهراءات القمح الرئيسية لتلك البلاد. يبلغ انتاج تلك المنطقة العالية الملائمة ثمانين فولداً Eighty folds قمحاً ومئة شعيراً (راجع ماثيوXIII,8) وقمحها القاسي نصف الشفاف ذو جودة عالية ومعظمه للتصدير، وفي الموسم تصل الى عكّا الآف الجمال المحملة بهذا القمح. والطريق التي تربط حوران بهذه المدينة، مرفأ حوران الطبيعي، كانت قد استعملت بكثافة من قبل الرومان، وربما كانوا هم الذين انشأوها. وهي تمّر جنوب الجولان أو الهضاب الجولانية، ثم تعبر نهر الأردن جنوب بحر الجليل وبعد ان تلتقي طريقاً قديمة من طبريا تعود فتأخذ خطاً مستقيماً نحو عكا. وفي فصول أخرى تتبدل الحمولة، فتحمل الجمال حجارة الطحن البازلتية من مقالع «اللجا» وهي منطقة صخرية من حوران ذات أصل بركاني تقع شرق الجولان شمال شرقي سهل الحنطة الذي ذكرناه آنفاً والذي يمتاز بجودة عالية لا ختلاط تربته بعناصر بازلتية ومعدنية ذات تركيب جيولوجي مغذٍ.

أما المطحنة فتحتاج، وبخاصة مع هذه المواد القاسية، الى مهارة واضحة. وحجارة المطحنة التي تدار باليد قطرها من ١٨ الى ٢٤ انشاً، اما المطاحن الاكبر فتدار بقوة الهواء او الماء. وسطح حجر الطحن السفلي مقوس قليلاً وفيه تجويف مواز لتجويف الحجر الاعلى يسمى بالعربية الراكب Reke وهما مثقوبان في الوسط تماماً بحيث يثبت في الحجر السفلي عامود (خابور) خشبي متين يركب فوقه الحجر العلوي. وحين تكون امرأتان على الطحن تجلس احداهما مقابل الأخر تمسكان عتلة (مسكة) قريبة من حافة الحجر العلوي وتحركّانه معاً على نحو دائري ثابت ومنتظم. والمرأة التي تكون يدها اليمنى حرة تضع الحنطة بواسطة الكيلة (وعاء يشبة الفنجان) في وسط حجر الطحن وتثبت المطحنة أحياناً في الطين وفوق وعاء يجمع فيه القمح الذي يخرج مطحوناً من بين الحجرين. والحجر السفلي في العادة هو أكثر سماكة من الحجر العلوي، والمنطقة البركانية من حوران تقدم حجارة بدرجات سماكة متنوعة، ولكنها جميعاً عالية المتانة، والمطاحن المصنوعة من تلك الحجارة مطلوبة بكثافة لنوعيتها وجودتها وهو ما يبرر تكاليف نقلها العالية على الجمال (الجمل لا يستطيع ان يحمل غير حجري مطحنة واحدة) تنقل باعداد وفيرة الى عكا ومنها الى الخارج.

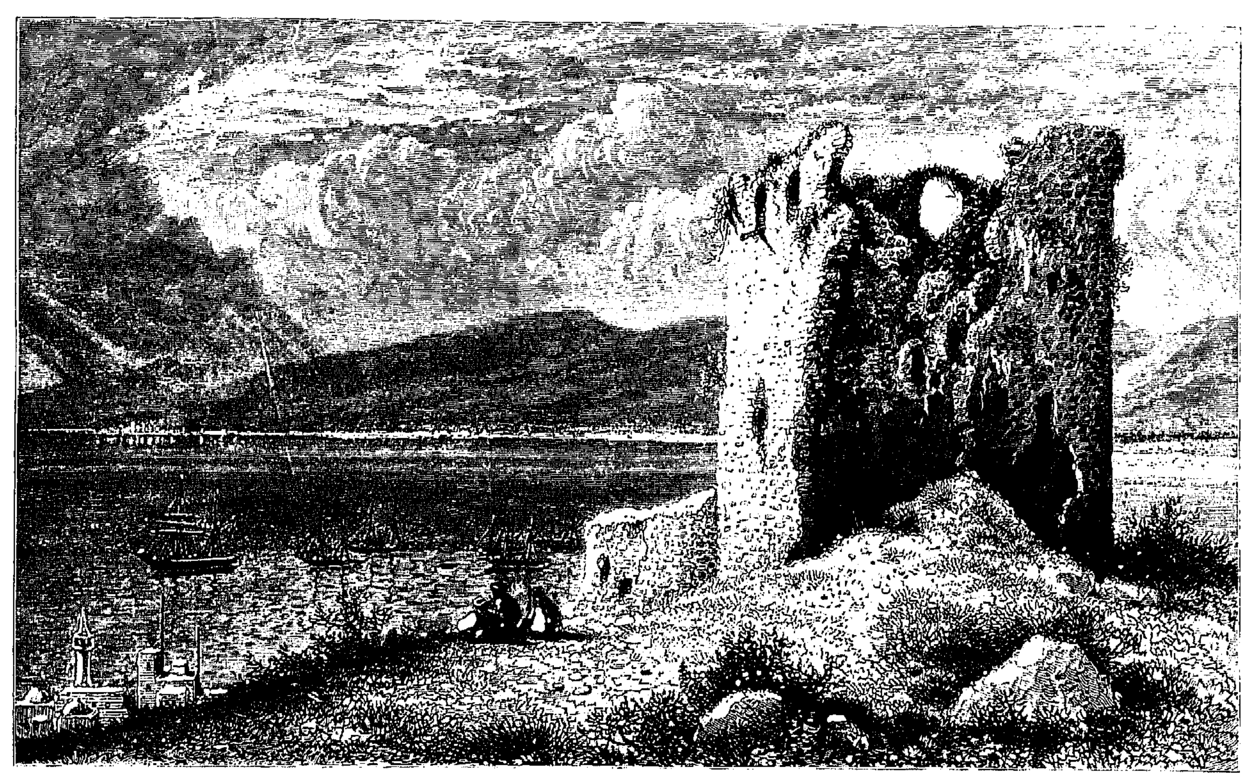
لكن اللافت ان الفلاحين في فلسطين لم يكن لديهم غير عدد قليل من الجمال للاستخدام في المواسم. وعليه فقد كانوا يستأجرون خدمات البدو الذين تعودوا الاقامة في مناطق شرق الاردن وثروتهم الاساسية الجمال التي لديهم والتي لا يستغنى عنها في القبائل البدوية. والجمال نوعان للشحن والتحميل او الدحلول للركوب كالفارق تماماً بين احصنة الخدمة وأحصنة السباق. وتصل الى عكا في ايام محدودة قليلة من العام قوافل جمال تحمل الأرز من وادي الأردن. وتحمل البغال من مناطق أقرب بالات القطن وسلال الزيتون وجرار الزيت الى أحمال أخرى من المدر ونباتات ومزروعات أخرى، كل منها في موسمها. لكن وعلى مدار السنة تقريباً في وسعك ان تشاهد كل صباح قوافل من الحمير والبغال ومعها الفلاحون يصلون من القرى والبساتين المجاورة يحملون الفواكه والخضار والبيض والحليب بينما يحمل الصيادون من البحر صيدهم ورزقهم تبعاً واعتماداً على المناخ وأحوال البحر.

ويكتب الحريري الشاعر*الاسلامي الأشهر صاحب المقامات الذي عاش الحقبة الصليبية الأولى في «مدينة البحر» كلاماً ينطبق على عكا فيقول «هو موضع اللقاءات المثالية، حيث تلتقي السفن بالجمال، والسقايات البرية بسمك البحر، وسائق الجمل والبحّار، وحيث يروي صياد السمك لزارع الارض قصص البحر»

---

*نتقلها هكذا كما وردت في النص والمقصود بالطبع الحريري صاحب المقامات [م]

تحتوى عكا، وفق تقدير راهن، على ٩ الآف ساكن ٧٠٠٠ منهم مسلمون، ومن ضمنهم الحامية التركية وينتمي الباقون فعلياً او شكلياً الى كنائس اللاتين والروم والكاثوليك، عدا قلة من اليهود والبروتستانت. ويشكل الكاثوليك او الملكيون وهم قريبون من الكنيسة اللاتينية الاكثرية الساحقة بين هؤلاء. وخلال إقامة استمرت لسنوات في حيفا، مع اخي مستر إي. ت. روجرز نائب قنصل جلالته هناك، أتيحت لي الفرصة لزيارة عكا ومناطق مجاورة أخرى. وكنا نعبر الخليج غير مرة، اما بحراً في رحلة تستغرق ساعة وربع الساعة، او براً بالدوران مع الشاطئ الرملي لساعتين ونصف



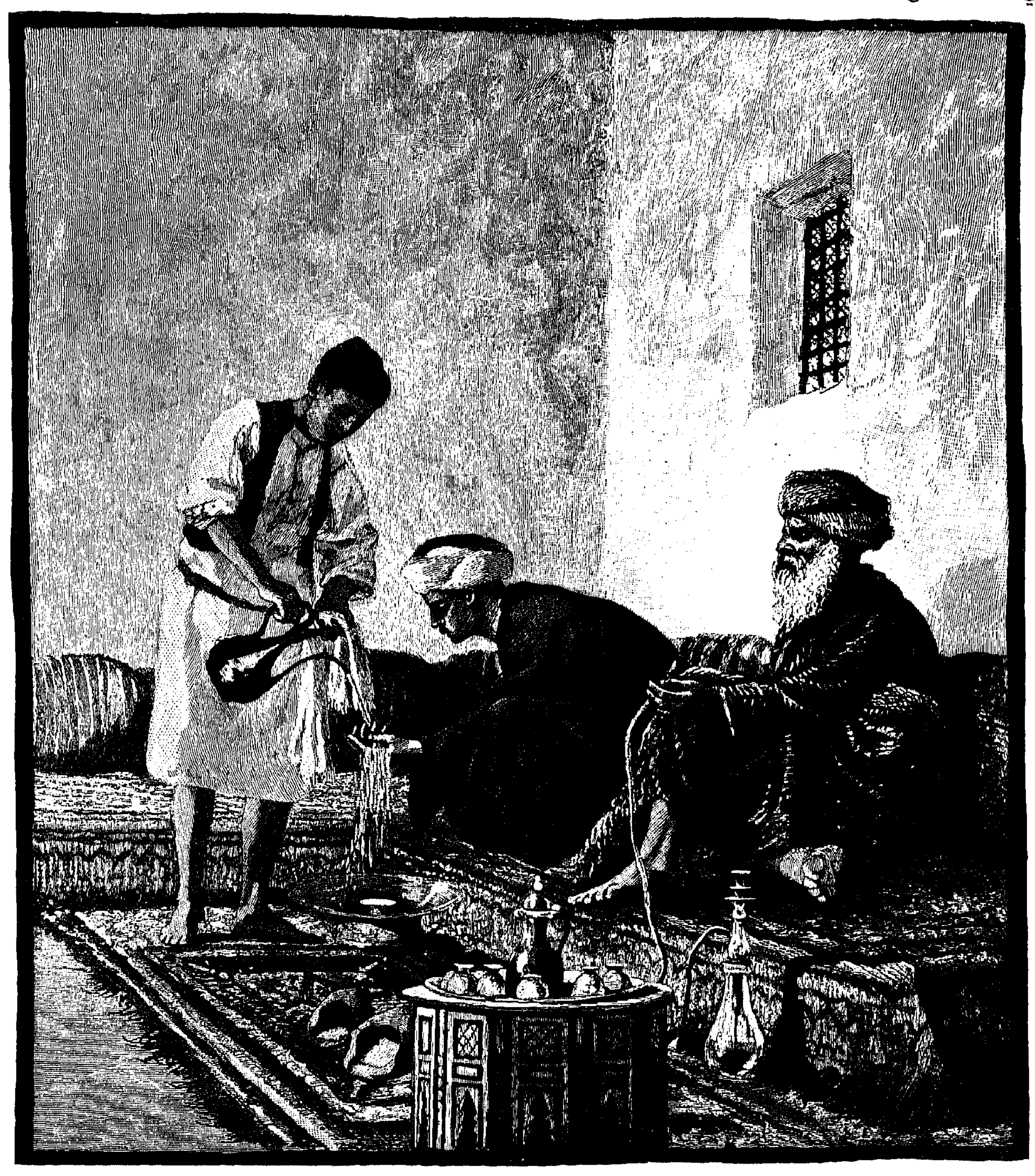
خليج عكّا من منحدرات
الكرمل مع اثار قلعة حيفا وجزء من بلدة حيفا عند أقدام تل القلعة وفي البعيد مدينة عكّا.

الساعة وحينما كنا نعبر بوابة عكا، وحيث التجار والزبائن وحلقات دائمة من الناس، كان هناك على الدوام ترحيب حار بنا بغير لغة، بالتركية والعربية واليونانية والفرنسية والانجليزية (ركيكة لكن محببة). وفي جوار البوابة مباشرة سوق الحنطة الكبير والذي يكون أحياناً شبه مقفل بالأكوام الهائلة من الحنطة المذهبة والشارين الكثر والبائعين والجمال المحملة. وبعده البازار أو الاسواق، وأهمها سوق حسن البناء، مسقوف، يملأه الحرير الذي تنتجه أنوال حلب ودمشق، وقطن مانشستر المصبوغ والملون، والزجاج والسكاكين، والأواني الفاخرة من مرسيليا وتريست والجواهر من القسطنطنية. وأسواق أخرى أصغر حجماً للبضائع والمنتوجات المحلية وبخاصة للحصر والسجاد والبطانيات. وتقوم هنا صناعة ممتازة للحصر لاغراض تغطية الارضيات والسقوف الحجرية او الطينية. وفي عكا منازل خاصة جميلة ومتقنة البناء والتصميم (وبخاصة للأجانب او للمواطنين المسيحين) مفروشة بأسلوب شبه أوروبي يتلاقى فيها وعلى نحو محبب الذوق الشرقي والذوق الغربي. واذكر واحداً منها هو منزل السيد جرجس الجمال باطلالته المشرقة وصالونه المفتوح على مناظر البحر الجميلة، وحيث كنت ألقى دائماً الترحيب والاستقبال الحار.

أما في بيوت أو دور المحمديين فلا يقوم غير القليل من الإضافات أو الزوائد الغربية. وتعطي إيضاحات الصورة المقابلة فكرة واضحة لشكل غرفة الاستقبال في بيت شرقي عادي. فمن الميزات الدائمة لهذه البيوت هي جدرانها

العارية والنوافذ العالية الصغيرة المشبكة بالحديد، والديوان المفروش الواسع الذي يغطي ثلاثة أرباع الصالون يستخدم ليلاً كأمكنة نوم، وحيث الفرش والاغطية الضرورية جاهزة على الدوام ومرتبة بعناية في تجويف عميق في اسفل الحائط غطّي بالستائر*. لا يتضمن البيت الشرقي الأصلي غرفاً مخصوصة او موقوفة للنوم بل تصلح أي غرفة أو السطح نفسه مكاناً للنوم وحسب المناسبة. والسرير هو عادة فراش يوضع او يرفع (مارك iiII) وعليه فلا حرج أن ينام أحياناً عدد كبير من الضيوف في المكان عينه.

ويقدم الغداء والعشاء وسط الغرفة، وموعد الأخير هو غروب الشمس، وهو الوجبة الاساسية. اما طاولة الطعام فهي صدر واسع من النحاس قطره قدمان أو ثلاثة، وتزينة الزخرفة والنقوش بنسب مختلفة، وهو يوضع على قاعدة



غسل الايدي بعد الغداء
وهو أمر لاغنى عنه طالما أن الأكل يجري بالأصابع بدل الشوك.

* هو «الليوك» في المحلّية المستخدمة [م].

خشبية ترتفع حوالى ١٥ انشاً، جوانبها مرصعة بالعاج (كما في الصورة)وقد تصف عليها كذلك فناجين القهوة وفي وسطها إبريق القهوة ذو العنق العالي. وبعد الغداء او العشاء يجد المرء ما يؤيد شهادة مارك في الشعوب الشرقية ان «لا طعام اذا لم يكن ممكناً غسل الأيدي» وهو أمر ضروري حينما نعلم ان الشوكة والسكين لا تستخدم هنا «وكل يغمس يده». بعد أن ينتهي الغداء او العشاء، بجلب خادم وعاء معدنياً كبيراً (طشت TISHT) مع منشفة ووعاء خاص بالصابون في وسط الطشت ثم يضع الطشت امام أعلى الحاضرين مكانة، أو أكبرهم عمراً، والذي يعالج الصابون بين يديه برفق من إبريق ذي زلومة طويلة، وحتى لا يتجمع الماء في الطشت توضع تحت الطشت قاعدة تجمع الماء المتساقط. وهكذا فحينما ينقل الطشت الى شخص آخر فلا ماء يظهر فيه. والعملية نفسها قد تتكرر في العصرونية او جلسة ما بعد الظهر حيث تغسل الايادي كذلك (العجوز الذي في ص٧٩ أعمى وقد أعطي طرف نبريش النارجيلة وهو ينتظر اشعالها)، وتدار معها القهوة على الحضور.

والبناء القديم في عكا زال منذ فترة ما ومعظم الابنية الحديثة القائمة تدين في الواقع لاحمد باشا الملقب بالجزار المتوفي سنة ١٨٠٤ والذي يقارن عادة بهاروت Herot لقسوته البالغة من جهة ولانجازاته، ومنها المعمارية، من جهة ثانية. ويحتل الخان الكبير خان الجزار باشا، الموقع الذي كان يشغله دير الدومينيكان، حيث تستند شرفاته الى عدد كبير من الاعمدة الرخامية الحمراء والرمادية، ولذلك يدعى أحياناً خان الأعمدة. ويحتل جامع الجزار باشا الكبير الذي أعيد بناؤه وترميمه، المرة تلو المرّة، آخرها كان سنة ١٨٦٣، الموقع الذي كان للكاتدرائية. وابتني الجامع من حجارة ومواد ابنية قديمة، حيث الأعمدة الغرانيتية والرخامية المتعددة الأشكال والألوان جلبت من قيسارية وصور. والبناء ضخم ومتقن لكنه يخلو من الجمال. ويقوم الجامع وسط ساحة مربعة مزروعة بالشربين والنخيل والكثير من العريش ذي الالوان المختلفة التي تضلل بعض الأضرحة الرخامية ذات القباب البيضاء. ويحيط بالساحة رواق مسقوف على اعمدة قديمة ومقسم الى اقسام لخدمة المصلين والزائرين والسقوف مقببة كما توضح الصورة في صفحة ٧٦ . ويبقى اليمام ميزة الجامع الدائمة، حيث تحوم اسراب منه او تحط فوقه بأمان وسلام، وهو منشأ المثل العربي «آمن كيمامةٍ في مسجد»

وتشكل تحصينات عكا التي لا يمكن الدخول اليها الا بأذن خاص من الباشا مكاناً ممتعاً يستحق الزيارة، ورغم انها زاخرة بكل انواع المدافع والاسلحة (وبعضها هو مما أسره سير سيدني سميث من سفن نابليون) فالمكان يبدو آمناً ومسالماً بما يكفي بحيث أني لاحظت في اخر زيارة لي نباتات برية صغيرة تنمو بسلام في شقوق الأسوار، كما كانت نباتات الاكانثوس في ذروة تفتحها وجمالها.

مقاطع من تاريخ عكا القديم.

ورد في الأحكام (ج ١، ٣١، ٣٢) ان قبيلة آشور Asher التي ملكت عكّا(Accho, Akka)، لم تنجح في إخراج «الكنعانيين» سكانها الأصليين منها، بل إكتفت «بالسكن في ما بينهم». ويمكن اعتبار بقايا البيوت التي اكتشفت هنا، وهي صغيرة ومشغولة بالطوب المجفف بأشعة الشمس مع مزيج من الرمل والطين Cement، ميزة البناء في الأزمنة القديمة، اثاراً للحقبة تلك. ورغم أن عكّا لم تذكر بعد ذلك في العهد القديم، إلا انه أشير اليها من قبل المؤرخين القدامى كـ عك° Ake مدينة فينيقيا، كذلك ذكرها ميناندرMenander التي أخذتها آشور وذلك حينما هاجم شلمنصر مدينة صور. وعكّون Akkon هو اسم آشوري. ثم كانت المدينة محطاً للانظار في حقبة احتلال الاسكندر الكبير لسوريا وفلسطين ومصر وانتزاعها من سلطان فارس سنة ٣٣٣ قبل الميلاد، بدليل العملات الذهبية والفضية الجميلة التي كانت تصك فيها. وحينما اقتسم قادة الاسكندر، وورثته، ممالك حكمه الشاسعة تولى بطليموس ptolemy حكم مصر ثم دانت له عكّا نفسها سنة ٣٢٠ ق. م. وظلت المدينة لفترة طويلة في عهدة البطالسة الذين توسعوا في بنائها وتزيينها واعطوها إسمهم بطليموسة ptolemais. لكن شيئاً من بقايا هذه الحقبة، التي ربما كانت الأبهى لم يكتشف خلا القطع النقدية البطليموسية التي صكت هنا. وتتميز هذه القطع النقدية عن سواها من القطع النقدية للبطالسة بكونها تحمل على صفحتها الحرفين الأولين من بطليموسة ΠΤ . لم يكن حكم البطالسة على عكّا ثابتاً ودائماً بل متقطعاً فكانوا يخسرونها ثم يستعيدونها بحسب تقلبات صراعاتهم مع الملوك السلاجقة Seleucidaean في سوريا (راجع ماكابيز I XI, XII) وسقطت المدينة أخيراً ولفترة طويلة في عهدة الرومان، فجرى تزيينها من قبل هرود Herod، رغم أنها لم تكن تحت سلطته، وحين مرّ بها بولس يوماً ما (الافعالXII) في طريقه من صور الى قيسارية، كانت عكّا مستوطنة Colony رومانية وعلى قدر من البهاء والروعة. وتشير عملات خلفاء بطليموس على عكّا إلى الحقبة التي تمتد من عهد كلاوديوس الى عهد سالونينا Aalonina (من ٤١ م. الى ٢٦٨م.) ويحمل الوجه في تلك القطع المعدنية شكل رأس الحاكم وألقابه، أما الوجه الآخر فمحفورة Colptol وأهم الحفورات هي تلك العائدة لعملات تراجان Trajan وحدريان Hadrian، حيث شكل إمرأة تضع فوق رأسها تاجاً (رمز المدينة) وتجلس على صخرة، عند أقدامها نهر (بيلوسBelus) وفي يدها اليمنى سنبلة قمح؛ وكذا عملات كراكلا Caracalla حيث معبد سداسي الشكل فيه السعد متوجاً بالنصر وقف على عامود الى جانبها. وكانت المدينة قد دخلت في زمن مبكر التنظيم الأسقفي؛ وتشير الوثائق ان كلاريوس، اسقف بطليموسة، قد حضر مجلس قيساريا سنة ١٩٨ للميلاد.

وفي سنة ٦٣٨ استولى المسلمون على بطليموسة، فغدت عكّا Akka تحريفاً لإسمها السامي الأول عكّو Accho. والحدث التالي الرئيسي في حياة المدينة هو احتلال الصليبيين لها سنة ١١٠٤ بقيادة بلدوين الاول، حيث غدت حصنهم القوي وقاعدة لهم. وشغل الڤينيسيون والجندويون والبيزيون* باغراض التجارة والتبادل التجاري، الى الإغراض الاساسية، فقدمت أساطيلهم الى ميناء عكا محملة بالحجاج والجنود والتجار والبضائع، وشهدت عكّا بذلك انتعاشاً سريعاً وتوسعاً مطرداً. ولكن المدينة استسلمت، رغم ذلك، ودونما مقاومة لصلاح الدين سنة ١١٨٧ بعد انتصاره الحاسم في حطين. ومع وصول ريتشارد بلا نتيجينتو وفيليب اوغسطس على رأس حملة صليبية جديدة، أمكن للصليبيين اعادة السيطرة على المدينة سنة ١١٩١، ولتبقى في عهدتهم مئة سنة تماماً،جرى فيها بناء الكنائس والقصور والكاتدرائيات والقلاع والابراج. كما أصلحت قنوات جّر المياه القديمة وكانت عكّا في هذه الاثناء مقر قيادة «فرسان القديس حنا المقدسيون» واستمدت اسمها الاوروبي منهم «عكّا القديس حنا»

لكن الاكثر إلفاتاً وامتاعاً في هذه الحقبة هي العملات التي صكت في عكّا والتي تستحق التوقف عندها ودراستها ملياً.

فقد عمد الڤينيسيون، وهم صرّافو الصليبيين، بهدف تسهيل معاملاتهم التجارية مع العرب، الى صك عملات ذهبية تشبه، في قليل أو كثير، دنانير الخلفاء. وحدث ذلك غير مرة في طرابلس وعكّا والقدس. كان على وجه القطعة النقدية اسم أحد الخلفاء ولقبه، وعلى الوجه الآخر شهادة الايمان المحمدي بالعربية وبخطٍ كوفي. واستمر هذا التقليد

* نسبة إلى ڤينيسيا (البندقية)، جنوى وبيزا. [م]

فترة طويلة. ولاقت هذه العملات رواجاً كبيراً في المنطقة. وحينما زار إيدي دي شاتورد عكّا ممثلاً للبابا المقدس الرابع وفي صحبته لويس التاسع، هاله أن يجد عملات تحمل عبارة «محمد رسول الله» تصك وتوزع من قبل الصليبيين. وهكذا صدرت تحريمات وعقوبات بابوية أخرى بحق «مرتكبي آلاثام» هذه. لكن الطلب على تلك العملات الذهبية كان ملحاً فلجأ فينيسيو عكّا الى اساليب شتى للإلتفاف على التحريم البابوى. فقد أعادوا تقليد دنانير الخلفاء لكنهم استبدلوا العبارات المحمدية فيها بعبارات مسيحية فظهرت على واحدة من هذه العملات ضمن الإطار، الذي كان يجب أن يكون فيه اسم الخليفة، عبارة الآب الابن الروح القدس، إله واحد، وعلى هامشها عبارة «صك في عكّا سنة ١٢٥١ على تجسّد المسيح». وعلى الوجه الآخر منها صكت عبارة في «مجد صليب الرب يسوع المسيح والذي فيه خلاصنا وحياتنا وانبعاثنا ومنه الحياة والمغفرة». وعلى قطعة نقدية أخرى تعود للتاريخ عينه عبارة حفرت في مربع: «إله واحد، ايمان واحد معمودية واحدة» مع صليب صغير في الوسط، وعلى وجهها الآخر إعلان الثالوث في الوحدة مع عبارة :«المجد لله، على مر السنين آمين»

انتهى الحكم المسيحي على فلسطين سنة ١٢٩١ حينما احتل سلطان مصر الملك الأشرف، ابن قلاوون مدينة عكّا بعد حصار دام شهراً واحداً. وأعطى السلطان أوامره بازالة اسوار المدينة وكنائسها، ولم تبق الا بوابة إحدى الكنائس التي حفظت ونقلت الى القاهرة رمزاً للانتصار. ويصف المقريزي، المؤرخ العربي المعروف، المناسبة بحماسة جلية ويسهب في بيان جمال البوابة فيقول: «هي أجمل ما صنعته يدا انسان، لرخامها الابيض واسلوب هندستها الجديد ودقة صنعها الفائقة، لقواعدها وأعمدتها وإطارها نقلت جميعها الى القاهرة». وهي تشكل اليوم بوابة جامع الملك الناصر محمد، شقيق الملك الاشرف خليل (١٢٩٠ ـ ١٢٩٣) وخلفه (١٢٩٣ ـ ١٣٤١) وذلك على أحد أهم شوارع القاهرة سوق النحاسين، وهي غالباً ما تحير الزائر الذي لا يعرف تاريخها. وأهمية هذا الاثر انما يكمن في انه الاثر الكامل الوحيد المتبقي من جملة الكنائس التي ابتناها الصليبيون في عكّا.

وفي رواية لمسافر في فلسطين في القرن الرابع عشر (هو اودولف دي ساشم L. Des Suche) أن عكا كانت فارغة، موحشة إلا أن كنائسها وابراجها وقصورها لم تكن قد دمرت بالكامل، وان حوالى ٦٠ مقاتلاً مسلماً (Saracena)* كانوا قد تركوا لحماية المكان والميناء؛ وأن هؤلاء كانوا يعتاشون من انتاج الحرير وبيع الحمام والحجل اللذين يكثران هناك. وظلت المدينة على خرابها هذا الى أن احتلها السلطان سليم الاول سنة ١٥١٧. ولم تنهض من جديد حتى القرن السابع عشر. والآثار الصليبية المهمة الوحيدة المتبقية هي المستودعات الواقعة تحت المستشفى العسكري الحديث، وهي عبارة عن سلسلة من القاعات والممرات ذات العقود المقوسة تحت انقاض كنيستي سانت اندرو وسانت جون واجزاء من سور المدينة.

وعلى مسافة حوالى الميل شرقي عكّا ينتصب «جبل تورون» الذي خيم عليه ريتشاردكور دي ليون سنة ١١٩١، وحيث زرع نابليون بطاريات مدفعيته سنة ١٧٩٩. يقف الجبل وحيداً منعزلاً، كما لو كان جبلاً اصطناعياً، ارتفاعه ٩٦ قدماً ويشرف كلياً على مدينة عكّا ويطل على أجزاء من السهل. والاسم العربي للتّل هو «تل الفّخار» The hill of potler's clay، لكنه يدعى كذلك جبل نابليون او يدعى احياناً جبل أنتيكار Antikâr وهو الاسم الذي يعطى للملك ريتشارد في سجلات الحقبة الصليبية لدى المؤرخين العرب.

جبل الكرمل ونهر كيشون

تبلغ المسافة، خطاً مستقيماً بين رأس عكّا وقمة جبل الكرمل (راس الكروم) ثمانية اميال يتراجع الشاطئ بين النقطتين وينحسر الى الوراء الى حد كبير ولتبلغ المسافة دوراناً مع الشاطئ اكثر من اثني عشر ميلاً. ويتفاوت عمق الخليج الذي يتشكل هنا بينما لا يزيد اتساعه عند عكّا عن الميل الواحد، يتسع جنوباً وليبلغ الثلاثة أميال عند مصب نهر

* مقاتلون من قبائل عربية اسلامية [م]



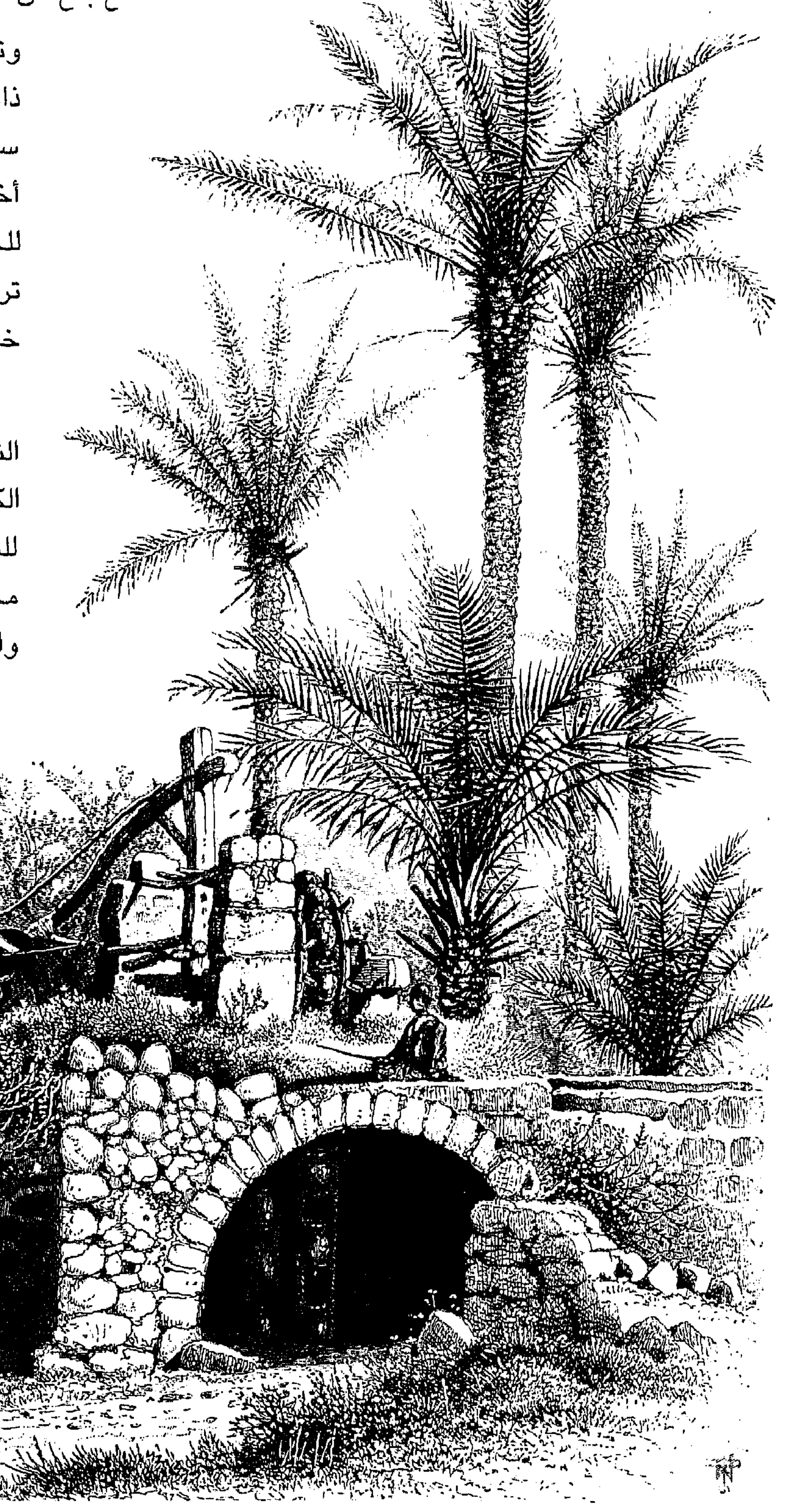
أعلى نقطة في جبل الكرمل
مع منارة على قمته. وتحته راس الكروم. ومدينة عكا تظهر من بعيد مع جدران رأس الناقورة.

كيشون، حيث تبدأ تعرجات ميناء حيفا والتي تشكل ملاذاً آمناً للسفن. ويفصل شريط كثبان الرمل المتحركة الشاطئ الرملي الناعم الممتد من عكا الى حيفا عن السهل الزراعي الخصب، ويمتد هذا الشريط من جنوب نهر بيلوس الى حيفا لا يقطعة الا مصب نهر بيلوس المتغير ابداً على مسافة حوالى ٩ اميال. ويبلغ عرض شريط التلال الرملية هذا في الوسط حوالى الميل الواحد. الا انه ليس خالياً من الخضرة تماماً اذ تقوم فيه هنا وهناك انواع من العشب ذات الجذور الطويلة Psammarenariaالى شجيرات ناحلة او قصيرة بين حلقات من الشوك والعليق. اما جنوب كيشون فالشريط الرملي ينتهي الى غابة كبرى من أشجار النخيل تظلل حيفا وتشكل احد أجمل مناظر فلسطين. والى الشرق من كيشون، على مسافة حوالى أربعة أميال، يمتد السهل بين الكثبان الرملية حتى اقدام التلال حيث تقوم عدة قرى تحيط بها غابات الزيتون واجزاء كثيرة من السهل مزروعة

على نحو جيد وتنتج القطن والتبغ والقمح والشعير الى الخضار المختلفة، كما تنبت فيه أنواع من السوس البرّي. وتزهر أيام الربيع ضفاف كيشون وحفافي البرك فيه، بالقرب من نبع جدرو، بأنواع كثيرة من الزهر، من السوسن الأزرق والأصفر الى مساحات واسعة يزينها مع شباط بساط من الالوان الليلكية والكحلية والارجوانية والزرقاء والبيضاء والقرمزية وسواها مع بقع من النفلة والخبيزة وزر الذهب هنا وهناك.

وتعلو سريعاً بعد الامطار مروج خضراء ذات عشب طويل يبلغ القدمين احياناً لكنه سرعان ما يلوي الى الأرض. وهو بعد أخضر مما لا ينفع في تحويله الى تبن للحيوانات. ومع ذلك فان خيلاً كثيراً ترسل من حيفا الى هنا بهدف الرعي في خلال فصول المراعي القصيرة هذه.

وتنتشر بساتين حيفا بين غابة النخيل التي ذكرناها ومنحدرات جبل الكرمل. وتمتد من البوابة الشرقية للمدينة الى وادي سلمان وتكثر حول مجاريها وبركها الكبيرة الخزامى والزيتون البري كما تعيش في البرك



بئر ماء في بستان في حيفا.
والساقية او الآلة التي تستخدم لسحب الماء.

نفسها أنواع من السمك والبط ومالك الحزين. ويقع بستان شقيقي على مسافة ميل ونصف الميل من حيفا مقابل وادي رشميا Wady Rashmia. وهو كسواه ينتج انواعاً مختلفة من الفواكه والخضار تميزه شجرة التوت البيضاء الواسعة جداً، ولطالما اعتليناها مع الأصدقاء لساعة من الزمن، قبيل مغيب الشمس، ونتلذذ بطعم ثمارها او افترشنا حصيرة في ظلها في ساعة الأصيل او قعدنا على الحافة الصخرية لبركة الماء المجاورة. وتنتشر أحواض الورد والقرنفل في محيط بيت البستاني حيث يعيش مع زوجتيه اللتين تبدوان في وفاق تام رغم أن الأولى امرأة بدوية كبيرة السن بينما الثانية فتاة مصرية يبدو البستاني في حاجة اليها كيدٍ عاملة ماهرة في زراعة الطماطم والباذنجان وسواها. وتذكرني الصورة المنشورة في ص ٨١ ببستان آخر هو أول ما زرته في حيفا وهو يقع الى الشرق من بوابة المدينة، ففي عصر يوم جميل من أيام اكتوبر قادتنا طريق ضيقة الى بستان إجاص يقوم في زاويته كوخ صغير من الحجارة والطين يسكنه بستاني وعائلته. كان البستاني وعائلته مصريين (والمصريون كما يبدو اكثر مهارة من العرب [البدو] في زراعة الأرض رغم بدائية تقنياتهم والآتهم). وكان في البستان اشجار تين وزيتون ورمان ولوز وحامض وليمون وصفوف طويلة من أثلام الخيار والخضروات الأخرى بينما تسيج البستان أشجار بلح. كانت الثمار تتدلى كالثريات المذهبة ولكن لسبب ما لم تكن ناضجة بما يكفي. وجذبنا صوت مياه قريبة كانت تجري الى بركة مبنية من الحجر دونما كثير تشذيب او عناية، كان يجلس اليها جماعة من العرب ترتدي الطرابيش او العقال تدخن وتتسامر وتأكل القثاء الطويل ذي الطعم الطيب، رغم ملمسه الخشن، والذي ينتجه البستان على وجه الخصوص. كان الماء يندفع غزيراً الى البركة من قناة تفرغ الماء اليها سلسلة من الجرار الفخارية مربوطة الى حبل من ألياف البلح تدور حول دولاب خشبي دائري تتدلى الجرار منه الى البئر، ويتصل بساعد خشبي يتحرك بحركة بغلٍ معصوب العينين وحين يتحرك الدولاب تهبط الجرار الى البئر فتملأ حين تغطس في الماء ثم ترتفع مع حركة الدولاب وحالما تصل القمة تفرغ ما فيها في القناة، المرة تلو المرة وطالما البغل يدور في حركته الدائمة، يلكزه بين الحين والحين صبي حافي القدمين في يده عصا طويلة. (تسمى هذه الآلة الساقية ويقال أن أصلها فارسي كما أنها شائعة الاستعمال في مصر) وفي جدار البركة فجوة مقفلة يجري فتحها في اوقات محددة من النهار فتندفع عبرها المياه في قنوات ترابية وأثلام تروي صفوف الخضروات أو الاشجار.

تأخذ مدينة حيفا شكل المتوازي الأضلاع Parallelogram فوق منحدر قليل الارتفاع يحاذي البحر، وتحميها أسوار حجرية قوية. ولها بوابتان واحدة على كل طرف في موازاة الشاطئ كما أن فسحة في الوسط تبيت فيها الجمال وسائقوها في ضوء المنارة او ضوء القمر وتتوزع البيوت في المدينة عشوائيا، سقوفها عدا القليل مسطحة وغالباً ما يكسوها العشب الاخضر بعيد هطول المطر. أما دور القناصل والتجار الاجانب وأثرياء المدينة فغالباً ما تكون في طبقتين حسنة البناء ويحتوي بعضها على ردهات استقبال واسعة مرصوفة بالرخام وتستعمل الطبقة الأرضية في الغالب بمثابة مخازن او اسطبلات. وتزداد أهمية المدينة يوماً بعد يوم وأسواقها. محلاتها ملأى بالبضائع، كما أن كثيراً من المنازل يبنى آلان خارج الأسوار. لم يكن في حيفا، حين وصلت اليها للمرة الاولى سنة ١٨٥٥، مساكن خارج الاسوار، خلا أكواخ البساتنة في الحقول كما أن سكانها لم يكونوا ليزيدوا عن الألفي ساكن؛ أما اليوم فهم حوالى ٥٠٠٠ ساكن، نصفهم او اكثر مسيحيون من كل الطوائف، والباقي محمديون مع عدد لابأس به من اليهود. ويرتفع خلف حيفا، مباشرة، منحدر حاد هو واحد من هضاب جبل الكرمل، تتناثر فيه بقع من أشجار الزيتون والبطم وتقوم على قمته قلعة صغيرة تدعى «برج حيفا» وهي التي انصبت عليها قذائف المدافع الانجليزية سنة ١٨٤٠ (راجع مصور جبل الكرمل وصفحة ٨٣) ورغم أن المدينة والقلعة تبدوان قديمتين فإنهما حديثتان جداً في الواقع وتعودان الى العام ١٧٦١م وما بعده.

أما حيفا التاريخ القديم التي احتلها الصليبيون سنة ١١٠٠ ثم استعادها صلاح الدين سنة ١١٩٠ ثم احتلها ثانية لويس التاسع الذي أعاد تحصينها فهي تقع على مسافة حوالى الميل ونصف الميل الى الشمال الغربي من المدينة الحالية، وتمتد حتى رأس الكروم تقريباً. كانت حيفا عند الفاتحين المسيحيين seigneurie deCaiphas ومن الذين تعاقبوا على حكمها تنكريد Tancred حاكم انطاكيه بعد ذلك، وروزجيوس Rorgius الذين كان لورد عبرون Lord of Hebron. ولكن مدينة الصليبيين تلك ضاعت وذلك حينما دمرها المسلمون بالكامل تقريباً عند نهاية القرن الثالث عشر. وحينما تولى ظاهر العمر حكم وسط فلسطين بدءاً من سنة ١٧٦١ وجد ان المدينة القديمة مكشوفة لغارات القبائل البدوية من

جهة سهول عتليت، فقرر اخلاءها نهائياً واستخدم حجارة أبنيتها وأسوارها المدمرة لبناء أسوار المدينة الجديدة وابتنى، الى ذلك، السراي والقلعة. وكذا السكان الذين ابتنوا، كذلك، منازلهم وبنسب مختلفة من ركام الابنية القديمة. وظلت حيفا القديمة لقرن من الزمن مجرد مصدر حجارة مشذّبة جاهزة لتشييد الأبنية والإنشاءات الجديدة. أما اليوم فموقع المدينة القديمة مغطى تقريباً بالبساتين او الرمال المتحركة، إلا أنه تبرز هنا او هناك بقايا اسوار قديمة وأعمدة مكسورة ومساحات مرصوفة، بينما تزرع الشاطئ في غير مكان حطام حجارة غرانيتية بروفيرية وقطع من الرخام المرقط وبقايا أخرى. كما أن هناك بقايا برج قديم تغسلها مياه البحر عند الشاطئ تماماً. ويروى أن «كنوزاً مدفونة» متفاوتة الاهمية، قد عثر عليها بين تلك الآثار. واعظم تلك الكنوز قيمة هو ما عثر عليه قبل ثلاثين عاماً حينما عثر عامل كان يحفر في الأرض بحثاً عن حجارة بناء على جرّة من الفخارتحتوي على ألف قطعة ذهبية تعود الى حقبة سابقة على الحكم الاسلامي على فلسطين. وعند منتصف الطريق بين حيفا الحديثة والاثار القديمة حينما يتسع الشريط الرملي بين منحدرات الكرمل والشاطئ الى اكثر من نصف ميل، تقوم مستوطنة ألمانية صغيرة لجماعة الهيكل تأسست قبل بضع سنوات وتتألف من مزارعين وعدد من أصحاب الحرف وقد عاش بعض هؤلاء في أميركا وهم يتحدثون الانجليزية. أما عددهم فقد بلغ سنة ١٨٧٧ ثلاثمائة وخمسين فرداً. وتتألف قريتهم من شارع طويل مستقيم يذهب صعداً من شاطئ البحر الى أقدام التلال. ويقوم شارعان متوازيان، جنباً الى جنب؛ بينما البيوت، وبعضها ذات سطح قرميدي أحمر مائل، مبنية من حجارة مكسية او بنية مقتلعة من الجبال القريبة. وتقوم الى جانب كل مسكن حديقته الخاصة وفيها بئر ماء وخزان لجمع مياه المطر. ومحيط الشارع مزروع بشجر التوت والجميز وأنواع أخرى، كذلك استصلحت حفافي التلال القريبة وزرعت بالكرمة. وفي المستوطنة، كذلك، معبد وكلية تدرس غير لغة، ومنها العربية، ومكتبة وقاعة مطالعة، ويقوم عند الطرف الاسفل من الشارع فندق بسيط البنيان لكنه يقدم خدمة ممتازة للمسافرين والزائرين، وتقوم بالقرب منه نقطة حراسة ليلية.

ووراء المستوطنة، نحو الشمال الغربي يمتد السهل ليصل الى رأس الكرمل، بطول يقارب الميل وربع الميل ومتوسط عرضه حوالى ثلاثة أرباع الميل، أي بمساحة تقارب الستمائة فدان من الأراضي العالية الجودة والخصوبة. يملك الالمان او يستأجرون نصفها، والنصف الآخر للعرب إلا انها كلها مستصلحة ومزروعة على نحو جيد وتنتشر بضع حلقات من أشجار الزيتون يملكها المستوطنون عند حفافي الهضبة بينما عند الشاطئ أشجار تين وصبير الى اشجار فواكه أخرى. وشق المستوطنون طريقاً للعربات بين حيفا ونازاريا يستخدمونه لأغراض الشحن والتجارة، كما أنهم أقاموا معملاً للصابون ينتج أنواعاً جيدة ويصدر قسم من انتاجه الى أمريكا. ولدى كل عائلة بقرة او اثنتان وبضع رؤوس ماعز ويتولى العرب رعايتها وأخذها الى المراعي يومياً. والمستوطنون ليسوا أغنياء، الا انهم يملكون ما يحتاجون إليه ويبدون سعداء. كذلك هم يعيشون بتفاهم وسلام مع أهل البلاد لكنهم ليسوا ميالين للاختلاط في ما بينهم*.

ويقوم قرب الشاطئ الصخري على أقدام الطرف الغربي لجبل الكرمل، حيث يضيق السهل الى أدنى نقطة فلا يزيد في ذلك الموقع عن ٢٠٠ ياردة، تل من الركام والاثار يدعى «تل السماق» وآثار حصن قديم أنشئ كما يبدو لحراسة الممر. والمكان كما يعتقد هو موقع سيكمانيا Sycaminum المدينة التي وصفها سترابوStrabo المتوفي سنة ٢٤ ميلادية. لم يكن للمدينة آنذاك غير اسمها الا انها كانت قبل قرن واحد من الزمن على مقدار من الأهمية بدليل العملات الذهبية الجميلة والكبيرة التي صكت فيها سنة ١٢٥ ق. م. (او ١٨٧ في التقويم الروماني) على اسم كليوباترا، ابنة بطليموس السادس فيلوميتر Philometer التي تزوجت ثلاث مرات (وتروى قصة حياتها في مكابي ج١، X, X I) ويروي جوزافوس Josephus ان بطليموس الثامن، لايتروس، الذي أتى من قبرص على رأس جيش من ثلاثين ألف رجل لحصار بطليموسة (عكا) قد نزل في هذا الموقع: «لقد أتى الى بلاد سكمانيا وأنزل جيشه على شاطئها». وأياً يكن الموقع الدقيق «للمدينة» فإن بلادسكمانيا كانت تشتمل على شاطئ الملاذ* المسمى زبولون Zebulun الواقع بين المنحدرات

---

* «مسيحيو الهيكل»، او محبو اوروشيلم، فرقة دينية المانية نشأت في بلدة ورتمبرج سنة ١٨٥١ من تلاقي بضعة افراد كرسوا حياتهم للشأن الروحي، فألفوا جمعية ازداد عدد افرادها بسرعة ثم اصدروا من سنة ١٨٥٣ صحيفة يحررها كرستوفر هوفمان الذي انتخب رئيساً للجماعة وأحد أهدافهم المساعدة في أحياء الأرض التي كانت تنضح يوماً ما حليباً وعسلاً وارسلت الجماعة سنة ١٨٦٨ متطوعين اختاروا أماكن للاستيطان في حيفا ويافا فوصلت طلائع هؤلاء المستوطنين في خريف ذلك العام كذلك اقيمت مستوطنة مشابهة بالقرب من اوروشيلم.

* استخدمنا مفردة «ملاذ» مقابل Haven بمعنى مكان الامن الطبيعي الذي تلوذ به السفن وهو جزء من مصطلح المرفأ الحديث لكنها أكثر دقة وأحسن وصفاً وتعبيراً[م]





دير جبل الكرمل.
وتشاهد من على سطحه مناظر جميلة على طول الشاطئ شمالاً وجنوباً . والمبنى الى اليسار لإقامة الحجاج المحليين وفوقه منارة ترتفع ٤٧٠ قدماً فوق سطح البحر.

الشمالية لجبل الكرمل. «كانت زبولون مكانا للسكن عند البحر وكانت ملاذاً للسفن» (التكوين، 13 . XLIX راجع ص ٨٣). وكلمة דדח العبرية للمرفأ هي تحريف صوتي طفيف للفظة «حيفا» العربية أوøÉ اليونانية .

ويتحدث ايسبيوس Eusebius المتوفي سنة ٣٣٨ م، كذلك، عن قرية سكمانيا «والتي تدعى حيفا أيضاً» مما يعني أن قرية سكمانيا الجديدة قد ابتنيت على الملاذ نفسه التي تقوم عنده الان حيفا العتيقة (راجع الخارطة). وفي التلمود إشارة الى דדח ، حيفا وسيكمونا Shikmonah.

ويسود الاعتقاد منذ زمن قديم أن جبل الكرمل، او جبل مار الياس كما يدعوه العرب هو مكان مقدس او «جبل الرب» ويظن ان مذبحاً «لإله الكرمل» كان قد ابتني في زمن تاكيتوس Tacitus ولكن لا اثار اليوم تدل عليه، وعلى هذا المذبح ضحّى قديماً فسباسيان Vespasian حين استشار الكهنة في مستقبله وحظه.

وكانت كهوف جبل الكرمل ومنذ زمن طويل أمكنة للعزلة والعبادة والتأمل للكثير من القديسين، بل يروى



ان فيثاغوراس نفسه قد اعتزل هنا لبعض الوقت بهدف البحث والتأمل. وسكن هذه البقعة، بعد الانبياء والفلاسفة، النساك المسيحيون الأوائل. وفي سنة ٤٠٠ ميلادية أصدر بطريرك القدس حنا تشريعاً رسمياً لـ «صوامع جبل الكرمل» تمجيداً لاسم النبي مار الياس. (ويروي سكان حيفا الكثير عن هذه الصوامع ونساكها). وعن هذه الصوامع نشأ التقليد الرهبني الكرملي الذي يعود الى أوائل القرن الثالث عشر. وابتنى هؤلاء، في رعاية الصليبيين، ديراً لهم زاره لويس التاسع سنة ١٢٥٢ . وكان ادوارد الأول أحد كبار تابعي هذا التقليد، وبين أبرز كهنته سيمون ستوك، من كنت Kent انجلترا، الذي اعتزل لستة عشر عاماً في إحدى المغاور، وهي اليوم مقفلة في معبد يقع على واحد من منحدرات جبل الكرمل تحت المنارة تماماً توفي ستوك سنة ١٢٦٥ وتحتل ذكراه مكاناً مميزاً.

الكهف المعروف «مدرسة الانبياء»
ويحج اليها المحمديون على اسم النبي الياس
والبيت الى اليمين حديث في موقع هيكل معبد قديم
،في مواجهة مدخل الكهف،

وتعرّض الدير سنة ١٢٩١، بعدما خسر الصليبيون

فلسطين نهائياً، للنهب والتدمير وقتل عدد من كهنته ورهبانه. دمّر الدير تماماً واستمر على حاله لفترة طويلة ثم أعيد بعد فترة طويلة ترميم الكهف الذي يقع أسفل جبل الكرمل والمسمى «مدرسة الرسل» وذلك من قبل مجموعة كرملية صغيرة اشترته وأقامت لها سكنى قريبة منه كذلك ابتنى فرا بروسبيرو Fra prospero معبداً في المكان، لكن رهبان المعبد ذبحوا سنة ١٦٣٥ ووقع المكان في يد المسلمين والمكان من ذلك الوقت مزار لعدد كبير من المؤمنين والزوار ومن كل الطوائف. وتضاء فيه الشموع ليلاً على اسم النبي الياس ويقع الكهف في ٢٨ قدماً طولاً و ٢١ قدماً عرضاً وثمانية اقدام ارتفاعاً، وجزء منه مضاف ومشغول، وهو مقصود للدعاء والتبرك والزيارة . ولقد رأيت مرة فيه سرير طفل صغير قيل لي ان اماً جلبته رجاء البقاء لطفلها الوليد بعدما خسرت طفلين آخرين من قبل. وابتني منذ سنوات قليلة بيت صغير حيث كان معبد فرار بروسبيرو، وفي مواجهة مدخل الكهف تماماً. كما تنمو شجرة نخيل في الساحة الداخلية المحيطة بالكهف اما الدير الذي زاره نابليون سنة ١٧٩٩ واستخدمه مستشفى للجرحى من جنوده في أثناء حصاره الفاشل لعكا فقد دّمره عبدالله باشا سنة ١٨٢١ .

ورغم ان الدير الحالي او «دير جبل الكرمل» هو موقوف على اسم مريم العذراء فهو لا يعرف لدى العامة الا باسم دير مار الياس. يدين الدير الحديث ببنائه للجهد الخارق الذي بذله أحد الرهبان وهو فرا (الأخ) جيوڤاني باتيستادي فراسكاتي الذي قام بجمع المال اللازم للترميم واعادة البناء ووضع الحجر الاساس له سنة ١٨٢٨وبناء الدير متين قوي يحميه خندق من الجهة الشمالية، بينما القسم المتقدم من الدير، لجهة الشرق، هو نتؤ المعبد القديم الذي كان ابتني في المكان الذي يقع فيه كهف مار الياس. وفي الداخل لجهة المذبح تمثال ضخم للنبي محفور من خشب تزينه زخارف وخلاخيل وعقود من الفضة وتتدلى من سلسلة عملة ذهبية نمساوية ذات خمس سفرنات* والزخارف هي أعطيات او نذور من فلأحي جبل الكرمل ومن بينهم الدروز. ويسكن الدير عموماً من ١٨ الى ٢٠ راهباً أحدهم جرّاح مجاز. وهناك دائماً مكان وأسرة جاهزة لاستقبال الزائرين الاوروبيين، حيث يحتفظ بثمان وعشرين سرير في حالة ممتازة في الطابق الاول لهذة الغاية. أما الحجاج المحليون فيمكن ان يبيتوا في فرش على الأرض او في البناء المجاور للمنارة غربي الدير، ويعنى الرهبان بزراعة بستان فيه أنواع مختلفة من الزهور والخضروات وكرمة جيدة. وهم يقطرون من الاعشاب البرية المنتشرة في الكرمل أنواعاً جيدة من المشروبات والأدوية ويملك الدير حوالى ٣٠٠ راس ماعز وعشرين رأس بقر يوكل أمر العناية بها الى عمال محليين يقودونها كل صباح الى المراعي. وهناك بضعة معابد الى الجنوب والشرق من الدير تدعى «روميتوري» Rumitorii ويقوم في واحد منها تمثال لحنا الانجيلي محفور من خشب.

وعلى بعد حوالى ميلين جنوب الدير يبدأ وادي السياح Wâdy es Siyeh الذي يتدرج صعداً، وهناك على المنحدر الغربي لجبل الكرمل آثار معروفة بـ «الدير» The Convent. وهي في جوار «عين السياح» وعلى مقربة من الكهف الكبير والمشغول جزئياً، والذي اعتزل فيه وفق السائد النبي مار الياس وعليه اليوم مقام مقدس عند المسلمين. ولعل الآثار القائمة هي بقايا الدير الذي كان ابتناه بروكاردوس (ثاني الرؤساء الكرمليين) «عند عين الياس» ولم يبق من الدير القديم الا القليل، بعدما ذبح خدمه سنة ١٢٣٨، ولم يحاول الكرمليون استعادة الموقع فآل من ثم وبالتدريج الى الخراب.

وفي موقع آخر من الوادي أعلى قليلاً، مكان يدعى «بستان الياس» حيث تتناثر حجارة مجوفة (او الجيودات geodes عند الجيولوجيين) أو الثمار المتحجرة وفق الاساطير المحلية. وتشبه الحجارة الكبيرة، والتي غدت نادرة الآن، البطيخ من حيث الحجم والشكل، أما الحجارة الاصغر حجماً والتي تعتبر تفاحاً فهي اكثر شيوعاً وتتألف هذه الحجار المجوفة من حجارة صوانية ذات لون شاحب تكسوها طبقة رقيقة من الكلس ذات لون أسمر. أما الداخل فمغطى بزجاج الكوارتزاة والعقيق، والكثير منها جميل وآخاذ. وبالاضافة الى هذين النوعين، هناك حجارة أخرى أصغر حجماً لاتختلف كثيراً عن حبات الزيتون شكلاً وحجماً وتعرف بـ ليوباديس فيودايسي Lapidis fudaici ويمكن ان تكون الاساس لاصفورات متحجرة من نوع سيداريس غليناري فارا Gidaris glandifera. وهناك أساطير شائعة متباينة حول مصدر هذه الحجارة، الا ان واحدة منها سمعتها في المكان عينه حين صرفت نهاراً كاملاً في الوادي برفقة اخي

* سفرنة هي جنيه ذهبي قديم [م]

وصحب كبير من الاصدقاء من حيفا، وتقول الرواية أنه «في ايام النبي مار الياس كان لرجل بستان كبير في الوادي، وكان غنّاء معطاء كثير الثمر، ومّر مار الياس يوماً بصاحب البستان بينما هو يجمع تلالاً من البطيخ، فسأل مار الياس الرجل اعطاءه واحدة لإرواء عطشه. لكن الرجل أجاب «هذه ليست فاكهة انها كومة حجارة» فقال مار الياس «لتكن كذلك» وتحولت الثمار في الحال الى حجارة وغدت تلال الغلال والثمار أكواماً من الحجارة»*

والحج الى هذا المكان ممتع جداً وخصوصاً في اوائل الربيع حين تتلألأ في جنبات الوادي ألوان الزهر الذي يوشك ان يعقد، وتفوح رائحة نباتات تشبه البخور والنرسيس، الى أزهار برية أخرى تكثر في ذلك المكان. ويمكنني أن أضيف، وللاشارة الى درجة برية هذا الوادي، أني وجدت الى فاكهة بستان مار الياس انياب خنزير برّي وقرن غزال جميل ومخلب نمر أو فهد.

اما الوادي الآخر على الجهة المقابلة من الهضبة فهو أحد فروع وادي رشميا، وهو وادٍ جميل يتجه شمالاً قبل أن يتصل «بنهر المتني» على مسافة حوالى الميل من حيفا. كانت ضفتا وادي رشميا مزروعتَين في ما مضى بالزيتون والكرمة إلا أنهما اليوم مهملتان ويملأهما الشوك والعليق. وفي موقع مشرف يعلو ٧٧٧ قدماً فوق سطح البحر توجد بقايا حصن قوي مستطيل الشكل مع برج مربع عند زاويته الشمالية الشرقية، وسماكة حيطانه حوالى ٧ أقدام وهي من حجارة كلسية ناعمة. ورغم ان البناء يبدو حديثاً نسبياً الا انه مهجور تماماً ويؤول سريعاً الى الخراب. والى الجنوب من الحصن ضريح منعزل اقتطع من صخر ويعود الى الأزمنة الأولى المبكرة. وعلى مدخله المربع أخدود محفور في الطرفين كان كما يبدو مكان حجر متحرك قطره ٤ أقدام هو بمثابة قفل للضريح، وهو الذي يجعل الضريح جديراً بالاهتمام (راجع مارك xvi.4) لأنه بات نادراً العثور على أضرحة من هذا النوع. وقد قام ليوتنانت كوندور بدراسة دقيقة للضريح ويقول أنه «يحتوي كذلك على ثلاث غريفات صغيرة حفرت في الصخر الصلب».

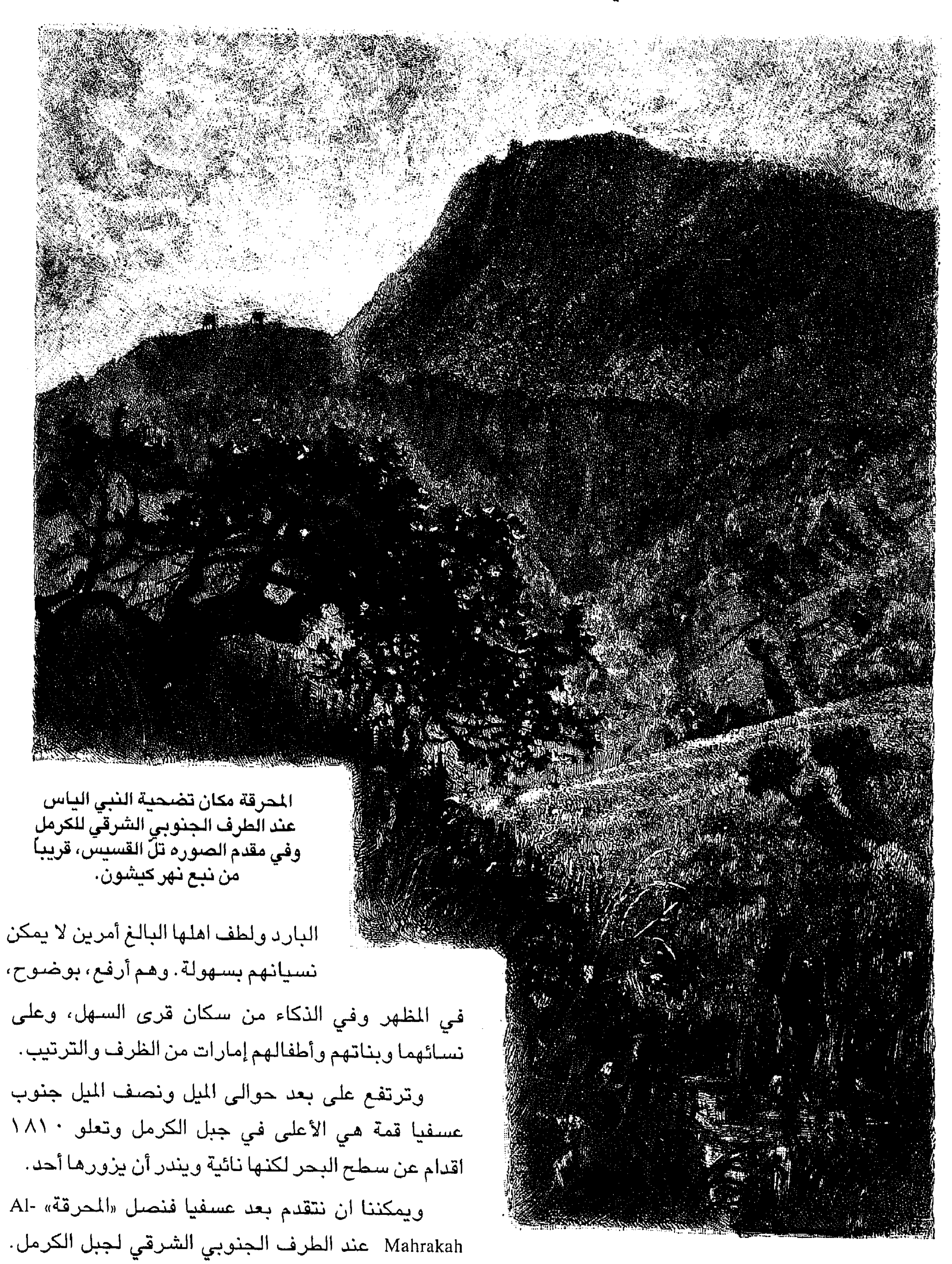
وهناك الى الشرق من حيفا مباشرة واد صغير يدعى وادي الصليب معروف باعشابه العطرية والطبية وخصوصاً القصعين في انواع مختلفة والصعتر البّري واللافاندر وإكليل الجبل، الى الهليون البّري وغيره.

وكما يقال في الحكواتي العربي حين يضيع خيط روايته فيضيع في هذا الوادي او ذاك، كان صعباً علي تجنب مصير مماثل، حيث لكل وادٍ لكل حنية في جبل الكرمل جاذبية خاصة تشدني اليها فتبقيني عندها ساعات. الا انه كان علي في النهاية ان أسرع الخُطى صعداً صوب سفح جبل الكرمل. يمتد السفح وفق الخارطة الى الجنوب الشرقي بدءاً من الدير الكرملي، والذي يعلو ٥٥٠قدماً فوق سطح البحر وترتفع تلاله بالتدريج وصولاً الى قرية عسفيا Asfia الدرزية، على بعد حوالى ١٠ أميال حيث يصل ارتفاعه الى ١٧٤٢ قدماً. ولا يوجد بين المكانين ساكن واحد كما لا أثر للزراعة، بل ينتشر الشوك والعليق والورد البرّي الى أجمات من شجر السنديان وأنواع أخرى مثل الزيتون البرّي والصنوبر. ويعرش العليق من شجرة الى أخرى بينما تمتد بعد فصل الأمطار بسط جميلة من الازهار ذات الالوان المختلفة. وتتناثر في غير مكان من هذه الهضاب آثار أو بقايا أبنية ومطاحن ومعاصر زيت أو كرمة تشير كلها الى ان المنطقة كانت مأهولة على نحو جيد في ما مضى كما كانت زراعتها عامرة. ويقال أنه حتى العقد الثاني من هذا القرن كان هناك في المنطقة ١٧ قرية درزية كلها مأهولة، وقد دمّرت جميعها في الحقبة المضطربة التي اعقبت ذلك التاريخ ولم يبق غير قريتين اثنتين على جبل الكرمل، عسفيا ودالية الكرمل على مسافة حوالى الميلين وربع الميل الى الجنوب الغربي من الاولى. وأهمية دالية الكرمل هي أنها تحتفظ بالاسم القديم للجبل. فالدالية هي الكرمة المعرشة او «كرمة الرب». ولا تزال القريتان الدرزيتان الى اليوم تحتويان على حقول من الكرمة معتنى بها الى مساحات أخرى تزرع بالحنطة او تنمو فيها اشجار الزيتون وأنواع أخرى من الأشجار المثمرة، ويقيم عدد قليل من المسيحيين هنا، على وفاق وود تامّين مع الدروز إلا أنهم يتميزون، عن سواهم، بثيابهم والتي هي أقرب الى ثياب سكان الناصرة.

والمنازل مبنية من الحجارة وهي نقيض الأكواخ المبنية من الطين والمنتشرة في السهل. وقد اختير، في المسح

*هناك روايات أخرى شائعة بين سكان فلسطين تشبه هذه الرواية من حيث الشكل.

الاخير، سطح أعلى بيت في عسفيا موقع أرتباط لأعمال المسح، كأعلى نقطة في تلك المنطقة وكان الأمر بالتأكيد موضع اعتزاز من أصحاب المنزل. وكان قد قدر لي، ذات صيف حار، أن أقيم في عسفيا لبعض الوقت فبدا هواؤها الجبلي



المحرقة مكان تضحية النبي الياس عند الطرف الجنوبي الشرقي للكرمل وفي مقدم الصوره تلّ القسيس، قريباً من نبع نهر كيشون.

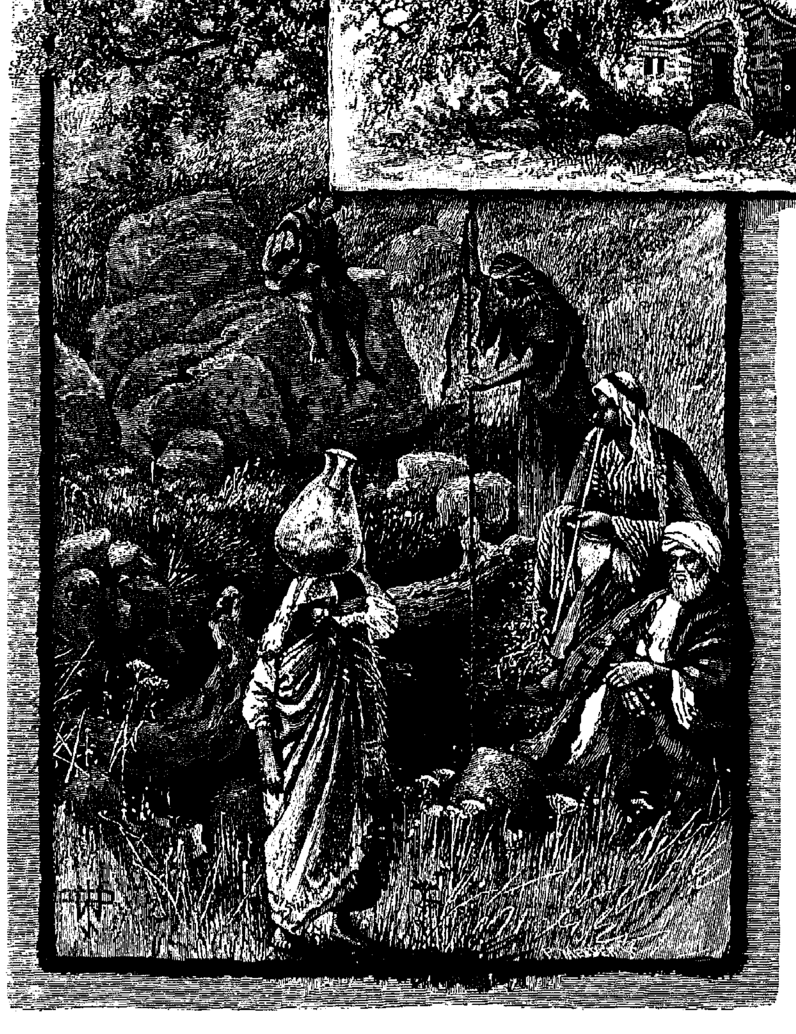
البارد ولطف اهلها البالغ أمرين لا يمكن نسيانهم بسهولة. وهم أرفع، بوضوح، في المظهر وفي الذكاء من سكان قرى السهل، وعلى نسائهما وبناتهم وأطفالهم إمارات من الظرف والترتيب.

وترتفع على بعد حوالى الميل ونصف الميل جنوب عسفيا قمة هي الأعلى في جبل الكرمل وتعلو ١٨١٠ اقدام عن سطح البحر لكنها نائية ويندر أن يزورها أحد.

ويمكننا ان نتقدم بعد عسفيا فنصل «المحرقة» Al-Mahrakah عند الطرف الجنوبي الشرقي لجبل الكرمل. ورغم أنها لا تبعد أكثر من ثلاثة اميال كخط مستقيم فإن الطريق اليها يستغرق عملياً حوالى ٥ اميال، يضيع بين الهشيم والعليق والتلال الصخرية وهو وبسبب من وحشته غير معين بدقة ولا يمكنك سلوكه من دون دليل مجرّب.

وتقوم «المحرقة» على مسطح صخري على ارتفاع ١٦٨٠ قدماً عن سطح البحر وفي مواجهة سهل اسدرالون . يرتفع فوق المحرقة منحدر حاد يعلو ٥٠ او ٦٠ قدماً تكسوه الاشجار ويقوم على سهل صغير تحته بئر ماء محفورٍ في الصخر ويدعى «بئر المنصورة»، تظلله بضع شجرات باسقة إحداها من البلوط التركي.

وبحسب اعتقاد كهنة الدير ودروز جبل الكرمل فان هذا المكان هو الذي شهد حوار مار الياس مع رسل بعل Baal الاربعمائة والخمسين وبحضور الملك أهاب Ahab وأبناء اسرائيل ورسل المهد الاربعمائة. والتحديد الدقيق لهذا المكان يورده راهب ايطالي سنة ١٧٨٠ في تأريخ مختصر لجبل الكرمل. ويؤكد دين ستانلي Dean Stanley الذي زار المكان سنة ١٨٥٣ أن الاعتقاد المتداول، وبخلاف الكثير من الاعتقادات الأخرى هو صحيح بل لعله الحدث الصحيح الوحيد الذي جرى حفظه في تراث التسميات المحلية فالسائد هو حفظ اسم البلدات او المدن. أما هنا فلا اثر لبلدة او مدينة، بل مجرد ركام لا شكل له ومع ذلك فله اسم محدد وذو دلالة معينة: المحرقة او مكان الحرق او التضحية ويأتي الدروز من أمكنة بعيدة ليؤدوا أضاحيهم في المكان. ورغم الاحتمال الذي يذهب أن المكان قد اكتسب إسمه من هذا التقليد، فإن الاكثر احتمالاً ان هذا التقليد انما هو استمرار لتقليد مماثل أسبق عهداً ... ويمكن أن يكون قد قام على قمة الجبل، هذا المكان المقدس، هيكل يهوا الذي دمره جيزبل



بئر في المكان الذي ضحى فيه مار الياس
ومنظر للهضاب القائمة فوقه، تشرف على خط طويل من الساحل في سهل عتليت وشيء من البحر الازرق خلفه.

Jezebel. وتحت هذه القمة مباشرة في فسحة رحبة في ظل شجرات زيتون عتيقة وحول بئر ماء جلس الملك وشعبه في جانب ومعه رسل بعل وعشتار الثمانمائة والخمسون وفي الجانب الآخر صورة يهوا الآمر الناهي. وينفتح دون ذلك السهل الكبير في أسدرلون Edraslon بينما مدينة جيزريل Jezcreel وقصر أهاب ومعبد جيزبل Jezebel على مسافة ليست بالبعيدة. أما أقرب من ذلك فتقوم ضفتا نهر كيشون يتلوى كما الأفعى. كان كهنة بعل يصرخون من الصباح الى الظهيرة، ومن الظهيرة الى المساء «يا بعل اسمعنا». وحين غابت الشمس خلف الجبل كانت تضحية مار الياس تقبل بالنار المنبعثة من أطراف السماء. والفصل الأخير انما حدث في السهل عندما جلب مار الياس الرسل المهزومين الى منحدر كيشون، وتخلص منهم هناك. ويعتقد أن المشهد المرعب هذا إنما حدث في جوار «تل القسس» Tell El Kessîs حيث يوجد تل صغير مخضوضر عند الجزء الاضيق من الممر يدعى «ألكَسَب» ELKasab يربط سهل أسدرالون بسهل عكا؛ وهو ليس بالاعتقاد الضعيف خصوصاً اذا علمنا أن هناك ممراً ينزل من المحرقة الى نهر كيشون في مقابل تل القسس تماماً. والنهر في هذا الموقع، وعند هذه الفترة من السنة، هو عموماً ضحل بل وجاف أحياناً وما تلا من احداث يرتبط مباشرة بالمحرقه. فقد عاد مار الياس الى المكان العالي على رأس الجبل لكنه طلب من خادمه أن يصعد أكثر وأن ينظر الى البحر ثم صعد الى قمة المنحدر الذي يكسوه الشجر ويخفي الأفق الغربي فنظر ورأى المتوسط خلف سهل عتليت كما لم ير غيماً. فقال له مار الياس


سهول اسدرلون من المرتفعات فوق المحرقة، نحو الجنوب الشرقي وفي البعيد، في الوسط، قرية زيرين Zerin (جنزريل Jezreel) وقلعتها البيضاء. والى اليسار جبل الضحي (Duhy) او حرمون الصغير، والى اليمين مرتفعات جيلبوا Gilboa

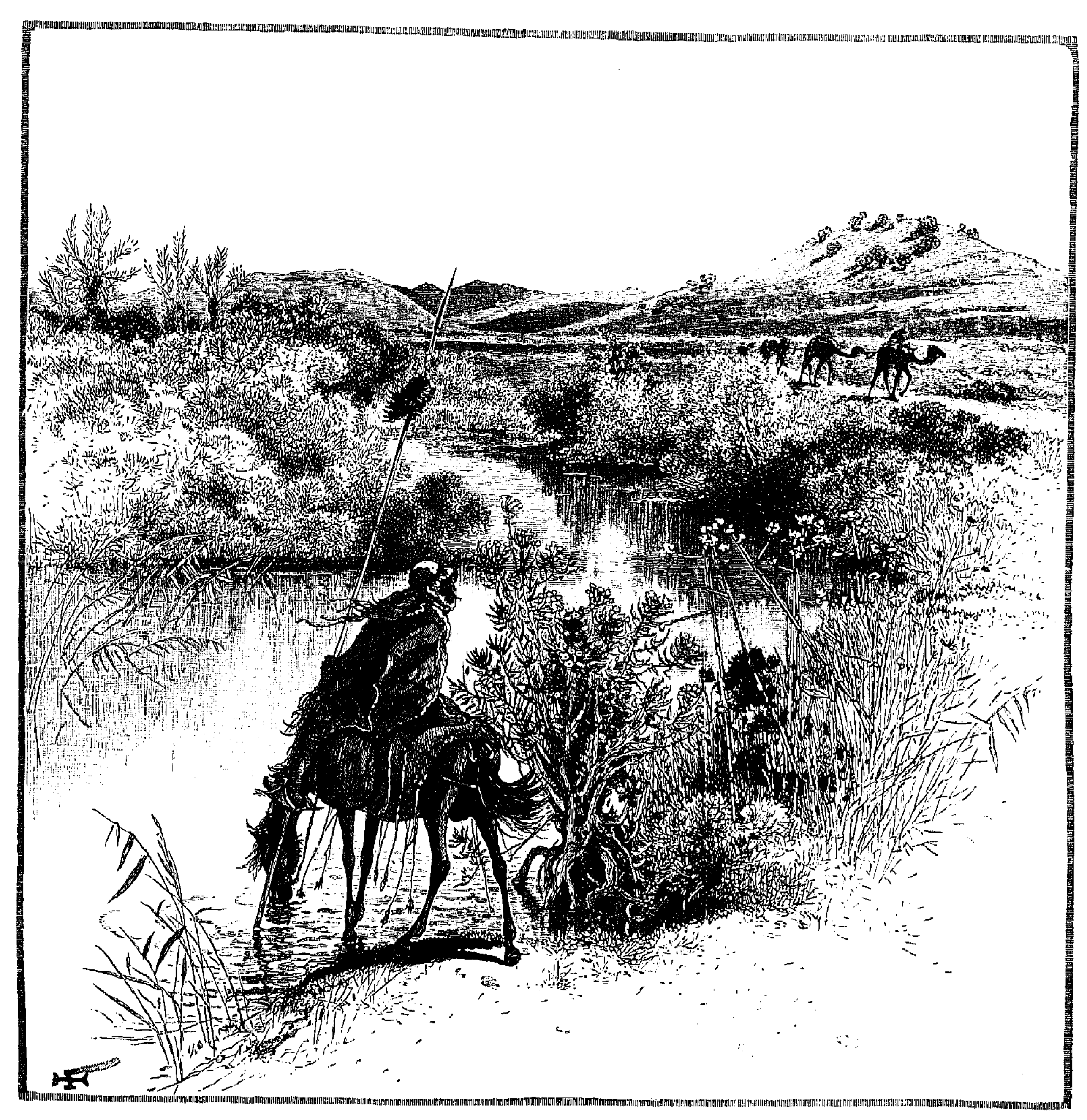
«اذهب من جديد» سبع مرات وفي المرة السابعة صاح الخادم «انظر هناك غيمة صغيرة تطلع من البحر كيد إنسان» (في اشارة أكيدة الى المطر الآتي ذلك النهار)، وغدت السماء في الحال سوداء وهبت الريح وكان هناك مطر عظيم وركب «أهاب» وذهب الى جيزريل... «وشمر مار الياس عن ساعدية وركض قبل أهاب الى مدخل جيزريل (الملوك ص ٤٥ ـ ٤٦ xviii) ويوضح المشهد سهل



نهر كيشون من المحرقة.
مكان تضحية النبي الياس. في مقدم الصورة خيمة للبدو وتلال الجليل في البعيد

أسدرالون (او مرج ابن عامر) كما يبدو من المحرقة، وفيه الطريق التي يجب أن يكونا قد سلكاها. اتجها اولاً نحو الجنوب الشرقي ثم التفا حول تلّ له شكل مميز ويدعى «تلّ الكمون» ويشبه القثاء المعقوف، ثم شدّا المسير صعداً الى جزريل (زيرين Zerin) أي الى مسافة تقدر بستة عشر ميلاً. وتبدو واضحة القرية الحديثة وقلعتها القديمة.

ومن المحرقة يمكن مشاهدة نهر كيشون للجهة الشمالية، في أحسن صورة حيث مياهه عالية في فصل الامطار كما تندفع سيول قوية من التلال المجاورة الى مجراه. وينبت على ضفتيه الدفلي والورت والعليق والقصب وحشائش ونباتات من أنواع مختلفة. ويبدو خلف النهر «تل القسس» وأبعد قليلاً عند حافة غابة البلوط تلوح في مؤخرة الصورة وراء الشجر، قرية تدعى «الشيخ بريك» وتشتهر بكهوفها العميقة المعروفة بـ«جهنم» وهي تستحق فعلا الزيارة وتقوم أسفل النهر، عند الطرف الأسفل من الممر الضيق الذي يوصل الى سهل اسدرالون بسهل عكا قرية تدعى «الحروثية»



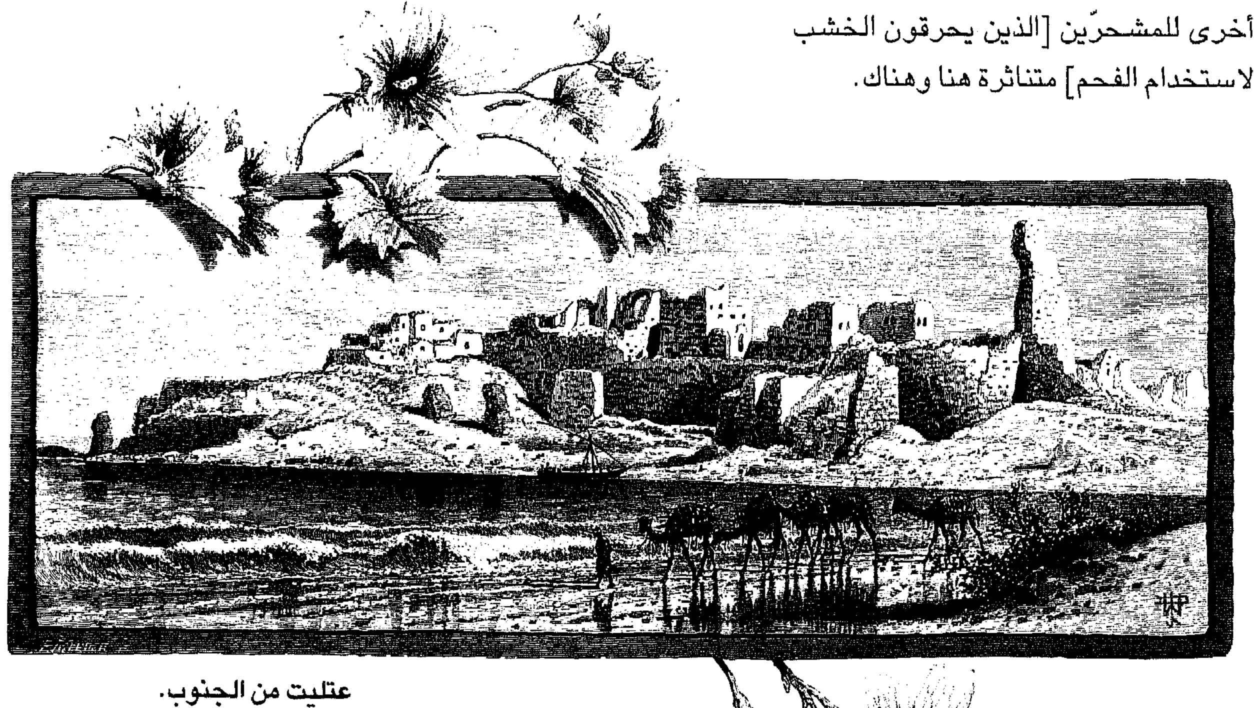
نهر كيشون
كما يظهر بعد موسم الامطار حيث يمر في وادي القصب وقبل أن يصل الى سهل اسدرالون ثم الى سهل عكّا. والدفلي على ضفتيه وأعشاش عصافير.

وتقع الحروثية فوق تل دائري الشكل تنتشر فيه بقايا ابنية وأسوار قديمة. ومن الواضح ان هذه الآثار هي بقايا صرحٍ قديم مهم يبدو أنه كان مع هاروشت جنتيل Harosheth of the Gentiles (الأحكام ١٦، ١٧)، في حصن سيسيرا Sisera القديم المنيع، وحيث كانت تتجه عرباته وجنوده حين «جرفتهم سيول نهر كيشون». وتقع «الحروتية» على بعد حوالى

نصف الميل من كيشون الذي يقترب في هذه النقط من منحدرات الكرمل الحادة فيضيق الممر الى درجة لاتتسع لمرور اكثر من اربعة او خمسة خيالة معاً. ويعتقد ان في هذا الممر الضيق عند اقدام جبل الكرمل، احتشدت عربات سيبرا Sis-era وخيله وجنوده حيث داس بعضهم بعضاً (القضاة v 22).

ينبع النهر من الوادي الضيق ويجري بين ضفتين حادتين غزيراً على عمق ١٥ او ١٦ قدماً وهو لا يغدو ضحلاً الا في مكانين اثنين لا غير. وأحد هذين المكانين لا يبعد كثيراً عن «الحروتية» وقد عبرته ذات مرة في تشرين الأول حيث لم يكن هناك غير القليل من المياه الجارية، الا أن الطمي والوحول وبعرض حوالى ٢٠ قدماً كانت اكثر إزعاجاً وقد أمكن لحصاني بصعوبة ان يتسلق الحافة الطينية ويضعني سالماً على طرفها الجاف. اما عند سهل عكا فيذهب مجرى النهر هادئاً اخضر، متلويا. وعند مصبه يترامى شريط من الرمل يسهل عبوره عموماً باستثناء الأوقات التي تهب فيها رياح شرقية قوية فتعلو المياه ويغدو عبوره بحاجة الى زورق. ونهر كيشون هو نهر المقطع El Mukutta في تسميته الدارجة الحديثة دلالة على ضحالة مجراه، واذا كان للكلمة ان تترجم عند كتّاب محدثين بنهر المقطع او الذبح او «المذبحة» فهي كذلك غير بعيدة عن الصواب.

ونعود الى «المحرقة» لنتجه منها غرباً نحو عتليت فوق المنحدرات الجنوبية لجبل الكرمل والتي تبدو الآن منطقة مهجورة رغم تناثر آثار كثيرة تدل على ان عدة قرى كانت موجودة يوماً ما في المنطقة، فالحجارة الكبيرة المقطعة والمشذبة والموجودة في غير موقع إنما تشير الى حال من السكن المزدهر كان قائماً في أزمنة مضت. اما اليوم فإن مظاهر الحياة الانسانية الوحيدة التي تصادفها هي بضع خيام لبدو عند ساقية ماء في الوادي وخيام أخرى للمشحرّين [الذين يحرقون الخشب لاستخدام الفحم] متناثرة هنا وهناك.



عتليت من الجنوب.

ويبلغ اتساع هضبة الكرمل عند قاعدتها الجنوبية حوالى ٧ أميال بينما يشكل «وادي الملح»، والذي يدخل سهل اسدرالون بين «تل الكمون» و «المحرقة»، الحد الجنوبي لجبل الكرمل (راجع الخارطة) وبعد الوادي تنخفض هضاب الكرمل لتضيع في سلسلة التلال التي تدعى بلاد الريح وهي ذات تربة كلسية وتفصل سهل اسدرالون الداخلي (مرج ابن عامر) عن السهول الساحلية المدن البحرية القديمة والسهول في فلسطين.

المدن الساحلية وسهول فلسطين

تشكل المنطقة الساحلية الممتدة من مرتفعات الكرمل إلى ميناء يافا المنطقة الأشد فقراً والأقل سكناً اليوم إلا انها تحتوي في الان نفسه على الكثير من الآثار والإشارات التي تدل على الماضي المهم والمزدهر الذي كان لهذه المنطقة. لا تحتوي المنطقة اليوم على اي بلدة او قرية ذات اهمية متميزة بينما مدنها القديمة الرائعة وحصونها الصليبية آلت كلها الى الدمار ومع ذلك فهذا الطريق الساحلي ملئ بالاثار التي تستحق التوقف والاهتمام.



آثار عند الجانب الغربي من عتليت
بنى البرج التامبلريون Templars سنة ١٢١٨ وكان
آخر مكان أخلاه الصليبون في فلسطين

نبدأ رحلتنا هذه من تلال الكرمل في مواجهة آثار عتليت ورغم خصوبة السهل الساحلي عند هذه النقطة الا انه ضيق لا يبلغ اتساعه اكثر من ميلين اثنين كما أن الزراعة فيه نادرة؛ اما شمالاً فهو يمتد الى حوالى ٨ أميال بين السلسة الصخرية ـ الرملية الضيقة التي تحاذي الشاطئ وبين المنحدرات الغربية لجبل الكرمل. وتقترب

السلسلتان الواحدة من الأخرى بالتدريج الى أن تلتقيا تقريباً عند «تل السماق» Tell of sycaminum عند اقدام جبل الكرمل وتمتد الطريق من هذه النقطة الى عتليت، قديمة جداً تكاد تتلمس آثار حوافر العربات فيها، وبين تلال السلسلة الصخرية الضيقة بحيث لا يتاح للمسافر الا في امكنة قليلة رؤية «البحر العظيم» عبر شقوق ضيقة احدثتها السيول في تلك الصخور الرملية. أما القرية الوحيدة القائمة هنا في القسم الشمالي من سهل عتليت، فهي الطيريTireh، والتي يعرف أهلها بالشجاعة والاقدام، تصطف منازل القرية المبنية بالحجارة والطين جنباً الى جنب عند مصب «وادي العين»، والوادي الأوسط في المنحدرات الغربية لجبل الكرمل، وتحيط بها حقول خصبة وبساتين مثمرة.

تذهب الطريق الساحلية، في مواجهة عتليت ضيقة، خشنة، داخل خندق في السلسلة الصخرية الممتدة، ولا تتسع لأكثر من خيالين يسيران معاً. وعلى الأرض حفرت عجلات العربات منذ زمن طويل أثلاماً وآثاراً ظاهرة. وتشير الحواجز والحواجب عند طرفي الممر الى أنه كان يقفل بالبوابات، كما توجد بقايا تحصينات على الجرف المشرف على الممر. وبسبب من هذا الممر الذي قدّ في الصخر إكتسبت عتليت، ربما، اسمها الذي عرفت به في القرون الوسطى وهو «بترا أنسيزا» Petra Incisa . ويخرج طريق العربات القديم من السلسة الصخرية ويتجه غرباً ليدخل في السهل الساحلي الضيق والذي يتراوح اتساعه بين هذه النقطة والشاطئ بين نصف الميل والميل الواحد.

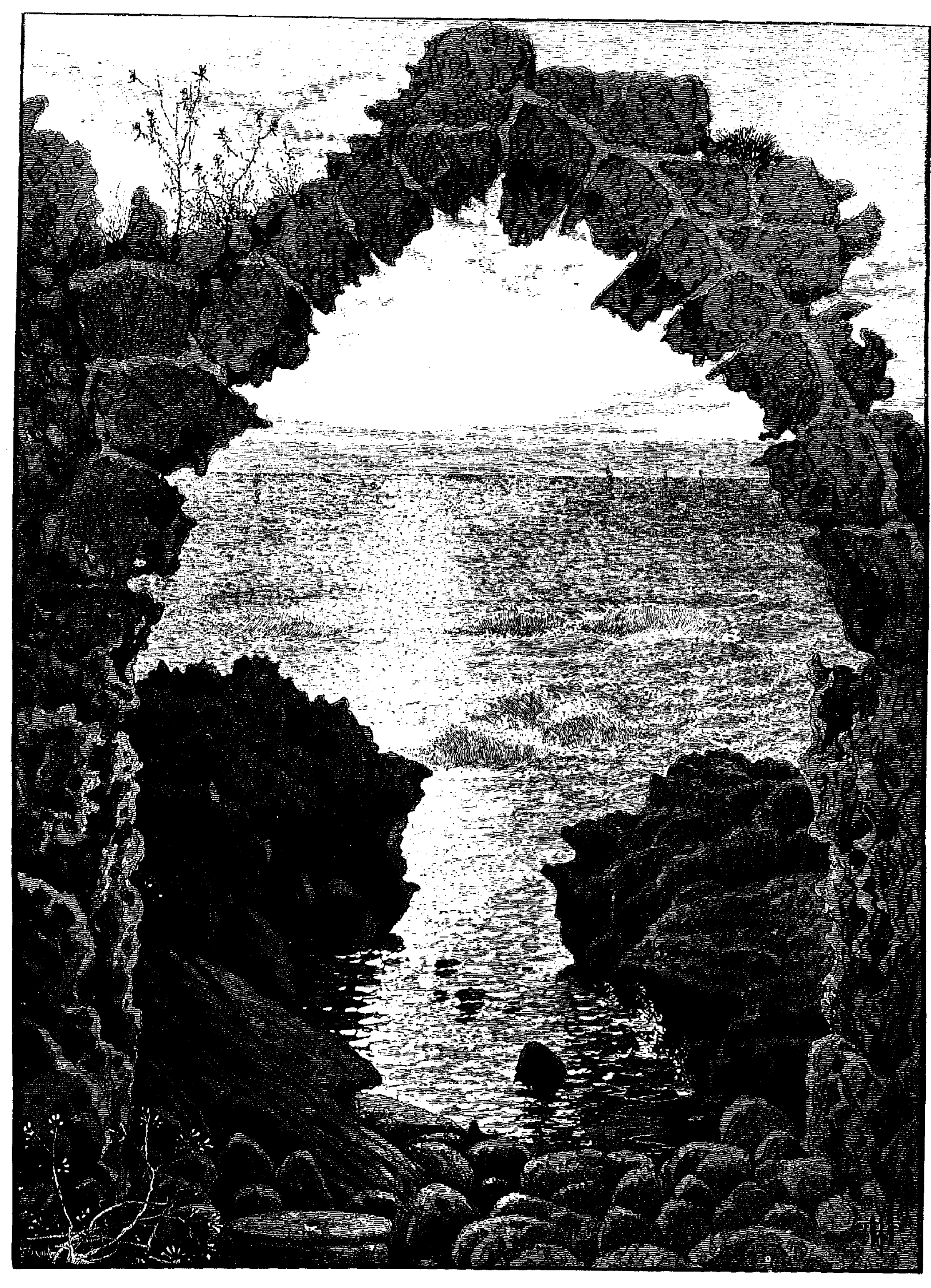
ويقوم حصن عتليت، الذي بناه التامبلارز Templars من تحصينات وقواعد سابقة لايعرف تاريخها، على الرأس الصخري الذي يذهب غرباً في البحر لربع ميل. وهناك الى الجنوب منه ميناء ذو مياه ضحلة، وميناء آخر اكثر اتساعاً واعمق مياهاً على الجانب الشمالي يحميه ريف صخري ويدعوه السكان المحليون «البوابة». وتحاذي الرأس فسحة واسعة من الأرض يحميها سور عال قوي جنوباً لثمانمئة ياردة ثم يذهب غرباً باتجاه البحر لحوالى ٣٠٠ ياردة. ولا تزال أجزاء من السور قائمة الى الآن وتتألف من حجارة ضخمة مقطوعة، ويمكن مشاهدة المزيد منها في عكا حيث نقل ابراهيم باشا كميات منها لإعادة بناء أسوار المدينة وتعزيزها. وهناك حول السور خندق عميق كانت تملأه مياه البحر سابقاً فيجعل الحصن جزيرة منعزلة تماماً والى الحد الذي يمكن وصفه بنسخة مصغرة عن صور القديمة بل إن السجلات الصليبية القديمة لتدعوه كذلك.

وتحتل قلعة عتليت شكلاً مستطيلاً في وسط الرأس تبلغ سماكة حيطانها ١٥ قدماً وارتفاعها ٣٠ قدماً، وهي مبنية من الصخر الرملي او الكلسي المنظور الآن والذي أقتطع من مقالع مجاورة. ويلاحظ ليوتنانت س. ر. كوندور ان المقالع قد نضبت تماماً وهي تعود كما يبدو، الى حقبة قديمة سابقة على العهد الصليبي، الا أن ممرات الابراج ذات العقود الحادة الأقواس تبدو حديثة وتعود الى الصليبيين، «واقتطع الصليبيون من هذه المقالع المتطابقة مع نوع حجارة الاسوار، حجارتهم لإعادة ترميم الاسوار وتعزيزها» وفي الزاوية الشمالية الشرقية من القلعة آثار كنيسة مهمة كانت عشرية الشكل حسب سجلات تلك الحقبة ولها ثلاثة نتوءات، لم يبق منها غير نتؤ واحد، وهي ذات أقواس محددة وطنف* محفورة. أما السقف فقد انهار في الهزة الأرضية التي ضربت المنطقة سنة ١٨٣٧. واذا تطلعت من الزاوية الشمالية الشرقية بدت لك بقايا قاعة كبيرة يدعوها السكان المحليون «القرنفة». ولا يزال الحائط الشرقي للبرج الشمالي في عتليت واقفاً، ويرتفع الى ٨٠ قدماً وهو يبدو عن بعد كما لو كان في حالة ممتازة. وتتوزع اليوم داخل اثار المدينة القديمة بضعة منازل وأكواخ ابتنيت من المواد القديمة الموجودة ويسكنها سكان محليون فقراء وتقوم تحت الأرض أقبية ضخمة، يتألف احدها من عدة حجرات، واكتشف مؤخراً أنه يمتد الى مسافة ٢٦٤ قدماً، وآخر ضخم جداً يغطيه سقف ذو عقود وأقواس، وثالث جوانبه من الطين الكلسي الناعم ويقال أنه كان «مستودعاً للزيت يستطيع استيعات ٢٦٠ ألف غالون».

وعلى مسافة نصف ميل الى الشرق من الميناء الشمالي في عتليت كان الصليبيون قد ابتنوا، في وقت ما قبل سنة ١١٩١حصناً صغيراً دعي ديترويت Detroit (بيت الممرات الضيقة) ومن حجارة وقواعد سابقة وعلى نقطة في السلسلة

---

*الطنف Corbels هي قطعة مسطحة من الحجر او الخشب تصل الاعمدة بالسقف.[م]



مشهد البحر العظيم من عتليت
من تحت قوس عالٍ يقوم وحيداً في المكان بكل صلابة الطين الذي يمسك الحجارة والمستخدم في بناء الحصن.

الصخرية تعلو عن سطح البحر ٧٥ قدماً وعلى مسافة قصيرة جداً من الخندق الصخري الشمالي. ولعل اسم الحصن قد ارتبط أو أخذ من هذا الخندق أي «الممر الضيق». ثم قام التاميلارز* سنة ١٢١٨ بتوسيع هذا الحصن وتعزيزه واستخدم كمخفر أمامي للحصن الرئيسي في عتليت. والمبنى الذي يقع فيه البرج يسمى «خان دستري»، في ما يبدو تحريفاً لدترويت. وعلى الجانب الشرقي شمال البرج، اسطبلات محفورة في الصخر.

وتقوم عند الجانب الشرقي من السلسلة عين ماء تسمى عين الدستري تشكل حوضاً صغيراً قبل ان تجد مجرى لها يصل الى البحر. وحين توقفت للمرة الاولى في المكان كان رعيان ماعز مع مزاميرهم يتحلقون حول حوض ماء فيما كان قطيعهم يبترد او يشرب. كان ذلك في شهر ايلول وكانت الخضرة حول العين والساقية متعة للنظر وسط الدفلي والخبيزه والعليق والطحلب والاعشاب الطويلة.

لا نعرف شيئاً، في الحقيقة عن تاريخ عتليت القديم، ولا حتى في ما خصّ الاسم. ويظهر ان عتليت كانت جزءاً من الاراضي التي آلت الى منسّي Manasseh والتي لم يستطع اخلاءها من سكانها «حيث كان يسكن الكنعانيون» مع أن اسرائيل تمكنت في فترة لاحقة وبعدها غدت قوية بما يكفي، من اجبارهم على دفع الجزية (القضاة، 28 27 i) .

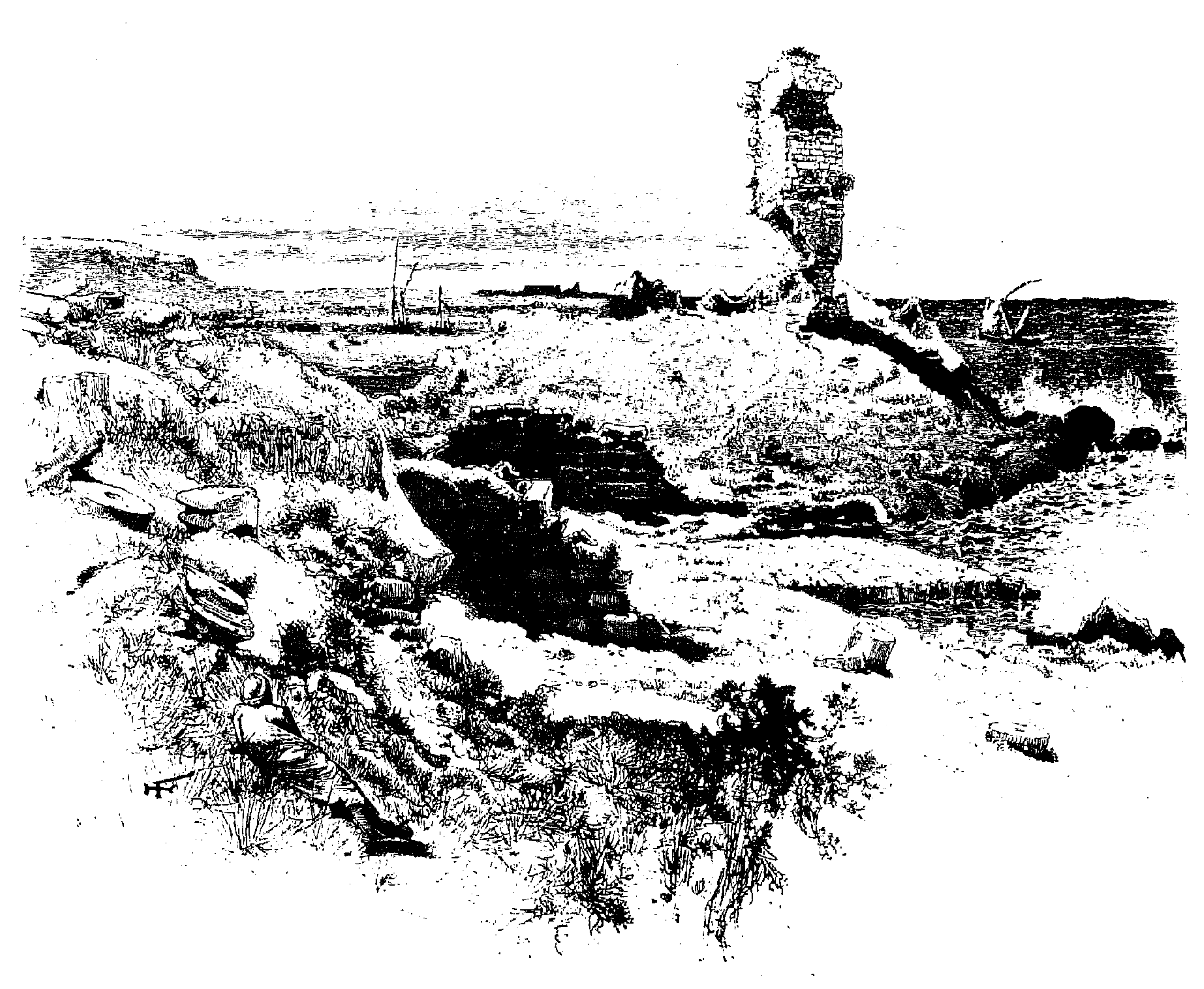
ومن الطبيعي الافتراض أن موقعاً مثل الذي كان لعتليت، من رأس صخري وميناءين طبيعيين وعيون ماء ومقالع حجارة لا تنتهي وسهول خصبة في الجوار، لم يفت الفينيقيين ولا اليونان او الرومان. لكننا لانعرف شيئاً عن ذلك كله، وجل ما نعرفه هو كيف بدأت عتليت، وكيف انتهت في الحقبة الصليبية. وتذكر السجلات الصليبية، مع ذلك أن الصليبيين وجدوا آثاراً قديمة عظيمة في عتليت كما في ديترويت، المخفر الأمامي، وأن البنائين قد عثروا في الثانية على كنز مهم من العملات القديمة التي لم يستطيعوا حلّ ألغازها أو فك رموزها.

بنى فرسان هيكل سليمان، أو فرسان الهيكل، التامبلارز حصني عتليت وديترويت، كما رأينا وكانا على بأس وقوة ظاهرين. وقد حاول السلطان المزين MUZZIN عبثاً دخول الحصن سنة ١٢٢٠ بعد حصار استمر فترة من الزمن، وكان آخر موقع صليبي في فلسطين أخلي في النهاية. فقد سقط في ايدي السلطان ملك الاشرف خليل، ابن قلاوون، بعد هزيمته لفرسان القديس حنا في عكا سنة ١٢٩١ .

ونتجه من عتليت، جنوباً، نحو طنطورا على مسافة حوالى ستة أميال ونصف الميل. ويجري طريق العربات القديم على الجانب الغربي من سلسلة التلال الساحلية لكننا نبقى بعيدين قليلاً عن شاطئ البحر تفصلنا عنه الكثبان الرملية والمستنقعات وعلى حوالى ثلث الميل جنوب عتليت. يدخل الشاطئ غرباً في البحر وليتشكل بذلك خليج عتليت الصغير. ويتسع الشاطئ الرملي الساحلي والذي تكثر فيه المستنقعات، بدءاً من هذه النقطة ولحوالى الميل او اكثر وليصل عرضه في النهاية الى حوالى الميل الواحد. ويمكن عبر فتحة في التلال الصخرية الى يسارنا مشاهدة سهل عتليت الخصب يمتد حتى منحدرات الكرمل يقطعه على نحو عمودي ممر مشاة قديم يقود الى اثار موقع يدعى «المزار» ويجذب المكان بمزاره وبئره وحوض مائه الفلاحين وبخاصة رعاة الغنم والماعز. وتمتد في الجوار أودية كثيرة الشجر بأسماء ممتعة مثل «خلّة الرمان» «وخلة الزيتون» لكننا نتركها كلها ونكمل مسيرنا جنوباً. واذ نتقدم صوب صرفند، وهي قرية صغيرة تقع على بعد أربعة أميال جنوب عتليت مبنية على التلال الساحلية المنخفضة، تبدو مظاهر واشارات تدل على زراعة مقبولة وعناية بالأرض. فبدلاً من كثبان الرمل والأهوار والمستنقعات الى جانب الطريق حقول السمسم والجاروس والتبغ مع حلقات من أشجار النخيل هنا وهناك، إلى أشجار مثمرة أخرى. وعلى مسافة نصف ميل جنوب الصرفند، المعروفة بتينها الطيب، تقوم قرية أخرى، وهي «كفر لمّ»، ورغم أنها مبنية على سفح تلة من تلال الساحل، فإن ارتفاعها عملياً لا يصل الى أكثر من ٥١ قدماً فوق البحر. وكان لي ان أقضي في القرية ليلة، بينما كنت ماراً فيها برفقة شقيقي. وكان ذلك في الاسبوع الأخير من شهر أيار. فكنا نمر في طريقنا الى القرية وسط حقول من الحنطة والذرة او بساتين من الأشجار المثمرة وكلها تكاد تغدو ناضجة وتؤذن بالقطاف. وخرج شيخ القرية واعيانها للترحيب

*اختصار «لفرسان هيكل سليمان»، او فرسان الهيكل. [م]

بنا بكثير من الود والغبطة، لقد كانوا في انتظارنا وكانوا يعرفوننا تماماً. وبتنا ليلتنا في ضواحي القرية حيث تتراص المساكن المصنوعة من الطوب المجفف، وتقوم قريباً منها حظائر كبيرة مسوّرة لايواء الماشية او لجمع الغلال والحنطة. وكانت خيمتي جاهزة ومركونة بين جبال من القمح والشعير وعلى مقربة من بيدر، كانت الثيران تدور فوقه وتدور تفصل الحنطة عن القشر والزؤان.



بقايا حصن صليبي في طنطورا.
ويرتفع البرج الوحيد الى ٣٠ قدماً. وخلفه قرية طنطورا في موقع مدينة دورا القديمة.

ومدت السجاجيد والبسط، بسرعة، في الهواء الطلق واعدت القهوة والنارجيلة. جلس الشيخ والاعيان في مواجهتنا في شكل نصف دائرة، بينما جلس الشبان الأصغر سناً وراءهم بقليل او استراحوا على اكوام الحنطة القريبة. لم نكن بعيدين عن الشاطئ اكثر من ميل واحد، كان البحر أمامنا وكذا الشمس المائلة الى الغروب. وبين التلال الصخرية واثار طنطورا يلوح ممر ضيق يذهب باتجاه الجنوب، كما كان بالامكان مشاهدة البرج العالي في عتليت بعيداً لجهة الشمال. وحالما هبطت الشمس في البحر نهض إمام القرية ووقف في منتصف بيدر واسع جرى تنظيفه

قبل وقت قصير، تطلع صوب الجنوب ثم دعا الى الصلاة بصوت عالٍ وقور: «الله أكبر، أشهد ان لا اله الا الله. اشهد أن محمداً رسول الله. حّي (تعالوا)* على الصلاة! حّي على الفلاح! الله اكبر. لا إله إلا الله».

نهض الشيخ وكبار السن الذين كانوا قد تحلقوا حولنا على الفور واصطفوا فوق أرض البيدر صفين مزدوجين خلف الإمام الذي بدا لوهلة كما لو كان القائد الفعلي للجماعة الصغيرة؛ والذي كان يفتتح الصلاة بالعبارات والتبريكات المناسبة ويرتل شيئاً من آيات القرآن، فيما الجماعة خلفه تردد قوله وتتبع حركاته بدقة وخشوع راكعة ووجوهها الى الأرض او واقفة وأيديها الى فوق في حركة متماثلة واحدة. وانضم الى الصلاة العمال الآتون من الحقول والبيادر، وكذا خدمنا المحمدّيون؛ إلا أن بعض شبانهم ممن كانوا يتحدثون معاً بدوا مترددين للحظة في الانضمام الى «دعوة الصلاة». تطلع بعضهم الى بعض، كأنما هم غير مقررين ماذا سيفعلون، ثم تطلعوا صوبنا كما لو كانوا خجلين او يشعرون بالذنب لتركنا. لكننا بقينا صامتين ومطرقين في اشارة تشجيع لهم بأننا لا نرغب لهم أو نتوقع منهم أن يهملوا بسببنا الصلاة. وهكذا انضم هؤلاء الى الجميع في صفٍ عند طرف البيدر وأصواتهم تعلو خلف أصوات ابائهم: «الله أكبر! سمع الله من دعاه»

لم يكن هناك نساء في الصلاة، فقد وقفن بعيداً مع اطفالهن يراقبن الجمع؛ لكني لا أعتقد أن رجلاً أو شاباً في القرية قد تخلف عن إداء الصلاة التي استمرت لحوالى ربع الساعة وفي خشوع تام.

وبعد الصلاة كان موعد العشاء فوضع على الارض وامامنا تقريباً قدر خشبي كبير يشبه مسطحاً ويبلغ قطره حوالى الياردة، مملوء بالأرز المغلي مع الزبدة. وتضاف الى الأرز أطباق معدنية فيها لحم وبيض وخضار وكريما؛ ويجلس حول المائدة الشيخ والإمام والأكبر سناً، وأكل الجميع صامتين وبسرعة يغمسون قطع الخبز الرقيق في صحون البيض المقلي والكريما، ويقطعون قطع اللحم بأصابعهم الى قطع صغيرة، وبكلتي أيديهم يرفعون الأرز الى أفواهم مكوراً في كتل صغيرة وحينما شبع الجميع، انسحب الواحد بعد الآخر لغسل الأيدي ثم لاشعال الغليون الطويل. وأخذ الشبان الأصغر سناً مكانهم على المائدة، وعندما انتهوا جاء دور الخدم، وكان الجميع يتحلقون معاً يأكلون من الصحون نفسها حيث تملأ المرة بعد المرة، بينما توزع أرغفة الخبز بكثرة ودونما حساب. وبينما كنا نحن مازلنا نتكاسل مع شوكنا وسكاكيننا، كان الأهالي قد فرغوا من تناول العشاء ولا يرمى بشيء من الطعام أو الفضلات الى أن يكون كل رجال القرية واولادها قد أكلوا، وكذا النساء والأطفال في مكان آخر بعيد عن الأنظار.

وبعد العشاء تقدم القهوة والغلايين من جديد ويستمر الحديث مع الشيخ وقرويين أخرين تحت ضوء القمر وفي ضوء المصابيح والى حوالى الساعة التاسعة تقريباً. وكان بالامكان مشاهدة اشعال المصابيح في المنازل، الواحد بعد الآخر، إلا أن كل شيء آل بعد هنيهة الى الصمت والهدوء وخلد الجميع الى الراحة خلا المكلفين بالمراقبة الليلية.

كانت الأضواء الخافتة تنبعث من شقوق الأبواب والنوافذ في كل بيت، فالشائع في الشرق هو ترك المصباح مضاء طوال الليل في كل بيت وأحياناً في كل غرفة مسكونة. وانسحبت الى خيمتي بينما نام شقيقي وتابعوه، وقد تدثروا بعباءات سميكة، على أكوام الحنطة غير بعيدين. وعندما استفقت عند الخامسة صباحاً، رأيت من باب خيمتي الشمس ترتفع فوق التلال الشرقية قبل ان تغسل مباشرة، مياه البحر بلون الذهب. وعادت الحياة من جديد الى القرية ودبت الحركة بين القرويين وجيء بالقهوة والحليب والخبز والفاكهة وتجمع أطفال تلمع عيونهم يشاركوننا التين الاخضر الناضج وأخيراً استأذنا مضيفينا المغادرة شاكرين لطفهم وكرمهم وتابعنا المسير.

تركنا بعد «كفر لمّ» طريق العربات القديمة (حيث آثار عجلاتها لم تزل ظاهرة) وتبعنا طريق رِجل يقطع السهل الساحلي عامودياً الى طنطورا، على مسافة ميلين ونصف الميل. ونقترب من الشاطئ عبر منطقة من المقالع المهجورة والأضرحة التي لا اسم لها والاثار، إلى الكثير من السبخ والمستنقعات. ووصلنا مباشرة الى رأس صخري خشن يقوم

---

*كذا في النصّ

فوقه برج يوحي بالصلابة والقوة، مبني من الدبش والمغطى بحجارة مصقولة، ويرتفع الى حوالى ٣٠ قدماً. ويبدو الجزء السفلي منه وقد تفتت وانهار. والبرج، كما يظهر، هو زاوية حصن أكبر كان الصليبيون قد ابتنوه في هذا المكان أما اليوم فهو مهجور تماماً بينما اسواره وتحصيناته قد إنهارت وسقطت كلها.

أما طنطورا القرية الحديثة فهي على بعد حوالى نصف الميل جنوباً وتقوم في الموقع الذي كانت تحتله دور Dor ، المدينة الكنعانية القديمة (يشوع xvii, ii) وتنتشر على طول الشاطئ أعمدة وتيجان مغروزة في الأرض جزئياً الى قطع رخامية، وحجارة مشذبة وبقايا أخرى للمدينة الرومانية دورا Dora . ويمكن مشاهدة نساء وأطفال يجمعون في سلال كبيرة الحجر الملحي الخشن، الذي يتكثف ويتراكم في البرك الطبيعية او الاصطناعية بين صخور الشاطئ، بينما قطعان الغنم والماعز، ثروة طنطورا الرئيسية، ترعى في السهل الساحلي الذي تغطيه في هذه النقطة الأعشاب والزعرور ونباتات شوكية أخرى. تضم قرية طنطورا أربعين أو خمسين منزلاً أبتنيت كيفما كان من قطع الحجارة القديمة الموجودة وأجزاء الأعمدة المكسورة وكتل من الطين والصلصال. وفي أحد أيام شهر أيلول وبينما كنا في طريقنا من يافا الى حيفا في مركب شراعي عربي، اضطررنا للنزول في طنطورا واكمال رحلتنا براً لأن «الرياح كانت معاكسة». وكانت الرياح المعاكسة نفسها وفي الوقت نفسه من السنة تقريباً (في اليوم العاشر من تشرين أو في اواخر سبتمبر) قد تقاذفت القديس بولس وفي البحر نفسه عندما «كان الابحار في ذلك الوقت خطيراً» بحسب قول بولس (الافعال 9, xxvii)

وبسبب من رغبتنا في الوصول بسرعة أجرى اخي الترتيبات اللازمة مع صاحب مركب عربي صغير لنقلنا من يافا الى حيفا، مع خدمنا وحاجياتنا، وبعدما أكّد لنا أن الرحلة لا تستغرق أكثر من ثماني او عشر ساعات. وكنا جاهزين وننتظر إشارة منه، الى ان جاءت اشارته عند منتصف الليل «ان الريح ملائمة» وهو جاهز للابحار. فهبطنا في ذلك الليل يصحبنا مرافقنا وخادمتي كاترين، وهي امرأة من بيت لحم، وراهبان كرمليان استأذنا السفر معنا. وفتحت البوابة البحرية في يافا خصيصاً من أجلنا، وأهبطت في زورق صغير ذي مجذافين يدفع به اثنان من البحارة. وبعد فترة من الصراخ اجتمع الرهط وتهادى القارب بسرعة فوق الماء وصولاً الى المركب الذي كان ينتظرنا خارج المياه الضحلة للميناء الصخري فانتقلنا إليه من دون أن يكون الأمر خالياً من المصاعب. ينقسم المركب إلى أجزاء ثلاثة الجزء الاوسط وهو العنبر عمقه اربعة اقدام ومساحته ثمانية أقدام وهو غير مسقوف وظهر السفينة حيث احتشد البحارة على المقدمة والمؤخرة والذين لم يتوقف غناؤهم. واخيراً مخزن السفينة ينيره مصباحان، وفوقه خيمة لحماية المسافرين والحقائب. واستخدمنا حقائبنا وسائد للنوم، بينما وضع الرهبان رأسيهما على حقيبتيهما وتدثرا بثوبيهما الفضفاضين المريحين. اما كاترين المسكينة والتي لم تركب البحر قبلاً فقد كانت شديدة التأثر والانفعال فالتفت بعباءتها قريباً مني وأمكن لها أخيراً ان تنام. أما مرافقنا فقد كان يدخن غليونه بصحبة القبطان، عند الدفة، وشخص ايطالي تمكن من التسلل في الظلمة مع حقائبه الى السطح بعيداً عن أعين البحارة. كانت السماء مرصعة بالنجوم، وريح جنوبية تهب قوية ملائمة فتملأ الاشرعة، بينما استغرق في نوم عميق حتى مطلع الصباح، وعندما أفقت كان الراهبان ما يزالان يغطان في النوم، واخي راقد عند قدمي في مواجهة صندوق أغراض، أما كاترين فقد كانت ملتفة على نفسها بحيث يصعب معرفة رأسها من نعليها.

توقف هبوب الريح الملائمة واندفع البحارة ينزلون الاشرعة. وظهرت الشمس فوق تلال الشاطئ المنخفضة بينما غدت الريح غربية تهب عكس اتجاهنا وتهدد بدفعنا الى صخور الشاطئ. تحولت الريح فجأة شمالية عنيفة وهزت المركب بعنف فأضطر القبطان الى إنزال المراسي في بحر عميق قرب شاطئ مهجور ولم يكن هناك من مجال للرسو.

وعند الساعة التاسعة كانت الشمس قد غدت قوية ولاتطاق فعملنا على جعل الأشرعة، التي لم تعد تنفع في شيء، خيمة فوق العنبر حيث كنا جالسين. لم يكن البحارة في المستوى المطلوب لكننا كنا أبناء بحر وساعدناهم في جعل الأمور أحسن قدر المستطاع. بلغ الحر في العنبر عند الظهيرة حده الاقصى، فتسلقت الى السطح وجلست متشبثاً بعمود السارية. انعشتني الريح التي كانت تهب ومنظر البحر وكنا لا نزال راسين. كان الموج يضرب بعنف الشاطئ

المواجه الذي يمتد في تلال رملية منخفضة لا يقطنها غير مجموعات الماعز تقضم أعشاب وأشواك المراعي القليلة على ذلك الشاطئ. ولم يكن هناك من سكنى على الاطلاق ولا حتى منظر انسان عابر ولا زورق أو مركب طوال النهار.

توقف هبوب الريح بعد الظهر لكن المركب الصغير كان عاجزاً عن الحركة بسبب ارتفاع البحر والذي لم يخلد الى السكينة بعد. وقرأ لي شقيقي خبر رحلة القديس بولس كما ترد في الفصل السابع والعشرين من «أفعال الأنبياء». وبدت لي الرواية كما لم أرها من قبل ولم نكن بعيدين كثيراً عن قيسارية، الميناء الذي سافر منه القديس بولس.

وعند المغيب كانت الريح قد غدت جنوبية لطيفة، فنشرت الاشرعة من جديد وجلس الجميع الى العشاء في معنويات أعلى عما كانت عليه طوال النهار، فتشاركنا والراهبين الفراريج والحساء المحفوظ معنا.

وامضينا الليل قلقين، «نبحر ببطء» وعند الصباح كنا قد أصبحنا في مواجهة طنطوراً تقريباً. وحينما تحولت الريح من جديد شمالية شرقية، أصر أخي على الرسو. فاستدرنا صوب الساحل تاركين للريح القوية ان تدفع بنا نحو المرسى على الشاطئ. وكان الموج يضرب الجزر الصخرية الصغيرة المنتشرة وركام الحجارة القديمة التي ترتفع هنا او هناك. وتمكن المركب بعد بعض المناورة من الاقتراب من الشاطئ والرسو بسلام غير بعيدين عن اليابسة، وكان هناك العديد من رجال طنطورا الذين خفوا لالتقاطنا ونقلونا عبر المياه الضحلة الى الشاطئ الرملي الذهبي الناعم.

ابتهجت حينما وجدت نفسي على اليابسة من جديد، ولسوف أتذكر بالتأكيد وعلى الدوام نصيحة القديس بولس الى القائد الروماني كما لن أنسى مخاطر الابحار في الشرق الادني في مركب صغير وفي أثناء حركة المد والجزر.

وقدم للقائنا ضابط النقطة الجمركية ابو حبيب Abu Habib (وهو رجل ذكي واسع المعلومات كما أنه سيغدو جارنا في حيفا بعد حين). قادنا الرجل الى منزله الذي يتألف من غرفة كبيرة مربعة الشكل مملسة بالطين الناعم ومسقوفة بجذوع الأشجار التي سودها الدخان، بينما كانت حصيرة تظلل الجزء الامامي من السقف. وكانت النوافذ عبارة عن كوّات صغيرة مربعة الشكل، ولوح خشبي بدائي الصنع بمثابة بوابة. وكان في الزاوية ديوان مرتفع نسبياً يستخدم للجلوس نهاراً وللنوم ليلاً. واصطفت أمام الحائط جرار ماء كبيرة وصحون معدنية وأدوات طبخ مختلفة. وكان هناك في إحدى الزوايا مكان الطبخ هو عبارة عن موقد مؤلف من حجارة قديمة مقطوعة ومن قدر طيني، وكان الفحم الخشبي هو المادة المستخدمة فيه، والى جانبها سلال من الملح الخشن المجموع من الشاطئ. أعد لنا حبيب (ابنه الاكبر والوحيد من عائلته المقيم معه في المنزل هنا) القهوة؛ وقد قام في حضورنا بتحميص حبات البن ثم بتنعيمها في جرن حجري. وكان قرب المدخل صندوق خشبي كبير، كما لو كان تحفة أثرية، له قفل مزخرف وأحزمة حديدية مشغولة؛ فجلست فوقه. وجاءت نساء ناحلات، يغطين وجوههن ببراقع من الصوف، وكذا أطفال قذرون، رغم وسامة الوجوه، تجمعوا حولنا، يختلسن النظر اذ يحدقون بنا. وكانت كاترين (التي لم تكن قد ابتعدت هكذا من قبل عن بيت لحم) في هذه الاثناء تجول في القرية فعادت الينا وقادتنا دونما تردد إلى أحد المنازل الذي بدا لها أنه الاكثر نظافة وترتيباً في البلدة. وكانت ثقتها بحسن ضيافة اهليه في محّلها كذلك فقد استقبلتنا نساء المنزل بكلمات ترحيب ودّية وقدننا الى غرفة داخلية، كان الديوان فيها مشغولاً للتوّ، كما يبدو، وكنت سعيداً أخيراً أن أرتاح قليلاً الى أن تمّ استحضار الأحصنة التي ستمكننا من اكمال رحلتنا الى يافا.

كانت دور Dor المدينة الكنعانية المهمة (وآخر مستوطنة فينيقية جنوباً كما يعتقد) قد آلت مع مدنها الى أبناء منّسي Manesseh إلا أنهم عجزوا عن طرد السكان الاصليين. «فالكنعانيون استمروا يسكنون المكان» (يشوع xvii. 12). أما في عهد سليمان فقد أجبرت منطقة دور على تقديم المؤن للملك وحاشيته خلال شهر كامل في كل سنة تحت اشراف بن ابينداب Ben Abindab، والذي تزوج الاميرة «تابهاث»، ابنة سليمان، وكان في الآن نفسه واحداً من الملتزمين الاثني عشر الذين يزودون سليمان وبلاطه باحتياجاته (١ الملوك، IV, II). لقد كانت تلك جزية باهظة ولم تكن ممكنة التحقق لولا الغنى الذي يجب أن يكون قد توفر لمنطقة دورا في البشر والقطعان والمزروعات إذ أن «مؤونة سليمان ليوم واحد كانت تتألف من ثلاثين كيلاً من الطحين النقي، وثلاثة اضعافها من دقيق الذرة، وعشرة ثيران سمان، وعشرين عجلاً، ومئة

رأس غنم، الى الأيل والغزلان السمر والديوك السمان» (١ الملوك، IV,22 ,23). وهناك على التلال المقابلة لطنطورا، خلف «وادي دور» عين ماء تسمّى «عين الغزال» مما يشير الى توافر هذا الحيوان في المنطقة في ما مضى. وامكن للبعض قبل فترة مشاهدة هذا الغزال الأسمر في جبل الكرمل. لم يكن من الصعب اذاً على أهل دور، في الأزمنة الغابرة تلك يوم كانت الهضاب مزروعة أو مشجرة، أن يزودوا مائدة سليمان بما تحتاج إليه ولشهر كامل كل عام. كانت دور، في عهد السليوسيديين Seleucidae، مدينة قوية ويروى في «اما كابيز XV»، ان ديودوتوس الملقب بتريفون tryphon (قاتل جوناثان ماكابيز وانتيوكوس السادس ومغتصب عرش سوريا) «قد فّر بعدما خانه جنوده فطارده الملك انتيوكوس السابع، الملقب بسيديتس، الى دورا الواقعة الى شاطئ البحر»

«ثم لحق به انتيوكوس الى دورا ومعه مئة وعشرون ألف محارب راجل وثمانية الآف خيال، وجاءت السفن من البحر لإكمال الحصار على المدينة... فجرى الهجوم عليها من البر والبحر دونما هوادة» وهكذا دمرت المدينة تقريباً سنة ١٣٩ ق. م. ، و«فّر تريفون بحراً الى اورثوسياس «شمال طرابلس حيث انتحر بعدها أو جرى قتله على يد الملك انتيوكوس الذي كان يطارده».

وبحسب جوزافس في «أسفار اليهود القديمة»، الكتاب الرابع عشر، الفصل الخامس، فإن غابينوس أولوس قد عمد «حينما أتى من روما الى سوريا قائداً للقوات الرومانية» الى تدمير دورا ومدنٍ أخرى «والتي زالت تقريباً، وظلت خراباً الى فترة طويلة » إلى أن أعيد بناؤها سنة ٦٤ ق. م.

وهناك اليوم مجموعة قطع نقدية تعود الى دورا إلا أنها لاتحمل تاريخاً معيناً. غير أن ما نعرفه حق المعرفة هو أن أهم تلك العملات تعود الى الفترة التي تبدأ من عهد كاليغولا ٣٩ م، الى هليوغابالوس سنة ٢٢٢ ميلادية. والغالب على القطع تلك صورة إمرأة، أو تمثال نصفي لها، مع تاج مبرج على رأسها، مع رأس جوبيتر وفوقه إكليل من الغار أو الزهر. وغدت دورا في الحقبة المسيحية الاولى مدينة في مقاطعة بالستينابريما (فلسطين الاولى)، لكنها لم تعّمر كثيراً بشهادة القديس جيروم المتوفي في بيت لحم سنة ٤٢٢ والذي يصفها كمدينة أطلال مهجورة تماماً، رغم أنها لا تزال تستحق الإعجاب. ونشأت على هذه الآثار بعد حين محطة صليبية لم يبق منها الكثير اليوم، بينما تزرع الشاطئ بقايا المدينة الرومانية السابقة. ونترك طنطورا سالكين من جديد الطريق الساحلي، الذي يحاذي التلال الرملية تفصله عن الشاطئ مسافة ثلاثة أرباع الميل. وعبر سلسلة التلال الرملية تترامى منحدرات «بلاد الريح» أو «وادي دور» خلف سهل طنطورا، والتي يبلغ عرضها هنا حوالى الميلين. لا تعرف الوادي الزراعة بالمعنى الفعلي إلا جزئياً وتحديداً الى الجنوب من «نهر الدفلي»، اما الباقي فتكفلت به قطعان البدو ومواشيهم فأحالتها قفراً خلا شجيرات هنا أو هناك. ورغم ذلك فللمنطقة جمالها، وبخاصة أوائل الربيع حينما تغدو، ولفترة قصيرة، بساطاً أخضر يمتد الى ما لانهاية يعرّش فوقه او يتشكّل عليه العليق والشوك وأزهار برية ذات ألوان رائعة.

وفي مواجهة طنطورا تماماً تقطع طريق مشاة ضيق السهل عمودياً ويذهب في اتجاه الجنوب الشرقي ليصل الى قرية «الفريديس» التي تقع على فم الوادي الذي يأتي من اتجاه بلاد الريح، ومنها الى قرية أخرى أعلى قليلا هي «دالية الريح» التي تعلو ٧٢٨ قدماً فوق سطح البحر وتقوم في أسفل الوادي قرية ثالثة تحيط بها البساتين وهي «أم التوت».

ونكمل طريقنا جنوباً مع السهل الساحلي الرملي والذي يبدو غير مزروع تماماً وتغطّي أجزاء منه المستنقعات ونمر في طريقنا في مواقع آثار مختلفة لا اسم لها، إنها مواقع «مدن دور» القديمة (جوشوا XV. ii). وبعد ان نعبر«نهر الدفلى» River of oleanders نسرع الخطى قدماً نحو نهر الزرقا، وهو الحد الشمالي للسهل الفسيح المسمى سهل «شارون» (راجع الخارطة). وتضيق وادي دور هنا الى حدها الأدنى بسبب اندفاع إحدى هضاب «جبل القشم» غرباً، فتغدو وعبر نظام التجفيف القديم مجرد مستنقعات. وحينما يتقاطع نهر الزرقا، عند حوالى ميل واحد الى الداخل مع الطريق القديم فان عبوره يجري بيسر عدا فترات الأمطار والسيول؛ إلا أنه حدث لنا، مع الزملاء الرحّالة، أن عبرناه في شهر تموز وعند مصبه على الشاطئ مع قدر من المشقة، فقد بدا غزيراً عميقاً وسريعاً ولم يكن معنا دليل خبير

بمسالكه الآمنة. فمصبات الأنهر عند الشواطئ الرملية متحركة، من ساعة الى ساعة، وقد تحرفها الريح او تغيّر في عمقها أو حتى في موقعها. وبذل مرافقنا يومذاك جهداً بالغاً في اختبار المجرى كيما يعثر على مواقع آمنه لمرورنا، قبل ان نمّر فرادى، حذرين، وواحداً بعد الآخر، ونصل الى الشاطئ الضحل المقابل. والى الجنوب من النهر، قريباً من الشاطئ، تقوم آثار قلعة تسمى قلعة الملات EL MELÂT، وهي كما يبدو في موقع أحد مداخل «قيسارية» القديمة، كما أن هناك الى الشمال من النهر بضع جزر صخرية تحمل الاسم عينه جزيرة الملات.

عرف نهر الزرقا قديماً «بنهر التمساح» ودعاه بليني Pliny حديثاً كذلك. ووفق ما هو شائع فان النهر مازال يحمل الاسم نفسه. ويؤكد أناس عديدون يسكنون الى الشاطئ أنهم رأوا في المكان تماسيح، إلا أنهم يجمعون أنه أمر نادر الحدوث، وقد أروني في عكا واحداً ميتاً من هذه التماسيح يبلغ طوله ثلاثة أقدام وقد عثروا عليه، بحسب قولهم، عند مصب النهر. ويذهب في الاتجاه نفسه الرحالة المعروف ريتشارد بوكوك R. pococke الذي كان في فلسطين سنة ١٧٣٨ والذي يقول أنه «أخبر من مصادر ثقة ان هناك تماسيح في النهر» ويضيف «وهم يقولون ان تلك التماسيح صغيرة لا يزيد طولها عن الخمسة او الستة أقدام، لكنها قادرة على التهام بضعة رؤوس غنم صغيرة تمر في النهر».

والشائع في الأساس أن المستوطنين المصريين هم الذين جلبوا التماسيح الى نهر الزرقا في زمن قديم جداً؛ اما عرب المنطقة فلديهم روايتهم الخاصة «فقد كان هناك رجل كهل سكن ضفة النهر في أزمنة مضت، وكان معه ولداه، وله قطعان وفيرة ترعى في مراعي السهل الخضراء. ثم مات الرجل تاركاً لولديه كنوزاً وقطعاناً». و «كان الابن الاصغر حرفياً نشيطاً، فازدادت ثروته وتضاعفت. اما الابن الاكبر فقد كان خاملاً وغدا فقيراً، فتطلع في فقره الى قطعان أخيه وثرواته، فأخذه الغضب والحسد ونوى سراً تدمير ثروات أخيه. قصد الأخ الشرير مصر وعاد بتماسيح صغيرة وضعها سراً في النهر آملاً انها ستلتهم ماشية أخيه حين تشرب من النهر او ترعى على ضفته ثم سافر هو الى بلاد أخرى. لكن رؤيا جاءت الأخ الأصغر في المنام فحذرته من الشر الآتي فمنع قطعانه من ارتياد النهر. عاد الأخ الاكبر بعد حين فجلس الى النهر يرتاح ومدّ رجليه الى الماء ناسياً أنه قد وضع التماسيح في النهر، فقدمت تلك بهدوء وسحبته الى النهر ومزقته أرباً. وهكذا قضت إرادة الله أن يسقط الشرير في الفخ الذي نصبه لأخيه».

في وسعك بالتأكيد ان تستمع الى الكثير من الروايات او الحكايا المماثلة في الاحاديث الدارجة للناس، إما في معرض التدليل على حكمة ما او لتأييد رأي ما، او في معرض النقد غير المباشر لحاكم او متسلط. وتختلف الروايات قليلاً او كثيراً باختلاف الامكنة والظروف.

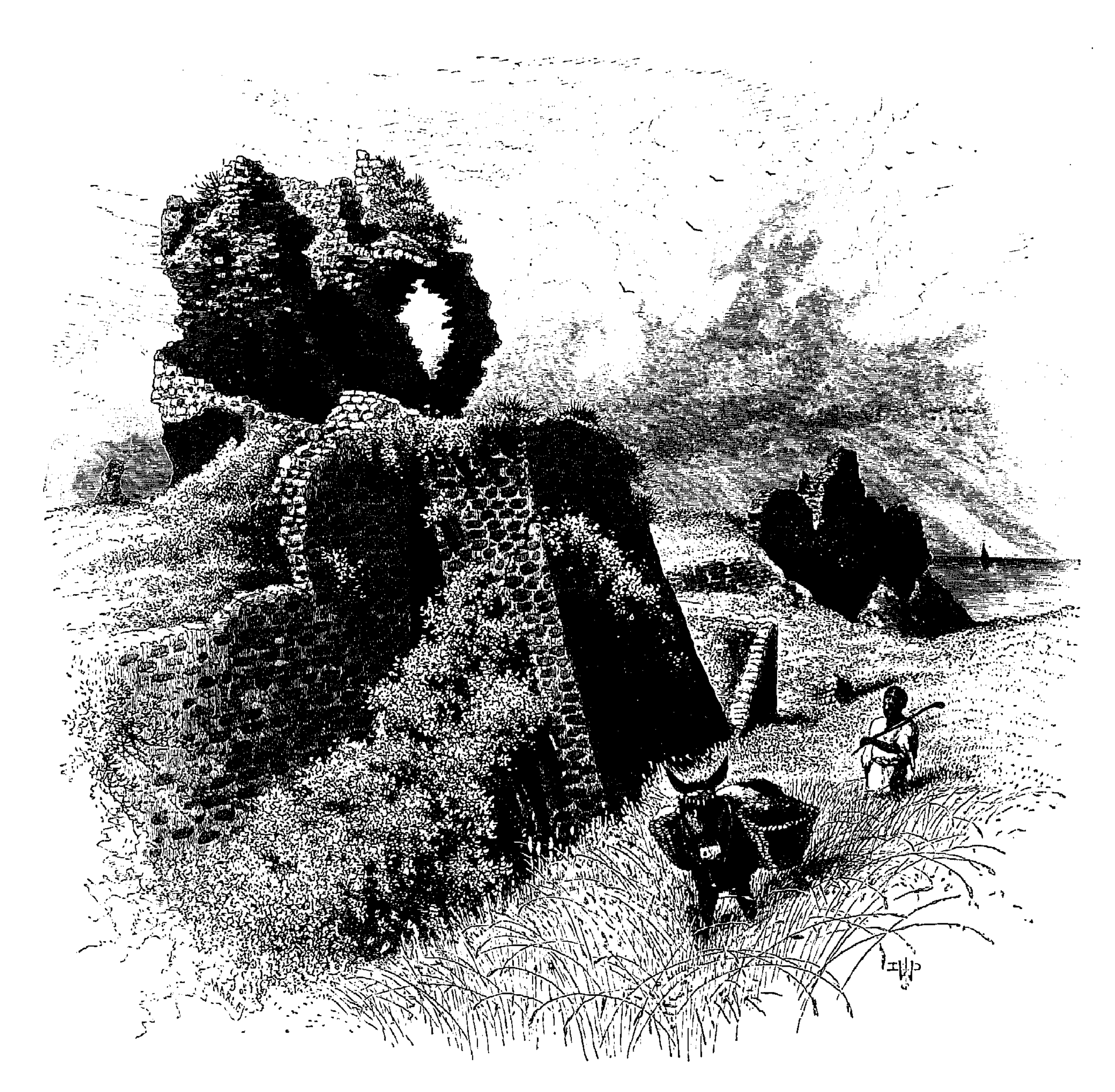
ويحتمل في هذا الاطار أن محيط نهر الزرقا هو موقع مدينة كروكوديلون القديمة [من كروكوديل Crocodile اي تمساح]. وكان سترابو، المتوفي سنة ٤٠ م.، قد ذكرها كواحدة من مدن ساحل فلسطين، والتي لم يكن قد بقي منها في زمنه غير الاسم. وينبسط سهل شارون جنوباً، بعد نهر الزرقا والى مسافة ٤٤ ميلاً ليصل الى ضفاف «نهر الدوبين» (راجع الخارطة).

أما القسم الشمالي الواقع بين نهر الزرقا ونهر اسكندرونا فطوله حوالى تسعة أميال من الشمال الى الجنوب مع معدل إتساع هو ثمانية أميال والجزء الأكبر منه مستنقعات أو تلال وكثبان رملية، وهي منطقة آثار مهجورة يخّيم قربها البدو الذين ربما إستصلحوا قطعة من الارض هنا أو هناك وزرعوها بالقمح والشعير لحاجات موسمية وآنية لا أكثر.

لكن المنطقة المهجورة هذه تحتوي، مع ذلك على مجرى مائي لا بأس به هو «نهر المفجر» Nahr Mefjir، تدانيه من ناحية الشمال عند التلال الشرقية غابة سنديان يصل محيطها الى حوالى تسعة أميال ويحدها شريط من الأراضي الخصبة. وتنتشر في هذه البقعة عدة قرى صغيرة مع القليل من الأراضي المزروعة المحيطة بها.

وتغطي الجزء الساحلي من المنطقة مجموعات نواويس وتلال من الركام والحطام هي بقايا مدن قديمة، او قرى

حديثة على انقاضها. وفي منتصف الطريق بين نهر الزرقا ونهر المفجر، تمتد على الشاطئ بقعة شاسعة من الأرض تغطيها آثار مدينة هيرود Herod الرائعة التي قامت يوماً هنا، مدينة قيسارية سيباست Caesarea Sebaste، سميت كذلك



جزء من السور الشمالي والخندق حول قيسارية
سماكة الاسوار ٦ اقدام ولها دعامات أمامية ولا تزال ترتفع الى ٢٠ او ٣٠ قدماً والخندق مبني من الحجارة، وهناك ثلاثة ابراج، عليالسور الشمالي يبدو منها اثنان في الصورة.

على شرف أوغسطوس. وفي وسط هذه البقعة التي كانت تحيط بها اسوار المدينة الرومانية القديمة تقوم آثار المدينة الصليبية التي أنشئت على انقاض قيساريا الرومانية القديمة.

ابتنيت مدينة قيسارية سيباست في المكان الذي كان يدعى برج ستراتو Strato's Tower وقد وصفها جوزفس بدقة. صمم المدينة وأنجزها الملك هيرود الأكبر خلال فترة قصيرة لم تتجاوز العشرة او الاثنتي عشرة سنة ثم دشنت في احتفالات ضخمة في السنة الثامنة والعشرين لحكمه، عام ١٢ قبل الميلاد. وكان في احتفالات التدشين عروض

موسيقية، وألعاب عامة، وفنون قتالية ومصارعة الوحوش وسباقات خيول وغيرها مما «كان لا يجري الا في روما وعدد آخر من الأمكنة».

وأنزلت الجموع كلها التي جاءت لتشترك في احتفالات التدشين في نزلٍ عامة، ومدّت لها الولائم؛ وأمر هيرود ان يتكرر الاحتفال كل خمس سنوات على شرف أوغسطس قيصر والذي جعلت المدينة على أسمه. «ضمت المدينة القصور الرائعة والصروح الضخمة ابتنيت جميعها من الحجارة البيضاء التي جلبت من البعيد»، اما الآن فهي ركام لا شكل له وأعمدة منكسرة وتلال مهجورة من الحجارة.

كان في المدينة مسرح من الحجارة، «وقاعة تتسع لعدد كبير من الناس في موقع ينفتح مباشرة على البحر».

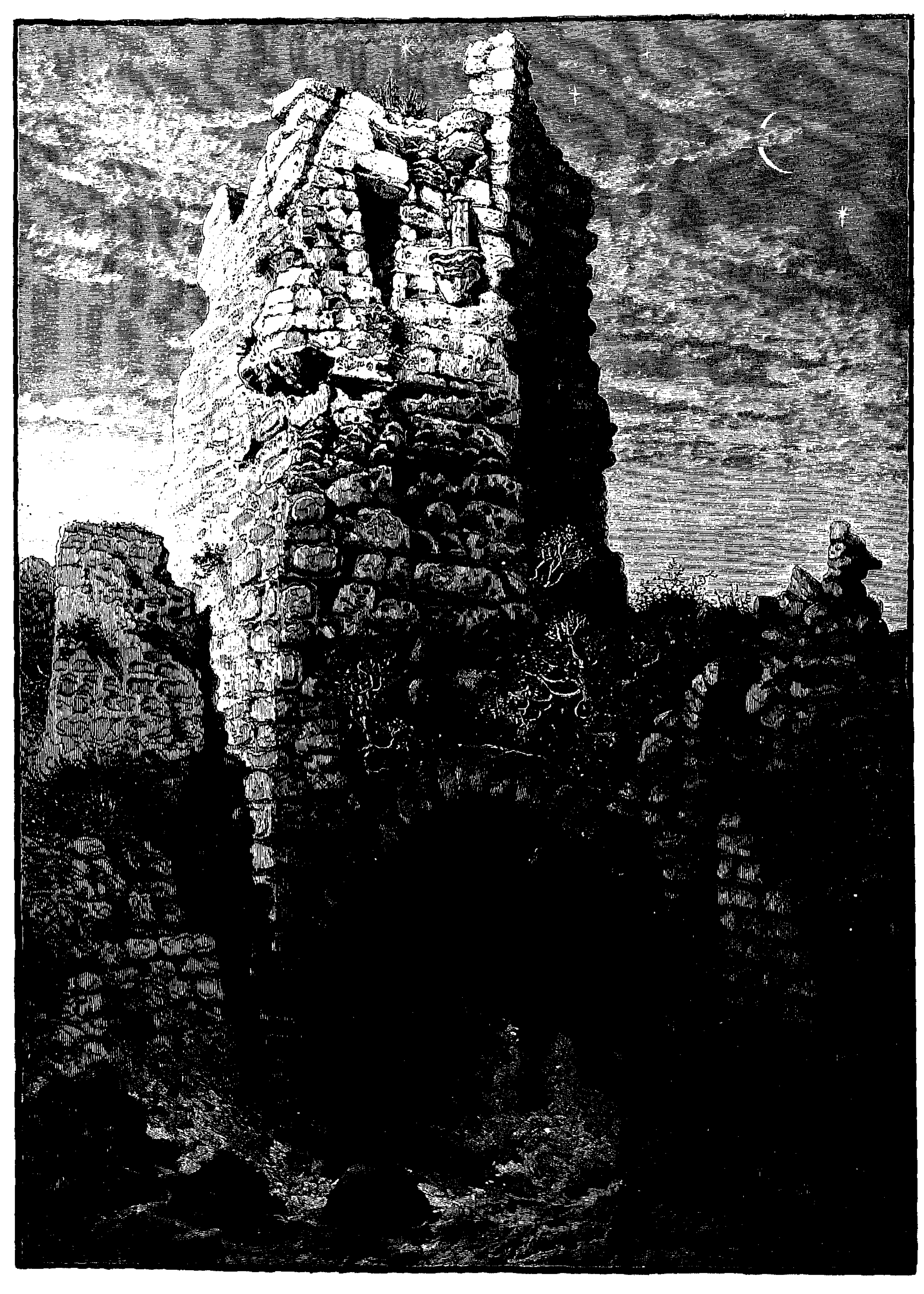
إلا أن أعظم ما كان فيها هو الميناء، الذي احتوى على رصيف مزدوج للسفن، والذي قارنه جوزفس بميناء بيرا أثينا. كان حاجز الموج فيه، ولا تزال آثار منه باقية، يمتد بعيداً في البحر في الجهة الجنوبية من الميناء مبنياً من الصخور والحجارة الضخمة وكان اتساعه في الأصل، بحسب جوزفس، «مئتي قدم». ترك أحد نصفي الحاجز لكسر الموج عن الميناء، اما النصف الآخر فقد جعل فوقه سور فيه عده أبراج، دعي أكبرها دروسوس Drusus على اسم صهر لقيصر قضى شاباً». وليست القطع الغرانيتية الضخمة والأعمدة الرخامية التي تزرع البحر عند الشاطئ غير بقايا تلك الأبنية والصروح الشاهقة. كان هناك نُزُلٌ ذات قناطر للبحارة، كما كان هناك تراس يمتد حول الميناء حيث كان يرتفع هيكل من الحجر المصقول يمكن مشاهدته من مسافة بعيدة، بالاضافة الى نصبين واحد لروما والآخر لقيصر. وما يزال الى الآن يقف جزء من قاعدة الهيكل حيث «تتناقض حجارتها البيضاء» بحسب ليوتنانت كوندور، «مع الحجارة الرملية البنية للابنية اللاحقة وتشهد على دقة وصف جوزفس للمواد التي استقدمت من أماكن بعيدة وبأكلاف عالية». ولا زالت الى اليوم اعداد كبيرة من الأعمدة المنكسرة في البحر عند ريف صخري على الجانب الشمالي من الميناء. أصبحت قيسارية بسرعة المدينة الاكثر أهمية في فلسطين والميناء الرئيسي فيها. كما كانت المقر الرسمي للملوك الهيروديين والحكّام الرومان.

وذكرت قيسارية كذلك في «أعمال الرسل»، حيث زارها القديس بولس عدة مرات واحتجز في سجن فيها لمدة سنتين وفي قيسارية أعلن فسباسيان امبرطوراً سنة ٧٠ للميلاد فأنعم على المدينة صفة المستوطنة الرومانية. واستمر صك العملة الامبرطورية في المدينة من عهد اوغسطس قيصر (والتي اشتقت المدينة اسمها منه) الى عهد غالينوس سنة ٢٦٨ للميلاد. ومع بدء القرن الثالث كان لقيسارية مطرانها، ثم اشتهرت سريعاً بمدرستها العامة حيث علّم اوريجون Origen فيها لبعض الوقت.

وكان ايسبيوس، المؤرخ الاكليريكي الذائع الصيت، مطراناً للمدينة عند مطلع القرن الرابع، وزارتها عند نهاية القرن القديسة باولا رفيقة جيروم، وزارت بحسب السجلات ضريح كونيلس الذي كان قد تحول الى كنيسة، وبيت فيليب Philip وغرف بناته الأربع. ودّرس بروكوبيوس، المؤرخ اليوناني، في قيسارية في القرن السادس فن الخطابة.

واستمرت قيسارية بعد الفتح المحمدي لها في مطلع القرن السابع مدينة غنية ومهمة، ويروى ان بلدوين الاول الذي احتل المدينة سنة ١١٠١، بعد حصار دام خمسة عشر يوماً، وجد في اسوارها كنوزاً ضخمة. «والساكرو كاتيون» Sacro Cation المحفوظ في خزنة لورنزو في جنوا، هو بعض مما كان في قيسارية. والساكروكاتيون هو كأس او كوب أخضر شفاف سداسي الشكل، مزخرف قليلاً ويروى أنه استخدم لتوزيع النبيذ في «العشاء الأخير» واعتبر تبعاً لذلك إناء مقدساً. وكان يظن دائماً انه من الزمرد، إلا أن أبحاث الخبراء توصلت حديثاً الى انه نمط متفرد من الزجاج القديم. والاناء هو تحديداً الكأس المقدسة في آداب القرون الوسطى. وأعلنت قيسارية وبسبب من ذلك اسقفية تتبعها عدة أبرشيات.

احتل المسلمون المدينة، ولكن الصليبيين استعادوها بعد فترة فأعادوا بناءها وعززوا اسوارها، ويقال ان الحصن والأسوار يعودان الى العام ١٢١٨، إلا أن لويس التاسع عاد فأصلحها ودعمها وذلك سنة ١٢٥١. لكن المدينة سقطت أخيراً في يد السلطان بيبرس سنة ١٢٦٩، فدمرت واستمرت اطلالاً الى يومنا هذا.



برج قلعة قيسارية
بناه الصليبيون، ويحتل ربما موقع «برج ستراتو» ، الذي اعقبه برج دروزوس لهيرود

كانت الأسوار معززة بدعائم خارجية إضافية، محاطة بخندق مائي، وكانت حجارتها من الصخر الرملي الصلب ولا تزال آثار منها باقية الى اليوم وترتفع في بعض الأماكن الى ٢٠ أو ٣٠ قدماً. وداخل الأسوار فسحة رحبة مستطيلة الشكل تنمو الأشواك فيها الآن بين الأعمدة المنكسرة او المتآكلة وقطع الحجارة الضخمة، وفي المكان نفسه الذي تعاقبت فيه القصور والمحاكم والهياكل الرومانية والكنائس والكاتدرائيات البيزنطية والجوامع وكنائس العصر الوسيط. ويمكن تبيّن قواعد الكاتدرائية بوضوح، كما توجد عند حفافي المنحدر بقايا كنيسة تعود الى الحقبة الصليبية فيها ثلاثة نتؤات بارزة وأربعة جدران دعم، لاتزال جميعها في حالة سليمة، اما الجدران الداخلية فقد انهارت منذ زمن طويل. وقيض لي، مرةً، ان أصرف هنا ساعة أو ساعتين، وحيداً بينما زملائي الرحّالة، بينما المرافقون نائمين يرتاحون في الظل قرب الشاطئ. فتسلّقت عند منتصف ذلك النهار الصيفي الحار المرتفع القريب وتجولت بين آثاره، ولم يكن هناك إنسيٌ واحد. ولن أنسى البتة المشاعر والتداعيات التي تركتها في نفسي عزلة ذلك المكان والوحشة والصمت اللذين يسودان فيه. وهناك برك ماء قليلة مع بئر بين الأسوار، قليل العمق ومياهه مالحة قليلاً لكن المدينة كانت حسنة التموين من ناحية المياه، بدليل بقايا قناة جرّت على مستوى منخفض كانت تجلب المياه من نهر الزرقا، وقناة أخرى أعلى مستوى كانت تحمل الى المدينة مياه الشرب من تلال بعيدة حيث ينبع نهر الزرقا، عبر المستنقعات وفوق قناطر حجرية جميلة.

وعلى الشاطئ الرملي جنوب حاجز الموج قمت بجمع خشخاش البحر الأصفر الشاحب الجميل واوراق الخبيزة البحرية القرمزية اللون، ونماذج من الاوبركيلا Opercula البيضاء والصفراء، لكني لم أجد أصدافاً كاملة رغم العدد الكبير من كسر الأصداف وشظاياها التي تملأ الشاطئ. ويدعو العرب منطقة الآثار هذه «قيصرية» وهم ذلك يحافظون على اسم المدينة في لفظه اليوناني.

ومن قيسارية نتجه جنوباً مع الشاطئ، فنعبر ضفاف وادي المفجر (او النهر الأخضر كما يدعوه البعض) ونحث الخطى نحو منطقة صخرية تشكل ميناء صغيراً ترسو فيه بصعوبة الزوارق والمراكب العربية ويدعى ميناء ابو زابورا Abu Zabura وهو عند مصب نهر الاسكندرونة، تقريباً، او نهر ابو زابورا كما يسميه معظم الناس (راجع الخارطة). ويشكّل النهر حينما لا يصل في الصيف الى البحر، بحيرة صغيرة ضحلة غير بعيدة عن الشاطئ.

ونترك الشاطئ عند هذه البقعة ونتسلّق المنحدر الذي يقع الى يسارنا ويؤدي الى سفح التلال الصخرية الرملية، فنصل الى أولى القرى القائمة في المنطقة وتدعى مخلد*Mukhâlid قرب الطريق العالية على مسافة حوالى الميل من طرف التلال، وعند منتصف الطريق بين نهر اسكندرونة ونهر الفالج (راجع الخارطة)، وهي مركز منطقة معروفة بزراعة البطيخ. وكنت مرة، في رفقة شقيقي، في المنطقة عند بدء موسم البطيخ. وصلنا الى المكان عند الساعة السابعة والنصف من صبيحة نهار من تموز، وكان بالأمكان مشاهدة صورة حية للحياة العربية على الطبيعة. فعلى طول الساحل، بين الطريق وحافة المنحدر، وعلى مدى العين، شمالاً وجنوباً، كانت هناك أكوام وتلال من البطيخ بأنواع مختلفة، ومجموعات من الفلاحين بوجوههم المغبرة وقمصانهم البيضاء، بأحزمتهم الجلدية وعماماتهم البيضاء الكبيرة، مشغولة بجمع البطيخ وصفّ بعضه فوق بعض في شكل أهرامات. وكان هناك مئات من الجمال، بعضها قد انطلق محملاً بالبطيخ، والآخر راكع ينتظر بينما يجري ملأ سلاله الكبيرة بتلك الفاكهة الضخمة. وبين الحقول كانت هناك خيام لجامعي الضرائب الذين قدموا لتحصيل الرسوم المفروضة على الموسم.

توقفنا بين هذه الحقول نستريح لبعض الوقت تحت شجرة كبيرة وحيده تنشر أغصانها، على بعد حوالى الميل من حافة المنحدرات. ووراء سهل البطيخ ناحية الغرب كان بالامكان مشاهدة مياه المتوسط تلفحها شمس تموز وأسطول صغير من المراكب العربية تبحر شمالاً. لم يكن هناك ما يميز حقول البطيخ الواسعة تلك، فاوراق ثمرة البطيخ الخشنة الكبيرة تنتشر افقياً في كل مكان وتطلع من بين أوراقها ثمار كأنها كرات رخامية خضراء أو صفراء جُعلت للعب العمالقة. لم يكن هناك سياج او شجر يقطع رتابة المناظر تلك خلا العمال وحركتهم يبعثون فيها الحياة. أما الحقول فكانت تفصل بينها أثلام عميقة ينبت فيها الشوك والزعرور، وكانت نادراً ما تظهر بارزة فوق الأرض الرملية. وحينما

* إدغام ربما من أم خالد [م]



بقايا خان حصين عند مُخالد
بناء سراسني على بعد حوالى ميل عن الشاطئ بين منتصف الطريق

رغبنا بشراء القليل من البطيخ لم يكن من مراقب العمال إلا أن قدّم لنا ما شئنا من دون مقابل، مشيراً الى أن البطيخ لا يباع هنا الا بكميات كبيرة. كان القليل من الجمال يحمل البطيخ ويتجه جنوباً، إلا أن القسم الأعظم منه كان يُحمل الى ميناء ابو زابورا حيث ينقل الى المراكب الشراعية العربية. سرنا في حقول البطيخ هذه اميالاً وأميالاً، كانت كل بقعة في السهل لم تزرع تستنبت شجر الحنظل البّري Colocynth وبكثافة. ويبلغ معدل قطر ثمرة الحنظل، وهي مرّة، ثلاثة انشات وهي صلبة كالحجر وقشرتها ناعمة خضراء وبيضاء وصفراء مخططة كما الرخام الجميل. ولعلّي لا أخطئ إذا قلت أن الكثير من الخرز الفينيقي المصنوع من الزجاج إنما كان يقلّد ألوان هذه النبتة وأحياناً شكلها. ملأنا إحدى جعبنا بثمار الحنظل دونما أن نأخذ بنصيحة العرب حول ضرر هذه الثمرة؛ والى الحنظل كانت صفوف من الزنبق تنبت هنا أو هناك، إلا أنه كان ينزع أنّ وجد في الحقول المزروعة.

ويبدو ان القرية تشتق اسمها، مُخلِد، من ضريح إسلامي مجاورٍ عزيز الشأن موقوف على إسم «ستي سابا أم خالد»

وفي مُخلد خانٌ حصين على النمط المعماري السراسينيقي Saracenic، إلا أنه أطلال منذ فترة طويلة. وتشير بقايا القطع الزجاجية والفخارية الموجودة بالقرب منه إلى أن المكان كان مسكوناً منذ فترة طويلة، لكنها لا تشير الى أي تاريخ محدد. وتطل من فوق قوس تلك التلال الصخرية ـ الرملية، بالقرب من مخلد، مناظر واسعة وخلابة، تمتد من مرتفعات الكرمل الى يافا فنري الى الشرق التلال الجميلة لسماريًا (Har- Ephraim). وراء سهل شارون حيث تتوسطه هضبة قليلة الشجر، تمتد تلالها جنوباً لتنتهي في غابة سنديان، هي بقايا أحراج أرصوف Arsuf القديمة، المقابلة لآثار

المدينة التي كانت تحمل الاسم نفسه. ويزعم «ان سكان هذه الهضاب سيئو الطباع، الا انهم أصحاب ثروات من الخيل وقطعان الماشية»

تنتهي منطقة إنتاج البطيخ بالقرب من «نهر الفالق» الذي نبلغه بعد ان نمر بهشيم من الأشجار البرية كالبلوط والقطلب والزعرور والعليق. «والفالج» او «الفالق» falik يشير في اسمه الى معنى القطع لمجراه الذي يقطع منطقة المستنقعات من الينابيع الموجودة شرقي الهضبة الصخرية الرملية. ويظلل مجراه شريط من القصب الطويل، الذي يشبه من بعد غابة نخيل، كما تحف به شجيرات الدفلي ونباتات برية أخرى. ويشير الركام القائم قرب النهر الى أن حصناً كان يقوم في المكان في زمن ما. وبعد عبورنا النهر ندخل سهلاً موحشاً لا أثر فيه لبشر أو زراعة أو حتى شجر، خلا الشوك والعليق وشجيرات برية ويمتد جنوباً لحوالى خمسة أميال. ويحد السهل الى اليمين تلال من الرمال المتحركة، أحياناً، تحجب رؤية البحر بينما ترتفع الى اليسار سلسلة تلال تنتهي عند التلال الحرجية لسهل شارون.

ونمر ببضع برك من المياه الراكدة، يعرش فيها او حولها العليق والقصب، وتلفت انتباهنا بضعة كهوف وعدد من الأضرحة المحفورة في الصخر على يسارنا في سلسلة الصخر الرملي ويقودنا هذا الطريق الإلزامي الموحش الى «حرم علي بن عُليم» الذي يقف على مرتفع يعلو ١١٠ أقدام فوق سطح البحر. ويتألف المكان من مجموعة بيوت تصطف حول جامع قديم، يقال ان السلطان ملك الظاهر قد بناه سنة ١٢٧٠ على اسم درويش معروف هو علي بن عُليم.

وكنت قد صرفت، في رحلة سابقة برفقة شقيقي، بضع ساعات في المكان. وقد بلغناه في حينه آتين من جهة الجنوب بمحاذاة شاطئ البحر وعند غروب الشمس تقريباً. كان النورس يحلّق فوق رؤوسنا باسطاً جناحيه البيضاويين الواسعين، بينما أعداد وأعداد من السلطعون قد خرجت من مخابئها على الشاطئ واتجهت صوب الماء والطيور الباحثة في المحار تذرع الشاطئ في كل اتجاه. كانت المنحدرات على يميننا حادة وعالية وهي رملية أو من الصخر الرملي. ارتفع الشفق سريعاً، وصعدت من الأرض غلالة من الضباب الكثيف بحيث بتنا لا نرى، وبصعوبة، الا أعالي الاشياء أمامنا. والتقينا بقافلة من الجمال تتهادى على كسل، وبدت غريبة طويلة وذات ظلال غير مألوفة بفعل الضباب المتغلغل بينها؛ بل ان مرافقنا الذي كان يسير امامنا ممتطياً صهوة جواد رمادي بدا كأنه يسير في فراغ ولا شيء يصله بالأرض، حيث كان الضباب يحجب حصانه تماماً. وقادنا مرافقنا الى شق بين التلال كان مجرى مائياً فيما مضى، ويقوم في منتصف شير صخري يشق المجرى الذي بات طريقاً الى شطرين أو بالأحرى الى ممرين طبيعيين. وتسلقنا الطريق التي تلتف حول المنحدر على ضوء القناديل في أيدينا، الى أن بلغنا قمة المنحدر وصرنا فوق الضباب المتصاعد من البحر، فصرنا في محيط الحرم المقدس. ودخلنا عبر عدة ساحات وممرات ثم صعداً عبر سلّم حجري غير مسقوف الى ترّاس عريض حيث اقتعد عدد من العرب الأرض حول قوز من الأرز يلتهمونه بسرعة وصمت تحت ضوء النجوم وقنديل قريب مضاء. رحب بنا شيخ الحرم بكثير من اللطف ودعانا للدخول الى غرفة مخصصة للضيوف عالية ومفتوحة على الترّاس. واضيئت قناديل خزفية حمراء وضعت في فجوات صغيرة موزعة على حيطان الغرفة، فبدا السقف مقبباً عالياً والحيطان مغطاة مع بعض الزخرفة ذات الذوق الرفيع. في الوسط كانت هناك كتابات محفورة ومزخرفة بالأحمر والأسود تضم أسماء الانبياء والأولياء وابتهالات الى الله. لكن السواد كان يلّون الأرض بفعل الدخان الذي ينبعث من موقد طيني في وسط الغرفة يشتعل فيه الحطب او الفحم شتاء بغرض التدفئة. لم يكن في الغرفة أثاث خلا حصرٍ ممدودة على إفريز عالٍ قليلا، ويمتد على ثلاثة جوانب من الغرفة وعلى زواياها وكان لابد بالتالي من استخدام بعض من عدة تخييمنا. وتحدثنا بعد العشاء لبعض الوقت مع الشيخ ثم خرجنا نتمشى قليلاً على التراس الذي أضاءته النجوم وحيث كان خدمنا قد تدثروا بعباءاتهم السميكة يغطون في نوم عميق.

إرتحنا في غرفة الضيوف الواسعة لبضع ساعات، الى أن دعا المؤذن، من المأذنة القريبة، الى الصلاة عند الفجر: «أفيقوا ايها النائمون، الصلاة أفضل من النوم!» استجبنا لندائه وخرجنا الى الترّاس. كان النهار على وشك أن يبدأ، والساعة تقارب الثالثة، بينما رجع صوت طويل للديكة كان ينبعث من الساحة في الاسفل يذكرنا بالساعة، فالتنبيه

الاول مع الفجر، والثاني بعد ساعتين عند طلوع الشمس. عند الساعة الرابعة كنا جاهزين لمتابعة رحلتنا، فشكرنا للشيخ استضافته لنا في الحرم القديم وانطلقنا من جديد شمالاً.

وعلى مسافة قصيرة من هذا المكان، ناحية الشمال تقوم آثار حصن صليبي هو أرصوف Arsuf (راجع الخارطة) ويعود المؤرخ جوزفس الى المكان في اسم أبولونيا، لكنه لا يذكر شيئاً عن تاريخه القديم خلا انه كان خراباً سنة ٥٧ قبل الميلاد فأعاد الرومان بناءه.

ويفترض أن أرصوف كانت حصناً قوياً في القرن الحادي عشر، إذ يروى ان غودفري بوالون، ملك أوروشيليم، حاصرها من دون نتيجة؛ لكنها شاركت قيسارية مصيرها، إذ احتلها شقيق غودفري وخليفته، بلدوين الأول وليستعيدها بعد ذلك المسلمون.

وبالقرب من أرصوف هزمت قوات ريتشارد كور دي ليون قوات صلاح الدين سنة ١١٩١، بعد مسيرة ١٠٠ميل من عكا الى عسقلان بهدف إنقاذ المدينة، وأمكن بنتيجة المعركة استعادة أرصوف. ويعترف المؤرخ العربي بهاء الدين ان غابة أرصوف وحدها هي التي انقذت جيش صلاح الدين من الإفناء.

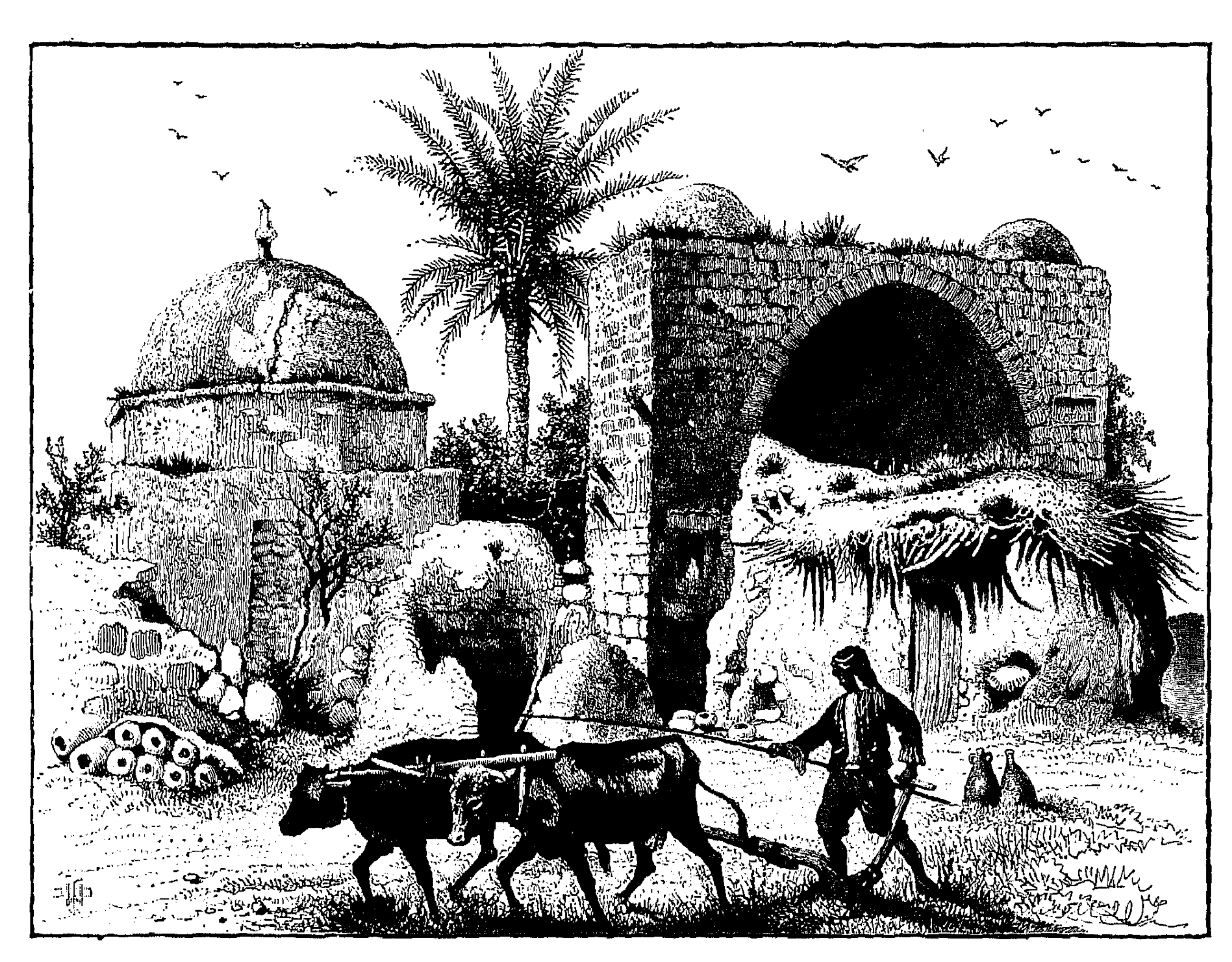
أعاد لويس التاسع تحصين أرصوف سنة ١٢٥١، لكنها سقطت من جديد في يد المسلمين حينما حاصرها ثم دخلها السلطان ملك الظاهر بيبرس سنة ١٢٦٥؛ فقتل من فيها وبقيت خراباً مذذاك والى اليوم ويقول ليوتنانت كيتشفر، ر. ي. في «مجلة المسح» (١٨٧٧) : «تشبه قلعة أرصوف عسقلان (راجع الخارطة) في شكل حجارتها ونوع الطين الممتاز المستخدم. ففي اجزاء معينة من تلك الاثار كانت الحجارة قد أزيلت او سقطت بينما بقي الطين كما كان. أما في امكنة أخرى فقد بقيت العقود سليمة تماماً كما تركها بناؤوها. انشئت القلعة على أساس ضعيف هو عبارة عن صخر ناعم على الشاطئ: فانهار الأساس وسقطت الأسوار والحيطان كتلاً كبيرة. تحطّم الكثير من هذه الأسوار والحيطان لكن اجزاء كبيرة منها سقطت من أماكن عالية وظلت متراصة كما كانت. بل في وسع المرء ان يعتقد، أحياناً، أن تلك الحيطان كأنما كانت تزحلق من علٍ بلطف لشدة ما تبدو عليه من تماسك. كما أن هناك كميات من سلفات النحاس ملتصقة بالصخور كحبيبات الكريستال». وكان الميناء على اتساع وترتيب يبلغ «٣٠٠ قدم طولاً من الشمال الى الجنوب، و ١٢٠ قدماً من الشرق الى الغرب» مع مدخل يبلغ اتساعه ٣٠ قدماً.

ونترك هذا المكان المهجور خلف آثار أقدام وعربات تقودنا شرقاً، عبر سهل شارون الى كفر سابا على بعد حوالى ٨ أميال. وتمتد الى يميننا سبخ ومستنقعات تغدو مراعي خصبة ايام الربيع، وتستدير الطريق حول منطقة حرجية، هي ما تبقّى من غابة أرصوف، ويدعوها المؤرخ الصليبي غيوفري دي ڤينسوڤ آسور Assûr .

وكفرسابا للناظر اليها من بعيد جميلة الطلة تحيط بها من الشمال والغرب غابات الزيتون وبساتين الأشجار المثمرة، وترتفع هنا وهناك أشجار البلح. والمنظر المنشور في الصفحة ١١٩ هو للبلدة من ناحية الشرق. تقوم كفرسابا على هضبة في السهل الذي يعلو الشاطئ قليلاً، وترتفع ١٦٨ قدماً فوق مستوى سطح البحر. ويذهب الكثير من البحّاثة، ومن بينهم د. روبنسون، أن المكان هو موقع مدينة انتيباتريس القديمة، ولكن ما من شيء يشير، الى أن مدينة مهمة كانت تقوم في هذا المكان. بيوت كفرسابا مبنية من الطوب المجفف في الشمس ومن الحجارة الصغيرة، وفيها أحواض لجمع مياه الامطار صنعت من الطين. وليس هناك من آبار أو عيون في القرية او في جوارها، ولكن هناك على بعد نصف ميل ناحية الشرق بئران فيهما مياه طبيعية عذبة، واحدهما عند مزار النبي بنيامين وترتفع اشجار باسقة قرب المزار (وتظهر إحداها في مشهد كفرسابا)

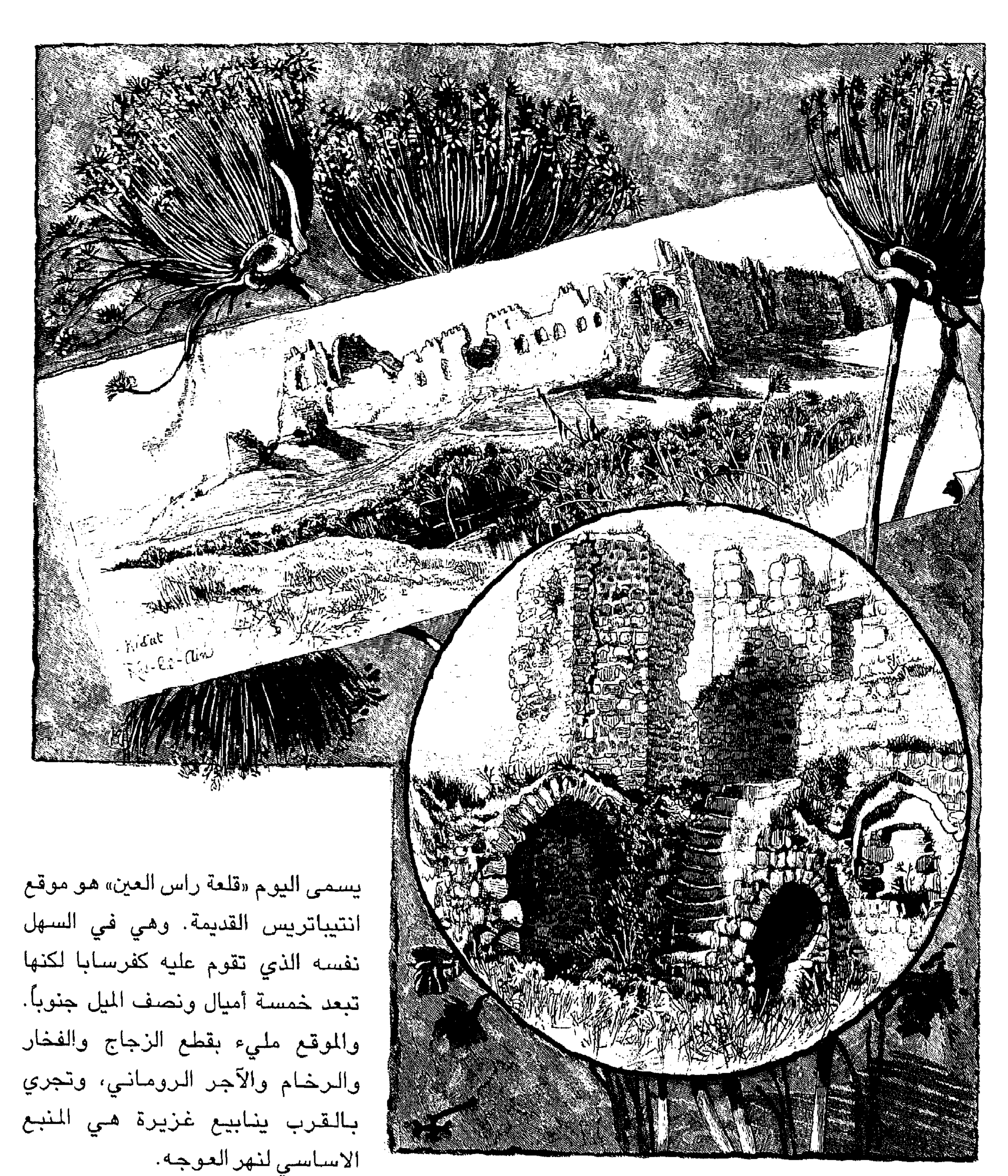


كفرسابا.
بيوتها مبنية من الطوب المجفف، مع بساتين واسعة الى الجنوب والغرب منها تبعد ١٤ ميلاً عن يافا



نبي بن يمين (ضريح النبي بنيامين)
وضريح مسلم على بعد نصف ميل من قرية كفرسابا، وقربه بئر ماء عذب، وفلاح يقود ثورين على آلة فلاحة بدائي

ويروي جوزفس ان هيرود Herod أمر ببناء مدينة انتيباتريس Antipatris، على اسم والده انتيباتر، «في سهل كفرسابا، السهل الأكثر خصوبة في المملكة» وكان هناك نهر جار يحاذي المدينة. ويمكن عموماً القول إن الركام الذي



يسمى اليوم «قلعة راس العين» هو موقع انتيباتريس القديمة. وهي في السهل نفسه الذي تقوم عليه كفرسابا لكنها تبعد خمسة أميال ونصف الميل جنوباً. والموقع مليء بقطع الزجاج والفخار والرخام والآجر الروماني، وتجري بالقرب ينابيع غزيرة هي المنبع الاساسي لنهر العوجه.

قلعة ميرابل Mirabel.

تدعى اليوم قلعة راس العين بناها الصليبيون قبل سنة ١١٤٩م.
وتحيط اليوم بارض شاسعة يتوسطها جامع صغير.

وينتهي مستر جايمس فِن J. finn في كتابه «مجاهل فلسطين»، إلى أنه يستحيل تجنب الاستنتاج ان هذا هو موقع انتيباتريس القديمة. ولا تزال قناة ماء تحيط بالمكان، كانت تنقل المياه الى المدينة»، ثم يضيف «أن لامكان أفضل من هذا لقيام محطة عسكرية».



نهر العوجه من قلعة راس العين.
ينبع النهر من ينابيع غزيرة عن أقدام التل الذي تقوم فوقه القلعة وفي مكان انتيبا تريس.

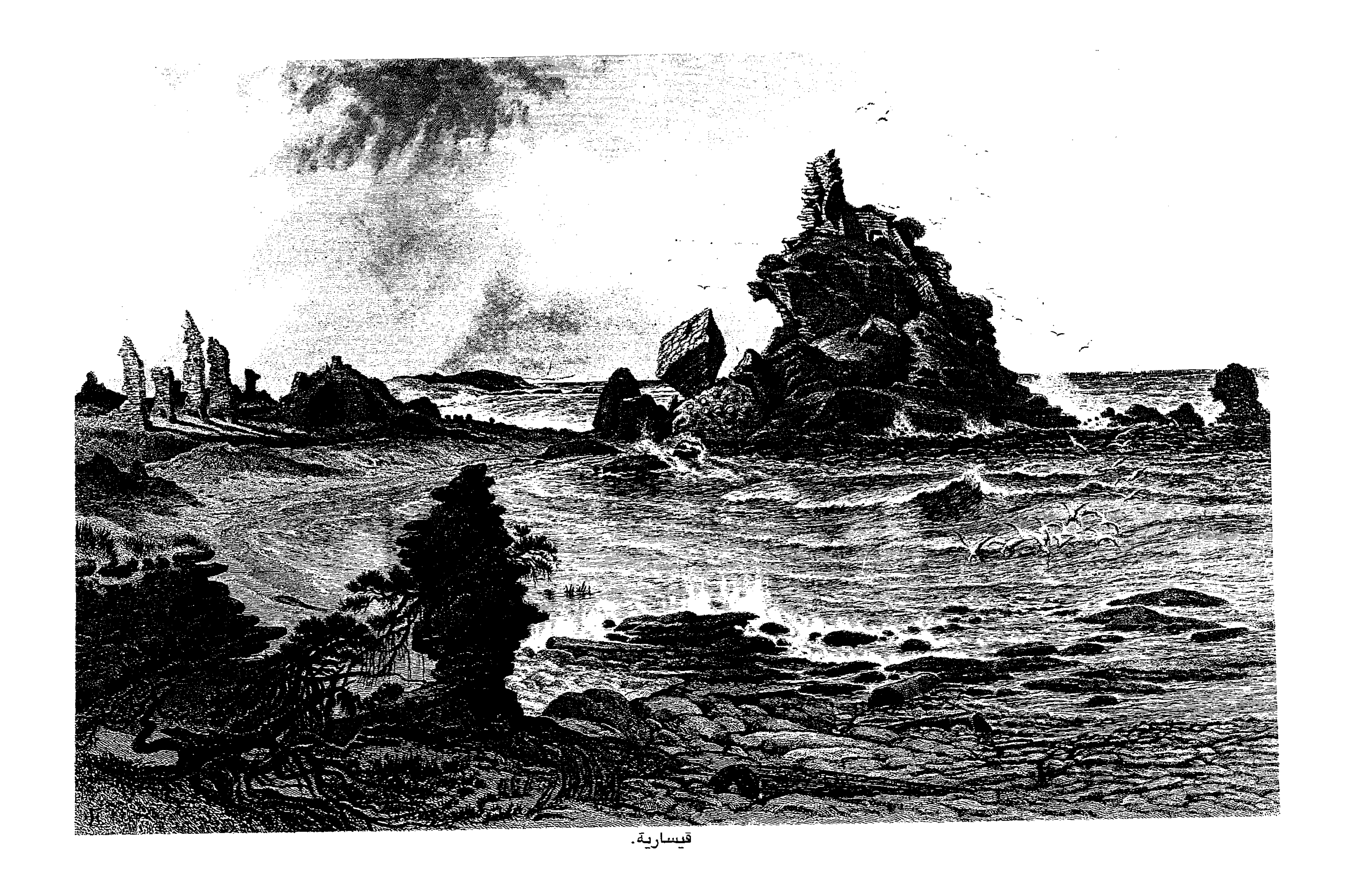
وكان القديس بولس قد نقل من اورشليم الى انتيباتريس، تحت الحراسة، قبل أن ينقل الى قيسارية في اليوم التالي (الأعمال XXIII, 31, 32). وتقوم على الطريق الروماني بين انتيباتريس واورشليم، منطقة واسعة من الركام والآثار تدعى «تبنه» Tibneth، او مدينة تيمنه سير Timnath Sira في التفسير المسيحي، مدينة جشوا ومكان دفنه



شجرة مقدسة تدعى شيخ التيم.
جنوب تل الآثار والأضرحة التي تدعى اليوم تبنى Tibneh
ومحل تيمناث سيرا القديمة، مدينة جشوا.

(جوشوا XXIV. 30) ويقوم ضريح متميز وعلى مدفن محفور في الصخر على منحدر جنوب تلك الهضبة وهو ليس بغريب عن التفسير المسيحي التقليدي ويسجل كوندر Lie Conder «أن هناك فجوات لأكثرمن مئتي قنديل على مدخل الضريح. أما في الداخل فهناك غرفة فيها أربعة عشر قبراً او كوكم Kokim، وممر يقود الى غرفة داخلية فيها قبر واحد. اما شجرة السنديان الكبيرة قرب الضريح فيصل ارتفاعها الى حوالى ٤٠ قدماً وتدعى

الشيخ التيم Sheikh et teim (خادم الله) ويرى م. غيرون Guirin أن الضريح هو المدفن الحقيقي ليشوع، وأن الفلاحين الذين دخلوا الغرفة الداخلية قبل وقت قصير من زيارته سنة ١٨٦٣ قد وجدوا نوعاً من الثريا ذات ثلاثة قناديل من المعدن الأصفر. ووجد آبي ريتشارد سنة ١٨٧٠ خناجر من الصوان (أما تقليد السماريتيين Samaritan في احترام ضريح جوشوا، فيعود الى صفحة ٢٣٣ ، م أ).



قيسارية.

يافا أو جوفا القديمة

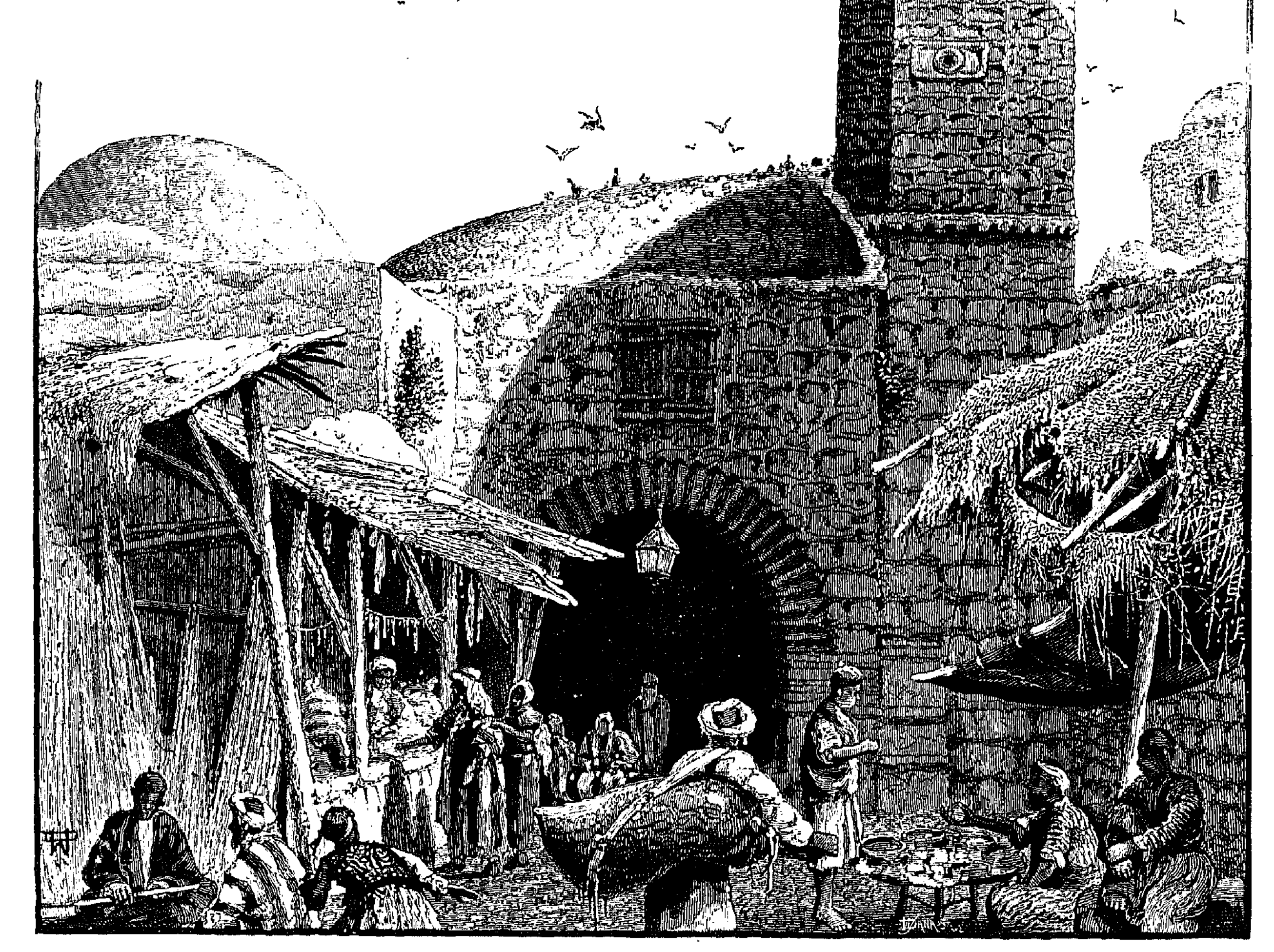
تعتبر جافا Jaffa، أو يافا بالأحرى، أحد اقدم الموانئ البحرية في العالم وهي حافظت على اسمها كما كان منذ البدء - يافو yapho «الجميلة» وكان أرز لبنان قد «أرسل الى ميناء يافا بحراً عن طريق العوم» لبناء هياكل اورشليم(2 chron, ii IEsdras v .55) وحاصر جوناثان ماكبيز يافا «واحتلها» (1 Macc x. 75,76). ثم غدت المدينة يونانية ورومانية، ودّمرت وأعيد بناؤها غير مرة، قبل الفتح العربي الذي تم سنة ٦٣٦ ميلادي. واحتّلها الصليبيون سنة ١٠٩٩ ثم خسروها واسُترجعوها، الى ان سقطت نهائياً في يد السلطان ملك الظاهر بيبرس سنة ١٢٦٧، الذي دمّرها وتركها خراباً. ولم تنهض المدينة من جديد حتى نهاية القرن السابع عشر. وحين قدم اليها جيش نابليون سنة ١٧٩٩، كانت يافا قد حصنت من جديد وبات لها أسوار وكانت قادرة



الرسو في يافا
تحفّ به دائماً الصعوبات حيث لا تتمكن السفن من دخول الميناء الصغير، وينتقل المسافرون الى زوارق عربية صغيرة.

أن تقاوم لبضعة ايام قبل أن يدخلها في الهجوم الذي تم في ٤ آذار حيث حدثت مجزرة بين الأسرى. أمر نابليون بعد احتلاله المدينة بتحصين اسوارها وتقوية دفاعاتها وجهزها لاستقبال التعزيزات من مصر، الا انه بعيد هزيمته في عكا وانسحابه صوب مصر عاد فأمر بتفجير الأسوار وتم ذلك في ٢٧ أيار ١٧٩٩. واعيد من جديد بناء الاسوار والتحصينات تحت أشراف الضباط الانجليز والأتراك.

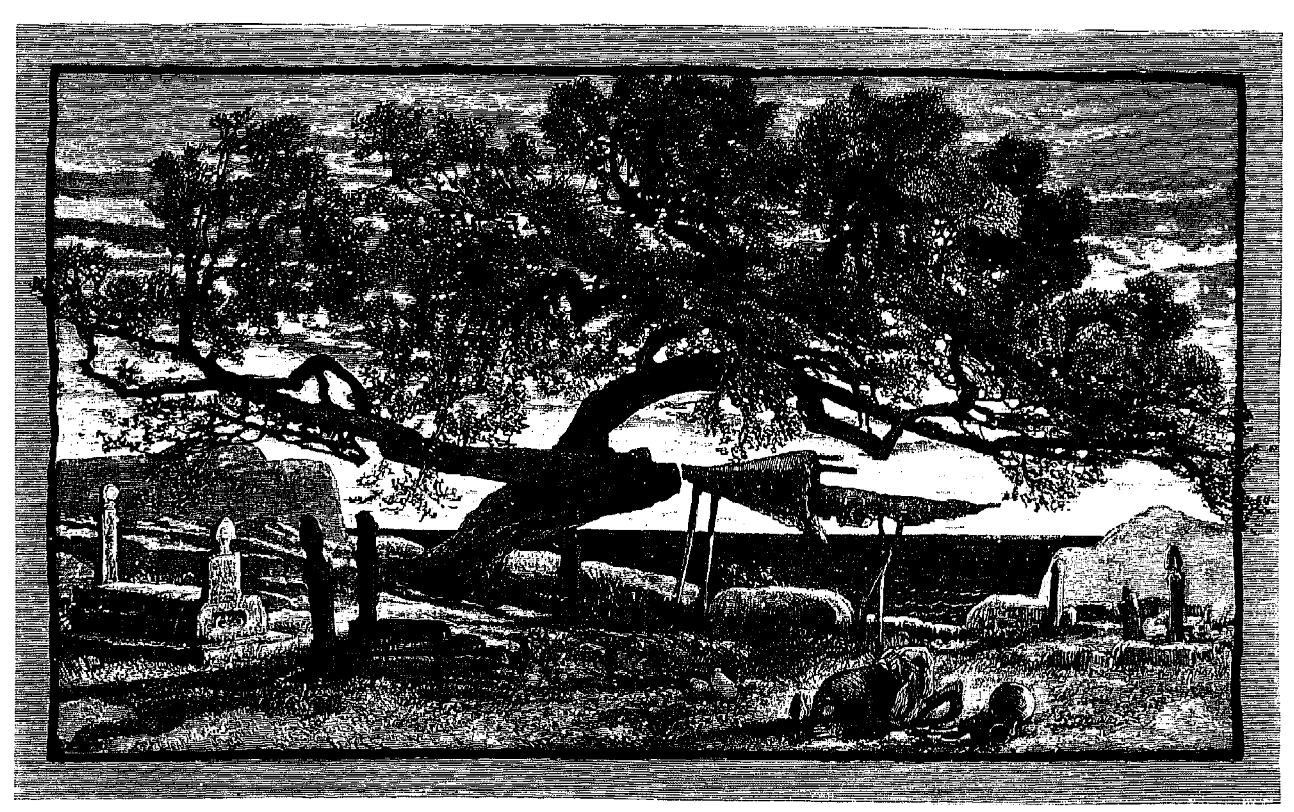
لم يتغير موقع المدينة الحديثة عن موقع يافا القديمة، فيافا اليوم تقوم، وعلى ركام المدن السابقة، فوق قمة هضبة ترتفع ١٣٥ قدماً عن مستوى البحر (راجع الخارطة). وتنتشر أمام المدينة لجهة البحر منطقة صخرية نصف دائرية، يرتفع بعض صخورها عالياً في الماء ، بينما في وسعك ملاحظة الصخور الأخرى من الموج الذي يتكسر عندها. وتشكل هذه الصخور (والتي ربطت أندروماد الى واحدة منها



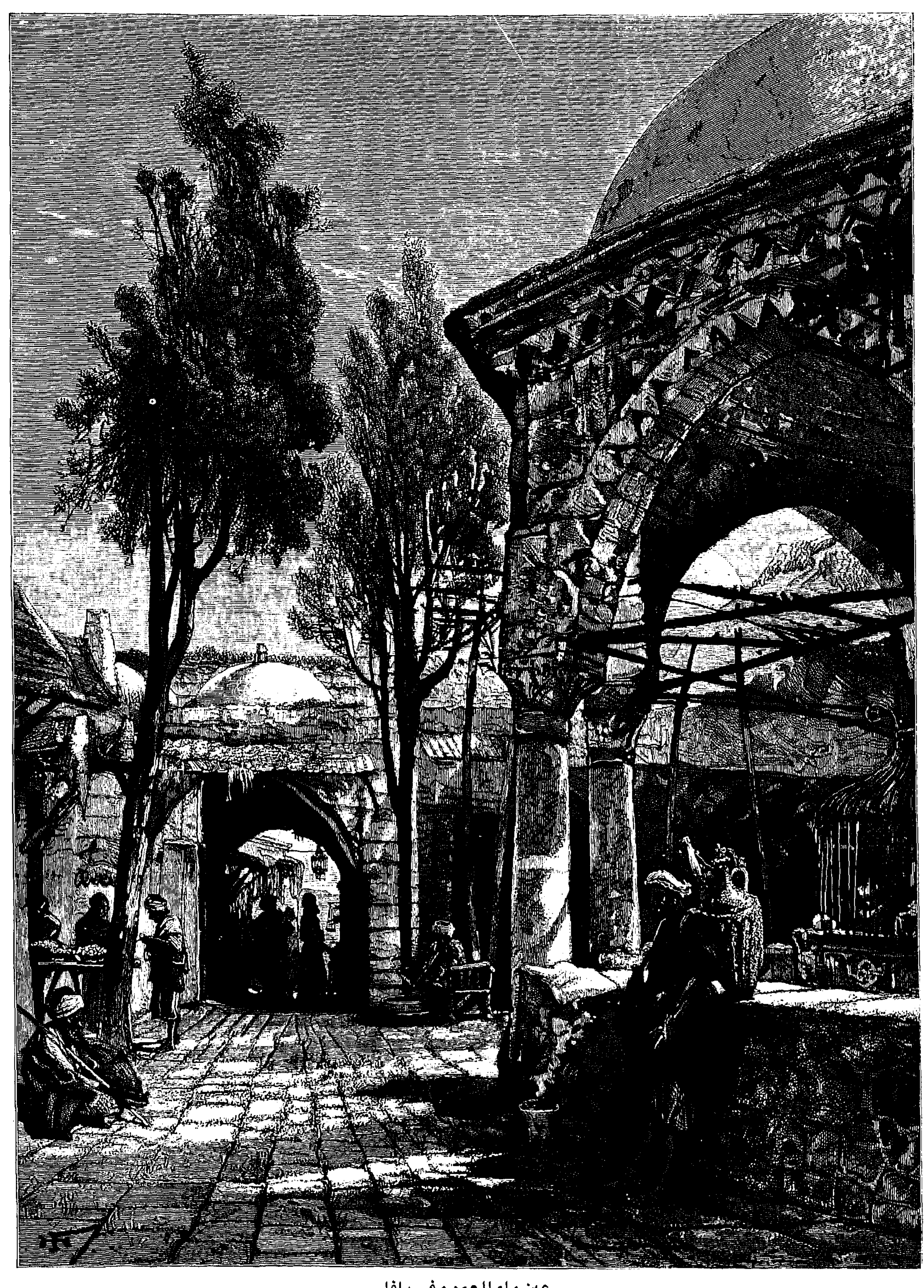
الجامع في يافا

بناء حديث في القسم الشمالي الشرقي من المدينة. وتبدو المدينة والشاطئ من أعلاه وبين الكثير من قوارب الصيد العربية.

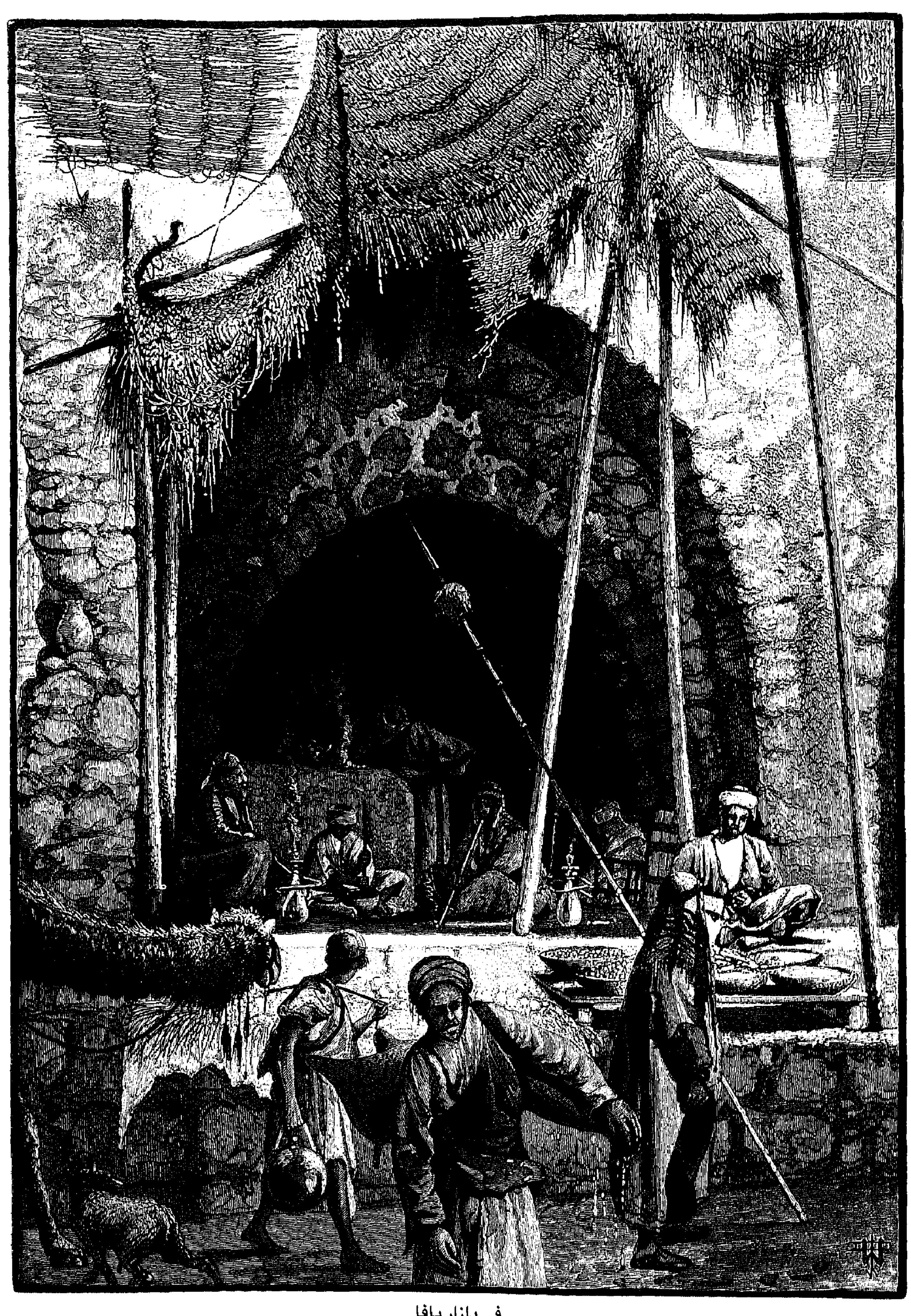
بحسب بلني pliny) ميناء كبيراً ولكن قليل العمق لا تدخله غير الزوارق الصغيرة. وهناك مدخلان للميناء، واحد واسع ناحية الشمال وآخر ضيق غرباً وعليه فإن السفن البخارية تضطر للرسو على بعد حوالى نصف ميل عن الشاطئ. ثم يجري نقل الركاب في مراكب صغيرة. وتتوسع يافا اليوم باطراد، في ثراها وأهميتها. وسكانها يزيدون الآن، كما يقال عن ثمانية الآف، ثلثاهم محمديون. وفي ضواحي يافا عدد آخر لابأس به من السكان، فهناك مستوطنة مصرية شمالي المدينة خلف المداخن ومستوطنة جماعة الهيكل تسكن منطقة سارونا Sarona شمال شرق المدينة، كذلك أقام الاميركيون مستوطنة مماثلة سنة ١٨٦٦ قرب المدينة. كما جرى تقديم منطقة شاسعة وراء بساتين يافا، الى المستوطنة الزراعية التابعة للتحالف الاسرائيلي العالمي Universal Israelitish Alliance .



شجرة شيتيم Shittim في يافا
في المقبرة الاسلامية شمال المدينة ، عند الغروب وقت الصلاة.



عين ماء للعموم في يافا
وهي قرب بوابة البلدة فوقها بناء مقبب له ثماني عقود تدعمها أعمدة.



في بازار يافا

مقهى عام داخل عقد وعدد من المدخنين، وخادم يصب القهوة حافي القدمين وآخر يعرض فاكهة، وثالث يحمل ماء. وصبي يقود جملاً.

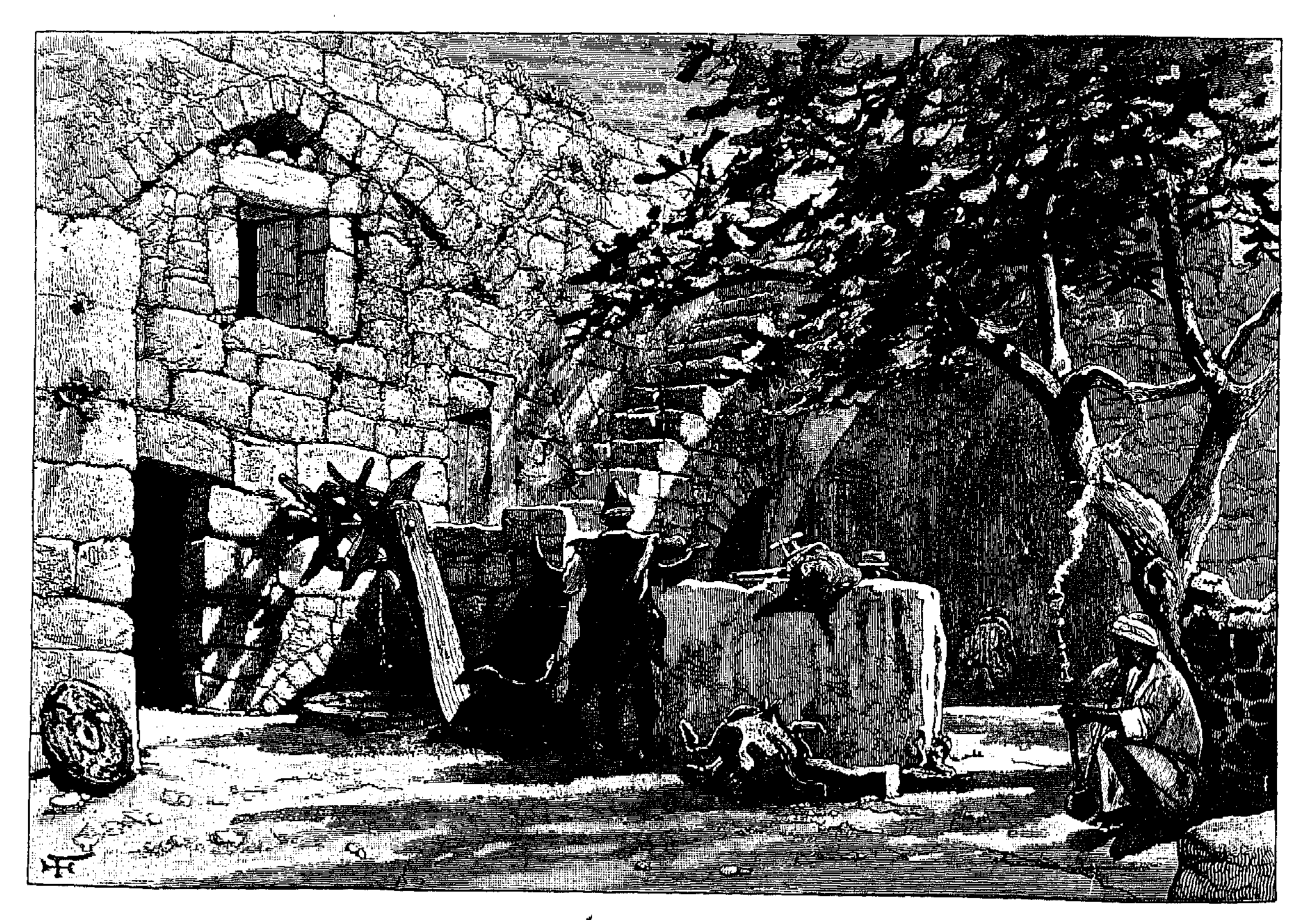
وأسواق يافا عامرة بالبضائع من كل الأصناف ويؤمها اشخاص من مشارب ومظاهر مختلفة. ويصف السرّ س. شيك C.sheik، عامل الحكومة لشؤون البناء في اورشيليم، التقدم الذي حدث في يافا فيقول: «لقد أزيل السور، وطمر الخندق المائي، وأقيم عدد من المخازن والدور الكبرى». ثم يضيف «وكدليل على تقدم الزراعة نذكر أن بساتين يافا قد تضاعفت أربع مرات في ربع قرن». وهذه البساتين هي أهم ما في المنطقة اليوم. وهي تمتد ميلين الى الداخل وحوالى



منظر في بستان يا فاوي
وأمرأتان تديران «الساقية» التي تسحب الماء من البئر ولملأ الخزان وحرباء على غصن شجرة الرمّان.

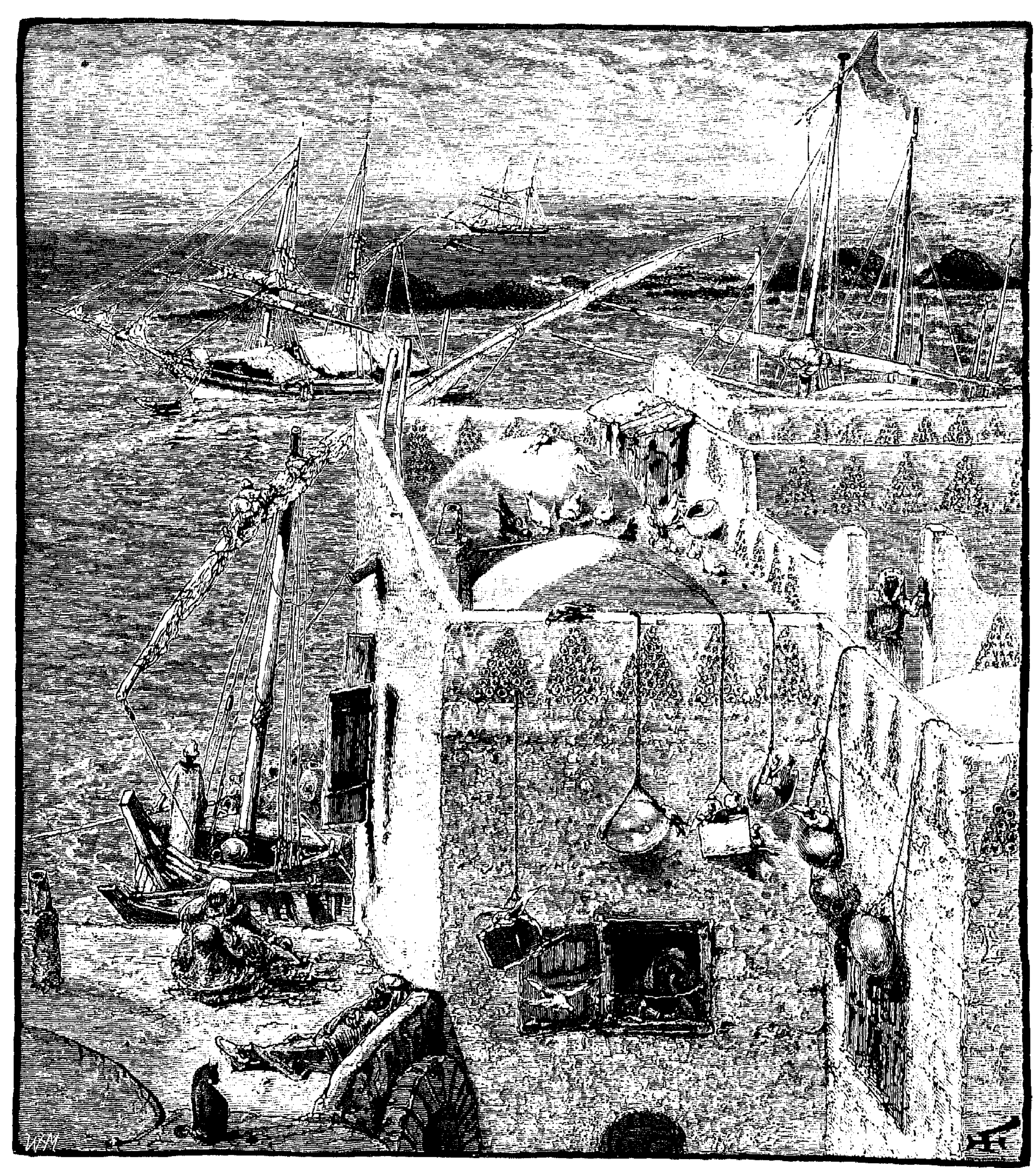
ثلاثة أميال من الشمال الى الجنوب. وسطح التربة رملي، إلا أنها غنية دون ذلك، كما أن الماء متوفر بكثرة. والبساتين محاطة بأسوار حجرية، او بسياجٍ لا يمكن إجتيازه من نبات القث او الصبّير. وفي كل بستان بئر ماء مبني من حجارة، وقربه خزان ماء مرتفع يملأ بواسطة «الساقية». وترتفع الجرار الفخارية الواحدة بعد الأخرى تفرغ الماء الذي رفعته من البئر في الخزان المرتفع. وتنتج هذه البساتين المروية انواعاً مختلفة من الفاكهة والخضار. ورغم أن كرمتها تبقى شبه مدفونة في الرمل، إلا أن برتقالها لا مثيل له ويصدر معظمه الى الخارج.

وأحد مصادر الدخل الرئيسية للسكان هنا هي المواسم السنوية لقدوم الحجاج في طريقهم الى أورشليم. وهناك نزل مريح ودير للاتين يقدمان المأوى للمسافرين. ويقوم النزل في مرتفع في احدى التلال وفي المكان الذي كان يقوم عليه «بيت سيمون الدّباغ» Simon the Tinner، إلا أنه يزعم، بخلاف ذلك، أن مكان البيت يقوم فوقه ضريح أو جامع محمدي بالقرب من الشاطئ (الاعمال x. 6) ويمكن من فوق سطح البيت ان تطلّ على منظر جميل للميناء. والبناء المحلي في يافا يشبه ذاك الموجود في اورشليم وبسبب من ندرة الخشب تبنى السقوف من الحجارة وعلى شكل قباب أو



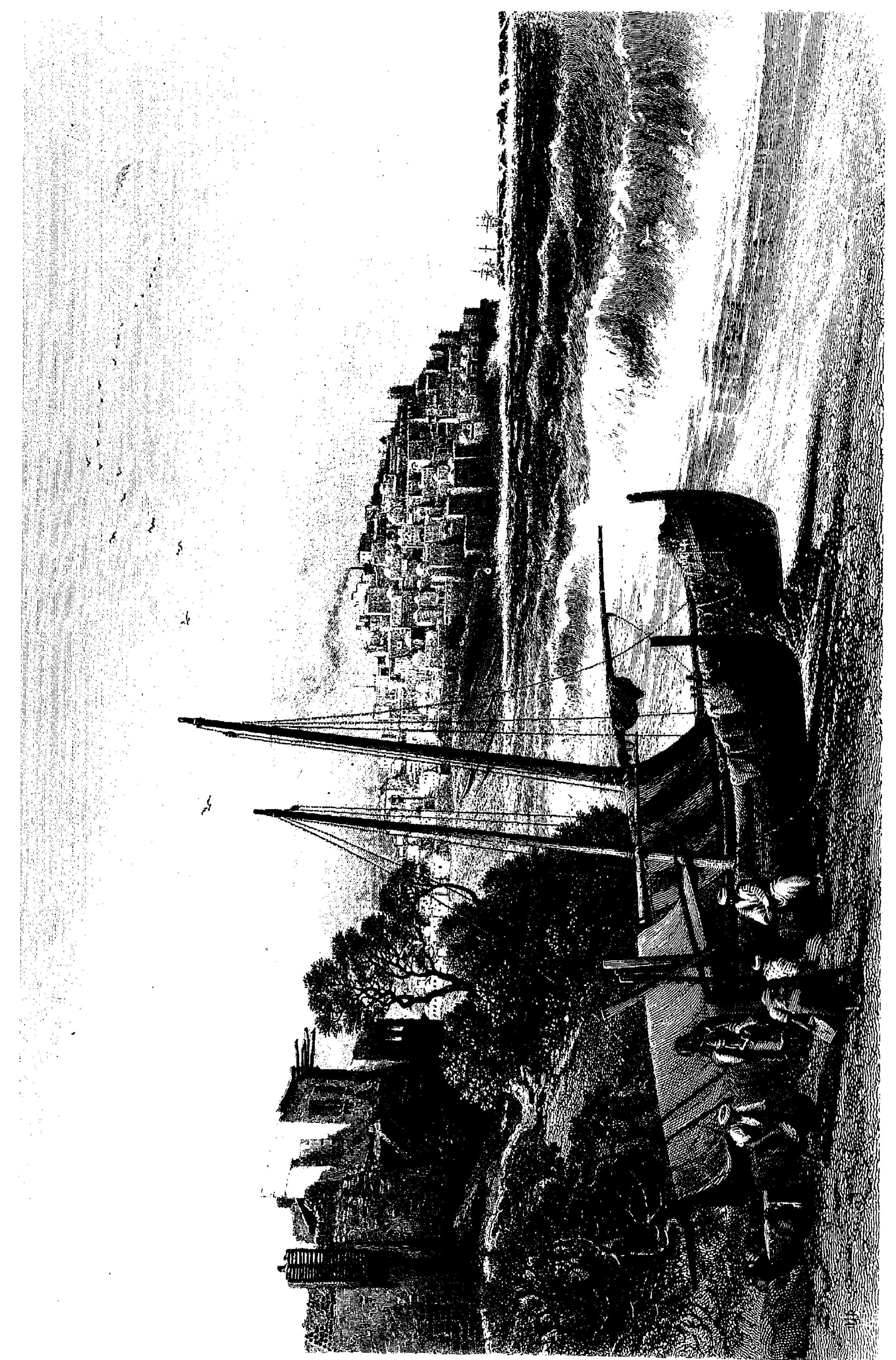
بيت سيمون الدبّاغ
وهو اليوم مدفن اسلامي، وبئر ماء وشجرة تين بالقرب من المكان.

عقود. أما قاعدة القبة فيجري في الغالب إخفاؤها كلياً او جزئياً، فينشأ ممّر مسطح او تّراس يمكن المشي فوقه ويحيط بهذه السقوف ذات التراريس حائط منخفض أو حاجز حماية تمشياً مع قانون قديم جداً: «حين تبني بيتاً جديداً، فيجب أن تحمي السقف، فإذا سقط عنه رجل لا تلحق به الأذية أو ينسال منه الدم» (Deut xxii) وتصنع هذه الحواجز في الغالب من الطين أو الصلصال حيث يبلغ قطر القطعة منه ٥ انشات وطولها بين ٨ و١٠ انشات، وقد تصنع او تصفّ وفق أشكال هندسية مختلفة وجميلة؛ كما أن هناك عين ماء حسنة التصميم والبناء بالقرب من بوابة يافا .



منظر لميناء يافا المحاط بالصخور
ومن على سطح منزل سيمون الدبّاغ. والمبنى نمط سائد للعمارة المحلية في بلدات ومدن جنوب فلسطين.

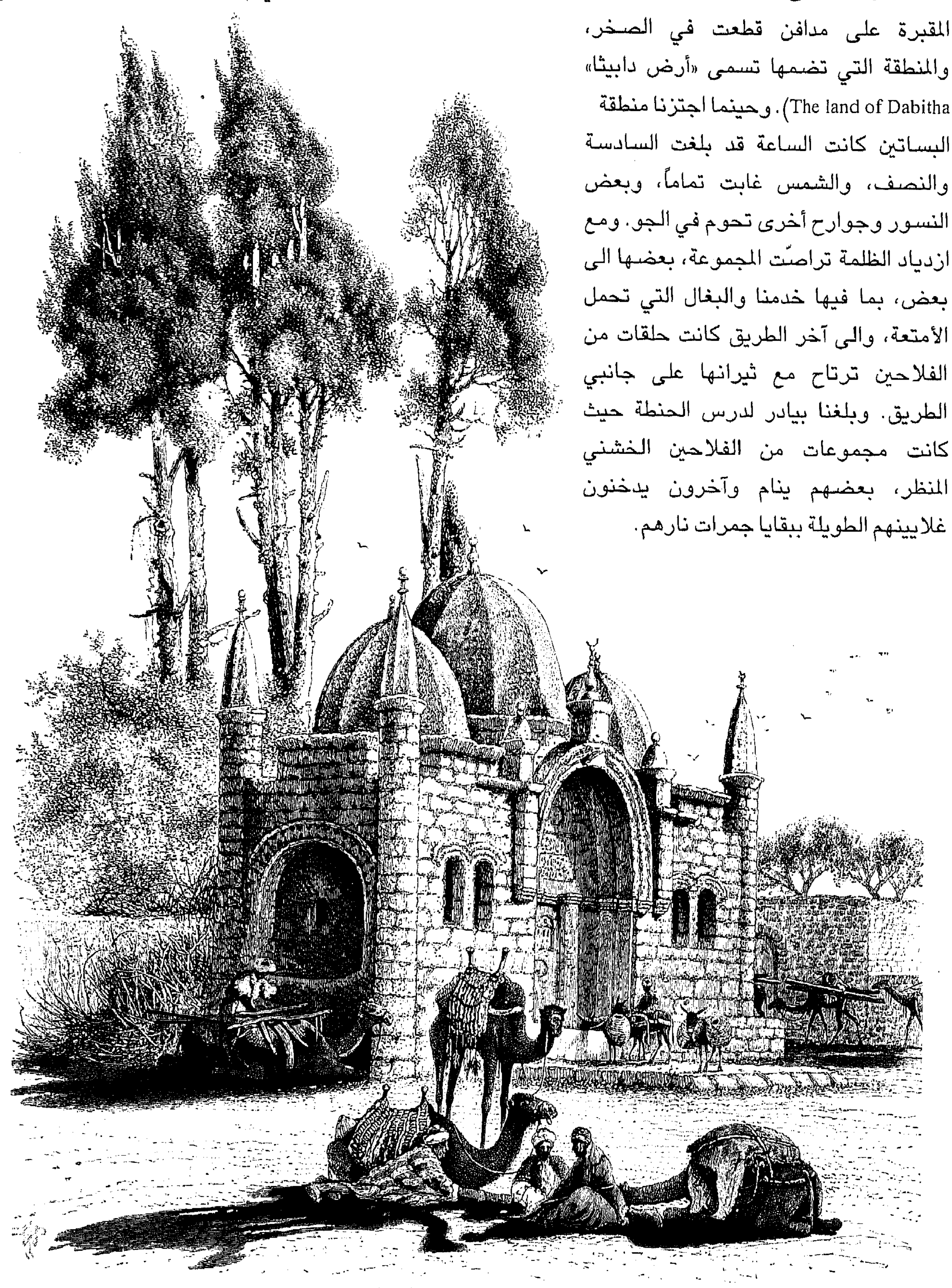
والرحلة من يافا الى اورشليم (راجع ص١٣٧، ص١،ج أ) يمكن ان تجري اليوم بواسطة «الأومني باص Omnibu»، فلا تستغرق أكثر من اثنتي عشرة ساعة، حيث تنطلق يومياً عربتان في الاتجاهين، تحت اشراف مستوطني «جماعة الهيكل». وتراقب الطريق مراكز مراقبة يفصل واحدها عن الآخر ميلان، كما تستخدم أسلاك ومراكز التلغراف على طول الطريق (راجع ص ١٩٥، ج١). أما المسافرون الذين يفضلون الخيل فعليهم الانطلاق من يافا في وقت مبكر من فترة ما بعد الظهر، ثم يقضون الليل في الرملة، وينطلقون في اليوم التالي قبل الفجر الى اورشليم ولم يكن امامي حينما وصلت الى فلسطين سنة ١٨٥٥ خيار آخر غير هذا، إذ لم تكن رحلات العربات قد بدأت بعد.



يافا، جوفا القديمة

واذكر تماماً رحلتي الاولى على طريق يافا. فقد قضينا وقتاً قصيراً في المحجر الصحي قبل ان يرحب بنا بعد ذلك الدكتور خيّاط، القنصل البريطاني في يافا، وليستقبلنا في منزله، مع عائلته؛ وكان منزله رائعاً ذا نوافذ مقوسة عالية تطل على البحر. وقبل انقضاء ذلك النهار من تموز كنّا قد تحركنا، مع الزملاء الرحّالة وسائقي البغال التي تحمل امتعتنا وبدأت رحلتنا للتو. وقادنا رجل كهل فوق طرق وأدراج حادة، وعبر اسواق مكتظة نحو البوابة الخارجية الضخمة وذلك عند الجهة الشمالية الشرقية للمدينة. كانت الساعة قد قاربت السادسة، والظل يغطي الخلاء الواسع خارج البوابة، والشمس قد مالت غرباً نحو البحر، بينما اقتعدت مجموعات من السكان المحليين مصاطب منخفضة أو افترشوا الحصر على الأرض يستمتعون بتدخين غلايينهم، فيما آخرون على خيلهم يروحون ويجيؤن. ركبنا فوق طريق رملي واسع، في اتجاه الجنوب الشرقي، قادتنا الى ممر للخيل بين سياجات من الصبير ذات الأوراق الخضراء السميكة الواسعة بأزهارها الصفراء والتي تعد بموسم طيّب. وخلف السياجات، على الجانبين بساتين البرتقال والليمون والفستق والمشمش واللوز والتوت وقد نضج ثمرها تماماً. اما شجر الرمان فكان لون زهره قرمزياً، بينما اشجار صمغية وأشجار الصنوبر والزيتون والخرنوب قد أزهرت، وارتفعت هنا وهناك مجموعات من شجر البلح تدلت منها عناقيد من الثمار الذهبية.

توقفنا لبضع دقائق قرب ضريح وعين ماء الى جانب الطريق هو «سبيل أبو نبّوت»، الذي كان حاكماً ليافا عند مفتتح هذا القرن. والاسم الدارج للضريح هو «ضريح تابيثا» Tomb of Tabitha (وبدءاً من هذا الضريح) وامتداداً الى الشمال وصولاً الى منطقة البساتين، اكتشفت مقبرة يافا القديمة سنة ١٨٧٤على يدي م. س. كليرمونت غانو. تحتوي المقبرة على مدافن قطعت في الصخر، والمنطقة التي تضمها تسمى «أرض دابيثا» The land of Dabitha). وحينما اجتزنا منطقة البساتين كانت الساعة قد بلغت السادسة والنصف، والشمس غابت تماماً، وبعض النسور وجوارح أخرى تحوم في الجو. ومع ازدياد الظلمة تراصّت المجموعة، بعضها الى بعض، بما فيها خدمنا والبغال التي تحمل الأمتعة، والى آخر الطريق كانت حلقات من الفلاحين ترتاح مع ثيرانها على جانبي الطريق. وبلغنا بيادر لدرس الحنطة حيث كانت مجموعات من الفلاحين الخشني المنظر، بعضهم ينام وآخرون يدخنون غلايينهم الطويلة ببقايا جمرات نارهم.



سبيل ماء على الطريق العام وضريح.
سبيل «أبو نبوّت» او ما يعرف بضريح «تابيثا».

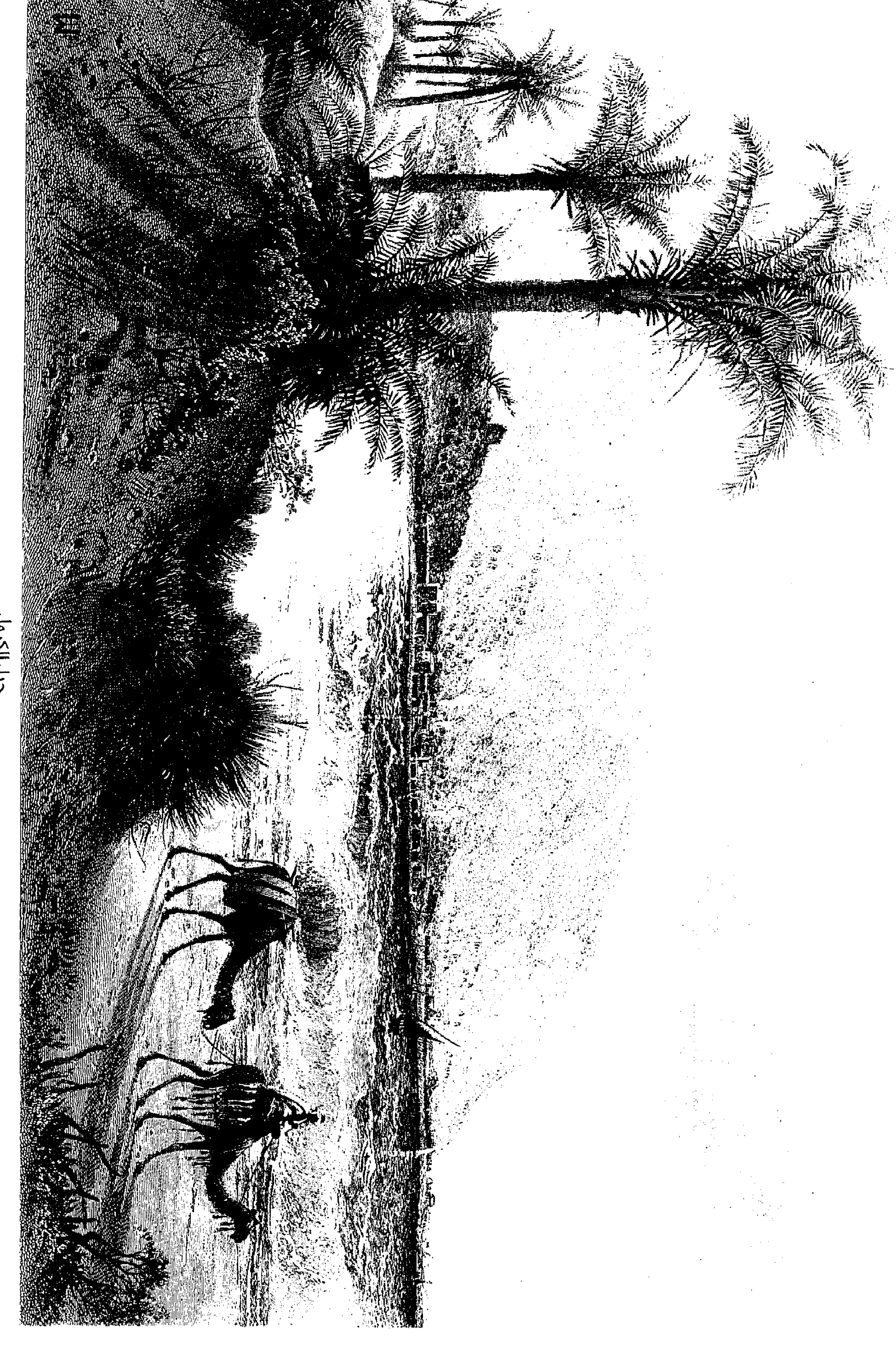
ثم بدا الى جانب الطريق مقام الامام علي، ذي القباب التسع مقفلاً كما يبدو بينما حيطانه المدهونة بالأبيض تلمع في عتمة الليل. يقع المقام قرب بلدة يازور Yazur (راجع الخارطة وص١٤١). وكان يعتقد دائماً ان هذا المكان هو موقع جيزر القديم Gezer (يشوع x33) الى أن تمكن غانو Ganneau، بعد تتبعه أدلة عثر عليها في مؤلف عربي قديم، من تحديد الموقع الصحيح لجيزر، المدينة الكنعانية الملكية القديمة، قرب أبو شوشه Abu Shusheh . وتأكدّ الاكتشاف هذا من خلال العثور في المكان على كتابات محفورة بالعبرية واليونانية.

وتتفرع الطريق، في مكان غير بعيد عن يازور، يساراً نحو اللد (او ليدا القديمة Lydda) إلا أننا تابعنا طريقنا في الظلمة وخلال سهل غير مأهول ولنطّل وقد بلغت الساعة العاشرة على برج الرملة العالي والذي يقف وحيداً فأسرعنا الخطى عبر حقول الزيتون ودخلنا الرملة حيث كان هناك استقبال ودّي بانتظارنا.

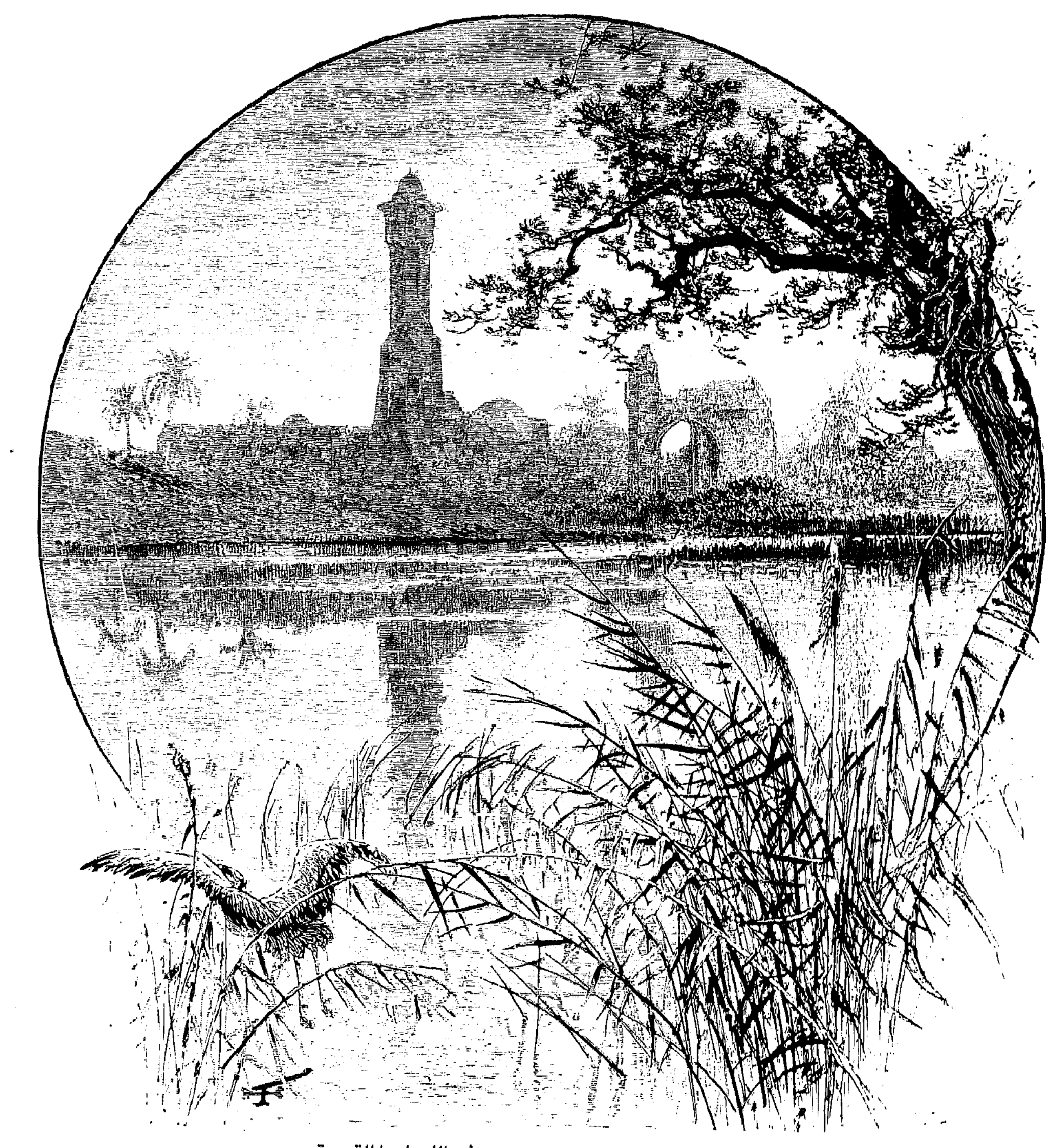
ضريح على اسم الامام علي.
تعلوه قبة كبيرة وثمان أخرى أصغر حجماً، على الطريق بين يافا والرمله قرب قرية يازور.

والرملة كلمة عربية خالصة وتعني الرملي. وبحسب المؤرخين العرب فان المدينة قد أنشئت سنة ٧١٦ م، على يد الخليفة سليمان بن عبد الملك. وقد وردت أول إشارة لكاتب أوروبي عنها في «رحلة برنار الحكيم» حيث دعاها رمولة Ramula، وقد مّر بها في طريقه الى إماووس Emmaus سنة ٨٦٧م، حيث كانت قد غدت كما يبدو

مكاناً مهماً بدليل ان عملات أموية وعباسية عديدة قد صكت هنا. وتصف «مراصد الاطلاع» الرملة بوصفها «العاصمة السابقة لفلسطين» وكانت حدودها تمتد أبعد بكثير من أسوارها الحالية. وتعاقب على امتلاك الرملة الكثيرون ابان الحكم الصليبي. والذين كانوا قد احتلوها بين ١٢٠٤و ١٢٦٦، الى ان استرجعها السلطان ملك الظاهر بيبرس.



جبل الكرمل



آثار كنيسة القديس جورجيوس في اللد، ليدا القديمة.

اللدّ والرملة

يستطيع المسافر الذي بلغ الرملة بعد المغيب، وقد أنهكه التعب، أن ينال أجره كاملاً إذا تسلق برج المدينة العالي عند الصباح وأطل من الأعالي على لوحات جميلة تمتد أمامه.

ورغم أن الشتاء كان قد مرّ قبل حين إلا أن الأمطار هطلت من جديد «فانتعشت أزهار بغير لون، وغنّت العصافير كان صوت السلاحف مسموعاً في الارض ووضعت اشجار التين ثمارها الخضراء بينما بدا أريج دوالي العنب واضحاً». كانت بقايا موسم البرتقال تعطر الجوّ بالنسيم العليل وكان صوت القطعان تعود الى حظائرها مسلياً

وجميلاً بينما العتمة مع نهاية ذلك النهار تزحف ببطء على الحقول والتلال. كانت التربة التي روتها الامطار لا تزال رطبة لم تجففها بعد الرياح الشرقية، بينما برك الماء ترجع انعكاس اشعة اشمس الذهبية الى المغيب. وسنابل الحنطة او حقول شاسعة غير مزروعة يملأها العشب الطويل تترنح الهوينية مع هبوب النسيم بينما تتراقص في سهل شارون ملايين الزهور والشقائق.

كان بالامكان رؤية سهل شارون الخصب بكامله من جبل الكرمل شمالاً الى ليدا، من الهضاب الشرقية حتى زرقة البحر، وكان السهل في هذه الآونة جنة أزهار وأعشاب وألوان رغم ان قليله فقط يبدو مزروعاً. أما في الأزمنة الخوالي فإن كل شبر في السهل كان مزروعاً ويموج بالبشر ومع ذلك فان له في هذه الفترة من السنة، وقبل أن يمحو لهيب الصيف خضرته، ألوانه وجماله وطعمه المحبب.

واذا قيض لك ان تتسلق البرج ثانية في الخريف، فإن منظراً آخر مختلفاً سيكون في انتظارك. فحقول الزيتون في التلال البعيدة قد غطاها الغبار فغدت بلا لون واختفت الأوراق عن أغصان أشجار التوت التي استخدمت علفاً للماشية. وجفت الأرض وباتت كقطعة حديد ولم يبق طير في السماء ولا حتى قشة على الأرض أذرتها الريح. كانت الأشجار والمنازل تميد ببطء تحت وقع الحر الشديد والجمال في البعيد باعدت بين اجسامها وسيقانها على نحو مضحك أو بشع، مع واحات خضراء صغيرة تلطف بها بئر او بركة ماء فظلت اشجارها وأوراق شجرها تلمع خضراء. والقرى التي كانت تعج قبل أسابيع بقرويين من الجبال نزلوا يساعدون في جني المواسم المبكرة قد خلت الان حتى من ساكنيها الذين صعدوا، بدورهم، الى الجبال يساعدون جيرانهم. كانت الحنطة قد جمعت منذ فترة طويلة، فدرست وذّرت، وتكومّت الأغلال على البيادر فنالت الحكومة نصيبها منها ونال ملاّكو الأرض نصيبهم، ونال الدائنون



برج الرملة.
يقال انه مئذنة جامع كبير كان في المكان،
وابتني بحسب لوح فوق البوابة سنة ١٣١٨، الجامع الابيض.

نصيبهم أيضاً، وما تبقّى جمعه القرويون بعناية في صناديق أو أكياس مصنوعة من جلود البقر وحفظوه في أماكن آمنة، فهم يعرفون تماماً معنى القحط أو القلة في السنوات التي قد تأتي. والناس هنا شعب مقتصد يبذلون ما في وسعهم لتأمين معاشهم وحياتهم. الا ان الحظ لا يحالفهم دائماً لا بسبب جشع موظفي الحكومة وحسب وإنما بسبب غارات بدو الصحراء الذين يظهرون بغتة من الجنوب فيحملون الغلال من على البيادر ويعودون أدراجهم من حيث أتوا. هؤلاء يتحدرون على الأرجح من سكان البلاد الأصليين وتذهب تقاليدهم بعيداً في اثبات هذه الحقيقة. فعلى هذه المراعي كان رعاة الملك داوود يجرون قطعانهم، ولهؤلاء كانت كلمات النبي إشعيا (xxxv i,2) :«سوف تزهر الصحراء كما الورد، سوف تزهر بكثرة وتثمر بكثرة، وسوف يفرح ويغني: سوف يؤتى بمجد لبنان الى هنا هي تمام الكرمل وشارون».أما وحشة سهل شارون اليوم واهمال زراعته فمرده الى سياسة الحكومة. فهو ما زال مروياً، وفيه غابات لابأس بها، ولم يزحف الرمل بعد اليه: فتربته هي الاكثر خصوبة، وسكانه راغبون وقادرون ان يملأوه ويزرعوه اذا رفع موظفو الحكومة عنهم وعن غلالهم ضرائبهم وقيودهم التي تتكرر دورياً تحت هذه الحجة أو تلك. وهؤلاء الناس فلاحون وعواطفهم ليست مع الحكام الأتراك، وانما مع المصريين وبوضوح، والذين لهم معهم، كما في الماضي صلات وثقى، ومن مظاهرها الأخيرة عملهم في شق قناة السويس. وكما المصريين فهم يرعون الاشجار المثمرة التي تحيط بسكناهم بأهداب العيون. الماء الضروري لزراعتهم متوفر من آبار لا يزيد عمقها عن ١٠٠ قدم ومن خلال دواليب الماء يدفعون بها بمساعدة الجمال والأحصنة والبغال والثيران والحمير، وذلك حسب غنى الإسرة واتساع الأراضي.

ونهبط البرج لنزور اللد، ليدا القديمة، في ضوء القمر ونمر في الطريق الى اللد بمساحات من نبات الحوذان والزعفران وأزهار برية أخرى ذهب موسم تفتحها ونغوص في حقل من الاعشاب والقصب الطويل يعشش فيه مالك الحزين. ونطل على الآثار الجميلة لليدا Lydda ، مدينة راعينا القديس جورج، والذي ترفع له آيات التكريم والاجلال من المسلمين والمسيحيين في آن. تعرضت الكنيسة التي بقيت آثارها حتى فترة متأخرة مزاراً جميلاً لتقلب الدهور الحكام. وخبر الكنيسة يعود الى سنة ٣١٥ ميلادية على الأقل، حيث كانت ابرشية على اسم القديس جورج، والتي يقال ان بقاياها لا تزال مدفونة تحت الأرض. هدم السراسنة الكنيسة في القرن الثامن، وأعاد الصليبيون بناءها بعد ذلك، ثم هدمها صلاح الدين وأعاد ريتشارد كور دي ليون بناءها من جديد.

إلا أن أهمية ليدا لاتنتج فقط من كونها موقعاً مسيحياً وإنما هي وبخلاف الرملة مكان تاريخي قديم، وان كنّا لا نعرف فترة ازدهار له كتلك التي كانت أيام الرسل. فهنا شفى القديس بطرس الرجل المريض المشلول، وهنا كان يقيم حينما أرسل بطلبه الى جوّفا [يافا]، على مسافة ٩ أميال حينما مات تابثيا. وكانت ليدا قد دعيت في عهد هرديان Her-dian ديوسبوليس (مدينة زيس) ولم تستعد إسمها الأصلي الا تدريجاً ومع مرور الزمن.

ثم نجعل طريقنا صعداً، فوق حقول من السوسن والزعرور والتي لا يستطيع المرء الافلات من أشواكها، فنتسلّق هضبة عالية ولنجد انفسنا وسط آثار أمواس Amwâs (إماوس Emmaus القديمة او نيكوبوليس بعد ذلك) وعلى مقربة من اللطرون. وكانت إماوس Emmaus قد ذكرت في كتاب ماكابيز Maccabees، وعند جوزافس ايضاً، بوصفها موقعاً ذا شأن في أيام أسمونيانوس، إلا أنه يجب عدم الخلط بين إماوس هذه واماوس ليوك (xxiv. 13) مع أن د. روبنسون يميل الى مثل هذا الإفتراض.(راجع ص ١٩٨ ومقاطع من الجزء الأول حيث نوقش موضوع موقع إماوس بالتفصيل) أما اليوم «فأمواس» قرية منعزلة مع أطلال كنيسة. ويمكن من هذا المكان مشاهدة طريق العربات الجديد يتسلق المرتفعات الى القدس.



سهل شارون من برج الرملة



سورا

فيليستيا philistia

فيليستيا او فلسطين («أرض الغريب») هي اليوم ويا لسخرية القدر «الأرض الموعودة» في زعم ذلك الشطرمن الكنعانيين الذي قهره وامتلكه «أبناء اسرائيل».

ويحتمل ان منشأ هذا الإلتباس يعود الى واقع نفوذ الفلسطينيين Philistines في عهد الغراسيين Grecians وسيطرتهم عل الساحل الممتد من يافا الى غزه، مع موانئ جبني Jabneh وأشدود وعسقلان وغزه، بل انهم اخضعوا في وقت ما شعب اسرائيل وأكدوا أنفسهم بوصفهم أصحاب الأرض في الداخل والتي يلجأ أصاحبها إلى الساحل لتسيير تجارتهم. كانت أراضي الفلسطينيين قد امتدت، في زمن انتصار الاسرائيليين على كنعان، من عكا شمالاً الى

غزة في الجنوب (راجع الخارطة)، ومن شاطئ البحر غرباً الى الجبال شرقاً، وكانت هذه الأرض تسمى عادة شيفيلات Shephelath او الأرض المنخفضة Low Country وبدت علاقة الفلسطينيين بسكان الجبال وأمم أخرى من كنعان حسنة للغاية وانضموا اليهم في مقاومة غارات الاسرائيليين. أما كون الفلسطينيين قد استمروا في ابداء المقاومة المنتظمة فذلك عائد، ربما، الى امتلاكهم الخيالة والمشاة الذين كون في وسعهم حماية السهول، وبأعداد لم تتوفر للآخرين.

كانت فيلستيا في تلك الفترة مزروعة بالكامل وذات انتاجية عالية وكانت معروفة بقمحها القاسي وبساتين الاشجار المثمرة وحقول الكرمة الواسعة؛ ولا تزال أرضها الى اليوم تتمتع بسمعة طيبة وبانتاج حسن ولاتزال تصدر الحنطة الى البلاد الاخرى، مع أن مدى هذا الانتاج قد تقلص كثيراً بفعل غزو رمال الشاطئ لأميال عدة في الداخل وغمرها مواقع غير مدينة قديمة. وزحف الرمال هذا هو الخطر الاكبر الآن ويهدد عاماً بعد عام المزيد من الأراضي الخصبة. لقد باتت الرمال تغطّي اميالاً عدة من الأرض الزراعية وليس موجوداً من في يده الحل لهذه المشكلة الخطيرة. فغزة وأشدود مهددتان تماماً وتبدوان عاجزتين عن مقاومة هذا الوحش، أما مرفآهما فقد اختفيا منذ زمن. وطريقة تقدّم وحش البحر الصامت هذا ظاهرة بوضوح. فكل الشاطئ هو الآن عبارة عن كثبان رملية تنحدر بزاوية عشر درجات في اتجاه مهب الريح الجنوبية الغربية، وتنحدر بزاوية ٣٠ او ٣٥ درجة نحو الشمال الشرقي، او الجهة المقابلة؛ وعندما تهب الريح من جهة الجنوب او الغرب يتقدم الرمل الناعم بهدوء تحت ضغط الريح، وحينما يصل الى قمة الكثبان يتساقط ببطء على الأرض التي تليها، ثم يتسلّق منحدراً آخر، متقدماً باستمرار نحو الداخل. وعلى الجانب الشرقي من فيلستيا وحش آخر يعمل تدريجاً على تدمير الأرض الزراعية وتجريدها من خصوبتها القديمة، ويتمثل ذلك في واقع التعرية المتزايدة للتلال بحيث ان الكثير منها هو الان صخور جرداء، وذلك من خلال تساقط مدرجات الكرمة والفاكهة التي تدعم التربة في هذه التلال مما يؤدي الى إنحراف سريع للتربة. أما في قعر الأودية فلا تزال هناك أحزمة ضيقة من الأرض الزراعية الخصبة وقادرة على الانتاج الوفير، حين لا تتهددها الانهيارات او السيول الزاحفة من التلال المقابلة أو حين لا يحرقها وهج الشمس الضاربة على تلك الصخور المتدليّة.



الحراثة في سهل فيلستيا
قريباً من تل الصافي، وتستمر الحراثة حتى نهاية نوفمبر

ليست فيلستيا الآن، على الاطلاق، في الحال الذي يجب ان تكون عليه. يمكن القول عموماً انها تنقسم الى شطرين : الاول هو السهول المتموجة بعرض يصل الى حوالي ١٢ ميلاً وتحاذي شاطئ البحر، وترتفع من ٥٠ الى

١٠٠ قدم فوق سطح البحر وتتألف من هضاب منخفضة متشابهة عموماً وتختلط تربتها بطمي غني جداً. وعلى هذا الشريط نشأت وتوسعت عكا وجبني Jabneh ومجدول Migdol واسترود وعسقلان وغزة، مدنٌ ابتنيت لمناسبات عزيزة، وجعلت لعبادة الالهة القديمة (إلهة السمك) وتمتد بين هذا الشريط الساحلي المتموّج والمنطقة الجبلية في جودا Judah منطقة التلال في فيليستيا تترامى من الشمال الى الجنوب وبعرض يتراوح بين ١٠ او ١٥ ميلاً. يتألف هذا الحزام من سلسلة من الهضاب والتلال ترتفع بين ٥٠٠ و ٨٠٠ قدم فوق سطح البحر تقطعها بين الحين والحين وديان واسعة، لكنها تبقى بعيدة عن المنطقة الجبلية في جودا، حيث ترتفع الجبال، الى ٢٠٠٠ أو ٣٠٠٠ قدم وتطل على مناطق واسعة من فيليستيا. ويغلب على هذه الجبال، كما رأينا، المناطق الصخرية التي تعرت من تربتها التي ترسبت في الوديان. ومع ذلك فالمنطقة ليست معراة أو مهجورة، بل إن الفلاحين وبعيداً عن أعين الحكم التركي قد استصلحوا واعتنوا بالكثير من البساتين والحقول المتناثرة هنا أو هناك.

هذا الطابع الذي يغلب على معظم انواع الحكم التي تعاقبت على فلسطين ولقرون هو الذي سمح لنا والى حد كبير، باعادة اكتشاف الكثير من المواقع القديمة التي تضمنتها الكتب التي تروي عن احتلال الاسرائيليين للبلاد قبل أكثر من ٣٠٠٠ عام.

لقد كانت تلك الارض على الدوام مسرح قتال بين الأمم، ومضى من زمن بعيد العهد الذي كان في وسع البلاد ان تشهد فيه الاستقرار وأن تطوّر مصادر ثروتها وتقدمها، ولم تنته الأمور إلاّ الى ما هي عليه الآن من فقر وبؤس، مع تغييرات تكاد لاترى خلا حال التخلف التي تعمّ البلاد.

وفي وسع السكان اليوم، احفاد السكان الأصليين، ان يشيروا بوضوح الى المواقع والاثار القديمة، كما انهم يحفظون تقاليدهم القديمة، ويستطيع المرء اليوم أن يذهب في طول البلاد وعرضها يحمل الانجيل في يده ويتعرف على الأماكن أو المواقع المذكورة فيه. وهذا الكلام هو أكثر صحة في ما خص الأماكن الثانوية، مثل البلدات القديمة في فيلستيا، والتي لم يلحقها تغيير كبير مثل الذي لحق بالأماكن الأساسية والمدن الكبيرة، مثل غاث Gath وعسقلان وغزة والتي كانت عرضة لأكثر من حصار مع ما يتبع ذلك من تدمير. وفي أماكن كثيرة اخذ الفلاحون حجارة الآثار وأحالوها كلساً، أو نقلوها الى مواقع أخرى، كما في عسقلان، حيث كانت المراكب تحمّل بتلك الحجارة المتقنة التشذيب وتؤخذ لاعادة بناء عكا او صيدا؛ ومع ذلك فان اثار تلك المدن ما زالت في الأمكنة عينها عموماً ويغطيها الركام أو هي نقلت لبناء منازل الفلاحين.

ويمكن عند اقدام الجبل المطل على جودا* خلف الطرف الشمالي الشرقي لتلال فيلستيا، مشاهدة موقع زورا Zo-rah المكان الذي ولد فيه شمشون Samson ابن مونوه Monah ويدعى المكان اليوم سورا Surah وهي على الضفة الشمالية من وادي السُرار، عند أعالي نهر روبين.

كانت سورا تمثّل مركزا أمامياً للإسرائيليين على رأس القوس المؤلف من التلال المشرفة على وادي سراق (وادي السرار) في مواجهة الفلسطينيين مع انحراف طفيف الى الشمال الشرقي نحو مدن قبيلتي دان Dan وجودا Judah. يصل ارتفاع سورا الى ١١٧١ قدماً عن سطح البحر، وتطلّ على الجانب المقابل من الوادي حيث كان الفلسطينيون يتمركزون ويملكون الاراضي. ويمكن من موقع سورا المركزي هذا اعادة رسم تاريخ شمشون والحوادث اللاحقة. فاذا نظرنا عبر الوادي نحو التلال المقابلة في الجهة الجنوبية الغربية يمكننا مشاهدة آثار تيمناث القديمة Timnath، والتي تدعى اليوم «تبنه» حيث كانت خطيبة شمشون من الفلسطينيين؛ وفي اسفل الوادي نفسه لجهة الجنوب تقوم اثار بيت شاميش Beth-Shemesh والتي جلب اليها تابوت العهد من عكّا محمولاً على عربة بدولابين تجرها الثيران؛ واذا تطلعنا نزولاً نحو وادي سراق يمكننا اعادة رسم خارطة الطريق التي جرّت فوقه العربة. كان شمشون، الذي نشأ بين

*هي يهودا لكننا اخذناها كما وردت لفظاً عن الانجليزية(م).

تلال سورا واشكول واوديتهما (يشوع xix, 41)، وعند المنحدرات الحادة لجبال جودا، وفي الوقت الذي كان فيه الفلسطينيون يبسطون سلطتهم على اسرائيل وذهب من زورا Zorah عبر وادي سراق الى الجزء المقابل من الوادي حيث يعيش الفلسطينيون الى تيمنات حيث اختار فتاة فلسطينية زوجة له. وهاجمه اسد في حقول الكرمة في تيمنات فأرداه صريعاً كما أردى حملاً وبيديه العاريتين ووجد في أثناء عودته قفيراً من النحل والعسل في جمجمة الأسد. وبدا ذلك كله لغزاً محيراً للفلسطينيين الذين شاركوه وليمته. لكنهم اهتدوا الى السر ومن خلال زوجته. واهتاج شمشون فذهب عبر التلال



تبنى او موقع تيمنات القديمة.

الى عسقلان وذبح ثلاثين فلسطينياً، وسلخ جلودهم، ثم هجر زوجته وصعد الى زورا. ثم جهز بعد حين، وفي اثناء موسم حصاد القمح هدية لزوجته في محاولة لاستعادة الود معها، الا انه وجد ان زوجته قد تزوجت من شخص آخر، فقرر آنذاك الانتقام، فجمع ثلاثمائة ثعلب وربط كل اثنين منها معاً ووضع بينهما جمراً، ثم اطلق الثعالب بعدما اشعل الجمر، على غلال الفلسطينيين فأحرقتها جميعاً ومعها كروم العنب وبساتين الزيتون. والحنطة في فيلستيا تمتد وفي اثناء الموسم الى ما لانهاية، اميالاً خلف اميال في السهول والاودية وفي مدرجات الهضاب، وتكفي جمرة غضب لإشعالها كلها. ويمكن للنار أن تمتد إلى كل أرض فيلستيا وتؤدي بالناس الى مجاعة ويبقى السؤال حول مدى تأثير انتقام شمشون إذاك على شعب اسرائيل. أيمكن الاعتقاد أنهم كانوا يعيشون في الهضاب العالية وانهم ربما كانوا قد



عين شمس او موقع بيت شاميش القديمة.

نجوا من تلك الكارثة. وليس بعيداً عن ذلك اتخاذ السكان اليوم، وفي أثناء موسم الحصاد، الاجراءات الضرورية كلها لمنع حدوث حريق، أو ما شابه.



وادي سراق



ضريح الشيخ سماط في سورا
على قمة التل، وتحته الجزء الاعلى من وادي سورا

والرواية الثانية التي نوردها حدثت في القسم الجنوبي من فيلستيا وتتعلق بنقلات تابوت العهد بعد سقوطه في أيدي الفلسطينيين عند بن عازر قرب إفيك Aphek، وبعدما قتل أبناء إيلي. أخذ التابوت من الجبال عند بنعازر تقريباً الى اشدود في السهل، ثم جلب الى بيت داغون Dagon. ووجد شعب اشدود في الصباح ان إلههم، داغون قد سقط الى الارض على وجهه، فأخذوه وأجلسوه مكانه، بعدما ادخل الأمر بعض الاضطراب في نفوسهم. وفي الصباح التالي كان داغون مرة أخرى الى الأرض وعلى وجهه أمام التابوت، وكان هذه المرة مكسوراً فاضطرب سكان اشدود والمنطقة المجاورة ايما اضطراب ورأوا ذلك نذير بلاء عظيم. ودعا السكان، وقد رأوا ان ما حدث هو نتيجة وجود التابوت بينهم، الى مجلس سريع وقرروا نقل التابوت عبر السهل الى غاث عند أسفل التلال. جزع أهالي غاث لوجود التابوت عندهم، فأرسلوه الى عكّا ودب الفزع في عكّا



اثار حصن اللطرون، من أمواس Amawas .

وكان هناك دمار قاتل في المدينة وكانت يد الله قوية فوقهم. وبعدما بقي التابوت سبعة أشهر بين أيدي الفلسطينيين، ودعا هؤلاء كهنتهم وسألوهم ماذا يفعلون بالتابوت وكيف يتخلصون منه؟ فقالوا لهم أن يضعوا عربة جديدة وأن يأتوا ببقرتين بكراً لم يأت على كتفيهما نير، وأن يربطوا العربة

بهما ويتركوهما على مفترق طرق. فعل الفلسطينيون ذلك كله، فأخذوا التابوت على العربة من عكا الى مكان تتفرع منه ثلاثة طرق وتركوه هناك. وبدلاً من ان تعود الابقار الى معالفها او تذهب الى سهول فيلستيا، تحولت صعداً باتجاه وادي سراق ومرت بين تيمنات وزورا لتصل الى مقابل بيت شمس (صموئيل، vi, 12) عند الجانب الجنوبي من الوادي ثم الى ايدي الاسرائيليين. وكانت بيت شميث ضاحية اقتطعت لابناء هارون Aaron وكان الناس يجمعون مواسمهم في الوادي عندما رفعوا انظارهم ليروا

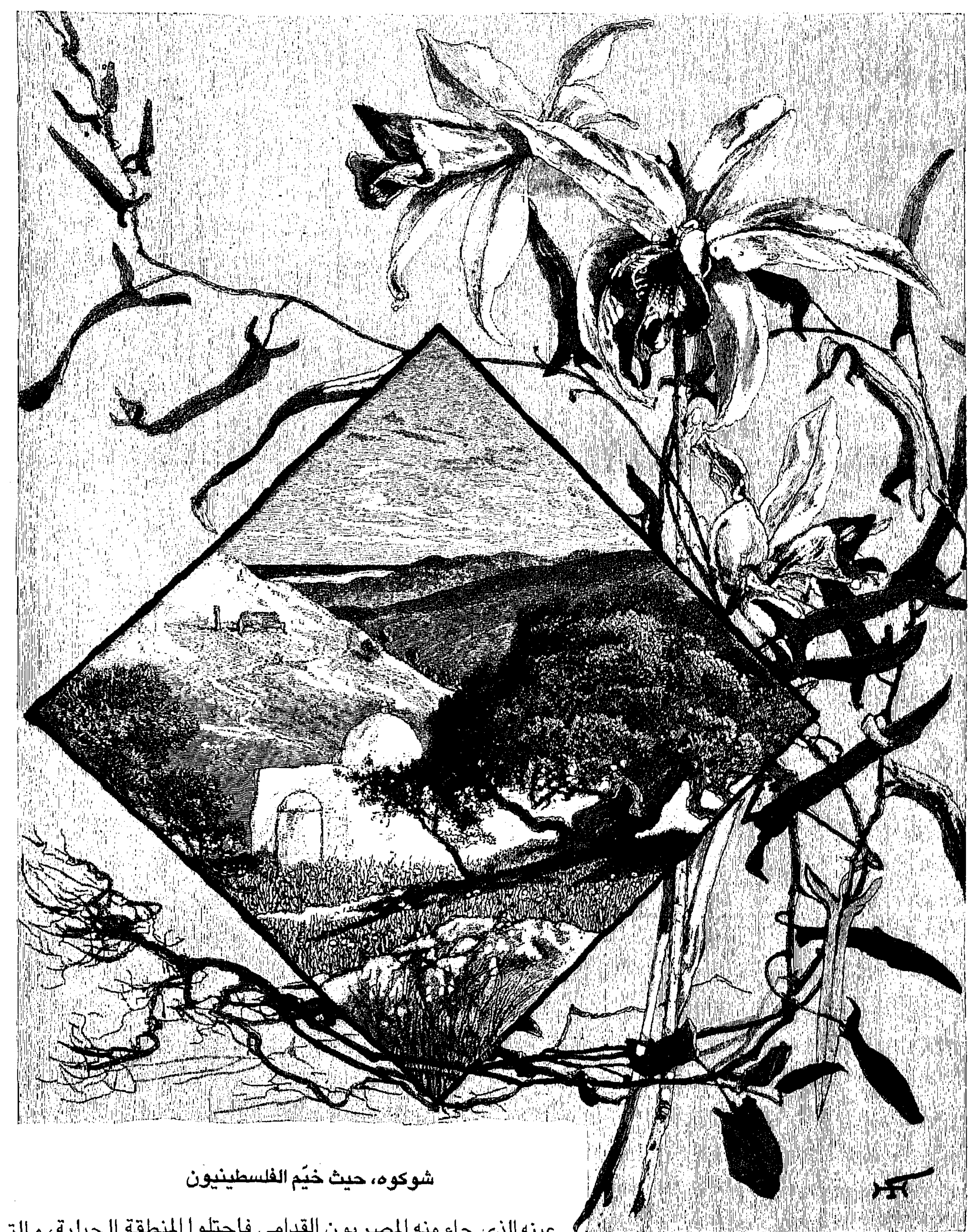


تل الصافي، الموقع المفترض لغات
وهي تل منعزل يبعد ١٦ ميلاً عن الشاطئ. وضريح الخضر على أعلى قمته، تعلو ١٦٩٣ قدماً فوق سطح البحر.

التابوت يقترب، وعندما بلغت العربة حقل جوشوا انزل اللافيتز Levites التابوت فقدموا الأضاحي والهدايا للإله. تبع سادة الفلسطينيين الخمسة التابوت حتى حدود بيت شميث وعندما رأوه يقع في ايدي الاسرائيليين عادوا الى عكا على الفور. عانى سكان بيت شميث ما عاناه الفلسطينيون لأنهم نظروا الى تابوت الرب، فبعثوا الرسل الى شعب كرجات جيريم، على بعد حوالى ١٠ أميال شرقاً في جبال جودا. أتى رجال كيرجات جيريم ونقلوا تابوت الرب من بيت شميث. وغدت بيت شمس بعد فترة مسرح صراع بين جيهوش Je-hoash، ملك اسرائيل، وامازيا، ملك جودا،Juduh، وأخذ ملك جودا اسيراً (راجع الملوك B. XIV وجوزافس Anf chapix) وسقطت بيت شميث بعد ذلك، في ايام الملك أهاز في أيدي الفلسطينيين (السجلات xxviii,18). وبيت شميث هي اليوم عين شمس، ولكن لا عين فيها الآن.

وأحد أكثر الأحداث أهمية في التاريخ الأول للاسرائيليين في فلسطين هو ذلك القتال بالأيدي At arms بين غوليات غات وداوود الشاب في وادي الإله Wady of Elah . هذا الوادي الذي يدعى اليوم السّر او السنت، عند بداية جبال جودا،

قرب حيرون Heron ثم يهبط سريعاً الى الشمال فاصلاً جبال جودا عن تلال فيلستيا ناحية الغرب. وبعد حوالى عشرة اميال يستدير غرباً؛ ويمر بالوادي عند هذه النقطة الطريق الرئيسي الذي يصل غزة باورشليم، وهو الطريق



شوكوه، حيث خيّم الفلسطينيون

عينه الذي جاء منه المصريون القدامى فاحتلوا المنطقة الجبلية، والتي يأتي منها اليوم البدو لشن إغاراتهم المفاجئة على القرى الجبلية.

والوادي عريض الى حد كبير، مع تلال موازية متقابلة على جانبيه لكن الوادي يغدو بعد شوكو (شويكي) الى اليسار، ضيقاً ثم يضيع في وهدات ومنخفضات الى ان يدخل السهل قرب تل الصافي. ويحتوي «وادي البطم» اليوم على

إحدى اكبر شجرات البطم في فلسطين، قرب شوكو (شويكي) وهي ترتفع ٥٥ قدماً وقطر ظلها يصل الى ٧٥ قدماً، ومحيط جذعها ١٧ قدماً. وفي قعر هذا الوادي سهل خصب جداً، قرب شوكو، فيه حقول حنطة وفي السهل هذا حدثت المواجهة بين داوود وغوليات، بينما الفلسطينيون على جانب من الوادي والاسرائيليون على الجانب الآخر، والوادي بينهما. قدم شعب اسرائيل من الجبال وكانوا على الجانب الشمالي الشرقي بينما تمركز الفلسطينيون الذين جاءوا من السهل على الجانب الجنوبي الغربي، وكان الجيشان أحدهما في مواجهة الآخر. وكانت غات، المعروفة بعمالقتها، قد اعطت الفلسطينيين بطلاً اسمه غوليات، طوله ١٠ اقدام. ويحميه درع طويل، وفوق رأسه غطاء من نحاس صلب، وكان رأس حربته يزن ٦٠٠ شاقال حديداً. وظل الجيشان لأربعين يوماً في مواجهة بعضهما البعض، ولاربعين يوماً ظل غوليات ينادي جيوش اسرائيل: «انا هازم جيوش اسرائيل اليوم، اعطوني رجلاً يستطيع ان يقاتلني» وكانت كل اسرائيل في خوف كبير، لإن الرجل الذي يستطيع مواجهة غوليات غير موجود (صموئيل xvii).

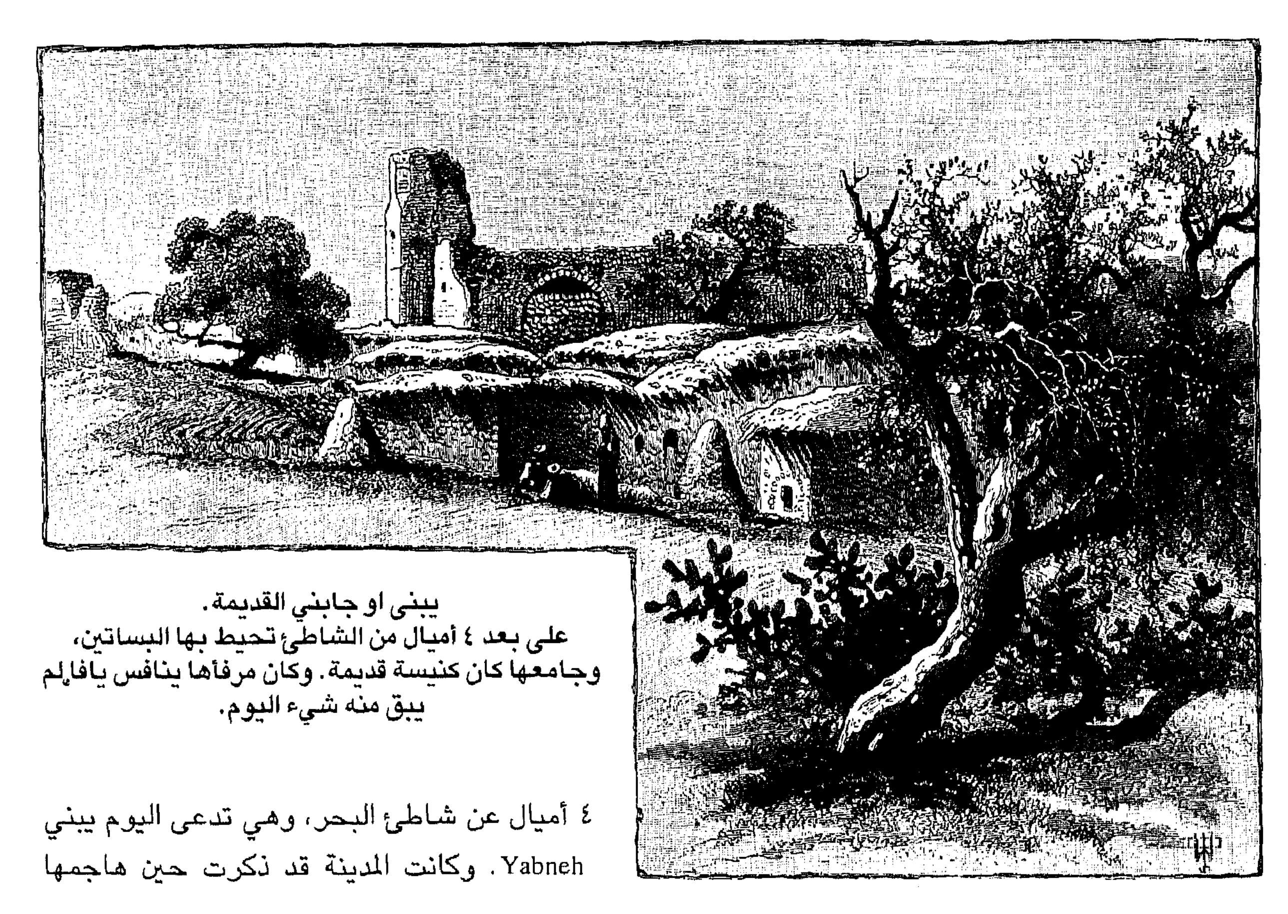
وبينما كان شعب اسرائيل «جزعاً يمتلكه الخوف» وصل الى معسكرهم داوود الشاب، الذي سأل، بعدما سمع بتحدي غوليات، عمّا سيقدّم لمن يقتل الفلسطيني ويبعد الخطر عن شعب اسرائيل، فقيل له ان الملك سوف يجعله ثرياً ويعطيه ابنته ويجعل بيت ابيه حراً في إسرائيل. وجلب داوود أمام صول Saul متعهداً بقتل الفلسطيني ولم يكن في ذلك مخاطرة بحياة داوود فحسب، وانما بكل شعب اسرائيل لإنه لو فاز الفلسطيني فسيكتب على شعب اسرائيل ان يكونوا خدماً للفلسطينيين. كانت المهمة جسيمة ونتائجها حساسة، بحيث أن صول لم يكتفِ بتعهد داوود بل طلب دليلاً على قدرته وكفاءته فعدّ داوود له مآثره، ومنها قتله اسداً ودباً، فقبل صول دليله واجازه بطلاً لمقابلة تحدي الفلسطيني. يشير هذا الجو بوضوح ان شعب اسرائيل كان على شفا كارثة، وربما مستعداً للاستسلام، والاّ فكيف نفسّر قبوله هذه المخاطرة بتسليمه مصيره لبطل غير معروف نسبياً ولا يزال شاباً على التمرس بفنون القتال؛ لكن في الواقعة جانباً آخر كذلك فسماحهم لداوود ان يذهب للنزال دون سلاح انما هو دليل ثقة بآله اسرائيل. من الواضح، اذاً ان الشعب عموماً مازال على ايمانه بالههم، وكانوا على ثقة بأن داوود هو رمز مساعدة الرب لهم: «وأخذ داوود من جعبته حجراً، وبعد ما راوغه قليلاً رماه به على جبهته فخر صريعاً. وعندما رأى الفلسطينيون بطلهم قتيلاً فرّوا، فطاردهم الاسرائيليون حتى غات وعكا وغنموا خيمهم وما فيها» ويمكن اليوم، وفي نفس الموقع اعادة رسم وقراءة ما حدث ويمكن تعيين كل الامكنة التي شهدت تلك الاحداث، فالمواقع القديمة مازالت قائمة وعادات السكّان هي كما في الايام الخوالي. كما انه ليس استثناء ان تجد غير راع اليوم يستطيع ان يرمي بمقلاعه العصافير على بعد ياردات.

ويعتقد عموماً ان مدينة غات الملكية كانت تقوم على تل عالٍ يدعى اليوم «تل الصافي»، والذي بنى فوقه الملك فولك Fulke قلعة حصينة، «بلانش غارد»، اثناء الحقبة الصليبية. يقع التل على بعد ١٦ ميلاً عن البحر، عن طرف احد امتدادات تلال فيلستيا، قبل ان تدخل في السهول الساحلية. حملت غات في العصور الوسطى اسم ألبا سباكيولا Alba Specula ، بسبب بياض المنحدر الكلسي الذي يحيط بها وبسبب من إطلالها على مسافة أميال عدة نحو الجنوب الغربي، وكانت غات الحصن الاكثر قوة لدى الفلسطينيين وتتحكم بنهاية وادي البطم، حيث يمُر الطريق الرئيسي نحو القدس. لا تذكر غات كثيراً الا في ما أتصل بالمدن المهمة الأخرى عند الفلسطينيين، وعرفت بكونها مكان استراحة الملك داوود وبخاصة اثناء فترات الاضطراب. هنا وبسبب الخوف أشيش Ashish تظاهر بالجنون وخربش على بوابات المدينة، وهنا كذلك استقبله بالتبجيل، بعد سنوات، الملك الفلسطيني. ومن غات خرج أكثر تابعي داوود اخلاصاً وصداقة وهو إيتاي الجيتيتي Ittai the Gittite (صموئيل xv.19-23). وحين اعيد بناء غات تحت اسم بلانش غارد، كان لها الدور البارز في حروب الصليبيين، وكانت شاهداً على بعض أهم أنجازات ريتشادر بلانتجيني R. plantagenet ضد السراسنة* Sar-acens الذين كانوا يغزون السهل. يرتفع التل الذي كانت تقوم فوقه غات ٢٠٠قدم عن السهل المجاور والمحيط به وهو من دون شكل محدد أو منتظم، ويقوم فوقه الآن مزار وليٍّ وحوله بقايا القلعة القديمة واحجار ضخمة متناثرة على

*السراسنة هم القبائل السورية ـ العربية الاسلامية التي كان لها دور دائم في الاغارة على المراكز الصليبية، وقد ابقينا المصطلح كما هو في الاستخدام الغربي[م]

جوانب التل. ويبدو جلياً من ضخامة الركام المتساقط هناك والذي يغطي التحصينات القديمة ان التل كان محاطاً بأسوار وبخندق مائي، وهناك، كما في أمكنة أخرى، أحواض ماء حسنة التصميم، وما زالت الكروم الى اليوم تتمدد فوق المدرجات بينما تتوزع اشجار الزيتون على جوانب التل. وفي الوادي والسهل المحيط مساحات واسعة مزروعة بالحنطة وعلى مدى النظر، بحيث أنك تجد كل السكان في منتصف حزيران، في الحقول يجمعون الحصيد وينقلونه الى البيادر.

واذا عبرنا سهول فيلستيا المرتفعة قليلاً نصل على بعد حوالى ١٨ ميلاً من غات الى موقع جبني Jabneh القديمة، وهي احدى مدن الفلسطينيين تقوم على بعض ارتفاع عند الجانب الشرقي لوادي سُراق (وادي سُرار) وتبعد حوالى



يبنى او جابني القديمة.
على بعد ٤ أميال من الشاطئ تحيط بها البساتين، وجامعها كان كنيسة قديمة. وكان مرفأها ينافس يافا، لم يبق منه شيء اليوم.

٤ أميال عن شاطئ البحر، وهي تدعى اليوم يبني Yabneh. وكانت المدينة قد ذكرت حين هاجمها يوزايا، ملك جودا، وهدم أسوارها؛ وكانت قد ذكرت عند جوزافس باعتبارها مدينة مسوّرة؛ إلا أن أهميتها إنما برزت مع حصار تيتوس لأورشليم حينما أصبحت مقراً للعديد من افراد السنحادرين* (Sanhedrin)، كما انها كانت خلال القرنين الاول والثاني من عهدنا مدرسة لاهوتية وفقهية كبرى لليهود. كان السنحادرين قد تجمعوا اولاً في «بلاط اسرائيل»، في الهيكل في القدس، ولكن ومع الحصار، سمح لهم تيتوس بالانتقال الى جبني بأمرة الغماليل Gamaliel سنة ٧٠ للميلاد. واكتسبت هذه المدرسة، بعد دمار الهيكل سلطة كبيرة على اليهود الذين بقوا في فلسطين وذلك تبعاً لمركز ومكانة الغماليل المثقفين وافراد أُخر من السنحدريين الذين بقوا هناك وكان لها الدور الكبير في منع انقراض اليهود كأمة وأبقت في عقولهم حلم عودة المسيح.

كان تأثير الحاخامات Rabbins على عقول الناس في هذه الفترة كاملاً ليس في الشؤون الطقسية واللاهوتية وحسب، وانما في سائر شؤونهم المحلية. وشعر الرومان بذلك وتيقنوا أنهم لم ينجحوا في استمالة اليهود نحو الامبرطورية او دمجهم في كيانها؛ وعليه فقد صدر في مطلع عهد هدريان مرسوم أريد منه قمع اليهودية ونزع كل

*هم أفراد المجلس الاعلى عند اليهود القدامى[م]

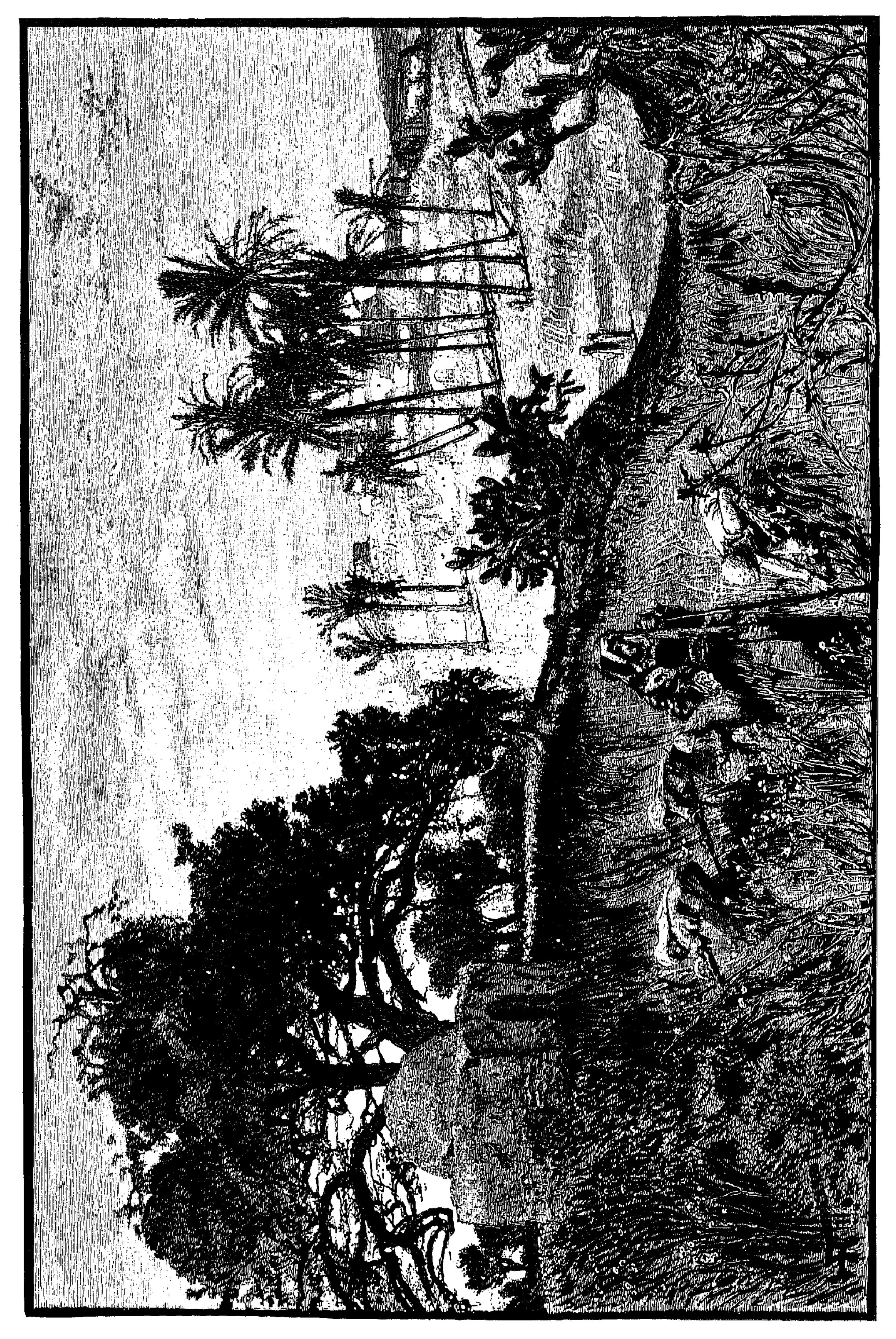
سلطة من ايدي الحاخامات. فقد قيدّت كل الاحتفالات والممارسات اليهودية، واعلنت اورشليم مستوطنة رومانية، وأقيم في موقع «الحرم المقدس» هيكل لجوبيتر.

عاش حاخامو جبني (يبني) الالغاء التام لمدارسهم ولحياتهم الخاصة كيهود، من جهة، لكنهم احتفظوا من جهة ثانية بحلم الفوز على الرومان في صراع الطرفين غير المتكافئ وكانت تلك اللحظة بالذات لحظة اعلان الوعد بظهور المسيح. فالنجم الذي يجب ان «يخرج من يعقوب» قد لاح الآن، وهو سوف يحكم اليهود ويمنحهم القوة والمجد. وكان اسمه باركو شابا Barrochaba (ابن النجم) يحقق الرؤية. كان رجلاً على قدر كبير من العزم، وقد أقر الحاخام الأكبر والواسع الثقافة أكيبا انه المسيح. وبدأ التمرد سنة ١٣٠ للميلاد. واجتمع اليهود تحت قيادته من كل انحاء العالم، وكان كل الجنس اليهودي في حال هياج لإنباء ظهور الرؤيا. وتقدم باركوشابا على رأس جيش كبير من المتمردين، وكان نجاحه في البدء عظيماً، والى الحد الذي تمكن معه من احتلال اورشليم فبقي فيها ثلاث سنوات. ويقال أنه قاد جيشاً قوامه مئتا الف رجل مقاتل، ومع ما في الرقم من مبالغة، إلا أنه يبقى الدليل على صحة ما يورده سترابو عن عدد السكان العظيم الذي كان يسكن حول جبني ومن أن تلك المنطقة كانت تستطيع، في زمنه، تجهيز ٤٠ الف رجل. وأما بقية الرواية ومصير باركو شابا فمعروفان، فقد هوى نجم ذلك «المسيح الدجّال» بسرعة والى الابد، حتى ان اسمه قد اصبح لدى المتأخرة باكوسبا (ابن الكذّاب).

بعد انتهاء التمرد الفاشل تعرّض الحاخامون في جابني لقمع بربري من قبل الرومان، باعتبارهم المحرضين على التمرد، فمنعوا من ملأ الفراغات في مجلسهم الأعلى، وهو أمر تمكنوا من المراوغة فيه. وبمناسبة تولي انطونيوس الشاب العرش، بعد وفاة هدريان، سمح للحاخامين بإعادة تأسيس كُنسهم وإعادة فتح مدرسة جابني، ولكن وبعد تصرّف أحمق من الحاخام سيمون بن جوكاي حيث انتقد علناً السلطات الرومانية، اعيد اقفال المدرسة، ونقل اعضاء المجلس الاعلى الى امكنة متباعدة في فلسطين. ويؤكد بنيامين التوديلي Benjamin of Tudela أن آثار هذه المدارس كانت موجودة في أيامه (١١٦٣ م). وقد ابتني في المكان، أيام الصليبيين، حصن دعي إبلين وكان ذلك لأغراض دفاعية لا علاقة لها بالتاريخ التوراتي.

تحوّلت جابني الى مركز إبرشية، وكنيستها التي تعود للعصر الوسيط هي الآن جامع محمّدي. وفي موقع جابني تقوم الآن بلدة عامرة، يبني، يصل عدد سكانها الى حوالى الألفين، ومعظمهم من المحمديين، أما على الشاطئ على بعد نحو أربعة أميال، فلا تزال تقوم آثار مينائها، او «ما جومها»، القديم الذي ذكره بليني. واذا تقدمنا من الميناء جنوباً على طول الشاطئ فإننا سنلاحظ شيئاً يلفتنا والى عدة أميال. فاراضي فيلستيا الخصبة، وعلى مسافة ثلاثة او اربعة اميال، مغطاة بكثبان الرمل الزاحفة أبداً، وبعمق يصل الى ثلاثين أو أربعين قدماً، تتحرك شرقاً بفعل الريح التي تهب من جهة البحر وتهدد مناطق واسعة في الداخل اذا لم تتخذ الاجراءات الكفيلة برد هذا الشر المستطير. وانه الأمر مأساوي حقيقي أن تمر فوق أراض كانت تضج ذات يوم بالسكان ولتجدها الان قفراً بلقعاً خالياً من كل بشري خلا كوخ فلاح هنا أو هناك بين الكثبان التي قد تأتي عليه غداً او بعد غد. لقد كافح من بقي من الفلاحين حتى النهاية إلى ان غلبهم هذا الوحش واحداً بعد الآخر، فتركوا أرض أجدادهم. وقد بلغ طغيان الرمل في حالات معينة كل مبلغ ولم يبق شيء من الارض الزراعية وبات جل شغل الفلاحين حماية بضع شجرات مثمرة من الدمار الكلي. وكأنما الثمار اللذيذة لتلك الشجرات المفردات هي سلوى تلك الكثبان، هنا أو هناك.

ونصل بعد مسيرة حوالى ١١ ميلاً على طول الشاطئ الى بلدة مبنية من حجارة الصخر الرملي تقوم على الموقع الذي كانت تحتله اشدود القديمة ومرفأها، والتي لم يبق منها شيء ظاهر. واذا تقدمنا خمسة أميال أخرى جنوباً مع الشاطئ فنلاحظ ان الشاطئ المنخفض يبدأ بالارتفاع تدريجاً ليصبح بعد حين شيراً حاداً، يزداد عنفاً كلما تقدمنا جنوباً، والذي تقوم عليه آثار «عسقلان البحرية». إلا أننا وقبل الحديث عن عسقلان، نحول أبصارنا نحو المجدل الحديثة Mejdel، ميجدول القديمة، غاد Gad الفلسطينيين، او حتى مجدالا Magdala التي ذكرها هيرودس (xi 159) في معرض روايته لهجوم فارونيسو براً على السوريين وانتصارهم عليهم. والمجدل اليوم هي مقر سلطة المنطقة حول

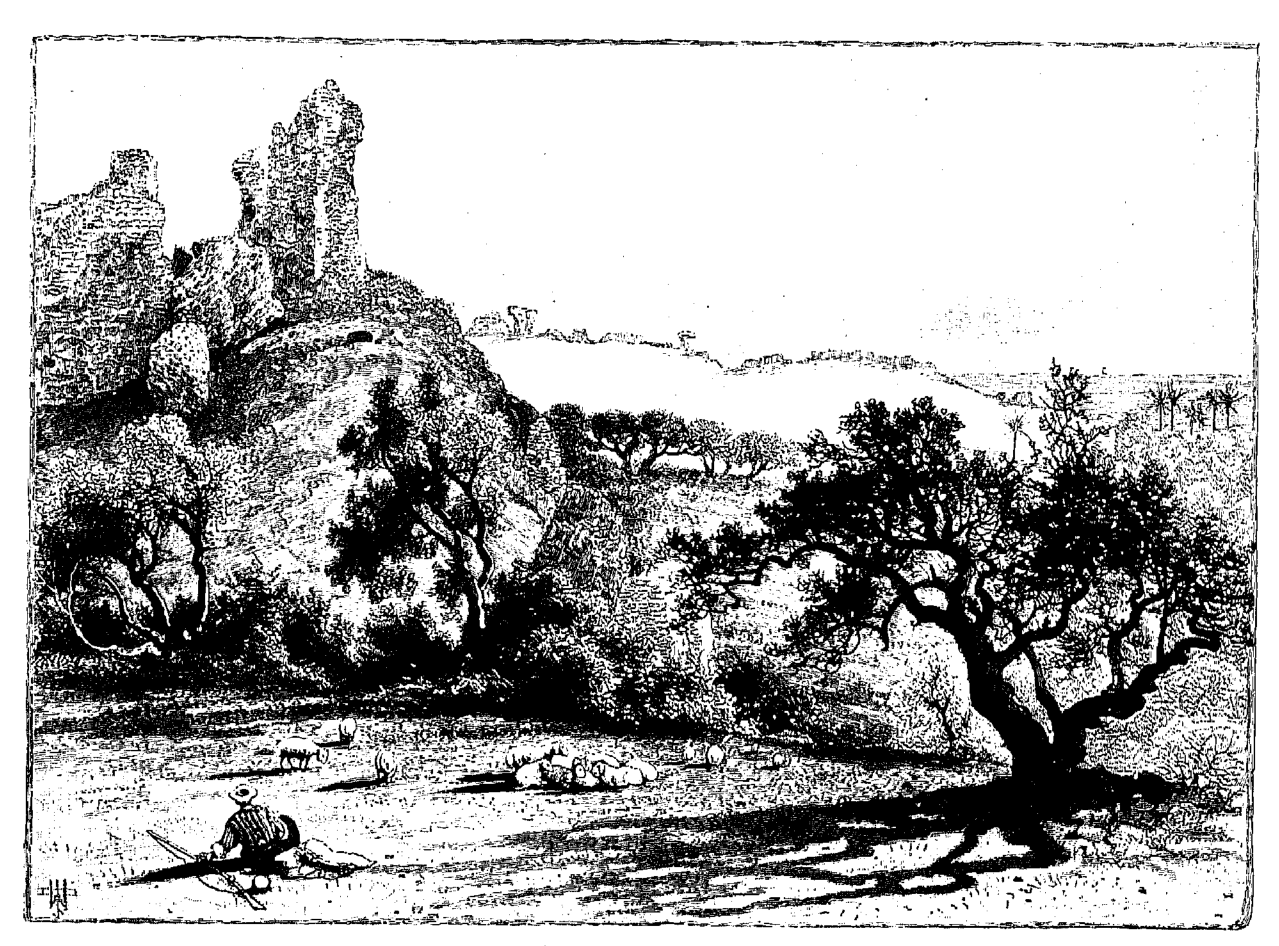


أشدود، أشدود القديمة

عسقلان وهي بلدة نامية. وفي البلدة جامع له مئذنة عالية، وبيوت حجرية كبيرة وسوق. وهي محاطة بغابات من اشجار الزيتون الضخمة، وحولها بطاح مغطاة بحقول الحنطة تقطعها بين الحين والحين حلقات من أشجار البلح والجوز والتين. والأرض حول المجدل خصبة، وسكانها حرفيون يستخدمون الماء من آبار يصل عمق بعضها الى اكثر من ١٢٠ قدماً تحت سطح الأرض. ويسحب الماء من الآبار «بالدولاب الفارسي» او «الناعورة» يديرها الثيران او الجمال، وتعطى بالدور للأهالي (في ما يشبه «الساقية»).

المجدل، ميجدول القديمة
وهي بلدة مهمة اليوم، فيها حوالى ١٥٠٠ ساكن، وجامعها ومنارته مبنيان من مواد قديمة ويقام سوق اسبوعي هنا.

ويقوم قريباً من المجدل، موقع عسقلان والذي وان كنا نعرف مكانه عموماً الا أن موقعه الدقيق ما زال غير محدد تماماً. كانت عسقلان احدى المدن المهمة لدى الفلسطينيين وظلت في أيدى الفلسطينيين الى أن دخل أبناء اسرائيل «أرض الميعاد» وبدأ الاحتلال اليهودي. ويصفها هيرودس بكونها تحتوي على أقدم هيكل لڤينوس او دركيتو، أم



آثار عسقلان، من الشمال الشرقي

سميراميس. وكانت في شكل أمرأة فوق الخصر مع ذيل سمكة، الشريك الانثوي لداغون Dagon. ولإن لعسقلان مرفأها البحري كما الكثير من مدن الفلسطينيين فقد دعيت «عسقلان البحرية». برزت أهمية عسقلان في عهد هيرود الأكبر الذي زينها بالحمامات العمومية والينابيع والقصور، ففي عسقلان كانت تقيم شقيقة سالوم. وفي أثناء الحرب التي دارت بين اليهود والرومان، تعرض اليهود لهزيمة كبرى في عسقلان على يد انطونيوس.

كانت عسقلان منذ فترة مبكرة جداً مركزاً لأبرشية، كما كان لها من الموقع الأسوار القوية ما جعلها الحصن الاكثر أهمية في فلسطين في العصور الوسطى، وظلت في اثناء الحقبة الصليبية شوكة فى خاصرة المسلمين، مثلما كانت لليهود يوم كان فيها الفلسطينيون. وقد حدثت عند عسقلان المواجهة الكبرى بين الجيش المصري والجيش الصليبي بقيادة غودفراي. فبعد احتلال القدس وانتخاب غودفراي لوراين ملكاً من قبل الجيش الصليبي جاءت اخبار العيون لتقول أن جيشاً مصرياً كبيراً قد عبر الصحراء الى فلسطين لرفع الاحتلال الصليبي واعادة حكم الاسلام. اجتمع الجيش الصليبي على عجل قرب الرملة واستعد لرد الهجوم المصري. أخذ ريموند مواقعه على الشاطئ وتقدم غودفراي بخمسة آلاف خيال فيما قاد تانكرد والروبرتان الهجوم مباشرة على العدو. وكانت مبادرة شجاعة من الصليبيين في مواجهة اعدائهم الذين تفوقوا كثيراً في العدد. ويقال ان الصليبيين اصطحبوا معهم من الجبال قطعاناً

كبيرة من الماشية مما ضخم حجم القوافل المسيحية وضللّ المسلمين الذين فروا في كل الاتجاهات وخلفهم الصليبيون يطاردونهم. فرّ البعض الى الشاطئ وكان ريموند في انتظارهم واختفى آخرون في الصحراء. وحاول جزء منهم الوصول الى عسقلان لكن غودفراي قطع الطريق عليهم وأجهز على معظمهم. وعلى الفور ألقى غودفراي الحصار على عسقلان، الا انه اضطر للانسحاب سريعاً بسبب الخلافات بين فرسانه وظلت عسقلان في يد المحمديين خطراً يتهدد أورشليم.



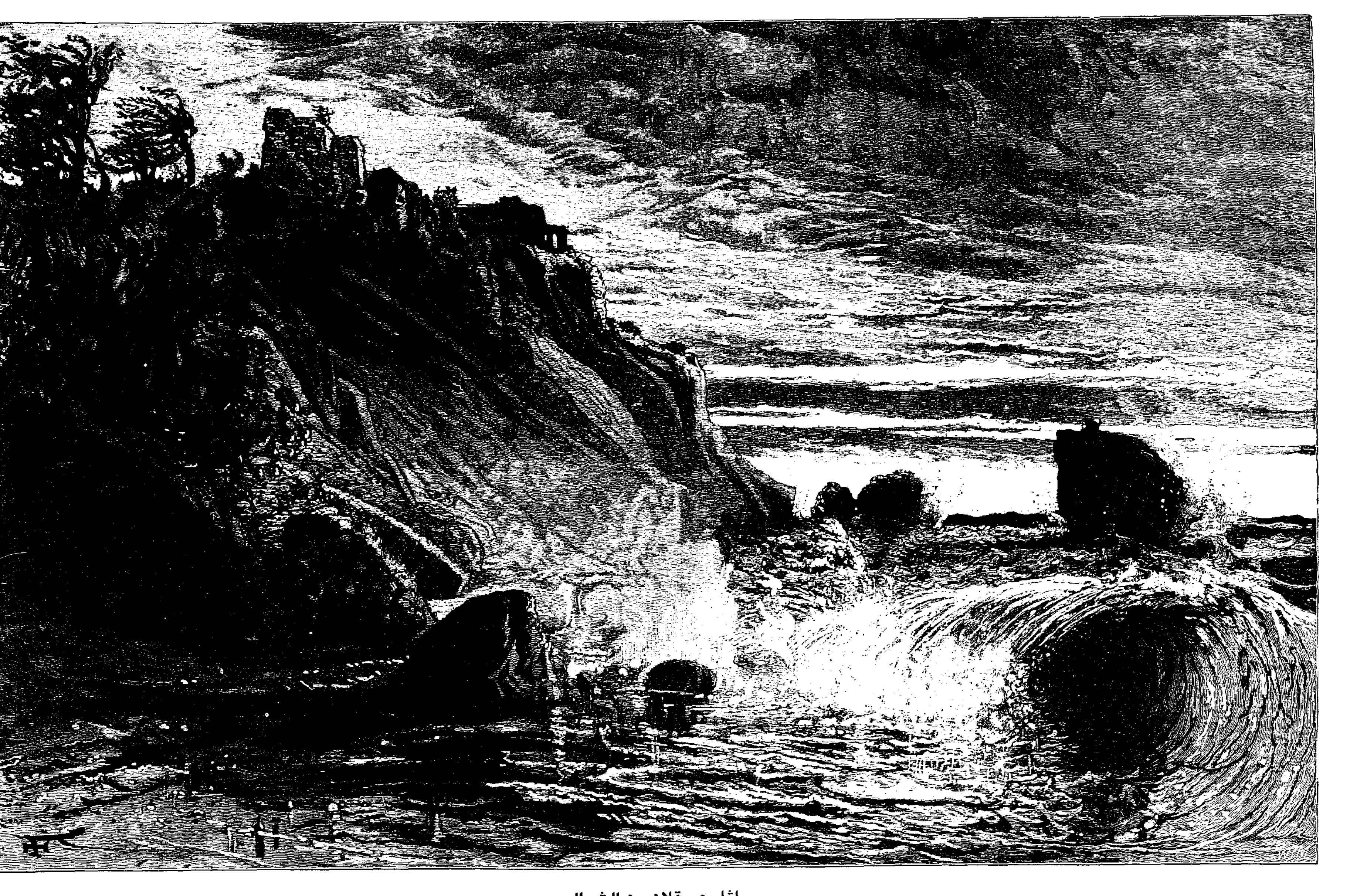
وفي العام ١١٢٤ م وبينما الصليبيون مشغولون في حصار صور شن المحمديون غارة غير ناجحة على أورشليم. وظلت عسقلان كذلك الى أن تمكن الصليبيون من احتلالها سنة ١١٥٣م. فقد ألقى بلدوين الثالث الحصار

عليها مصمماً على أخذها أياً تكن الظروف، فهاجم الحصن من البر والبحر وأصلى المدينة لشهرين بكل صنوف الهجوم والعمليات. ثم الغى احتفالات الفصح وأمر الحجاج كلهم في البر للاسراع في مساعدة جيشه. دافع المحمديون عن اسوار الحصن بكل جسارة وشجاعة، وحينما اضطروا في النهاية للاستسلام تمكنوا من الخروج من المدينة بكل اقتدار واحترام.

آثار عسقلان من الجنوب الغربي.

لكن القضية الصليبية لم تدم كثيراً وتمكن المسلمون بقيادة صلاح الدين وبعد فترة قصيرة من استعادة مدن كثيرة في سوريا. وكانت عسقلان، الى مدن أخرى، بين آخر المواقع التي سقطت قبيل تحرك المحمديين الى اورشليم سنة ١١٨٧ م. وأمر صلاح الدين سنة ١١٩٠م بتدمير تحصينات المدينة مخافة ان تصير ثانية في ايدي المسيحيين، وهكذا تحول الحصن الرائع في فترة قصيرة الى تلّ من الركام. وخلال الحملة الصليبية الثالثة أعاد المسيحيون بناء اسوار عسقلان، بناء لأوامر ريتشارد بلاتيجيني، وتبرع بجزء من التكاليف إكتتاب قامت به سيدات انجلترا. ثم عاد السلطان بيبرس سنة ١٢٧٠فدمّر الاسوار كلياً بعيد احتلاله المدينة. ولا تزال الى اليوم أجزاء من تلك الاسوار واقفة، إلا أنها قطع صغيرة من حجر الصخر الرملي، بينما تتناثر هنا وهناك قطع صخرية ضخمة كانت تشكل يوماً الأسوار القديمة، والتي نقل

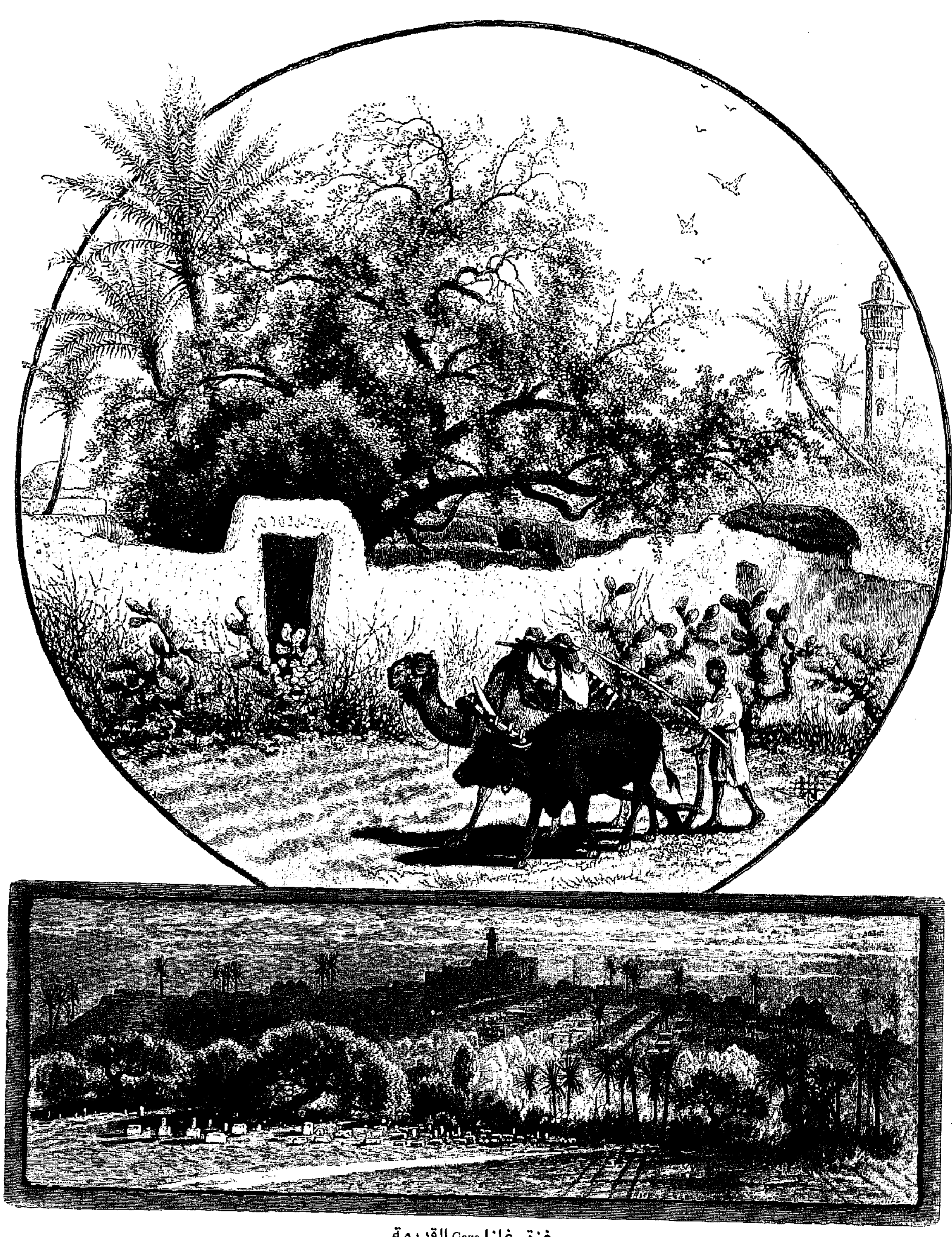
معظمها لبناء مواقع أخرى. ويمكن مشاهدة اعمدة الغرانيت التي يبلغ طولها ١٧ او ١٨ قدماً وقطرها قدمان ونصف القدم تبرز بين الجدران. ومازال في عسقلان ميناء صغير يستخدم لأعمال تصدير العاج والفخار ومحيط عسقلان خصب جداً، وفيه غابات صغيرة من النخيل تضفي جواً جميلاً على المكان. ويزرع اهالي قرية «الجورة» الصغيرة، شرق آثار عسقلان، الكرمة والزيتون وأنواعاً أخرى من الاشجار المثمرة ومن ضمنها التفاح.



اثار عسقلان من الشمال
والتحصينات عند الزاوية الشمالية الغربية من المدينة واستيلاء رمسيس الثاني على عسقلان مسجل على جدران معبد الكرنك

بلاد جودا (يهودا) الجنوبية

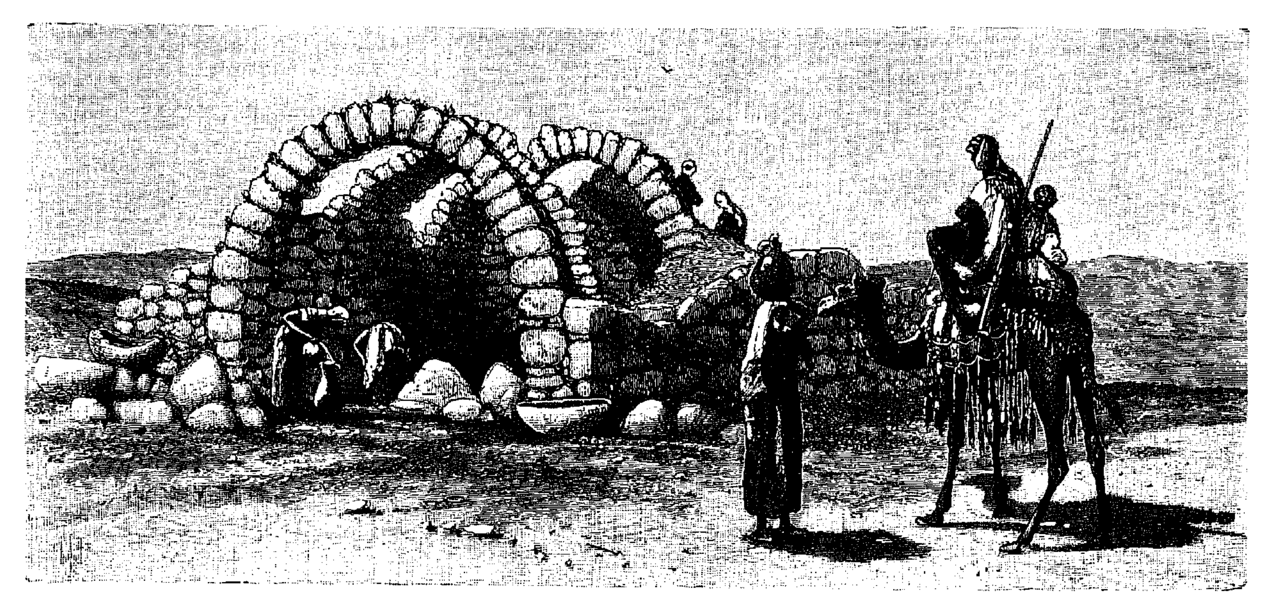
«الدخول في» أرض الميعاد من جهة الجنوب، تماماً «كالدخول في حماث Hamath» من الشمال، أمر يخلو من البهجة أو المتعة. ومع ذلك فان الطلّة الاولى «لأرض الجنوب» قبل ان تضيع في السهل الفلسطيني، هي في الواقع محبّبة



غزة، غازا Gaza القديمة.
والبلدة الحالية، شبه المصرية الطابع، لا آبار فيها ولا بوابات والجامع الظاهر في الصورة الجامع الكبير كان كاتدرائية بيزنطية.

وممتعة. ولقد دعوناها «الدخول في»، كما كانت على الدوام، طريقاً للمحاربين وللتجّار والبوابة بين مصر وأشور، الأمبراطوريتان المتنافستين في الشرق. وقلة فقط هم الذين كانوا يدخلون فلسطين قبل عصر السفن البخارية، من غير هذا الطريق، خلا البعض الذي كان يأخذ الطريق الطويل عبر سيناء والبتراء.

تستغرق الرحلة من النيل الى وادي العريش تسعة أيام في طريق صحراوي مقفر؛ الا اننا دخلنا الآن حدود سيميون Simion، وحيث تقوم بضع قرى قرب الشاطئ تحيط بها غابات من النخيل والزيتون وتوفّر للعين منظراً بهيجاً، فيهما بقع خضراء صغيرة تزين الأفق الرملي الفسيح، وحينما وصلنا الى آخر تلك القرى، وهي دير البلح، فانما كنا في منطقة رعوية للاباء القدامى. وتقطع المنطقة بالأودية المتعاقبة والتلال المستديرة، دونما منحدرات حادة كثيرة، إلا أنها مغطاة بطبقة عشبية رقيقة مع حقول من الحنطة دونما سياج، وترصّعها خيم بدوية سوداء، هنا أو



بئر ماء في سهل فلستيا.

هناك. وهكذا يتبخر تدريجاً الاعتقاد الشائع اذ المنطقة الجنوبية هي صحراء تماماً ولكن رغم المساحات الخضراء الممتدة، فما من شجرة تقطع رتابة هذا المنظر، وبحيث يتساءل المرء عما اذا كانت المنطقة قد عرفت الغابات أصلاً، وبخلاف المنطقة الداخلية شرقي بيرسبع. وفي الصيف تجف السواقي كلها، ويغدو اعتماد العرب على الآبار المموهة بمهارة بحيث لا يكاد يعرفها إلا أفراد القبيلة التي تملك المرعى المجاور. ويقوم على مسافة ثلاث ساعات الى الجنوب الشرقي من غزة وساعتين شرقي الطريق الآتي من مصر، مرتفع دونما شكل مميز، شمالي وادٍ قليل العمق ويشرف على مساحات واسعة من كل الجهات، لا يملك البدو في الجوار أي فكرة عنه إلا أنه موقع تاريخي موغل في القدم ويستحق التأمل. ظل اسم الموقع كما هو لأربعة الاف سنة وهو جرار Girar، جرار سفر التكوين، مكان الاقامة المفضل لدى إسحق. وقبل أربعة أميال من وادي الجوزي Gussih، حيث تلتقي سواقي وادي سبا او وادي بيرسبع ووادي شريار sheriar الشمالي، نترك طريق العربات لنحو عشرة أميال جنوب غزة، ونضرب قدماً بين صفوف التلال التي تتوالى دونما شجرة واحدة. واذا عبرنا، في مطلع شباط، وادي سبا ثم وادي شريار Sheriar فسنجد في كليهما

مجرى مائياً غزيراً، كما سنمرّ احياناً فوق بسط من العشب الأخضر القليل الارتفاع، إلى أعشاب برية أخرى، او حقول حنطة يانعة بين الحين والحين تزينها أعشاب صفراء اللون، والى أن نصل الى تل مستدير ذي سفح مسطح ويطل على منظر بديع من بيرسبع شرقاً الى البحر غرباً وهو تل أبو جرار. تبدو الآبار كما لو انها الآثار الوحيدة المتبقية والعشب لم تكسره آثار أقدام، فيما بقايا كسر الفخار المشغول تشير الى أن المكان كان مأهولاً في الماضي بالسكان. وتتناثر الابار على قمة التل وعلى جوانبه وصولاً الى أسفل الوادي. وكل هذه الابار مطمورة بدرجات مختلفة، وبعضها حتى سطح الأرض ولعلها آبار ابراهيم التي سدّها رعاة أبي ملخ Abimelech وبعض تلك الآبار مملوء لعمق ١٢ او ٢٠ قدماً بحيث يمكن رؤية قعره محفوراً في الصخر، بينما القسم العلوي منه مشغول ومصقول بالطين ويعود كما يبدو الى زمن متأخر لوجود كسر فخار فيه. وبعضها مسقوف بالصخر مع فتحة عند الوسط. واثنان فقط كانا في حالة سليمة بينما كان الباقي مكسوراً بنسب مختلفة. ومن اصل ١٩ بئراً أمكن فحصها لم يكن هناك ماء الا في اثنتين منها فقط. والبعض كما يبدو قد أفرغ وجرى تطيينه من قبل البدو لاستخدامه لأغراض التخزين ويبدو ان التل كان مكاناً مثالياً لإسحق يراقب منه شعبه وقطعانه. وعلى التل آثار حصن إلا أنه يعود لزمن متأخر.

ورغم ان الطريق من جرار الى غزة تخلو من المناظر المثيرة، إلا أنها ممتعة. والمنطقة ملأى بالحيوانات البرية. فالغزلان تمرح على كل تلّ، والثعلب وابن آوى عند كل حنية او مفرق، وتبدو احدى الهضاب الملجأ المفضل لغرانيق crane كبيرة تعود بالمئات، سنة بعد سنة الى حيث ولدت، كما الغربان الى الشجر.

وتطل غزة، او بالاحرى غابات الزيتون التي تحوطها، بغتة ومن دون مقدمات. لا تتمتع المدينة بأفضليات طبيعية من حيث الموقع، وما من سبب ظاهر يجعلها مدينة منذ أقدم العصور وهي اليوم تكاد تكون من دون اسوار تماماً والكثير من شوارعها يمتد مباشرة الى خارجها. ويمتد طريق رملي عريض بين أشجار الزيتون، يربط مصر بسوريا، داسته جمال الميديين Midianites قبل ابراهيم بزمن طويل، ومشى عليه ملوك مصر وآشور، والفاتحون الاغريق والرومان، السراسنة والصليبيون، واخيراً نابليون من مصر واليها ثانية. وفي غزة اليوم أكثر من عشرين الف ساكن. ويحيط بوسط المدينة، المبني من الحجارة، حزام من الضواحي ذات البيوت المبنية من الطين والمسقوفة بالاغصان المغطاة بالتراب الرقيق، كما يرتفع فيها عدد من المآذن، يلمع بياضها فوق السقوف الترابية، وتطل بينها أشجار نخيل متفرقات، كما تعبرها اسلاك التلغراف في مزج غريب بين القديم والحديث. هناك تلة واحدة قريبة يمكن أن تعثر فيها على شيء من الماضي، ويقوم في أعلاها مزار يدعى «علي المنطار». تقع التلة جنوب شرق المدينة وتشرف على منظر جميل، ومن المرجح جداً ان تكون المكان الذي أنتقل إليه سامسون Samson فهي التلة الوحيدة في الجوار، وهي على الطريق الى حبرون. ونرقب هناك، ايضاً موقع المر الفلسطيني، ممر هيكل داغون، وموت سامسون. لا تحتوي ابنية غزة على الكثير من التاريخ. فعمارة جامع هاشم، جدّ محمد، هي على الطراز الأموي القديم تماماً، ويقوم في إحدى زواياه ضريح هاشم. الا ان على الجامع الكبير نقوش تحمل تاريخ ٦٧٧ هجري، اي ١٢٧٦ ميلادي؛ وهو في الواقع باسيليكا هيلينا Basilica of Helena، والذي كان كاتدرائية فخمة مع ثلاث نتؤات غير مكتملة، تستخدم إحداها الآن كسلّم يوصل الى مئذنة الجامع التي اضيفت في ما بعد ولا تزال قاعة الكاتدرائية الرئيسية والممر كما هما، وكذا اشارة الصليب على الاعمدة لم تمح، الى اشارات مسيحية أخرى وقد أضاف المحمديون ممراً آخر في الاسفل يوصل إلى مدرسة ملاصقة للدراويش .

والابنية الأخرى في غزة فقيرة، وكذا شوارعها واسواقها، وتصطف منازل بسيطة ذات سقوف مسطحة. الا ان اللافت في غزه هو كمية البقايا والاثار الرخامية المتناثرة في كل مكان، وهي تنافس عسقلان في وفرة الأعمدة الموجودة. فهي في كل بستان وامام كل بيت وهي تشكّل كل عتبة قائمة في غزة. وفي وسعك ان تخطو من الشارع الضيّق خطوة واحدة يساراً او يميناً لتجد عاموداً رخامياً مرمياً أمام باب منزل. تمر في زريبة اولاً، ثم في فناء ضيق، والى يمينه مطبخ بابه واسع ونحو الفناء. ثم تدخل الى ساحة داخلية، كبيرة ومرصوفة بقطع كسر الرخام، وغرف تطل عليها، على جوانب ابوابها اعمدة رخام، تقف الى قواعد، مع تيجان كورنثية، رومانية، او بيزنطية متأخرة، اي

بقايا الهيكل والكنيسة معاً. وتزين قطع او ألواح من الرخام الحيطان المبنية من حجارة رومانية، إنه التقليد الغزاوي للقصر الدمشقي. كذلك وجدت في المكان تماثيل عدة، وقد أخرج أحد هذه التماثيل من مدفن تحت الأرض وجرى نقله الى مجموعة اسطنبول الحديثة، The new National Collection ومحيط غزة في الشمال أعظم اتساعاً بكثير عما هو في الجنوب. إذ تمتد لأميال عدة غابات نخيل جميلة. الكثير من أشجارها عتيق، ملتوٍ، وفي غير شكل؛ بينما تسرح قطعان الماشية في ظلها. وتذهب الطريق الى حبرون بعد تلك الغابة عبر القسم الأوسع من السهل الفلسطيني الكبير. والمنطقة مزروعة بكاملها اليوم وحول القرى غابات زيتون كثيفة، بينما هي لم تكن قبل خمس وعشرين عاماً غير حقل مهمل من الشوك والحشائش البرية. وبين الحين والحين يقطع سيلٌ قوي طريقك بين أودية السهل الخصب ويغدو من الصعب ان تجد موطئ حافر لحصانك وهو يعبر نحوالجانب الآخر. وبعد مسيرة حوالى ١٥ ميلاً تتحول الأرض السهلية الى بطاح متماوجة، تبدو تربتها غنية لكنها مهملة ولن تجد ساكناً واحداً في أي جانب منها؛ ونصل اول ما نصل الى لاكيش، او لاكيس Lakis الحديثة، وهي موقع أثري قديم. ولاكيش اليوم هي تل من الركام. ففي موقع يقوم بين فرعين من تلال يهودا Judaean hills والتي تنخفض تدريجاً لتضيع في السهل الفلسطيني، يقوم الى اليسار تل منخفض تتناثر الحجارة فوقه في كل اتجاه؛ وهو كل ما تبقى من لاكيش القديمة ويغطي الفخار المكسور التل فيغدو كما لو كان من فخّار. وتبقى الجدران المهدمة والقواعد ذات الحجارة الضخمة لتخبرنا عن المدينة التي ظل احتلالها هدفاً لحملات سنحاريب المتتالية. كانت المدينة محاطة بالنخيل، اما اليوم والى مسافة طويلة فلا اثر لشجرة او حتى للعليق. لقد كان للموقع الطبيعي المتميز، الذي يشرف على ما حوله ويقيه شر المباغتة، الفضل الاكبر في تحويل لاكيش الى حصن حدودي أمامي قوي.

وبعد ثلاثة أميال أخرى، وعلى تلٍّ مشابه نصل عجلان، او عجلون Eglon القديمة، في نسخة من لاكيش، لكن آثارها باقية على صورة أفضل بكثير. فخطوط الحصن القديم يمكن اعادة رسمها كاملة، يقوم فوقها اليوم حقل من البصل يسيجه نبات الصبير. ومن الاثار المتبقية آبار عدة وحوض ماء، كما أن حفريات حديثة جرت كشفت عن أبنية ذات حجارة مصقولة كان لها شأن في الماضي.

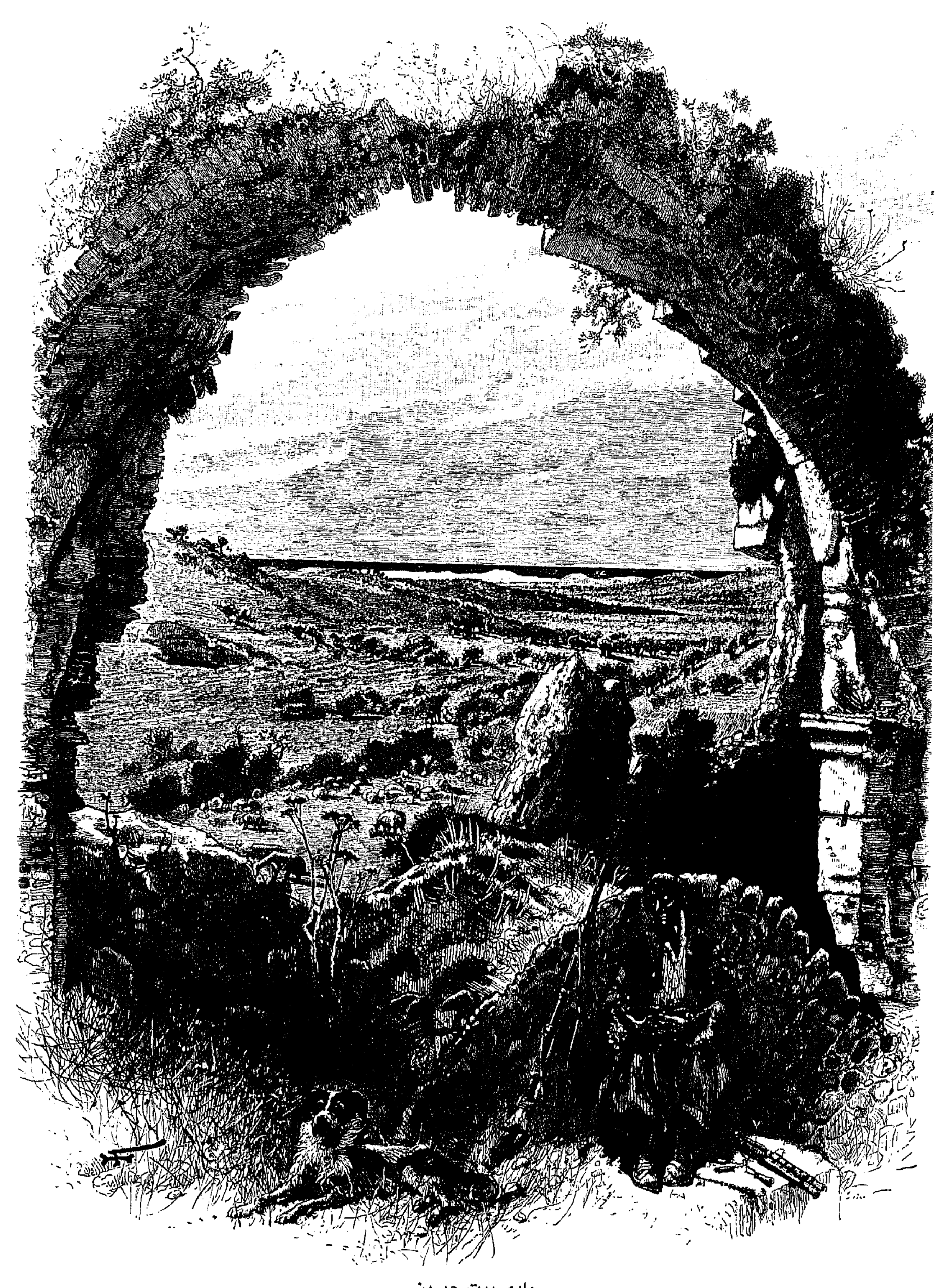
وتأخذنا مسيرة ساعتين، عبر السهل، الى «عرق المنشية» Arak El Menshiyeh، او لبنه Libnah القديمة ونلتف في واد واسع حول تل عجلون لندخل من جديد سهلاً غنياً مزروعاً بالحنطة. وفي البعيد صخر أعزل مع مزار ذي لون ابيض في احدى زواياه يقوم فوق السهل وقرية ذات بيوت طينية عند اسفله، تلك هي لبنه. يقوم صخر عرق المنشية الى الشمال الشرقي من القرية يفصله عنها مجرى ماء ضيق وقربه عدة آبار، مع بقايا منحوتات رخامية متناثرة وتجهيزات سحب الماء القديمة المتخلفة، كما في مصر، وعلى هذا الصخر تماماً كانت تقوم في ما مضى قلعة البلدة اليهودية. والصخر أعزل اصلاً ومهيأ ليكون حصناً في وجه رماة النار والمتسلقين في آن. فجوانبه ترتفع عامودياً من السهل لحوالى ١٠٠ قدم، ولا يربطه الا ممر ضيّق بالهضبة المجاورة. وترتمي على جانبه الجنوبي بقايا البناء القديم لتشكل منحدراً حاداً وهو الذي تسلقناه كيما نصل قمة الصخر. وسطح الصخر مسطح تقارب مساحته الاربعة فدادين أجرد تماماً وليس فيه غير شجرة تين تحيط بها نبتة صبير. والسهل حوله مرعى واسع تتخلله حقول حنطة ولكن دونما شجرة واحدة، او منزل، خلال خيم بدوية هنا او هناك ونار تشعل في البعيد وتؤذن باقتراب المساء. والمنظر من على الصخرة مؤثر وفي وسع المرء ان يتخيل كيف تقدّم جيش الأشوريين من هضبة لاكيش البعيدة ثم انتشر فوق السهل، وكيف استحال عليه احتلال هذا الموقع لروعته، ناهيك عن الجوع. وحانت من القوة المحاصرة التفاتة الى السهل في الاسفل فرأت آلاف الجثث يصلّي فوقها ملاك الرب.

«لقد نشر ملاك الموت اجنحته في كل مكان،

ونفخ في كل وجه،

وعيون الموتى غدت ميتة من شمع،

وقلوبهم التي خفقت يوماً، سكنت الى الأبد»



وادي بيت جبرين
البحر من بعيد والشاطئ الرملي، والى اليسار مدخل كهف وراع نائم وقربه كلبه وبندقيته ومزمار.

. والطريق من عرق المنشية الى بيت جبرين هي في معظمها موحشة قفراء. ونترك السهل الخصب لنبدأ تسلّق منحدرات تلال جودا، حيث سيول الشتاء ترفع الماء الى نهر السوقرير، أحد الجداول الرئيسية التي تروي السهل الفلسطيني. وهناك على كل جانب بقايا بلدات وقرى قديمة، فوق كل هضبة، ولكن من دون اهمية تاريخية استثنائية، وإلى أن نصل الى خربة مراش، او مرشاش القديمة فوق تل منخفض في أرض وعرة، وهي أحد حصون جودا. وفي هذا المكان كتب لآش Asa نصره الكبير على جيوش زيراه Zerah ملك اثيوبيا او مصر العليا، وذلك بتجنيده كل شبان شعبه، وأمكنه رد الغزاة وراء غزة وحتى جرار.

ولأن المكان لا يتسع إلا لبضعة آلاف من الجنود لم يستطع زيراه ان

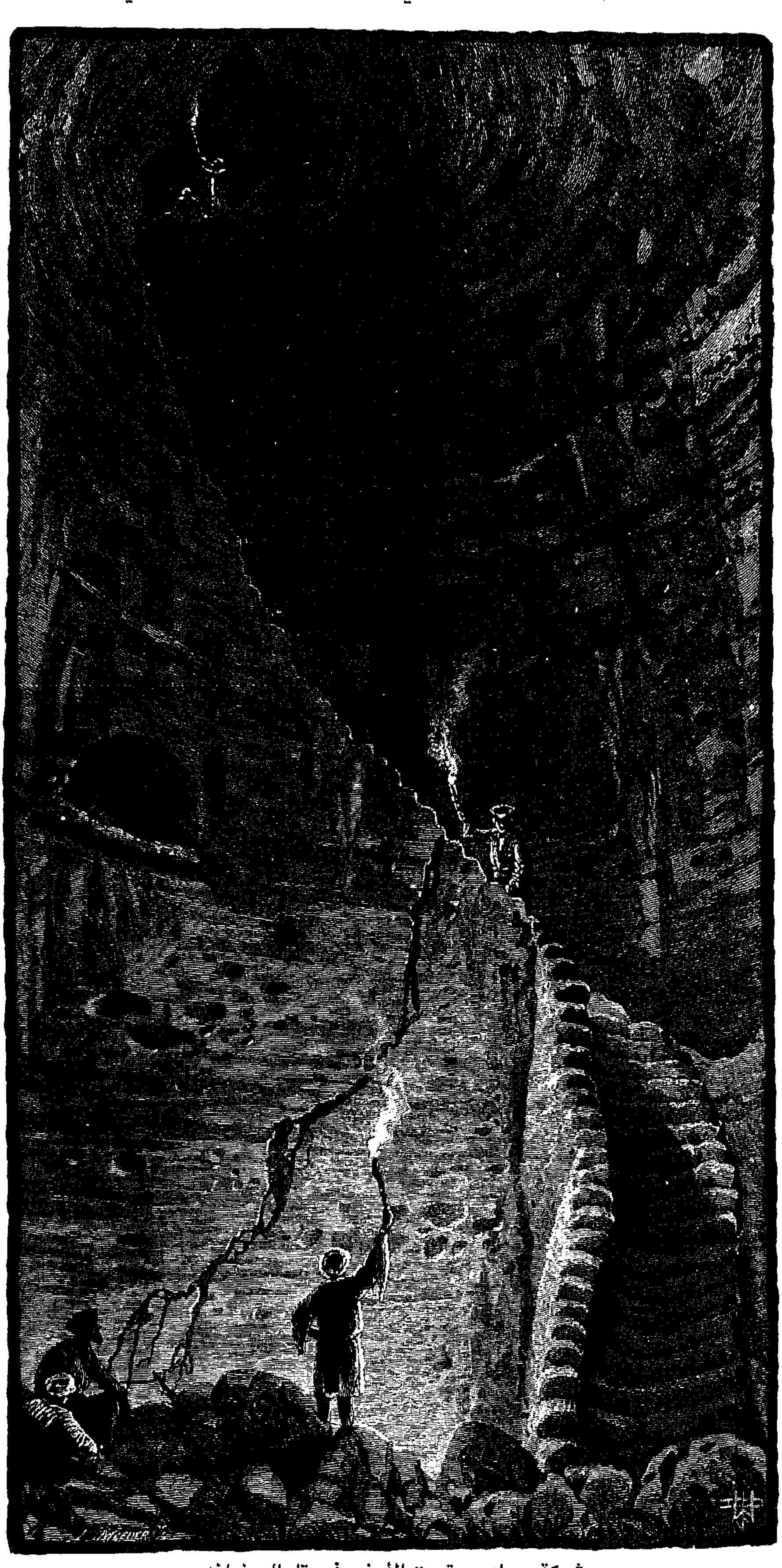


قلعة بيت جبرين تحت ضوء النجوم
وموسيقيون عرب وربابة الشعر « التي ترافق المنشد والمزمار المزدوج، الأرغول، يستخدم كبأس Pass مستديم.

يستفيد من التفوق العددي الذي يملكه، وحالما انهزمت صفوفه الامامية ارتدت الى الخلف زارعة الذعر في سائر أقسام جيشه. ويغطي المنطقة اليوم عشب قليل العلو، وحجلُ بغير عدد، ولكن لا أثر لشجرة واحدة الى أن تصل الى ضواحي بيت جبرين. وننعطف شمالاً، لندخل البلدة من تلك الجهة ولنعرج على موقع سوف يساعدنا في تعيين المكان، وهي خربة غات .K. Gat والاسم معروف ومتداول بين الفلاحين، وهو يشير الى التلّ الذي يقع الى الشمال الغربي من بيت جبرين، تملأه الاساسات القديمة وهو ملائم طبيعياً ليكون حصناً، كغات. ومعلوماتنا عن هذا المكان هي اكثر مما رأينا قبل قليل. فما من مكان آخر في جودا الجنوبية يحتوي آثاراً وبقايا بقدر ما تحتوي جبرين. وجبرين الحديثة هي على بعض الاتساع مع أنها لا تخرج عن حدودها القديمة. وفي البلدة نحو ألف ساكن جلّهم من الفلاحين، ذوي قامات عالية، أقوياء و عنيدون، لكنهم نشيطون مبادرون وعلى قدر من الغنى. وكان والد شيخ البلدة الحالي، عزازي Azazeh، متسلطاً، تمرّد على السلطات التركية، والقى الرعب في قلوب شعبه والمنطقة المحيطة. وتكاد الجرائم الدموية التي تنسب له تفوق ما للجزّار باشا. فاذا سمع مثلاً عن رجل تزوج من امرأة جميلة، بعث بطلبهما فإذا حدث واستهوته المرأة العاثرة الحظ، قتل زوجها دونما شفقة، وجعلها أرملة فأمكن له أن يتزوجها. وبعد موته، فقط، عاد تجار حبرون والمسافرون يدخلون بيت جبرين او يمرّون بها. وكانت قلعة الشيخ قرب حصن قديم ومبنية من حجارته ومواده. والقلعة القديمة، التي تقوم في محيطها جبرين الحديثة، مسورة بحائط صخري، صليبي على الأرجح، إذ ان هناك في الاسوار تيجان أعمدة رخامية مصقولة تعود الى العهد اليوناني، الروماني، كما أن هناك أعمدة مكسورة ما زالت واقفة في ساحات بعض المنازل الحديثة. تقارب مساحة القلعة ٦٠٠ قدم[٢] ويتصل بالاسوار من الداخل صفوف من الممرات ذات العقود والأقواس، لا يزال بعضها سليماً بل ويشغله السكان. وفي الوسط حصن صليبي من حجارة مشابهة، اعاد السراسنة ترميمه بعد ما كان مهدوماً جزئياً، إلا أنه الآن خراب، مع غرفة كبيرة من حجر مع مدفن بديع التصميم لا يزال سقفه المعقود سليماً. ومن أكثر الآثار جمالاً واثارة للاهتمام بئر ذو اتساع غير اعتيادي، وهو روماني على الأرجح، وحوله عمارة جميلة جداً، ويبلغ عمق البئر حوالى المئة قدم ولا يزال مصدراً لمياه وفيرة. هذه هي بقايا بيتو - جبرا، «بيت جبرائيل»، في الإسم السوري - الاغريقي والذي جعلها الرومان أليثرو بوليس، والتي وان بدت اليوم من الماضي فقد ظلت قائمة حتى وقت متأخر من القرن التاسع والى ان دمّرها السراسنة. ورغم أن بلانشغارد الصليبيين تنسب دائماً الى موقع تلّ الصافي، الذي يقع على مسافة اقل من مسيرة نهار شمالاً، لكني كنت دائماً أميل الى الاعتقاد ان هذا المكان هو ليس بيتو - جبرا واليثرو بوليس وحسب، وإنما هو بلانشغارد، أو الموقع الصليبي الامامي، الذي نسجت حوله الاشعار والكثير من قصص المغامرات وشجاعة ملكنا قلب الاسد. وحول هذا المكان ينعقد معظم الأدب الصليبي الروائي. اما في تل صافي ورغم ملاءمة الموقع الطبيعي، فان حجم الاثار الموجودة قليل، فاذا كانت أسوارها ليست أسوار بلانسشي غارد، كما نزعم، فماذا عساها تكون؟ لدينا دليل واحد على الأقل، ربما يضيء بعض ما خفي من تاريخ المكان. فعلى مقربة من بئر ماء، قريب من القرية، ترتمي قاعدة عمود كورنثي رخامي في أحسن أشكال ذلك النمط، ولكن بدلاً من ورقة الأكانثس في وسط الإفريز حفرت سبع شموع ذهبية ومن النمط نفسه المحفور على قوس تيتوس. وهذا يعني أنها ما قبل مسيحية. ولكن هل هي ماكابية ام هيرودينية؟ إن صناعة بيت جبرين الأساسية هي حياكة السجّاد، ولقد رأينا على السطوح في محيط القلعة نساء يعملن على أنوال بدائية وقديمة جداً ويستعملن اصابعهن بديلاً من المكوك تلتف عليها خيطان قوية ومتينة. وفي الخارج كان هناك، على جانبي الطرق، نوع من العمل الجماعي على تسريح الخيوط يشترك فيه النسّاجون والدّباغون معاً، حيث يسرّحون الخيطان ويدبغونها قبل ان تصبح جاهزة للنسج. والقطعان هنا متوفرة وبكثرة، ورعاتها مسلّحون، لا بالبنادق وحسب وانما بالفؤوس لمواجهة الذئاب، نشالي التلال، تماماً كما البدو في السهل. ولقد التقينا راعياً صبياً ينتحب وقد أخبرنا ان ذئباً هاجم قطيعه فاختطف جدياً ولم يستطع انقاذه.

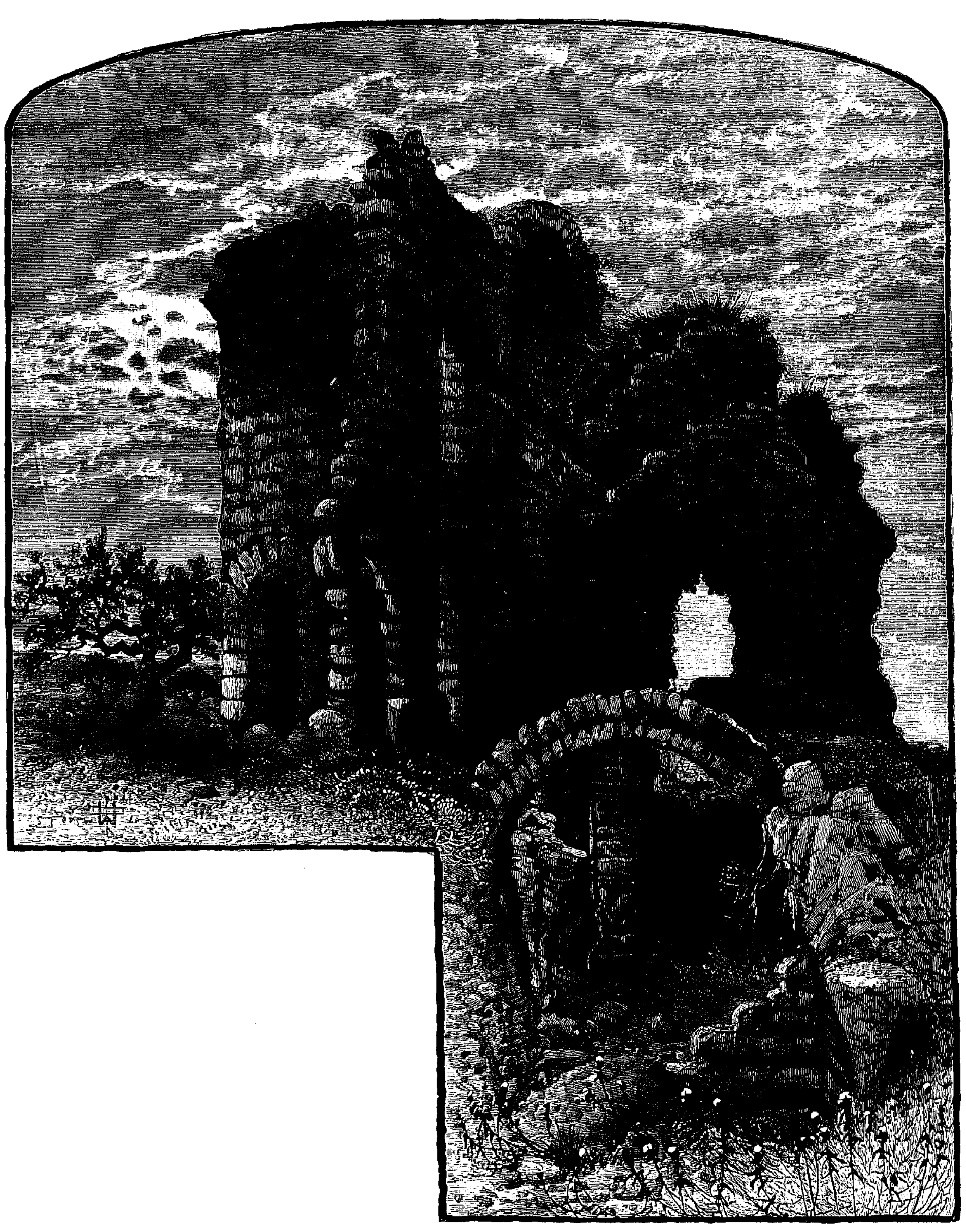
الا انني اميل الى الاعتقاد أن لبيت جبرين تاريخاً أقدم من بلانشغارد، وأنها في موقع غاث Gath القديمة وربما تكون خربة غات قلعتها. فليست القلعة ولا البقايا على سطح الأرض هي التي تجعل السهل مميزاً. وهي ليست في أهمية الكهوف المحفورة والتي ليس هناك ما يدانيها من حيث الاتساع والحجم في اي مكان آخر من فلسطين، خصوصاً

أنها محفورة وليست طبيعية وتعود الى عهد أقدم من العصور الوسطى. وليس هناك من مكان آخر تكثر فيه المدافن اليهودية والكوكيم Kokim، والكوّات في المدافن مثلما هو موجود في وديان بيت جبرين. فهي تكاد لا تحصى وتشير الى كثافة سكانية سابقة. وهناك كذلك الممرات ذات العقود والتي تحتوي في جانبيها على مئات وقل آلاف الكّوات للجرار التي تحفظ رماد الموتى. ولكن يبقى فوق ذلك كلّه تلك السراديب القائمة تحت الأرض، الاضخم من نوعها في فلسطين كلّها، والتي لا نعرف أصلها او الغاية منها، وهي تحتل أسفل التلّ بكامله. ومداخل تلك السراديب هي الاكثر تعقيداً وصعوبة، وربما كان روبنسون، في حدود علمي، هو أول من اكتشفها. ورغم ان هناك الكثير مما يدعم رأي كابتن كوندور في اعتبار بيت جبرين في موقع غاث القديمة؛ إلا أن ما نراه في بيت جبرين من أدلة مناقضة يستحق التوقف والمراجعة. ولكن ومهما كانت هوية هذه السراديب فهي تغري بالزيارة والوصف. فعلى مسافة حوالى ميل واحد من البلدة، يقوم تحت تلٍّ سندانه Tell Sandannah نظام واسع من الانفاق الاصطناعية المتصلة. ولا يمكن المجازفة بالدخول اليها من دون قناديل وحبلٍ وادلاّء مجرّبين. فالمدخل عاموديّ وحاد جداً مع ادراج ملتفة تصل بك الى الأسفل. وفتحة المدخل مموهة بالأغصان في شق وسط الصخور. وحينما تدخل تجد نفسك فوراً في ظلمة حالكة، فنضيء مشاعلنا ثم نزحف على الأربعة في ممر ضيق. ويوصلنا ذلك الى كهف كبير، ذي سقف مقبب، يبلغ ارتفاعه حوالى ستين



شبكة سراديب تحت الأرض في تل السندانه
(بيت جبرين)

قدماً ومن دون أي فتحة في السقف. دخلنا عند أسفل الكهف وزحفنا فوق بضع درجات ترتفع عند جانب منه الى ما يقارب نصف ارتفاعه زحفنا من هناك في واحد من شبكة ممرات ضيّقة أوصلنا الى كهف آخر مقبب لكنه أصغر حجماً، وبين الكهفين غريفات صغيرة محفورة في الصخر وشبكة من الممرات تتفرع في كل اتجاه. ولا يبدو أن هناك نظاماً معيناً يحكم هذه الشبكة. وأمكن لنا زيارة ستة كهوف كبيرة مقببة، وبقي الكثير غيرها وهو يحتاج الى مهندس مناجم متخصص لسبر غورها وكشف خباياها. كانت السلالم المحفورة في الصخور تصل بعض الكهوف عند السقف ثم تهبط الى الأسفل. ولم يكن هناك مخارج في اسفلها. لا شيء سوى طين جاف قاس او بعض الماء الذي تسرّب الى الداخل وتجمّع هناك. ومن غير الممكن ان تكون هذه الكهوف خزانات ماء، وليست مدافن بالتأكيد. وليس هناك نظام إضاءة من فوق، كما لم نعثر على اي نقوش أو كتابات. وسقوف بعض الكهوف الصغيرة مدعوم بدعامات من الصخر تركت واقفة في أثناء الحفر. وليس هناك مستوى واحد للقاعات وللغرف، فالكل قائم في شكل غير منتظم. أما كيف امكن حفر تلك الكهوف المقفلة فمسألة أخرى. ويحتمل أنه كان هناك فتحات في وسط الكهوف ثم جرى سدها بأحكام بعد انتهاء الحفر. وما من مكان آخر في سوريا او البتراء في حدود ما أعرف، يحتوي على مثل هذه المتاهة تحت الأرض. من هم اولئك الحفّارون؟ وما كانت أغراضهم؟ أسئلة لا نملك في الاجابة عليها سوى التخمين. لا نعتقد أن اولئك هم من الهوريتس Horites، ولا هم سكّان الكهوف الاوائل، ولا أوائل الكنعانيين، فقاعات هذه الكهوف أكثر تعقيداً وتحتاج الى مهارات غير متوفرة عند اولئك البدائيين. ولكن، وعلى سبيل الاحتمال، فقد استمر الايدوميز Idumoeans بعد ذلك بفترة طويلة يسكنون الكهوف كما كان يفعل الأروميون، سكان البلاد الاصليون. ولعلهم قد استقوا هذه العادة عن أجداداهم فقاموا، قبيل الحقبة الماكابية بقليل. عندما كانوا يحتلون البلاد وقبل ان ينتصر عليهم جون هيركافوس، يحفر باطن هذا التلّ طلباً للأمان وبالنظر لطبيعة صخره اللينة وانتهى الأمر الى تلك الشبكة المعقدة من الانفاق والتي يستحيل حفرها في صخور بترا الغرانيتية.



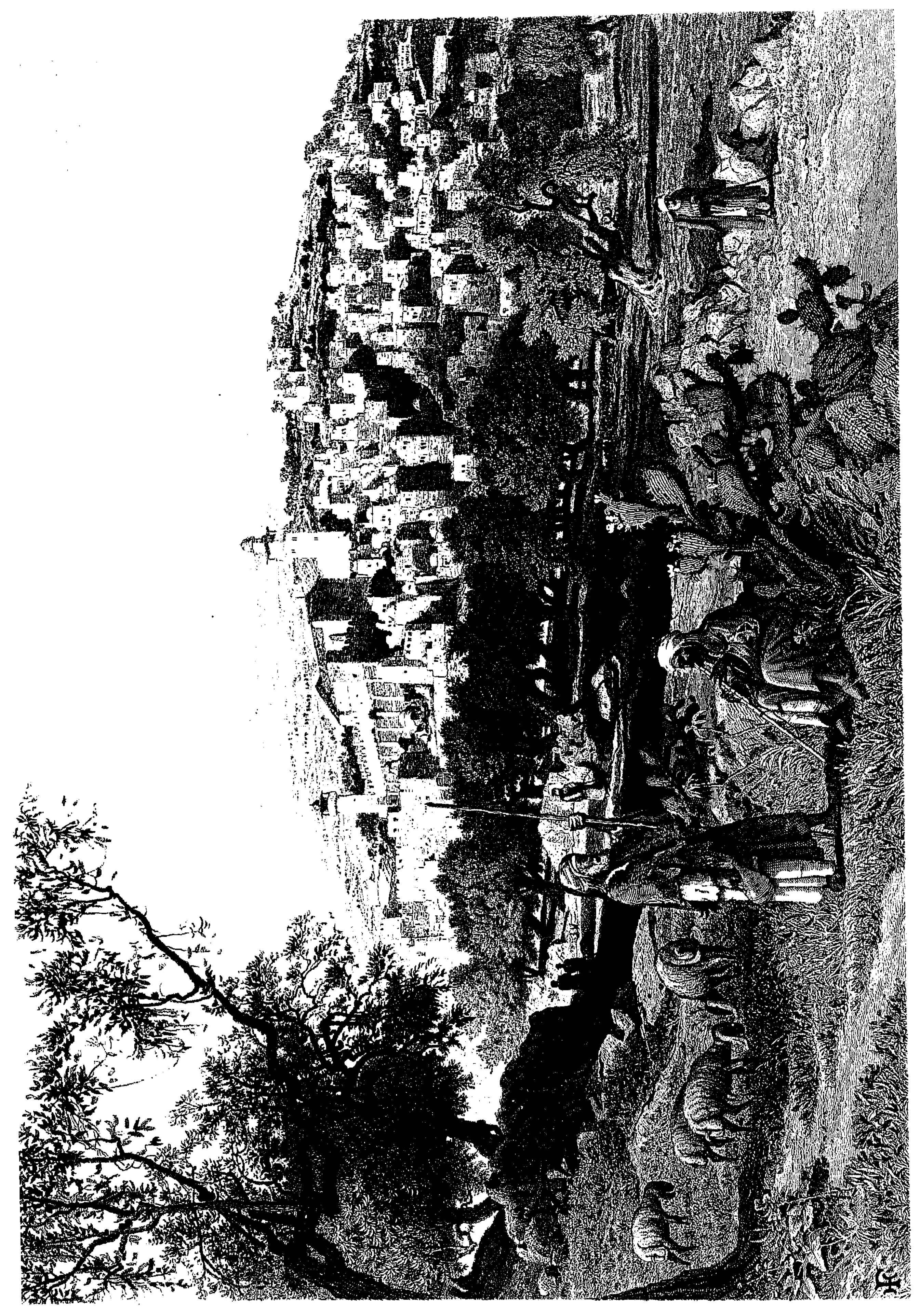
كنيسة سانت آن بيت جبرين
يدعوها العرب الكنيسة وتقوم على علو ١٠٧٢ قدماً فوق سطح البحر بمواجهة تل السندانة (سانت هنا) وكانت كنيسة بيزنطية اعاد الصليبيون تحصينها.

وتقوم عند منتصف الطريق بين هذه الكهوف وبيت جبرين آثار مهمة، وهي بقايا احدى أجمل الكنائس البيزنطية في فلسطين، وهي على اسم القديسة حنّي، او سانتا آن. ولايزال الطرف الشرقي من الكنيسة مع نتؤاته الضخمة سليماً، وكذا القواعد وبضعة صفوف فوقها سليمة بالكامل، مما يجعل طول قاعتها يصل الى ١٢٠ قدماً. ويذهب جداران في اتجاه قوس النتؤ، وكل منهما يبلغ الستين قدماً طولاً، مما يجعل إتساع البناء يصل الى اكثر من ١٥٠ قدماً، وعند الطرف الغربي هيكلان، مساحة الواحد منهما ٧٥ قدماً × ٢٥ قدماً، مع نتؤات موازية لقاعة الصلاة. وكان الصليبيون، اولئك البناة الرائعون، قد غيروا قليلاً من تصميم المبنى، ويحتمل انهم وجدوه مهدماً على نحو جزئي. وقد اضافوا دعائم لتمتين جدران القاعة الكبرى ولدعم الاقواس الحادة. والمنطقة التي تلي القوس المركزي مازالت تحتفظ بسقفها كاملاً، إلا أنه أدنى بعشرة أقدام من قبة القوس البيزنطي ذي الحجارة الرائعة والتصميم الرائع، والذي لم يخرج فيه حجر من مكانه. ومظهر الكنيسة الأمامي مع سقف القاعة عند الطرف الشرقي مختلفان قليلاً. والفارق بين البناء البيزنطي والبناء الصليبي جدير بالدرس والمتابعة.

وفي طريقنا من كنيسة القديسة آن الى القرية نمّر ببضعة كهوف، بعضها مقبب وواسع، مثل تلك التي وصفناها قبل قليل، ولكن جميعها مفتوح اليوم. كذلك فان أجزاء من السقوف فيها قد إنهارت، كما أن الكثير من القباب فيها فتحات من أعلى يبلغ قطر الواحدة حوالى ٦ أقدام، وكأنما هي معدّة لتكون خزانات ماء. وهناك نقوش، بعضها عالٍ جداً، لكنها ممحية جميعاً. ولم نعثر على كتابات يونانية او لاتينية وانما عدة إشارات مسيحية تشير إلى أنها تعود الى ما قبل الغزو السراسني على الأقل. والجدران من الداخل عامودية ومشغولة باتقان، وقد تركت دعامات في بعض الاماكن لدعم السقف، كما أن هناك نتؤات في اثنين او ثلاثة منها كانت تستخدم كمعابد. وفي واحد منها فقط أفريز صغير بشكل ترّاس يمتد على كل جانب تحت السقف بقليل. وفي وسع المرء ان يقضي أياماً كثيرة في استكشاف خبايا كهوف بيت جبرين، وانما اتجهت في التلال فالأرض محفورة كقفير النحل.

وبدل أن تتجه مباشرة من بيت جبرين الى حبرون في طريق لن تجد فيها الكثير من المواقع التاريخية نلتّف شمالاً في رحلة تستغرق نهاراً كاملاً لنزور «وادي السور»، القسم الأعلى من «وادي البطم» حيث اكتشف مؤخراً كهف Adullam (الآدمية) وخيله Kheila. وإينما تجولت في المكان فستجد آثاراً وبكثرة. ويقدّم تقرير كابتن كوندور ان هناك ثلاث مواقع اثرية، كمعدل عام، في كل ميلين مربعين الدليل على الكثافة السكنية التي كانت موجودة سابقاً في المنطقة. ونتسلق الطريق الى حبرون صعداً، فهي تعلو ٢١٠٠ قدم فوق سطح البحر كما أننا نعبر في الطريق اليها أماكن تعلو ٣٠٠ قدم أكثر من ذلك. ويمر الطريق في نحو ميلين قرب الطريق الروماني القديم الذي يوصل الى اورشليم، وبين غابات زيتون ساحرة، ولايزال الطريق في أماكن معينة سليماً وكما كان. وتدخل الطريق بعد ذلك في وادٍ ضيق، الى جانب الطريق والقناة الرومانيتين وبين شيرين صخريين حادين يطبقان علينا من كل اتجاه. ثم نتحول شرقاً في متاهة من الأودية الصغيرة قعرها مزروع دوماً بالحنطة، إلا أنك عاجز عن النفاذ منها دونما خارطة ودليل فهي تتقاطع وتتداخل باستمرار، ولن تجد على طول الطريق ساكناً واحداً ولا فلاحاً في حقل او حتى عربياً يتجوّل. وبعد مسيرة ثلاث ساعات بين هذه الوديا الصخرية الصغيرة، والتي بدأت سنابل قمح خضراء تعلو مساحات فيها، نجد أنفسنا مباشرة أمام تلٍّ دائرى الشكل وعلى مقربة من النقطة التي تنشطر فيها الوادي الى فرعين. جوانب التل مزروعة بالكهوف. وللمرة الأولى خلال هذا النهار تلمح نساء وأطفالاً أمام هذه الكهوف أو المُغر. إنها قرية ساكني المغر. ويخبروننا بعد استراحة قدّمت لنا فيها القهوة ان التلّ التالي هو «تل الادميي»، فنكمل طريقنا في واد منعزل تقوم على جانبيه تلال صخرية بنية جميلة تكسوها نبتة مريم وشقائق النعمان مع عدد لايحصى من الكهوف والمغاور. ويبدو امامنا «تل االآدميي» يغطيه عشب أخضر وتقوم فوقه آثار على علو منخفض. وهي آثار«خربة الادميي» او بقايا مدينة أدلامAdullam القديمة ونتسلق التل ونجد فوقه، وقبيل القمة التي تطل على الجانب الشرقي، مزاراً دينياً صغيراً مدهوناً بالأبيض هو مقام النبي مَذْكرْ. ونجد المنظر من التل جميلاً، حيث يمتد أمامنا وادٍ جميل (وادي السور)، والقسم الأعلى من وادي الإله، أرض سمسون والاودية التي كانت مكان تطواف داوود وتجواله. وينتشر هنا وهناك شجر البطم، إلا أن واحدة منه تبدو غير اعتيادية وتنشر ظلاً واسعاً في الوادي. أما الجانب الآخر فتلال جرداء. وبالقرب من مقام الولي كهف له فتحة منخفضة، حسن التصميم لإخراج الدخان منه ولا يزال مسكوناً. لا يرتفع الكهف كثيراً، إلا أنه متسع جداً من الداخل والكثير من شعبه أو فروعه مبنية، وهناك فتحة في سقف أحد هذه الفروع. لقد كان هناك بالتأكيد مكان هنا للاجئي داوود الاربعمائة. ومدخل الكهف مطلٌ على منظر جميل، كما أنه آمن ضد عنصر المفاجأة او المباغتة، وهو موقع مثالي للإغارة منه على العابرين في الوادي، والمسافرين نحو السهل الفلسطيني او العائدين منه.

تركنا تل أدلام وأخذنا الطريق التي توصل الى حبرون وتمر بمحاذاة وادي السور. وترتفع في الوادي، عند اتصاله بواد آخر، شجرة لعلها الأكبز في فلسطين ـEmek Elah ـ «شمخ البطم»، وتعطي الوادي اسمها أحياناً. وتبدو الشجرة من بعيد وارفة منتشرة الأغصان، والوادي وادي البُطم. ويمكن تتبع بقايا طريق قديم، سابق للرومان، يتدرج من الوادي صعداً نحو حبرون بعدما يمّر بكيلا Kheila وحراس. والوادي بعد ذلك ضيق، يعبره مجرى ماء عرضه بضعة أقدام، كما تغدو جوانبه حادة اكثر وتسمح بالكاد لعابر او لعنزة ان تتسلق درجاته الصخرية المكسورة. وعلى الطريق بضعة آبار مياه تستظل شجرة هنا أو هناك، ولا يزال بعضها يطفىء ظمأ العابرين الى اليوم. وتقوم فوق بئر من



حبرون (الخليل)

هذه الابار آثار «كيلا» Kheila ، التي تبدو اليوم منفرة وقفراً بعدما كانت يوماً مركز قيادة لداوود، ثم مدينة مسوّرة بعد ذلك. فالمكان موقع طبيعي ملائم وفي وسع بضعة اشخاص فقط إشغال ذلك المر.

ولا يستوقفنا باقي الطريق الى حبرون كثيراً؛ فإلى اليمين حراس Hhrass وتتدرج الطريق صعداً لتبلغ سفح جبل له شكل غير منتظم وذلك على بعد حوالى ستة أميال شمال شرق حبرون. تذهب الطريق في السفح بين الهشيم والمراعي ومساحات واسعة مزروعة بالكرمة مع القليل من الزيتون وشجر التين. وندخل بعد ذلك ما يعرف بوادي اسكول Escol ، رغم أن اسكول الفعلية هي على مسيرة أيام جنوباً قرب قادش بارنيا *Kadezh Barnea.

وتبدو، حيمان نقترب من حبرون Hebron، والى اليسار من الطريق الممهدة والمسورة، بوابة واسعة تقود عبر حقول من الكرمة الى بناء كبير هو النزل الروسي، الذي أقيم في محيط شجرة ضخمة قديمة، تعرف تقليدياً باسم سنديانة ابراهيم وهي ليست من البطم وانما من السنديان الذي يبقى أخضر طوال فصول السنة. وهي لثلاثمائة عام او يزيد مزاراً للحجاج باعتبارها سنديانة ابراهيم. أما سنديانة راميت أو مامر، في مكان آخر، فهي ليست من السنديان بل من البطم. عاشت السنديانة تلك ردحاً طويلاً من الزمن، وهي ستستمر كذلك ربما، إلا أنها تنحدر تدريجاً نحو العجز، وقد فقدت اخيراً نصف اطرافها . تنتشر شجرة ابراهيم ظلّها في مساحة يبلغ محيطها حوالى ١٠٠ قدم، اما قطر جذعها فيبلغ ٣٢ قدماً وارتفاعها فوق الأرض ٦ اقدام.

ونصل بعد ميل واحد الى حبرون، أو قل أمامها، لأن الطريق تعود فتذهب في ضاحيتها، «الشيخ»، في حضن هضبة، ثم تمر الى الجنوب من الحرم بالقرب من المدافن المحمدية، فيما برك حبرون تحتنا وأمامنا الجامع الشهير يرتفع خلف أبنية المدينة. ورغم أن حبرون هي أعلى من أي مدينة أخرى في فلسطين، الا أنها من المواقع القديمة القليلة التي لم تكن على تلة وانما في حضنها. وربما امتدت المدينة القديمة أكثر قليلاً نحو الشمال الغربي، إلا أن البرك والحرم يبقيان المدينة ضمن الحدود التي كانت لها، تقريباً. وتمتد جنوباً وغرباً، خارج حبرون، مراع واسعة تحفّ بها تلال يكسوها شجر الزيتون. اما الأثر الأهم الذي يميز حبرون فهو سور الحرم الكبير. ويبلغ السور ٢٠٠ قدم وهو يحيط بكهف ماكفيلا Macphila مدفن ابراهيم وأسرته لثلاثة أجيال. يقوم الحرم على مرتفع عالٍ وربما كان قبل المدينة التي يقال أنها إحدى أقدم المدن في العالم، قبل زاون، أو تانيس القديمة بسبعة أعوام (وهو أمر لا يمكن الجزم فيه) وفي ما يماثل شيثم دمشق. وتقوم أهمية حبرون لا لتاريخها القديم وحسب وأنما لاحتوائها كذلك أهم الأماكن المقدسة الموجودة في «الارض المقدسة» واكثرها موثوقية في آن. وكان قد دار نقاش حول تاريخ السور. فهو بالاضافة الى ارتفاعه وضخامته، عمل معماري رائع بحسب تعبير جوزافس «مبنيٌ من الرخام الجميل وعلى نحو متقن ورائع» وحجم بعض حجارته ضخم: إذ تبلغ احداها ٣٨ قدماً طولاً و ٣ ١/٢ ارتفاعاً، منحوتة على نحو متقن؛ وتحمل حجارة السور كلها الطابع اليهودي الحقيقي من حيث الأطراف الدقيقة، الواسعة، القليلة العمق والجميلة. ويدعم الحائط الطولي ١٦ دعامة وثماني دعامات للحائط الأقصر. ورغم النقاش والنقد اللذين أثيرا أخيراً فلا يمكن أن ينسب ذلك البناء الى ما بعد عهد سليمان. لقد اقيم البناء في عهد جوزافس الذي تكلم عنه مطولاً وباعجاب. فلو كان من عمل هيرود Herod، بطله الدائم، لكان جعله له بالتأكيد، كما يفعل في أعمال معمارية أخرى. وطالما أنه قديم فلا يمكن ان ينسب الى ما بعد الحكم العبرى، إذ يستحيل على الامة المنبعثة من جديد ان تعيد بناء مثل هذا العمل الضخم والمكلف، وهو ينسجم مع ما نعرفه عن عهد سليمان. ليس هناك في الواقع ما يكفي من حجج لرد التقليد اليهودي وغير اليهودي السائد بهذا الخصوص لأكثر من ٢٠٠٠ عام.

وسيكون مستغرباً ان يكون صاحب هذا الانجاز واحداً من أمراء هيرود Herod، لكلفته العالية ولمخالفته طابع انجازاتهم الأخرى ذات النمط الروماني والموجودة في غير مكان. وسيكون أكثر غرابة ان ينسب الى اي معماري بيزنطي في الوقت الذي لا يحمل فيه اياً من ملامح العمارة البيزنطية، لا في تفاصيلها ولا في زخرفتها ـ لا شيء سوى بساطة مؤثرة جداً.

---

*ربما تكون القدس البرآنية (م)

وهناك سور سراسني حديث حول السور القديم ومئذنتان عند الزاويتين الشمالية الشرقية والجنوبية الغربية أضيفتا في وقت لاحق، والمدخل اليه عبارة عن درج حجري والدخول ممنوع على المسيحيين، ورغم اننا تمكننا من تجاوز أمر المنع ذاك الا أنها مخالفة ومغامرة لا تخلو من المخاطر. ولم يتمكن من دخول السور في السنوات القليلة الماضية غير بعثتين ملكيتين او ثلاث، وكانت الاولى لأمير ويلز سنة ١٨٦٢، ودين ستانلي، وله ندين بدخول المكان. وكانت تقوم كنيسة بيزنطية خارج السور الأول وفي الفناء الذي كان خالياً من أي عمارة في عهود السور الاولى. ثم حوّل البناء الى جامع بعدما أزيلت اقواس الكنيسة. يحتل الجامع ثلث الفناء الداخلي، وفيه مدافن وليس أضرحة، للانبياء الأول الذي يملأ رمادهم الأرض في الكهف. ومزارا ابراهيم وسارا خارج الجامع، أما في زوايا الجامع من الداخل فهيكل قبري اسحق وريبيكا، ويعقوب وليه leah، والقبران منفصلان في مزارين متقاربين، كما أن هناك في الخارج غير بعيد عن السور، ما يقول المسلمون انه قبر يوسف الذي نقل حسب قولهم، من شيستم الى هنا. وهناك جامع على الجانب الشمالي والذي سمح لنا بالصعود الى سقفه حيث أمكن النظر من فوق الى مزارين آخرين ليعقوب وليه. اما الدخول الى الكهف نفسه فأمر لم يسمح به لأحد حتى الآن. وهناك فتحة عند زاوية ضريح ابراهيم كانت كما يبدو مدخلاً للكهف نفسه، لكنها مقفلة منذ قرون. واذا أمكن الدخول فلن يكون هناك غير رماد او غبار اولئك الأنبياء. ولكن وبما أنه قد تم تحنيط يعقوب بكل مهارات المصريين ومنزلته السامية فمن المحتمل، ولا ندري مدى دقة هذا الاحتمال، أن يكون صندوق التحنيط مازال كما هو، فما كفيلا لم تصل الى ايدي أخرى غير تلك التي أحبت الانبياء وأخلصت لهم. لم يتولّ امر المكان غير اليهود والنصارى والمسلمين وهم يعرفون تماماً قدسية المكان، اما في خلال الحكم الروماني فقد جرى إخفاء المنافذ بإحكام. ويمكن الافتراض بالتالي ان هذه الاماكن المقدسة ظلت سليمة ولم تعبث بها الايدي طوال أربعة الآف عام.

ويبقى اثر عبري آخر بارز في حبرون وهو البرك او الخزّانات. وهما في الواقع بركتان، أكثرهما أهمية هي تلك التي في الاسفل، وهي مربعة الشكل قديمة البناء من حجارة كبيرة حسنة التشذيب مساحتها ١٣٢ قدماً مربعاً وعمقها في نحو خمسين قدماً وماء البركة لا ينضب، إذ تغذيها بالماء كما يبدو اقنية تقوم تحت الأرض، وتغذي كذلك بركة أخرى تعود الى العهد نفسه، لكنها أصغر حجماً، وتقوم عند الطرف الشمالي من المدينة. وقد علّق داوود على البركة السفلى، بحسب التقليد، قتلة خصمه ايسبوشت Ishbosheth ، مقدماً من العدالة الحازمة ما يندر ان تراه في صراعات الملوك الشرقيين.

ويقدم تاريخ حبرون - خلا فترة السبع سنوات ونصف والتي كانت خلالها عاصمة مملكة داوود الجنوبية وقبل أن يمكّنه سقوط ايشبوشت من توحيد اسرائيل في القدس - أحداثاً نادرة تستحق التأمل منذ أيام ابراهيم مع ذكريات تخص المحيط بكامله. ويتصل الأثران اللذان رأيناهما، الحرم والبرك مباشرة بذلك الزمن. أما بالنسبة الى اليهود تحديداً فالذكرى أكثر حدة ومرارة. فبالقرب من حبرون وفي مكان ربما كان اكثر قداسة من ماكبيلا نفسها - حيث كان ابراهيم ينشر خيمته تحت سنديانة مامر مناجياً الله ويتلقى منه الوعد له ولذريته - تعرضّ اليهود في بيثر Bether بعيد هزيمة تمردّهم الى قمع شامل على أيدي الامبرطور هدريان الذي بعث بعشرات ألوف اسرى اليهود الى اماكن الاستبعاد عدا الذين أرسلوا الى الموت.

وتقع مامر Mamre، او راميت الخليل كما تدعى اليوم، على بعد حوالى الميلين شمال حبرون والى اليمين من طريق اورشليم. كان ذلك الطريق رومانياً يوماً ما، وكان حسن الرصف ممهداً، وكذا كان ربما في ايام سليمان المجيدة، إلا أنه اليوم اسوأ بكثير حتى مما كان عليه يوم كان ممراً جبلياً. كان ابراهيم يمر فوقه لزيارة اصحابه في حبرون. وكان المكان ضمن سلطة جيروم ومن المؤكد أنه كان معروفاً جداً في أيامه، وكان المكان على الدوام في نظر اليهود بيت



راميت الخليل موقع مامر.
مكان خيمة ابراهيم، وتعرف أحياناً «ببيت خليل».

ابراهيم. لاشيء يشير الى المكان حتى تصل اليه: هناك فقط سهل صغير يمتد حتى اقدام التلال على بعد نصف الميل دونما شجرة او أبنية خلا بعض السياجات الخربة ومساحات صغيرة مزروعة بالخضار. ونجد بضعة آبار ماء عميقة، ثلاث منها حسنة العمارة والتغليف بالحجارة ومن الواضح أنها قديمة جداً. وحول أكبرها جانبان متعامدان من سور لم يستكمل طول أحدهما ٢٠٠ قدم، والثاني ١٦٠ قدماً، ومبنيان من حجارة ضخمة لكنها غير دقيقة الأطراف.

لم يبق من الجدارين غير صفين من الحجارة بارتفاع ثلاثة واربعة اقدام على التوالي. ويصعب معرفة الغرض الأصلي من البناء الذي كان يشاد هنا، اذ لم يتبق منه غير آثار قليلة ويستبعد ان تكون الباسيلكا التي انشأها قسطنطين، اذ تقوم ابعد قليلاً صوب الشرق اثار كنيسة بيزنطية ضخمة كانت في المكان. وربما كان سوراً لشجرة بطم ضخمة كانت قبل قسطنطين مكان عبادة للمسيحيين ومن قبلهم للوثنيين، والتي قام هدوريان في ظلها ببيع أسراه اليهود. لقد كان في المكان شجرة بطم ضخمة ظلت قائمة حتى أواخر القرن الرابع، وهي التي يعتقد تقليدياً أنها كانت تظلل خيمة ابراهيم، وربما كانت هي الأصل. وتستحق قمة التلّ الواقع على طرف السهل الزيارة، إذ يبدو المنظر منها آخاذاً ومشرفاً على مساحة واسعة، كما أن فيها آثار بلدة قديمة. إلا أن المواقع الصحيحة لمدن السهل القديمة عبر طرف البحر الميت الشمالي تبدو محل أخذ ورد. فالتلّ هذا الذي كان، او يجب ان يكون كذلك، فوق مامر حيث كان يلجأ ابراهيم؛ وحيث رأى دخان المدن في السهل يتصاعد كدخان آتون. والمنظر مقفل صوب الجنوب بسبب تلال قريبة عالية، وبخلاف ما هو عليه الحال شمالاً حيث يمكن تتبع جزء من القسم العالي للبحر الميت، هضبة يهودا والافق البعيد المعتم لجبال مواب Moab وبحيث يغدو سهل الأردن نفسه محجوباً عن الرؤية. ويمكن اليوم ومن اعلى التل مشاهدة اي دخان ينبعث من أي مكان في السهل وهوّية التلّ بالتالي لا يرقى اليها الشك.

كذلك هناك في مكان قريب مزار آخر يستحق الزيارة هو مقام النبي لوط في تل عالٍ، تل بني نعيم على بعد خمسة أميال جنوب رامه Rameh، حيث يعتقد المحمديون أنه قبر النبي لوط Lût. وهنا وقف ابراهيم كما يروى، متشفعاً

لسودوم Sodom . والمنظر من أعلى الجامع جميل. وهو يطل على مناطق شاسعة بين الاردن والبحر المتوسط، ويمكن منه رؤية كامل الطريق الذي يصعد باتجاه رامه او حبرون. ولعله أحد أعلى المرتفعات الجرداء في هذا الجزء من البلاد. وتطل منه على المنطقة المحيطة بحبرون ولكن ليس على حبرون نفسها؛ ورغم أن المشهد مقفل شمالاً لكنه مفتوح على اتساع صوب الجنوب والجنوب الشرقي وفي وسعك أن ترى منه كامل البراري الجنوبية ليهودا تتدرج نزولاً، وبقوة، من كرمل النابالNabal's Carmel البعيدة ببرجها، والتي تبعد سبعة أميال جنوباً، وتشكل كما يبدو سهلاً متدرجاً وليس أودية كما هي بالفعل.

ويمكن كذلك تتبع الجبال الواقعة شرقي البحر الميت من هشابون heshbon المجاورة جنوباً، كما يمكن رؤية البحر الميت في فتحتين الاولى عبر انجيدي Engedi والأخرى للسان الرملي فيه. وحين يعتبر المحمديون المكان مقدساً فهم انما يحافظون بذلك على تقليد مسيحي، فالمرتفع هو بالتاكيد كفر باروكا kcaphr Baroucha جيرم، الذي زارته باولا باعتباره المكان الذي التقى فيه ابراهيم بالرب. أما القرية نفسها فهي مبنية بالحجارة وحسنة العمارة، وفيها بعض الآثار ومحيطها محروث على نحو جيد، وهي عملياً على أطراف المناطق الزراعية.



وادي بيراكا Berachah .
وادي النعمة لجيهو شفاط وعلى الطريق بين تكوا وطريق حبرون بيت لحم وفي البعيد خلوات البريكة وهي اثار تعلو ٢٨١٥ قدماً فوق البحر.

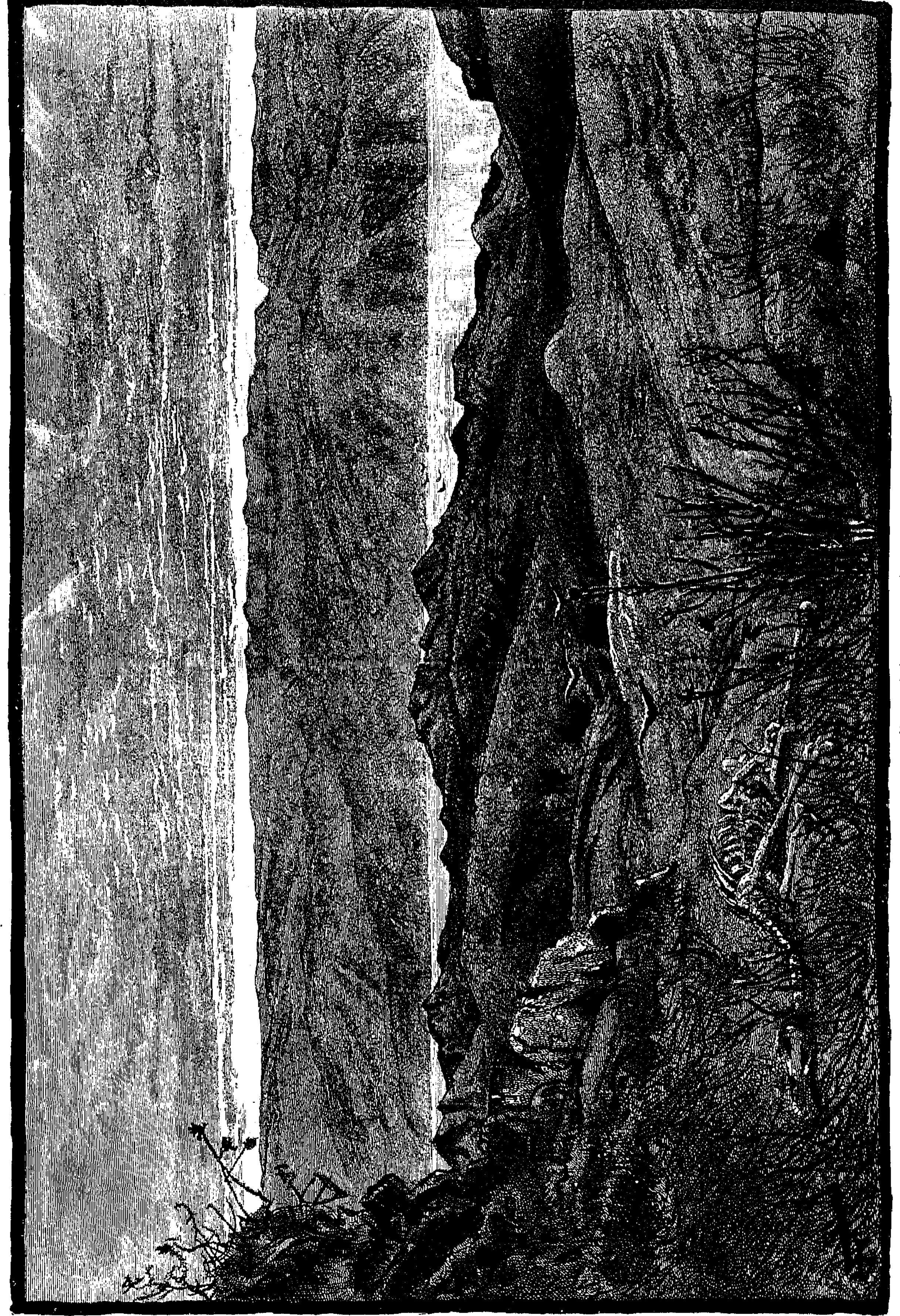
ويجب عدم الخلط بين باروكا Barouch وبيركة Berchah (Chronicles, xx 26) قرب تيكوي Tekoa وحيث ركع جوشفاط وجيشه يقدمان الشكر للرب الذي بعث الاقتتال بين الجيوش المتحالفة لآمون Ammon ومواب Moab وايدوم Edom وقبل أن تلتقي جيشه. والاسم الذي يعطونه للمكان هو «وادي البيركه»، والاسم الذي يستمر الى يومنا هذا، وادي البركي، وهو واد واسع يقع بين تكوي وطريق حبرون - بيت لحم. وهو لايقع على طريقنا مباشرة وانما يمكن زيارته باتباع الطريق الروماني شمالاً الى ما قبل ثلاثة أميال من برك سليمان، او بمتابعة الطريق الجبلي فوق الهضبة حتى تكوا ثم الانحدار مباشرة الى بركي. وتقوم غرب الهضبة منطقة زراعية، بينما المنحدرات الشرقية جرداء في شطرها الأكبر مع مراع تخص عرب التعميرة، وهي مكان مثالي لاصطياد الغزلان والماعز البري وسواها.

ونصل بعد خمسة أميال من وادي بريكي الى تكوا بعدما نعبر سهلاً صغيراً تحيط به تلال ويسمى بقعة التكوى (او التقوى). ويرتفع أمامنا تلٌ على بعض طول في أسفله ينبوع ماء وعلى أعلاه آثار. والاسم لم يتغير كثيراً فـ تكوا Teku'a هي امتداد لـ تكوا Tekoa القديمة، وكذا طبيعة المنطقة مجرد مراع موسمية، جرداء من دون شجر. ونفقد هنا مظاهر المدرجّات القديمة التي كانت من على جوانب التلال المتدرجة في كل منطقة مررنا بها وتتناثر على نحو نادر بقع خصبة في قعر الاودية. ولكن التربة جافة وصلبة كذلك مملكة النبات التي كانت تغطّي الهضاب الوسطى، وان بنسب


منظر لآثار كنيسة بيزنطية في «تكوا»

قليلة ويقوم بدلاً منها صخر كلسي معدني لا أثر للمياه فيه. وليست النباتات تلك في الدرجة الاولى غير بعض أثر الغابة التي كانت في الأزمنة الاولى تغطي كامل منطقة جودا وجبال الجليل، غير انه ما من آثر لها على المنحدرات الغربية باتجاه البحر الميت . وهكذا تقف تكوا على تخوم الحضارة. ورغم ان تكوا هي مدينة، محصّنة قوية، بالنظر لموقعها الاستراتيجي وباعتبارها مركزاً متقدماً على ممر إنجيدي Engedi، ومع ذلك فهي غير محروسة بآثار قمم المرتفعات التي كانت تحيط عادة بالحصون. قامت البلدة وسط منطقة بدوية سكن اهاليها الخيام، مثلما يفعل أحفادهم اليوم من أبناء عرب التعامرة. اما

كونها مخفراً امامياً فيتضح من الكلمات: إنفخ البوق في تاكوا واضرم إشارة النار في بيت هكريم (أي في جبل الصرح وهي القمة التي تقوم امامنا لجهة الشمال). وقد قام راحبوم Rehoboam بتحصين تكوا وجعلها أحد أقوى حصونه الحدودية. ولم يبق من ابنيتها الضخمة الا القليل، الا أن فيها اثاراً تعود الى الحقبة المسيحية وأهمها اطلاقاً الكنيسة البيزنطية مع أعمدة المذبح المكسورة وجرن كبير للمعمودية مشغول من صخر مكسي قاسٍ. وكانت سانتا سابا Saba قد أسست ديراً في المكان، ثم سكن الصليبيون المنطقة بعد إخراجهم من البلاد وقبل ان يدمّر البدو المكان من جديد.



براري جوديا (يهودا)

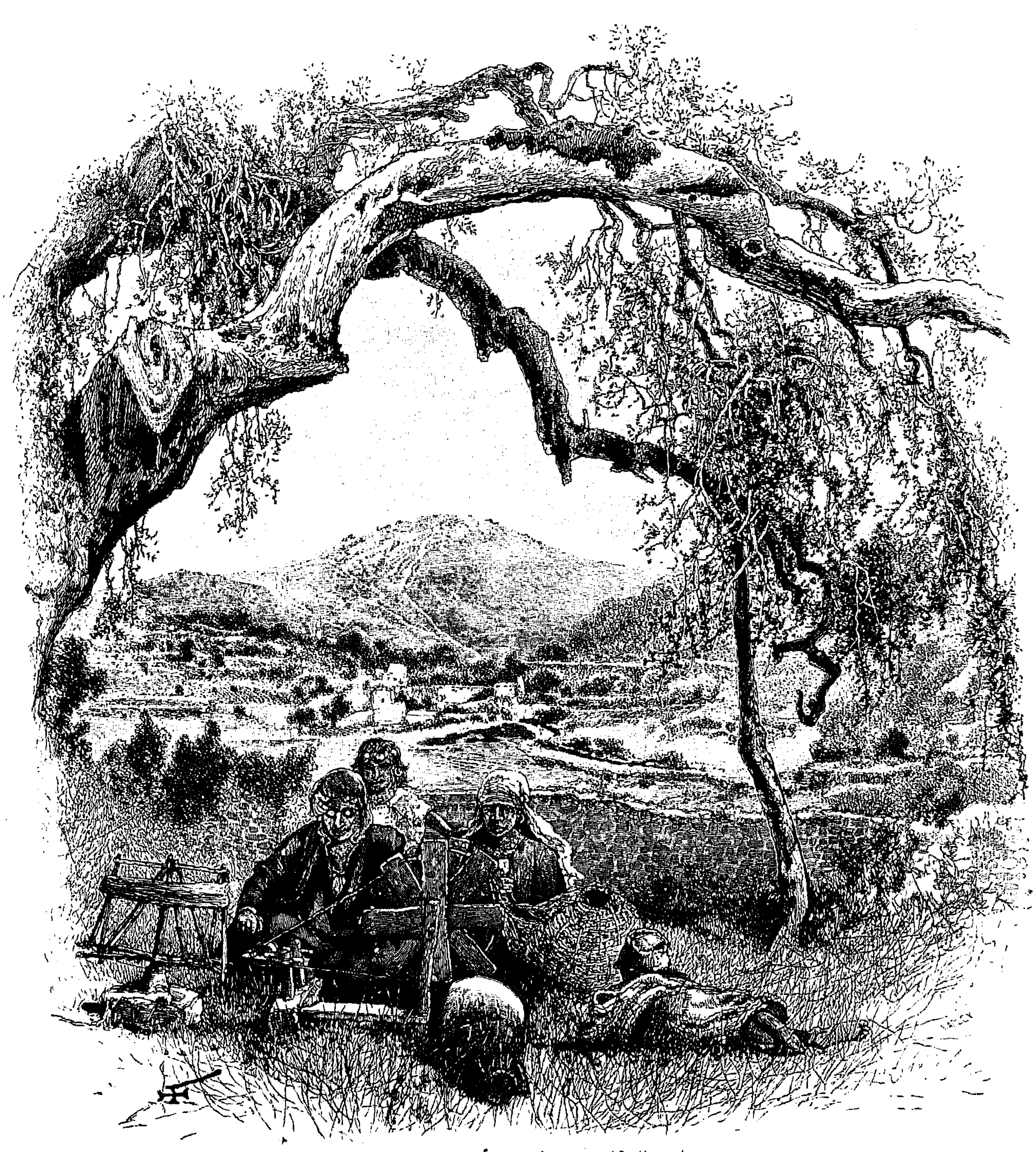
لكن أهمية تكوا لا تكمن فقط في تاريخها، وانما في حقيقة كونها مكان ولادة النبي آموس Amos، صاحب قطيع تكوا «وجامع التين البرّي» وحياته الاولى هي صورة من هذه المنطقة، واتسمت دعوته وكتاباته بنزعة شخصانية جذبت الكثير من المريدين والنقاد، من سانت جيروم، أب الشرّاح، ومن جاء بعده.

ومن تكوا الى إنجيدي* لا أثر لطريق عربات ولكن في وسعك ان تعبر مجموعة أودية تنتهي الى ممر، وادي حساسا، وادي الجيهار أو وادي الأريج. وكلها متشابهة في غياب ما يميزها، في خلوها من كل أثر لدراسة نتاجات الطبيعة البرّية، وخصوصاً النباتات البرية للهضاب العليا بالمقارنة مع تلك التي في الهضاب والسهول المنخفضة. ونهبط من تكوا التي تعلو ٢٧٨٨ قدماً الى إنجيدي التي لا تعلو اكثر من ٦٦٠ قدماً فوق سطح البحر، في منحدرات حادة. ورغم ان انجيدي لا تعلو كما رأينا أكثر من ٦٦٠ قدماً عن المتوسط فانها مع ذلك تشرف على البحر الميت من على الشير الصخري القائم فوقها على علو ٢٠٠٠ قدم. ونشاهد على الطريق بقايا أبراج قديمة، هنا او هناك، كانت عبارة عن محطات مراقبة، وربما كانت احداها «البرج - الساعة في البرية» برّية جيرول Jeruel، والتي أشار اليها تاريخ جيهو شفاط (Chronicles xx). إلا أننا لم نجد لمفردة جيرول أصلاً في الإشتقاق العربي مع انه اسم المنطقة التي تقع بين تاكوا وانجيدي. اما حازيز Hazziz، شير زيز، فلربما كانت تحريفاً لحاسيس إسم السفح الذي يقع قبل الممر.

ولا يبدو الممر متميزاً في شيء إلى أن تصل اليه. وهو عبارة عن ممر متعرّج، محفور في الأساس، لكن الطبيعة أضافت اليه، اقتطع من جانب الصخر عند الحافة الداخلية وعلى شكل نصف دائري وليمتد كحبل رفيع متعرج الى نحو ميل ونصف الميل، في ما يشبه نعل حصان، يتدرج بهدوء نحو الشاطئ وليشكل من ثم واحة شبه استوائية. شكل الممر عبر التاريخ، ومنذ أيام شيدورلور وابراهيم الممر الاجباري الذي كان الغزاة القادمون من الشرق والجنوب يدخلون هضبة جودا من خلاله. وهم يستطيعون الوصول الى إنجيدي من الشاطئ، أما بعدها شمالاً فيضيق الشاطئ الصخري حتى يكاد يتسّع لموطئ قدم، وليس هناك من مداخل أو ممرات أخرى، واذا أريد استخدام الانخفاضات الموجودة جنوب إنجيدي فان ذلك ليكلفهم عناء مسيرة طويلة عبر برّية وعرة قاحلة ولا أثر للماء فيها، إلاّ في ما ندر. ولا تزال التجارة بين اورشليم والكرك تستخدم هذا الطريق وكذا الملح يجلب عبره من جبل اسدوم Usdum.

قليلة جداً هي المناظر المؤثّرة التي تشبه مشهد البحر الميت بصفحة مياهه الهادئة وجداره الشرقي الشاهق، فمن على قمة ممر انجيدي يمكن التقاط كامل مسافة تلك البحيرة في نظرة واحدة، بينما تحتجب التلال المقابلة وسط الضباب، والبخار المتصاعد من البحر فيجعل لون جوانب الجبال كحلياً شفافاً، والقمم تترنح بين الأبيض والأزرق الشفاف. إندفعنا في الممر المتعرّج نزولاً لأكثر من ١٢٠٠ قدم، حيث يبرز شقٌ في الشير الصخري. ويغدو الممر ولمسافة الستمائة قدم الأخرى أقل إنحداراً الى أن يصل الى أسفل الصخر، حيث تنبعث عين ماء حارة وسط واحة من النباتات الاستوائية (ص ٢٠٣) «عين الجدي» تقفز كا الجدي من صخرة الى صخرة حتى تصل السهل في الأسفل. وتقوم على مستوى تفجّر الماء من الصخر وما دونه آثار نظام ري دقيق يدور حول المدرجات الصخرية على غير مستوى في الايام التي استقدم فيها النخيل وقصب السكر والكافور الى الواحة. ولا تزال الواحة الى الآن موطن نباتات شاطئ البحر الميت وطيوره وحشراته الأكثر خصوصية وتميزاً. والكثير من شجر الكافور لا يزال موجوداً كذلك يكثر الصفصاف والسكالبياد، تحوم فوق أوراقها فراشات نوبية ذات الوان غنية رائعة، بينما البلابل وعصافير الشمس تغطُّ على الأزاهير اللامعة للبارازيت الهندي. وتبقى عين جدي المكان الحقيقي لأولئك الذين يودّون اختبار بقايا مسادا، الحصن والمعسكر الروماني حوله، والتي يجب زيارتها باعتبارها تشكّل في موقعها وفي نوع عمارتها وتاريخها الآثار الاكثر تميزاً وأهمية على جانبي البحر الميت.

* اللفظة من «عين الجدي» القريبة.



وادي التفاح ويعرف ايضاً بوادي اشكول



سنديانة ابراهيم (حبرون) الخليل وهي من البلوط، كسر احد أغصانها السفلى بسبب الثلج في شتاء سنة ١٨٥٠، فقطع الى احمال ونقل الى القدس فكان حموله سبعة جمال وأرسل جزء منه الى انجلترا.

الحدود الجنوبية والبحر الميت

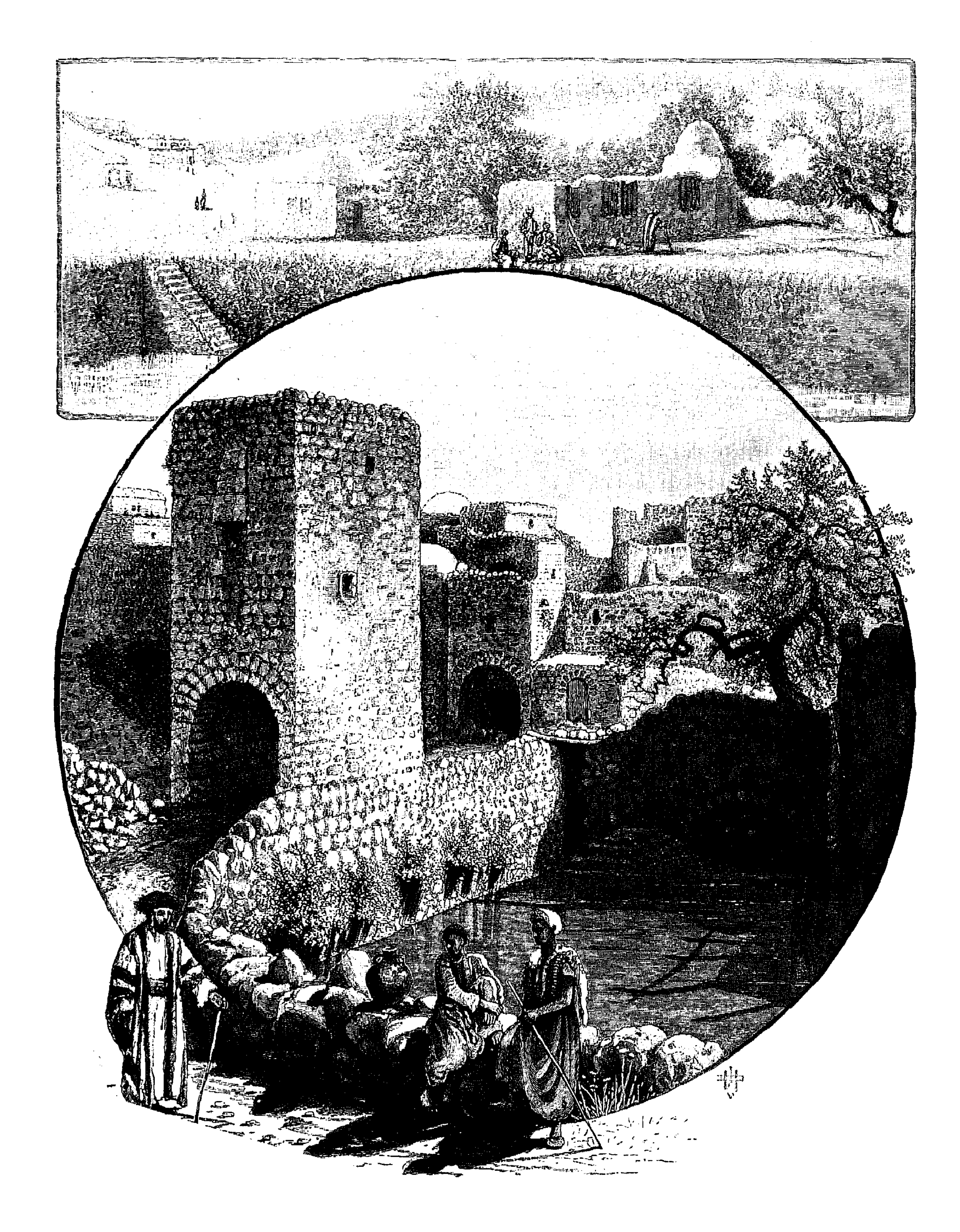
لا مكان آخر في جنوب فلسطين اكثر متعة للتخييم منه في الوادي الذي يقود الى حبرون، وادي التفاح، وبخاصة ايام الموسم وتحديداً في ظل سنديانة ابراهيم. وهذه الشجرة العملاقة، التي يبلغ محيطها ٣٢ قدماً ويدعم تاجها أربعة أغصان رئيسية طول الواحد منها ٥٠ قدماً، هي موضع إجلال باعتبارها امتداداً لسنديانات مامر Mamre، حيث خيّم تحتها الأب حينما كان يسامر زائريه من الملائكة وحيث تلقى نبأ انه سيكون له أسحق، الابن الوعد. وتقف السنديانة تلك وسط مساحات من الكرمة الى الشمال الغربي من حبرون، وقد ابتنى الروسُ حول الجزء الأسفل من جذعها حائطاً من الحجارة، ولهم تعود ملكية الحقل الذي تقع فيه الشجرة. وتعرف الشجرة باسم «بلوطة السبت»، ويعتقد ان عمرها يناهز المئتي عام وكانت الافتراضات المختلفة قد وضعت هذه الشجرة في مواقع مختلفة. ويذكر جوزافس «شجرة بطم كبيرة جداً ما زالت قائمة منذ بدء العالم» وتقع على بعد ستة فراسخ من مدينة حبرون. ويضع القديس

جيروم مكانها في ما يعرف اليوم بـ «راميت الخليل»، الموقع التقليدي لمامر وحيث عثر على بقايا سور حجري ضخم وجدار ضخم وآثار أخرى؛ كذلك يتكلم سير جون ماندفيل على «بلوطة ابراهيم» Abraham's Oak الا انه يصفها «بالشجرة الجافة». ويكتب الرحّالة القديم: «وهم يقولون إنها كانت هناك منذ بدء العالم، وانها كانت يوماً خضراء وإنها كانت تحمل أوراقاً الى حين مات رُبنا على الصليب، فماتت وماتت كذلك كل الاشجار التي كانت موجودة آنذاك في العالم» اما البلّوطة الحالية «بلوطة السبت» في وادي التفّاح، فهي خضراء نامية، ويتناسب الوضع الذي تحتله مع وصف الانجيل لمامر. وسيكون من المنطقي الافتراض أنها متحدرة من الغابة القديمة. والبلّوط في العادة لايتطور إلى أحجام ضخمة لإن الماعز تقضمه وهو بعدُ يانع، ولكن قد تنجو واحدة أسطورية فتبلغ حجماً ضخماً. وفي كل حال فان عبادة الشجرة هو طقس ديني بدائي انتشر طويلاً. ويذكر الانجيل مرتين غابات في «أماكن عالية» وأماكن عبادة أخرى، ومعبد زيوس داندرايس في دودونا Dodona والذي كان شجرة بلوط. . ويكتب مكسيموس تيريس عن دين الدرودس، حيث «صورة زيوس السلتي هي شجرة بلوط عالية». وكانت الغابات متصلة بعبادة الالهة الكذبة، وهكذا منع الاسرائيليون «من غرس اية شجرة قرب هيكل الرب» (راجع xvi,21 Deut) ونجد هوسيا Hosea (iv,13) رغم ذلك المنع، ينعي ان الناس «ما زالوا يقدمون الأضاحي على قمم الجبال ويحرقون البخور على التلال وتحت شجر البلوط والحور والدردار.» ويجب ألاّ يأخذنا العجب إن نرى الشجر المرتبط الى هذا الحد بالأحداث الأكثر قداسة في حياة «أب الجنس اليهودي» هي دائماً موضع إجلال أحفاده، وأن تبقى ذكرى المكان على الدوام وتغرس شجرة فيه رمزاً لهذا الارتباط الخاص.

وعلى مسافة نصف ساعة أخرى تقع حبرون، او كما تسمى اليوم «مدينة الخليل»؛ «خليل الله» وهو اللقب الذي يضيفه المحمديون على ابراهيم (سانت جايمس ii,23). قليلة جداً هي الأماكن التي تعادل، في فلسطين، قداسة هذا المكان. ففي هذا المكان اشترى ابراهيم من إفرون الحيتي Ephron The Hittite كهف ماكبيلا ليستخدمه مدفناً له ولأسرته. ومن حبرون أرسل يعقوب ابنه يوسف الى سيشم Sichem عندما ألقي بالحالم في البئر من قبل أخيه وبيع الى المدينيين. وخرج يعقوب الكهل بعد ذلك الى مصر عن طريق بيرسبع والى هنا جلبت عظام الأب لترتاح قرب رفاة نسيبه. أهملت حبرون في عهد جشوا، وأعطيت ضواحيها الى كاليب Caleb . بينما جُعلت المدينة نفسها ملجأ لأسرة آرون Aaron . لكن داوود وبعد مغامرات الشباب في براري يهودا عاد فاستقر في حبرون لسبعة أعوام ونصف، إلى أن انتقل، وبعد ما أصبح حاكما على كامل أرض اسرائيل، الى اورشليم مقراً لحكومته. وذبح يعقوب أبنر Abner على بوابات اورشليم، وعند برك حبرون أعدم داوود إشيوشيت ابن صول Soul. والى حبرون قصد المتمرد أبسالوم «ليفي نذره»ويقدم الأضاحي الى هيكل يهوڤا بعد نجاح تمرده ضد أبيه، فقد كانت حبرون وكما هي اليوم ، الثانية في القداسة بعد اورشليم نفسها. والاسم القديم لحبرون هو «كريات أربع» أي مدينة الاربعة، وهم الاباء الأول ابراهيم، اسحق، يعقوب وآدم. لكن التوراه تحتفظ بتفسير مختلف حين تقول «وكان اسم حبرون من قبل كريات أربع، وكان أربع او أربا رجلاً عظيماً بين الأناكيم Anakims» (يوسف، xiv.15).

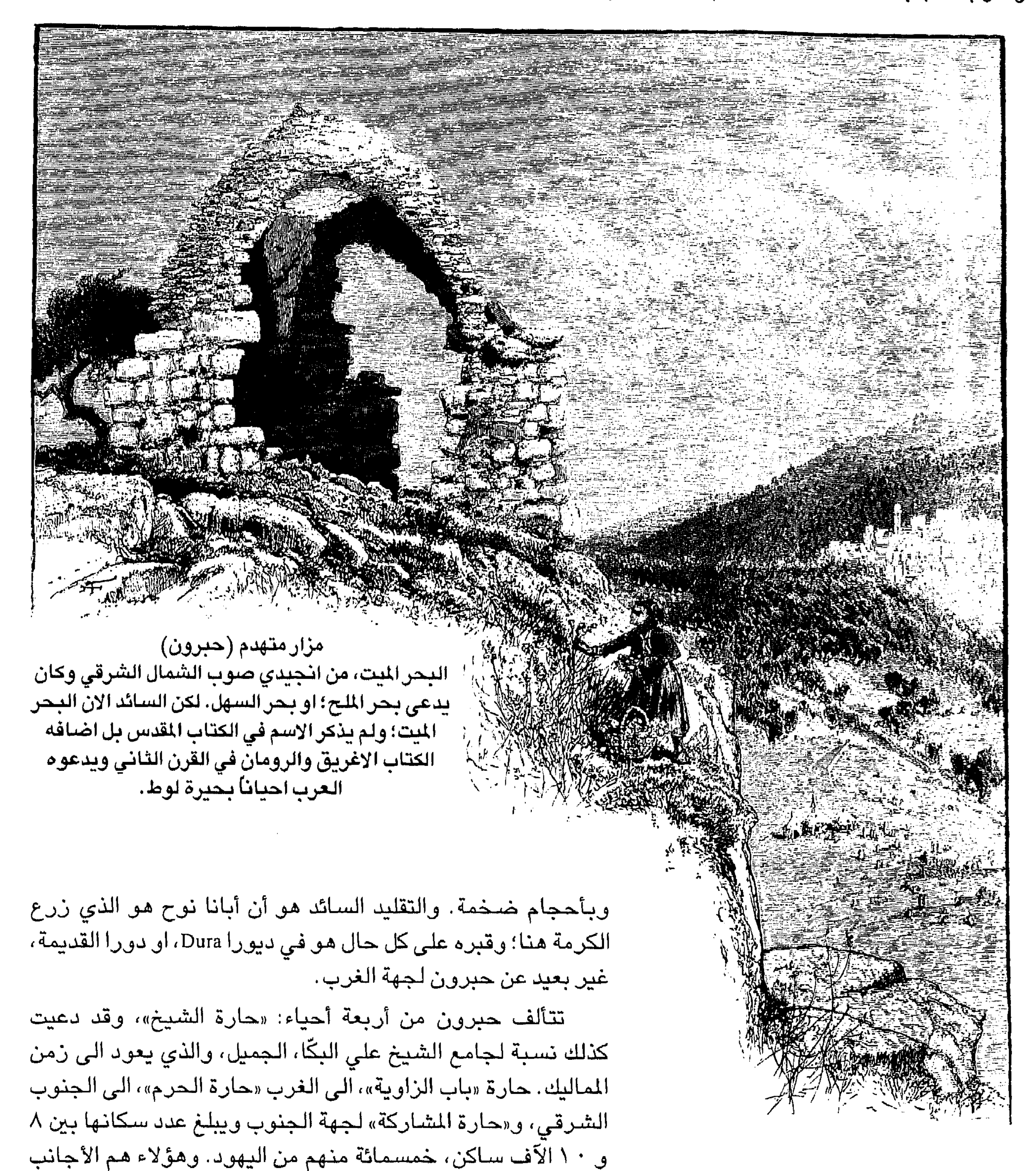
لا تقوم حبرون وبخلاف معظم مدن فلسطين، على تلٍّ او هضبة، وانما هي في الجزء الضّيق من وادي الخليل وهو امتداد لوادي التّفاح. إلا أن البعض يظن أن المدينة القديمة كانت تقوم على تلٍّ الى الشمال الغربي من المدينة الحالية الحديثة: وربما اتفق هذا مع رواية الكتاب الذي يذهب الى أن ماكفيلا كانت «في حقل قبل مامر وكذا حبرون» ومن السهل بالتأكيد ان نتصوّر كيف تنشأ مدينة حول موقع مقدس، بينما المدينة الأصلية ربما تكون قد اختفت. ومحيط

المدينة خصب للغابة وانتاج الكرمة في الوادي الى زراعات أخرى وافرٌ وطيّب. ويحتمل أن الموقع الذي نبحث عنه كان



بركة الخليل (حبرون)
البركة الكبيرة تبلغ مساحتها ١٣٢ قدماً وعمقها ٢١ قدماً ، وهناك درجات توصل الى قعرها في كل زاوية، والاخرى ٨٤ قدماً طولاً ٤٤ قدماً عرضاً ، والمبنى فوق الكرنتينا.

قائماً على المسطّح الجبلي جنوب يهودا، والذي يشكل اليوم جزءاً من «صحراء التيه» بينما كان في السابق خصباً كما فلسطين نفسها. ورغم أن المكان هو اليوم جرد مقفر بسبب النقص في المياه، فان هناك آثار أعمال زراعية قديمة كبيرة، ومدرجات جنبات التلال مغطاة بركام غير منتظم مازال يدعى «تليلات العنب» وعنب حبرون ينمو في ثريات جميلة



مزار متهدم (حبرون)

البحر الميت، من انجيدي صوب الشمال الشرقي وكان يدعى بحر الملح؛ او بحر السهل. لكن السائد الان البحر الميت؛ ولم يذكر الاسم في الكتاب المقدس بل اضافه الكتاب الاغريق والرومان في القرن الثاني ويدعوه العرب احياناً بحيرة لوط.

وبأحجام ضخمة. والتقليد السائد هو أن أبانا نوح هو الذي زرع الكرمة هنا؛ وقبره على كل حال هو في ديورا Dura، او دورا القديمة، غير بعيد عن حبرون لجهة الغرب.

تتألف حبرون من أربعة أحياء: «حارة الشيخ»، وقد دعيت كذلك نسبة لجامع الشيخ علي البكّا، الجميل، والذي يعود الى زمن المماليك. حارة «باب الزاوية»، الى الغرب «حارة الحرم»، الى الجنوب الشرقي، و«حارة المشاركة» لجهة الجنوب ويبلغ عدد سكانها بين ٨ و ١٠ الآف ساكن، خمسمائة منهم من اليهود. وهؤلاء هم الأجانب الوحيدون الذين سمح لهم بالاقامة في المكان، وهم لا يمارسون تجارة او صناعة ، وانما يعيشون على الإعانات التي يرسلها أخوانهم في اوروبا والتي يقابلونها بالدعوات والصلوات لهم في هذا المكان الخاص المقدّس*.

وأول ما يقابلنا حينما ندخل المدينة هو مبنى الحرم الذي يشبه قلعة مربعة الشكل بأسواره المهيبة وحجارته الضخمة، وتحيط هذه الاسوار بالجامع الذي يغطي اليوم كهف ماكفيلا. وبحسب التقليد اليهودي فقد كان سليمان

*في حبرون معمل زجاج قديم ومهم ينتج زجاجاً ملوناً جميلاً كما ان فيها مغازل وانوالاً للسجاد بدائية.

أول من أنشأ الضريح، ثم أصلحه آثر Esther وأعادت الامبراطورة هيلينا ترميمه بعد ما كان هدم او آل الى الإهمال والخراب. وجدران الحرم في حبرون هي اكثر نماذج هذا النوع من العمارة كمالا في فلسطين كلّها، وتبزّ حتى الاجزاء القديمة من جدران منطقة الهيكل في اورشليم. لا تزال حجارة اسوار الحرم مصفوفة كما كانت، بعضها الى بعض. ولا تشي ظاهراً بهذا التاريخ، كما لا يلاحظ نمو نبتة واحدة بين حجرين. أما البناء الذي كان قائماً داخل الاسوار والذي يشغل مكانه الجامع اليوم فقد كان، بناء حجرياً مربع الشكل يشبه كعبة مكّة، وقد أشير اليه في «حجّاج بوردو» سنة ٣٣٣ ميلادية. وكان بنيامين التوديلي، وهو يهودي مثقف زاره سنة ١١٦٠، قد وصف «كنيسة القديس ابراهيم الضخمة» والتي كانت يوماً ما ضريحاً يهودياً، رغم أن أضرحة الأباء فيها قد اعيد بناؤها من قبل المسيحيين. وهو ينسخ عن لوح عبري الكلمات التالية: هذا هو قبر ابراهيم، أبينا، عليه السلام». وتلّف العتمة الجامع، من الداخل، ولا يضيئه غير ضوء يدخل من الجهة الجنوبية، إلا أن هناك قناديل كثيرة تضاء ليلاً نهاراً في محيطه وتلقي ضوءاً خافتاً على الزخرفات الذهبية والفضية القائمة على جدرانه. والدخول الى الجامع ممنوع تماما الا على المحمديين، وقد أُذن بزيارته بفرمان خاص صادر عن السلطان لأمير ويلز سنة ١٨٦٢، وللمركيز دي بوت سنة ١٨٦٦، ولولي عهد بروسيا سنة ١٨٦٩، ولأبناء امير ويلز في السنة الحالية ١٨٨٢.

وبين هذه جميعها، تبقى زيارة أمير ويلز الاكثر إثارة. وكان في صحبة صاحب السمو دين ستانلي، الذي وصف الحدث لاحقاً فكتب: «كان حاكم القدس ساراي باشا قد اتخذ، قبل وصولنا الى حبرون. كل التحضيرات والاجراءات التي تضمن سلامة رحلتنا. وكانت الطريق قبيل الوصول الى حبرون ولأكثر من ميل ملأى بالجنود على الجانبين. إلا أنه لم يكن هناك اثر للسكّان المحليين، والذين كانوا يحتشدون عادة في استقبال مثل هذا الضيف، وذلك إما بالاكراه من قبل الحاكم او انه شكل من الاحتجاج الصامت. بلغنا مرجاً أخضر امام المدينة تقوم فوقه كرنتينا. وكان ساراي باشا هناك في انتظارنا. وكانت الترتيبات تقضي ان يرافق صاحب السمو شخصان من المجموعة هما الاكثر معرفة بالتفاصيل التوراتية، مما يعني ان للزيارة هدفاً آخر غير مجرد الفضول، وأن لها غرضاً علمياً عميقاً. إلا أن الحاكم كان مخوّلاً ليعطي الأمر بان يرافق الطاقم بكامله صاحب السمو، فكانوا سبعة أشخاص اضافة الى الامير، وظل الخدم بعيدين. بدأنا جولتنا سيراً على الاقدام، كل اثنين معاً يليهما صف من الجنود، ثم اثنان آخران وهكذا دواليك من بركة حبرون القديمة ثم صعداً في شوارع البلدة الحديثة، ودائماً بين صفوف الجنود. لم نر وجهاً واحداً آخر، خلا واحد هنا عند نافذة، او آخر على سطح منزل مطلّ، وذلك بهدف المراقبة وتأمين أقصى درجات الأمان للموكب. لقد كان احتلالاً عسكرياً للمدينة، في الواقع. وبلغنا بعد طول مسير الزاوية الجنوبية الشرقية من حائط السور، وحيث كان الزائر جيلاً بعد جيل يدخل من هذه النقطة الى أحد اكثر الأماكن قداسة في الأراضي المقدسة.

«صعدنا بسرعة فوق الدرج الحجري وهو على انحدار واضح، فيما كانت صفحة الحائط من الداخل مصقولة كما الرخام بحسب تعبير جوزافس. وكان في وسعنا وقد بلغنا رأس الدرج الطويل، مشاهدة صحن الجامع فبدا أنه أقيم على الجزء العلوي من المنحدر، وفوق مستوى المكان الذي يجب أن يكون فيه الكهف، اذا كان هناك من كهف اصلاً، وهكذا أصبحنا في الداخل وشاهدنا للمرة الأولى السور من جانبه الداخلي وهناك حائط أضيف في العهد المحمدي فوق السور اليهودي والسور من الداخل لا يرتفع عن سطح الأرض اكثر من بضعة أقدام. استقبلنا هنا خمسة أو ستة أشخاص مسؤولين كما في تقليد مسؤوليات الكاتدرائية المسيحية، لقد كانوا ممثلين للأربعين من الحراس المتوارثين للجامع.

«وعبرنا في الحال ممراً مفتوحاً الى داخل الجامع.

« ... يحتل المبنى بكامله ثلث المساحة العامة للمكان...

«واتقدم الآن لوصف أضرحة الأباء، مع التذكير دائما أن هذه الأضرحة، وكما في كل الجوامع الاسلامية، وفي معظم أضرحة الكنائس المسيحية كذلك، ليست أماكن الدفن الحقيقية، وانما هي نصب او أضرحة على شرف الميت القابع تحت الأرض. وكل ضريح سوّر بهيكل منفصل او مزار مقفل ببوابة او بشبكة حديدية في ما يشبه الأضرحة الملكية في وستمينيستر آبي Westminister Abbey . وأول اثنين من هذه المزارات يقومان في الرواق الداخلي قبل المدخل المفضي الى المبنى الفعلي للجامع، مزار ابراهيم في زاوية الى اليمين ومزار ساره الى اليسار، ولكل واحد منهما بوابة من الفضة؛ وطلب منا عدم دخول مزار ساره لأنه مزار إمرأة، وقد ألقي فوقه غطاء من القماش. وبعد لحظة تردد فتح لنا مزار ابراهيم، ولم يخف الحرس غضباً ظاهراً. إلا أن رئيسهم التفت صوبنا قائلاً: لا يستطيع أمير دولة في العالم أن يدخل الى هذا المكان الاّ على جثتي، ولكننا تنازلنا عن ذلك كله من أجل الابن البكر لملكة انجلترا». ثم وقف أمامنا، وأدى

الصلاة امام ضريح الميت:«يا خليل الله، أغفر لنا إساءتنا». ودخلنا بعد ذلك. كانت الغرفة مغلقة بالرخام. وكان هناك بناء صغير يشبه الكفن يرتفع ٦ أقدام مبني من الحجارة المغلّفة او الرخام، وتتدلى ثلاث سجاجيد موشاة بالذهب. وقيل لنا أنها مقدّمة من محمد الثاني، فاتح القسطنطينية (١٤٥٣م) سليم الأول، فاتح مصر، (١٥١٨م) والسلطان عبد المجيد. شعرنا أمام الضريح المفترض برعشة تهزّ الكيان. بعثها جزئياً هذا الشرف الخاص الذي منح في مناسبة نادرة



جبال مواب من انجيدي.
عرض البحر الميت في هذه النقطة هو تسعة اميال

للدخول الى هذا المكان والذي لا يمنح «الاّ الى ممثل إنجلترا»، كما قيل لنا تكراراً.

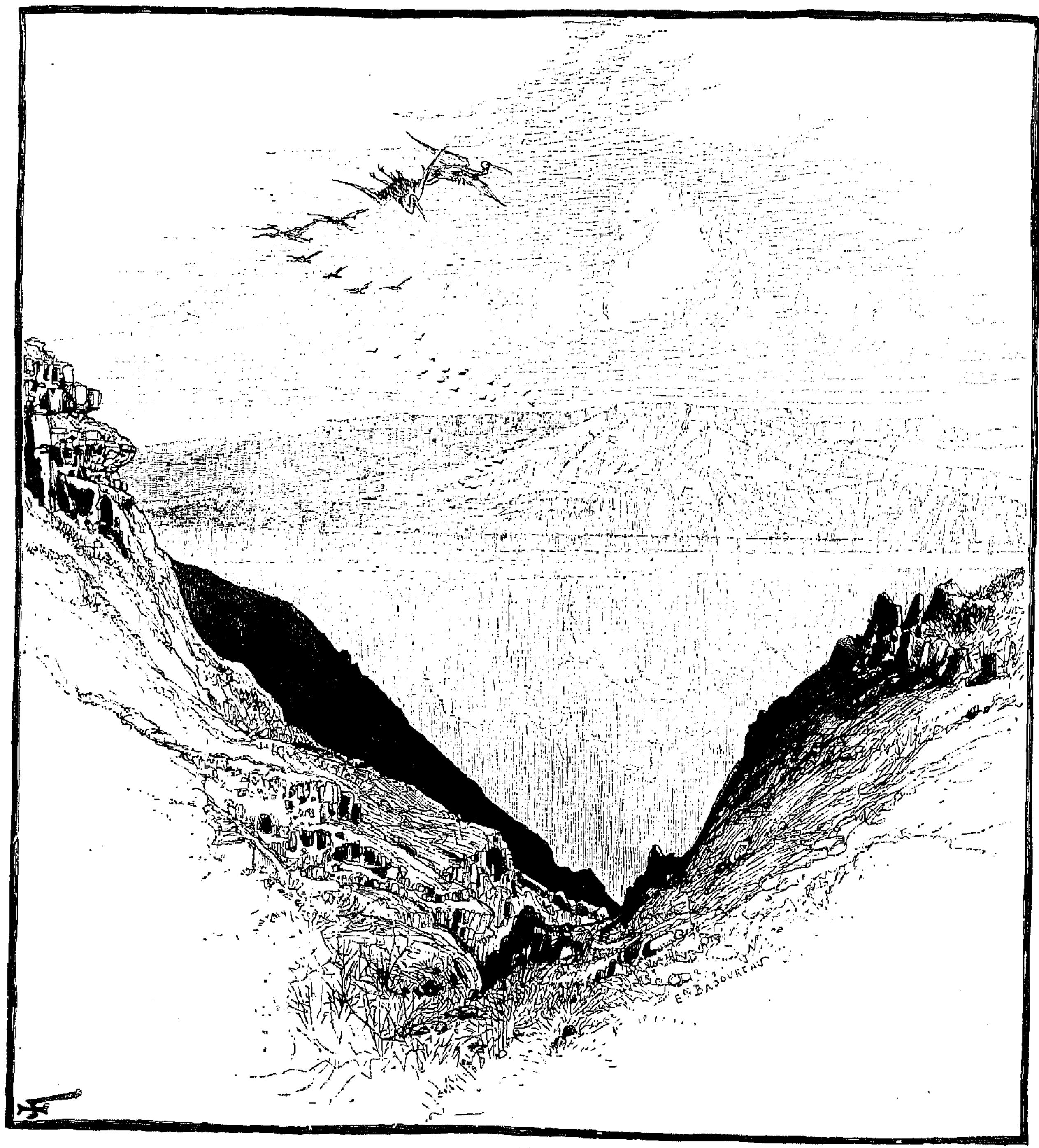
والآثار الأخرى المهمة في حبرون هي «البركتان». تقوم الاولى وهي الكبرى، في اسفل الوادي، والذي يبدأ في الانخفاض بعد ذلك ليصل الى حدود بير سبع. أما الأخرى فهي في أعلى الوادي ويبلغ حجمها نصف حجم الاولى. وقد شهدت الاولى إعدام إسبوشت Isbosheth.

ويمكن للمسافر أن يتوجّه من حبرون الى الطرف الجنوبي من البحر الميت في رحلة طويلة لكن ممتعة تستغرق سبع او ثماني ساعات. واذا تسلقنا منحدرات جبل جوبار جنوب شرق حبرون نصل بعد ساعة ونصف الساعة الى تل صغير الى يسارنا يدعى تل زيف Tell Zif. وهو زيف الكتاب المقدس The holy writ وتقوم آثار على تلّ منخفض بين واديين صغيرين ينتهيان الى البحر الميت. وكان داوود قد لجأ الى جوار هذه البلدة فاختبأ فيها (سام xxiii,24) ، وتجوّل كالطريد في البراري «واجتمع حوله كل بائس، وكل قلقٍ وكل متألم» حتى بلغ عددهم ٤٠٠. حاول سكان زيف مرتين تسليمه الى جلاّديه وجرى تحصين المدينة بعد ذلك على أيدي راحوبوم Rehoboam. لكن شيئاً لا يذكر عنها بعد ذلك خلا إشارة جيروم في الاونوماستيكون Onomasticon . ونصل اذا تقدمنا شرقاً لحوالى الساعة الى وادي كبرا khabra، حيث ندخل

للمرة الاولى في القفر العظيم ليهودا. فنمر في سهل واسع يخيم فيه البدو، ونصل بعد طول مسير الى ممر أنجيدي، حين يظهر أمامنا البحر الميت وجبال مواب Moab الوعرة.

إذا كان الفصل شتاءً، والسماء مكدسة بالغيوم، والضباب الخفيف يحجب الجبال وبخار يتراقص فوق الماء، فالبحر الميت يكون حينئذ كذلك فعلاً: لاشيء يشير الى حياة، ولا صوت يقطع ذلك الصمت خلا وشوشات الموج. والشاطئ نفسه صورة أخرى للوحشة القاتلة، تغطّيه قشرة من الملح الأبيض لا تنكسر الا عند مستنقع طيني أسود او عند بركة من المياه المالحة هنا أو هناك.

لكن البحيرة المالحة تغدو أيام الصحو والشمس المشرقة شيئاً مختلفاً تماماً. فالمياه الشفافة تتراقص جذلى وتتدرج الى ما لا نهاية كالياقوت الازرق بينما الجبال تتوهج ألواناً ألواناً؛ ثم تدّب الحياة فجأة فاذا أسراب اللقلاق ومالك الحزين وطيور أخرى تروح وتجئ في الفضاء. ويزخر الغور، او الارض المنخفضة، عند الطرفين الشمالي والجنوبي من البحر بخضار استوائية غنية جداً، والغدران التي تأتي من بين شقوق المنحدرات الصخرية تشقّ طريقها نزولاً فيصل بعضها البحيرة.



البحر الميت

تمتد جبال مواب Moab كمسطح صخري فسيح قبل ان يبدأ بالتدرج نزولاً في اتجاه الغرب صوب البحر الميت ووادي الاردن في شكل منحدرات صخرية حادة. ويستثير المشهد تداعيات تاريخية عميقة: تنشقّ تلك المنحدرات، كما تراها من انجيدي، عند المنخفض الكبير لوادي موجب Mojeb، أرنون التوراة The Arnon of the Bible، ومن على المرتفعات البعيدة Balaam blessed Israel يمكنك ان تتخيّل موسى محدقاً في أرض الميعاد والتي لم يدخلها ربما.

ويدخل في البحيرة في قسمها الجنوبي الغربي رأس رملي يدعى اللسان، وفوقه في البعيد صخرٌ عالٍ مهيب كانت تقوم فوقه في العصر الوسيط قلعة الكرك Kerek وقد ذكرت الكرك في التوراة باسم Haresh Kir - Hareseth أو Heres وكان الأمر على الدوام موضع حيرة الشرّاح واللغويين. وحينما عثر على «الحجر الموابي» Moabite * stone في ديبان، أو ديبون Dibon القديمة تبين لي ان كلمة حارس Harith تعني في العامية المحلية «التل الذي تحيط به ابنية» وعليه فحارس في العربية هو مرادف حاريش Haresh في العبرية، وكيرهاريش تعني بالتالي «المدينة التي على التل» وهو وصف ينطبق على الواقع تماماً خصوصاً حينما تراه من حيث نقف الآن. وفي ذلك إحياء للفظة موابية قديمة جداً ولسياق طويل من الاحداث والعادات واللهجات التي وردت في التوراة. كانت الكرك Kerek المشهد الأخير من الفصل الأخير من التراجيديا المرعبة في تمرد ميشا Mesha والذي سجّل بعض من خلفه خبر الانتصار على اسرائيل على حجر موابي. وهنا وبعدما فشل الملك الموابي في اختراق خطوط الجيش الذي يحاصره «أخذ ابنه الاكبر والذي يجب ان يخلفه على العرش وقدمه ضحية لتحرق على السور» وفي أواخر العهد الصليبي تولى أمر قلعة الكرك الفارس المشاغب رينالد شاتييون الذي كسر عهد الأمان المتفق عليه مع صلاح الدين وهاجم قافلة حجّاج مسلمين أيام السلم، الأمر الذي قاد الى سقوط المملكة المسيحية في فلسطين بعد ذلك.

لا يبدو الشاطئ للعابر إلا حينما يبدأ بالهبوط من الممر الصخري، والذي يوصله بعد مسيرة نصف ساعة الى عين جدي والاسم الحديث لهذه العين، «عين الجدي» يتفق تماماً في المعنى والواقع مع انجدي التي ذكرها الكتاب المقدس.

ويتفجر النبع من تحت صخر ضخم فوق مدرج صخري على ارتفاع ٤٠٠ قدم فوق مستوى البحيرة، وينهمر فوق منحدر عالٍ وتغطي مجراه نباتات استوائية فوق أرض طينية. يتكسّر المجرى فوق الصخور ألى أن يتجمّع من جديد، أسفل المنحدر، في بركة هادئة تحيط بها الدفلي ونباتات وشجيرات أخرى. وتمتصّ جذور تلك الغابة الصغيرة مياه المجرى فلا يكادُ يصل شيء منها الى البحر. ومياه النبع حارة، (٨٣ درجة فهرنهايت) ، طعمها حلو يخالطه شيء من الكلس. وحول النبع مقصبة كبيرة ودغلٌ من الزيزفون والعليق والسيدر Sidr او الدوم Dom عند العرب ومعروف بطعمه الحلو. وهناك كذلك الكثير من «ظل الليل» أو «البيض» او «التفّاح المجنون»، والهوشر Osher، وهو نبات يندر وجوده خارج المناطق الاستوائية، ويحمل ما يدعى بـ بتفاحات سودوم».

وتنبت هنا أيضاً وبكثرة الأكاسيا المعرشة، او «شجرة شيتيم» في الكتاب المقدس. وربما كان موقع المدينة القديمة تحت النبع، إذ يقوم في الجوار آثار أبنية عديدة تبدو قديمة العهد. وكيما نصل الى مستوى البحيرة علينا ان نهبط نحو ٣٣٠ قدماً عبر ذلك الدغل مع مجرى النبع ووسط منحدر وعر متعرّج. وضفاف الغدير مزروعة بمقدار ما يتوفر الماء وهي لعرب الرشايدة. وهناك الى الشمال عيونٌ ماء أخرى هي «عين الترابية»، «عين الغوير» «والفشكة» والأخيرة أكبرها وأغزرها ماء، لكن ماءها مالح الى حد كبير، وتبقى عين الجدي المصدر الوحيد للمياه العذبة على الشاطئ الغربي. ونتوقف طويلاً على شطآن البحر الميت تأخذنا الوحشة والعزلة بعيداً في التاريخ وأحداثه المرعبة التي تتصل بشكل أو بأخر بهذا المكان.

وهنا نحن، بالتأكيد، في جيرة مدن السهل رغم الخلاف على تعيين موقعها الدقيق. ويذهب التفسير الرسمي الى انها عند الطرف الجنوبي للبحيرة، وهو ما يتفق مع طبيعة جغرافية المنطقة. ويخبرنا سفرالتكوين (xiii.10) ان «سهل الاردن بكامله كان مروّياً، قبل أن يدمر الرب سدوم وعموره، كما حدائق الرب، وكما ارض مصر، وفي الفصل الرابع عشر (P.3) يعود فيخبرنا أن الملوك المتحالفين «التقوا في وادي سيديم، وادي البحر المالح»، أو ما أصبح يعرف بالبحر المالح زمن الكتابة تلك. وقد أثبتت أبحاث لينش أن الطرف الجنوبي من البحيرة أعمق بحوالى ١٣٠٠ قدم عن الطرف الشمالي ويشير الى إنخساف حدث في طبيعة المكان.

---

*نسبه لجبل مواب [م]

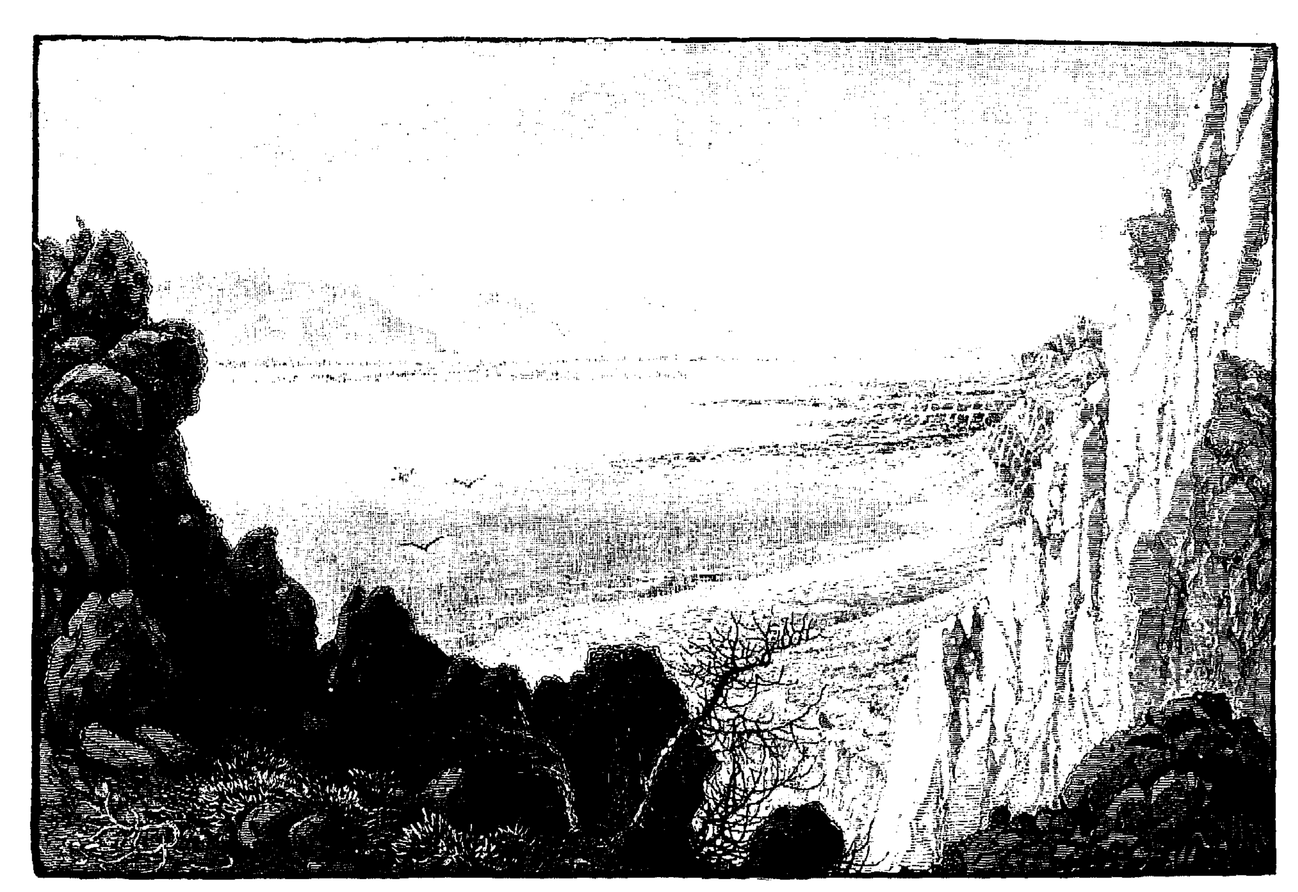
ويفترض عدد من الكتاب أن الذي حدث لسودوم sodom وشقيقاتها من المدن الأخرى هو انفجار بركاني رافقه زلزال أرضي. ويتفق الافتراض هذا مع لغة الكتاب، فذكر سفر التكوين لوجود «بقع لزجة (اسفلتية)» في الجوار، وان



انجيدي «عين الجدي»

ابراهيم رأى «الدخان يتصاعد من البلاد كما من فرن» هو بعض التأكيد على مثل هذه الظواهر. فالبقع الاسفلتية اللزجةلا تزال تتناثر هنا وهناك، كما أن هناك اتفاقاً على أن في باطن المنطقة نشاطاً بركانياً، ولا يمكن فهم الطبيعة الظاهرة للمكان الا اذا اخذنا برواية الكتاب المقدس وذهبنا الى الأخذ بالافتراض الذي يقول بغرق وادي سيديم siddim حين غمرتها مياه البحيرة.

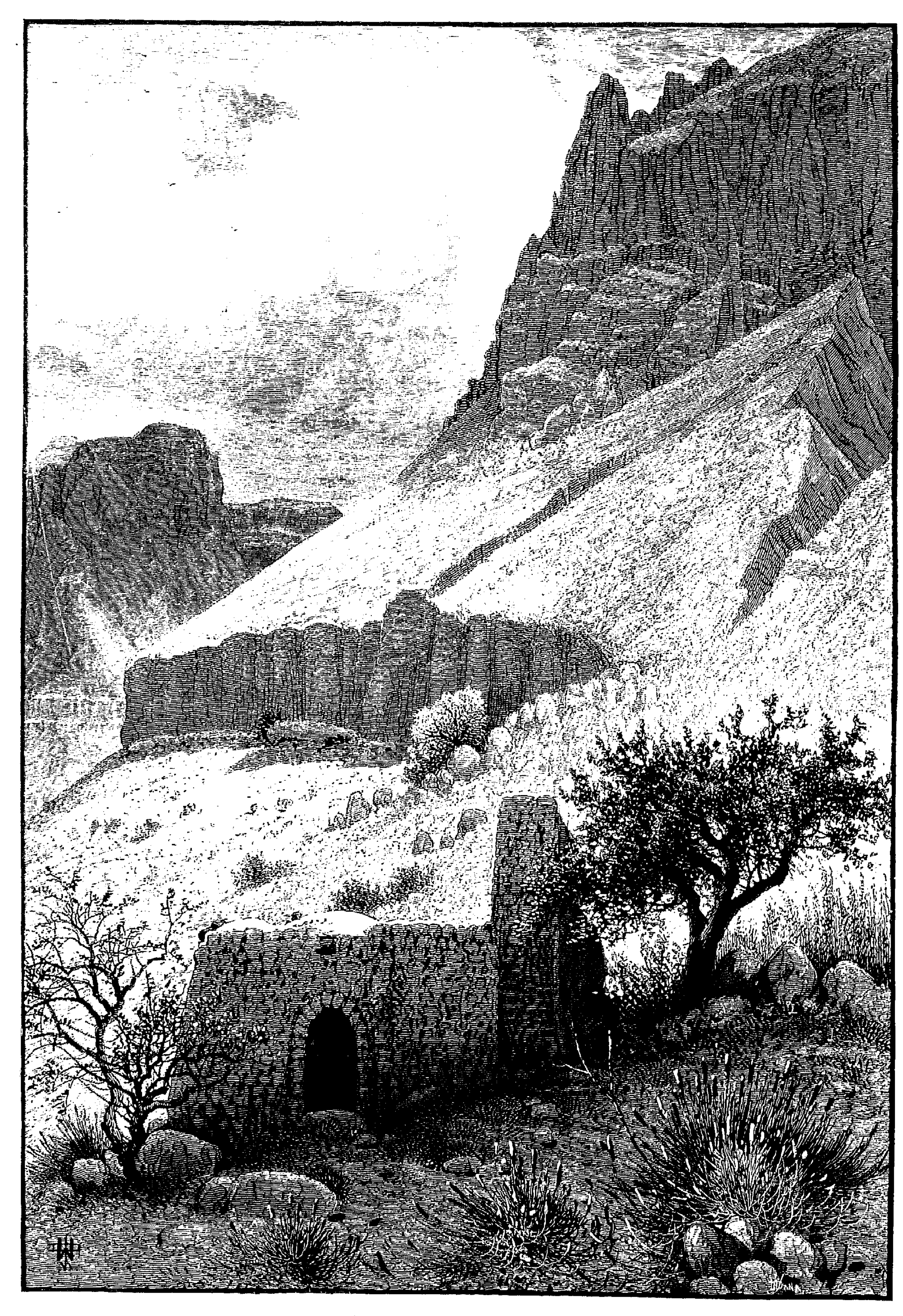
تقفل البحر الميت، الذي يبلغ طوله ٤٦ ميلا ويتخفض ١٣٠٠ قدم عن مستوى البحر المتوسط، من جانبيه منحدرات صخرية حادة، والتي تدخل الماء حيناً، او تترك ممراً صغيراً على الشاطئ حيناً آخر. ويدخل في البحر عند طرفه الجنوبي بضعة رؤوس رملية منخفضة أكبرها «اللسان». ويبدو المكان من عين جدي موحشاً قفراً، وفي مواجهة تلال مواب Moab، ويمتد بعيداً الى الجنوب الساحل الغربي مع عدد لا يحصى من الرؤوس الصغيرة الداخلة في الماء، وتتدرج فوقها منحدرات صخرية، صفاً فوق صف، كما لو كانت التحصينات الأمامية لقلعة قوية. ويقوم عند الطرف الجنوبي الغربي من البحيرة جبل أسدوم Usdum، او جبل سودوم، يغسل قدميه في ماء البحيرة، وهو عبارة عن تل مقفر يتكون كلياً من الملح الصخري الكريستالي (البلّوري). ويبلغ طول هذا الجبل سبعة أميال وارتفاعه ٣٥٠ قدماً، ويبدو الجزء الذي تغسله المياه في شكل أعمدة ومنارات، مما يستدعي الى الذاكرة فوراً عامود الملح الذي شاهدته زوجة لوط بكثير من الفضول والدهشة. واللافت أن أكبر هذه الأعمدة هو ما يدعوه عرب المنطقة «بنت الشيخ لوط» او زوجة



الطرف الجنوبي للبحر الميت من انجيدي (عين الجدي)
وتبدو شبه الجزيرة المسماة« اللسان» والتي تبدو من بعيد كجزيرة.

لوط. وقبل جبل إسدوم تقوم بقايا الحصن الذي كان قلعة مكينة وهو حصن مسادا Masada. وكان جوناثان ماكابي قد بنى الحصن في الاساس، ثم عززه وقواه هيرود الاكبر، وقبل ان يصبح الملجأ الأخير لحلم الاستقلال اليهودي بعد تدمير تيتوس لأورشليم.

يشكل دغل «عين جدي» عند أقدام تلك المنحدرات الصخرية العارية ووسط هذي الجبال المقفرة، النقيض التام للقفر المحيط بها من كل جانب. وتضفي الصخور الضخمة المعلّقة والشقوق المرعبة على المكان مناخاً من الجلال والسمو. كانت شواطئ البحيرة الصعبة مسكونة في أزمنة مختلفة، بالبدائيين الأول في البدء ثم بالاسرائيليين، ثم من طائفة غريبة من النسّاك اليهود، زهّاد ومتصوفة القرون الاولى من الحقبة المسيحية. وتغطّي جوانب الجبال فتحات الكهوف والمغاور والتي كانت مسكونة ايضاً، وبعضها لا يمكن الوصول اليه الآن فالطرق والممرات قد إمحّت منذ زمن طويل.



منحدرات انجيدي (عين الجدي)
وهي تشكل ممرات ضيقة متعرجة، وهي من الصخر الكلسي يشبه بنعومته الرخام.

وتحتوي مياه البحر الميت على ٢٥ ٪ من العناصر المعدنية، وحدة المياة وملّوحتها مؤذية وخطرة للعين في ما لو دخلتها، طعمها مقرف والغرق فيها غير وارد البتة. ففي وسع المرء أن يستلقي على ظهرْه ويطفو فوق الماء كما لو كانت سريراً من ريش واذا لم يجر الغطس رأسياً فالغرق تحت الماء أمر مستبعد تماماً. لكن السباحة فيها مع ذلك تجربة قاسية للظهر بفعل الهزة التي تحدثها حركة الساقين الطبيعية على سطح أكثر صلابة من المياه العادية. وتصب في البحيرة كل السيول التي يجرفها الاردن، وكذا الجداول والسواقي التي تتأتى من بين منحدرات فلسطين ومواب Moab على ضفتيه الشرقية والغربية، ويبلغ حجم المياه التي تدخل البحيرة يومياً ستة ملايين طن، ولا يبدو انها تخرج الى مكان آخر، ويأتي حجم التبخر القوي ليبقي على مستوى مياه البحيرة كما هو .

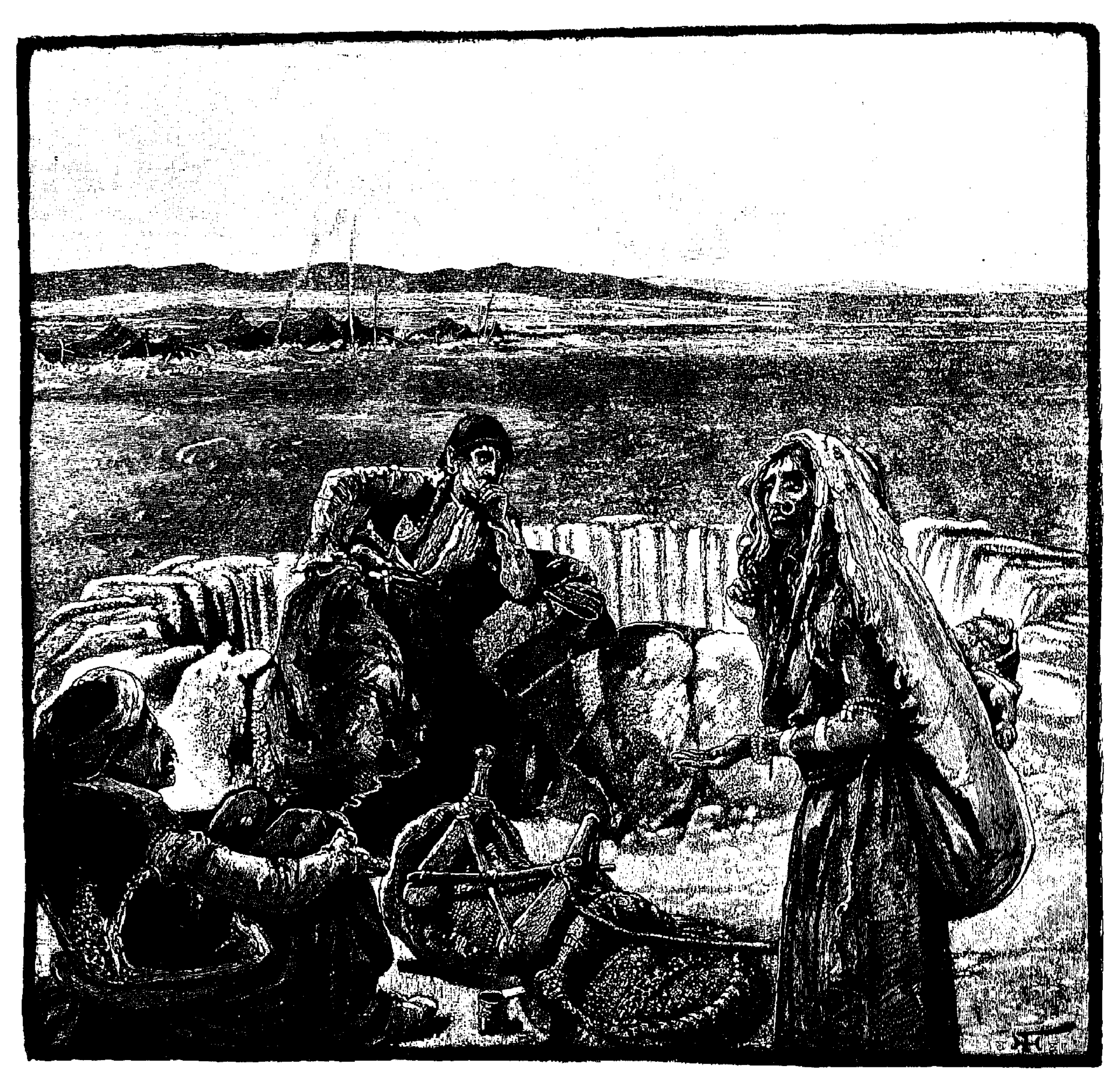
وبراري انجيدي قفر موحش، تتدرج فيها تلال جرداء موحشة الى ما لا نهاية لا يقطعها غير شير صخري مخيف هنا او انكسار مرعب هناك، دونما شجرة واحدة ولا حتى نبتة شوك أو علّيق. ويمكنك أن تشاهد او تلمح بين الحين والحين مخيماً بدوياً صغيراً، أو اشخاصاً عن بعد، لا يقلّون قسوة وبدائية عن المكان نفسه، وتشتم منهم شيئاً من صورة داوود وعصبته التي ذرعت هذا المكان بممراته ومغاوره وصخوره قبل زمن طويل.



براري انجيدي (عين الجدي)
حيث عاش داوود وصحبه بين «صخور الماعز البري» وفي المنطقة كهوف وعرة يحتمل انها استخدمت للفارين والمطاردين.

ونتقدم من مدينة ابراهيم الى بقعة أخرى تتصل بتاريخ الأب وهي بير سبع «بئر السبعة»، او «بئر القسم» حيث حفرت البئر واعطى أبيملش Abimelech سبع نعاج مقابل قسم الولاء منه. كان هناك سبعة آبار في المنطقة، إثنتان منها مازالتا مملؤتين بالمياه وثالثة في حال سليمة ولكنها

جافة، وكلها مبنية من الحجارة الصلبة. ويمكن العثور في الجوار على بقايا للآبار الأربعة الأخرى. وهناك مثل عربي سائد يروي انه كان «لبني مّرة سبعة آبار، وفي كل بئر سبعة خزانات، ولكل خزان سبعة مشارب، وعلى كل مشرب سبعة أحصنة تشرب منها» وتقوم حول البئرين المملؤتين عدة مشارب حجرية خشنة وتبدو قديمة جداً وفي الضفة الجنوبية للوادي بقايا سور حجري متين يمتد الى بضع مئات من الياردات مقابل الآبار مما يحمي الآبار من التربة المتساقطة او الانهيارات. ويغطي جانب التل خلفها آثار وبقايا قديمة، وان تكُ غير محددة ولا دقيقة، ولا تسمح بتحديد



بيرسبع أو موقع بيرشيبا القديمة
وبقايا الأسوار القديمة لاتزال قائمة لكن المدينة زالت. وخيام لعرب التواهي.
والى الامام امرأة تطلب الصدقة من تابعي الفنان الرحالة.

نوع البناء الذي كان قائماً، ولا المساحة التي كان يشغلها. الا أن هناك في أعلى الوادي أسس كنيسة يونانية . والمنطقة حول بيرسبع هي سهل متدرج يقطعه واديا سبع Seba وخليل. وتغطي السهل بعد موسم المطر، اعشاب وأزهار وعليق وشوك، إلا انه في الفصول الأخرى أرض مقفرة موحشة كما الصحراء نفسها ويستدعي المكان الى الذاكرة افكاراً وتداعيات غريبة ومتفردة. هنا تقوم الآبار التي حفرها الأبُ والاسم الذي أعطاها آياه مازال مستخدماً وما زال

البدو والذين لم يعرفوا رواية الكتاب المقدس، يشيرون الى الابار بوصفها عملاً عظيماً من أعمال جدهم إبراهيم، ولا تزال الحبال التي تسحب الماء من الآبار كيما يشربوا وترتوي قطعانهم، تنزلق في الشقوق الحجرية العميقة نفسها، والتي ربما انزلقت عليها كذلك حبال خدم الأب، في البدء. والى براري بيرسبع كذلك كان مار الياس قد فرّ طلباً للنجاة من آهاب Ahab، وجيزبل Jezebel (الملوك xix.3).

ونترك اخيراً حبرون وبيرسبع والتذكارات المقدسة، في رحلة طويلة عبر البراري الى بترا Petra ، المدينة المبنية في الصخر، في أرض إدوم وبرفقة أدلاّء من الجعايلة أو «عرب الحوطة» Hawtat Arabs . ونمر في الطريق بسموع، اشتيموع القديمة المذكورة في جشوا xv 50؛ تل العراد Arâd، موقع مدينة «الملك عراد الكنعاني، الذي كان يسكن في الجنوب» والذي حين جاء من يخبره عن أن بني اسرائيل جواسيس، حارب اسرائيل واخذ منهم أسرى (الاعداد xxi.1)؛ تل الملح، حيث كانت تقوم لفترة مولادح Moladh القديمة والتي ذكرها جشوا وناحميا ثم جوزافس، وهي مالاط القرن الرابع وربما في المكان الذي كانت فيه «مدينة الملح» المذكورة في جشوا xv.62؛ ثم عراره او عرار يهودا، (سام xxx.28) وهي احدى المدن التي أرسل اليها داوود بعد انتصاره على الامالكيين سهماً من الأسلاب ـ والاثار الوحيدة والمتبقية منها هي بضع آبار مبنية من حجارة خشنة، وبعضها لايزال يحتوي ماء.

وتبدأ طبيعة المشهد بالتبدّل، فبعد السهول الممتدة التي مررنا بها يبدأ الآن فصل التلال المتعاقبة الأودية الصخرية الوعرة، ونتيقن كل لحظة اننا دخلنا «البرّية الكبرى والمرعبة» ونصل وسط هذه البراري الى جبل مدحيرا Madherah ، وهو تلّ ينسج العرب حوله الأسطورة التالية: «كان هناك قوم يسكنون هنا وجاءهم يوماً عابرو سبيل يطلبون ضيافتهم، لكن هؤلاء أساءوا معاملتهم، فصب الله عليهم غضبه وأمطرت فوقهم حجارة ضخمة دمّرت سكناهم ومحتهم عن الأرض»؛ ويدل بدو المنطقة على الحجارة الضخمة المتناثرة على سفح الجبل وأسفله ليدللوا على صدق روايتهم. وتأخذنا مسيرة ساعات قليلة إلى «عين العربيه» بينابيعها الثلاثة، والتي يعينها روبنسون وآخرون مكاناً لقاديش بارنيا القديمة. الا اني لا اتفق مع هذا الافتراض، واعتقد أن موقع قاديش هو عند عين قادس، على مسافة حوالى ٤٠ ميلاً غرباً. واسم قادس، في معناه واشتقاقه، هو مرادف قاديش في الكتاب المقدس، وتعيين هذا الموقع هنا هو المفتاح لمتابعة ترحال ابناء اسرائيل بعد تركهم هازيروت ولأربعين سنة. ويقع النبع الذي يحمل هذا الاسم المعبّر في سفح الجبل وعند النقطة التي يتخفض فيها الى مستوى أدنى فيغدو أكثر انبساطاً وأيسر لبلوغه من جهة العقبة. هو يقع اذاً عند أحد الحدود الطبيعية لفلسطين. تبدو المنطقة من شمال سوريا الى سيناء في الجنوب وكأن خاضعة لتقسيم طبيعي وبخصوبة الأرض في كل منها. فلدينا في سوريا الان أرضٌ خصبة منتجة وحسنة الريّ وتربة منطقة جنوب حرمون في فلسطين هي قاحلة الآن في معظمها. الا انها تشير الى خصوبة فائقة في أزمنة سابقة؛ والمنطقة الواقعة جنوب جبال يهودا، الى ما دون عين قادس، ورغم أنه لا يتوفر فيها اليوم زراعة عالية، لكن هناك ما يكفي من الآثار التي تشير الى زراعة كثيفة كانت موجودة، وحتى وقت ليس بالبعيد والمنطقة هذه هي النجب Negeb، او بلاد الجنوب بحسب الكتاب: وعين قادس هي على حدود المنطقة. والمساحات الممتدة بين هذه وطرف سهوب التيه هي اكثر قفراً، الا أن فيها بقايا تشير الى أن سكانها الأصليين قد اوجدوا نوعاً من الحياة على تربتها. ويبدو ان المنطقة قد حملت في عهد إكسودس Exodus نفس الصلة بذلك الجزء من النجب الذي غدا خصيباً والذي استمر كذلك مع فلسطين اليوم. ويذهب الناس اليوم من قاديش ثم تعود محملة بالعنب من اشكول Eschol ، والتي يضع العديد من الجغرافيين موقعها في وادي الخليل او وادي حبرون. إلا أن حبرون تبعد عن عين قادس مسيرة أربعة أيام على الأقل، ومن المستبعد ان يتحمل العنب والتين المسافة كلها دون ان يفسد، عدا المخاطر والمحاذير الأخرى التي يحتمل أن واجهها كاليب Caleb وصحبه عبر هذه المسافة. فاذا كانت قاديش بارنيا، هي بالتالي، عند عين قادس لوجب أن يكون العنب المحمول من اشكول قريباً من المكان نفسه؛ ومن غريب المفارقات ان اكثر ما يميز «النجب» هو أميال واميال من الوديان والتلال المغطاة بأكوام من الحجارة الصغيرة، تمتد في انتظام وهي التي يدعوها العرب الى اليوم «تليلات العنب». ومن وجهة نظر استراتيجية فمن غير المعقول ان يكون الاسرائيليون قد اختاروا «عين العربية» مكاناً لمخيمهم فيجعلوا أنفسهم تحت رحمة شعوب

معادية لهم من الكنعانيين الى الاموريين والآدوميين والموابيين؛ بينما لاشيء يحاذيهم في ما لو نزلوا عين قادس غير البراري الاكثر رحمة وأمناً. ولا يعقل ان يكون ذلك قد فات جنرالاً ناجحاً مثل موسى، وعليه فكل الاحتمالات تشير إلى أن عين قادس الأ بعد غرباً هي المكان الحقيقي لقاديش بارنيا التي ذكرت في الكتاب المقدس.



«عين الوهدة»، على حدود إدوم Edom في «وادي الجيب»، ويعتقد الكثيرون أنه موقع قاديش بارنيا

ونهبط من عين العريبة الي وادي عربا Arabah الفسيح، ثم نتسلق جانبيها فندخل إدوم Edom عبر ممر نيميلا Nemelah فنبلغ بترا عبر وادٍ بديع يدعى وادي السيق Sik. وإدوم هي ذلك الشريط الضيق الذي يقع بين عَرَبا ودرب الحج (او درب الحج الى مكه)، وهي تمتد من العقبة، او إيلاه القديمة، على البحر الاحمر، الى وادي الكرك شمالاً التي شكّلت الحدود القديمة بين إدوم ومواب. تقسم المنطقة الى قسمين القسم الشمالي الذي يدعى اليوم جبول Jebal، جيبال العبرية، او جيبلان Gebalene عند الرومان، اما القسم الجنوبي فيدعى «الشريعة»، او جبل سيرا Mount Sier، في الكتاب.

وكانت العاصمة تسمى بالعبرية سيلا Sela، او «الصخرة» (الملوك xiv.7)، وهي المرادف للتسمية اللاتينية بترا، مع ان السكان المحليين يسمّونها «وادي موسى».

تتألف ايدوم من جبل من الحجر السماقي يغطيه الصخر الرملي بالوان فاقعة متنوعة. وترتفع عن كل جانب تلال كلسية، يشكل الجانب الشرقي منها نهاية المسطح العظيم للصحراء العربية، بينما الجانب الغربي هو الضفة الشرقية لعربا والتي تشكل ضاحيتها الحد الجنوبي للبلاد «ولبادية التيه». والمنطقة خصبة، وتروي الاودية جداول بديعة، كما أنها مملوءة بالأشجار والأزهار، بينما الهضاب العليا مراع في معظمها مع حقول حنطة. وعندما كانت الصحراء هي الطريق الوحيد الى الشرق، وقبل ان ينتزع المحيط منها هذا الامتياز، كانت إدوم بلاداً عامرة وعاصمتها إحدى مراكز التجارة في العالم القديم. فمنذ أقدم الأزمنة كان المديانيون Midianites والإشماليون Ishmalities ينقلون منتوجات الجزيرة العربية في قوافل عبر إدوم الى مصر، ويعودون بمنتوجات بلاد فرعون وصناعاتها. كانت المنطقة عند القرن الثاني من المسيح مسكونة بالناباثيين Nabathaeans حيث تقدم دلائل كثيرة على تقدمهم في النقوش والعمارة التي تغطي المنطقة. في سنة ١٠٥ ميلادية أصبحت ادوم مقاطعة رومانية وأصبحت بترا على قدر كبير من الأهمية، وربما اكثر من ذي قبل. ودخلت المسيحية بترا في فترة مبكرة جداً، بحيث تذكر السجلات اساقفة من بترا حضروا مجالس الكنيسة في زمن مبكر. إلا أنه في حدود العهد الرابع انهارت تجارتها، وغزاها البدو، وأرهقتها الصراعات والفوضى الداخلية، فتحققت سريعاً النبوءة ان ذرية Esau التي كانت يوماً «صفوة الأرض وندى السماوات» (التكوين xxvii, 39) سوف تندثر وتحلّ بها اللعنة. ويسكن القسم الشمالي، الجبول، الفلاحون والبدو من قبيلة الهجايا. ويملك اراضي الشريعة، اساساً، عرب الحويطات والعامريون (ولعلهم بقايا الأموريين Amorites القدامى)، وقبيلة العلاونة Alawin القوية والمشاكسة، والتي تتولى بتكليف من الحكومة المصرية أمن طريق الحجّاج والمسافرين في المنطقة. الا ان بترا ومحيطها يقعان تحديداً في منطقة نفوذ قبيلة ذات شأن، قبيلة اللياثنة. واللياثنة فلاحون أكثر مما هم بدو، ويحتفظون بملامح العرق اليهودي. وهم على الارجح يتحدرون من إحدى القبائل اليهودية التي هاجرت من الجزيرة العربية بعد انتصارات الاسلام. وهم يحتفظون، بالإضافة الى المحّيا العبري، بتقاليد وعادات يهودية واضحة. اختفت بترا بعد القرن الرابع من التاريخ، وظلت طي النسيان حتى وصف بعض عرب الصراح تلك الاثار لسيتزين Seetzen سنة ١٨٠٧. وفي سنة ١٨١٢ تمكّن بوكهارت من الوصول الى بترا، بعد رحلة مضنية، وانجز كشفاً كاملاً بتلك الآثار.

تقع بترا في واد يمتد من الشمال الى الجنوب بطول ثلاثة أرباع الميل. ويبلغ عرضها عند طرفها الشمالي ٥٠٠ قدم وتضيق الى النصف في طرفها الجنوبي. ويدعو العرب الوادي «وادي موسى»، جرياً على التقليد الذي يؤمنون به وهو أن «عين موسى، من حيث ينبع الجدول هي التي خرجت من باطن الارض حينما ضرب موسى الصخر بعصاه. يحيط بالوادي جوانب صخرية من الحجر الرملي فتبدو كما لو كانت بحيرة داخلية. واللافت في وادي موسى هو لون الصخور، فبينما لون الصخر بنيٌ غامق، في لون الشوكولا، إلا انه يغدو اذا اقتطع احمر لامعاً، أو يميل الى الأصفر، تلّونه هنا وهناك خطوط بيضاء هي عبارة عن عرق مائي ناعم.

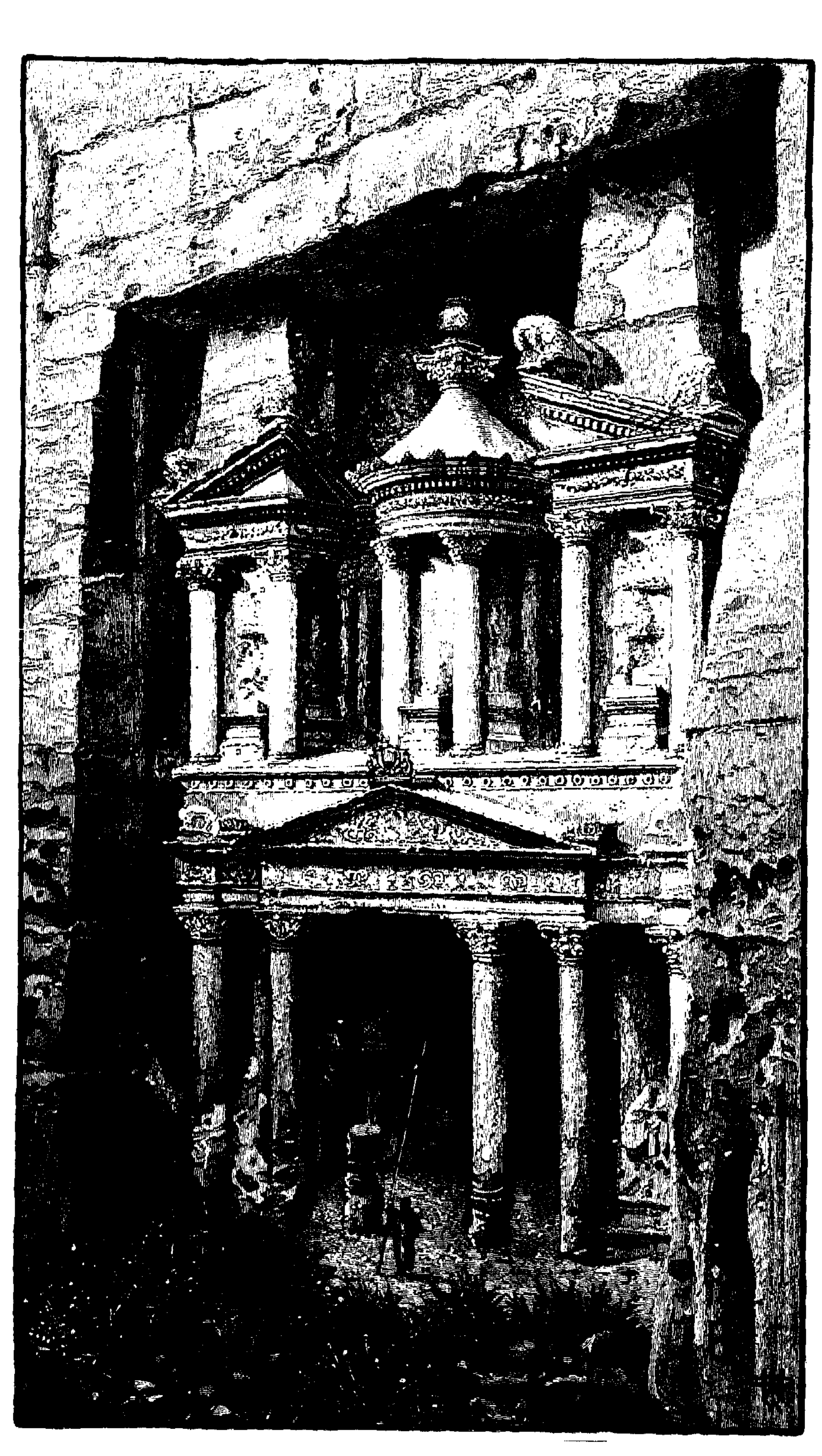
والانطباع الذي يخالج الداخل الى المدينة مؤثر؛ فالتماثيل منحوتة في الصخر الصلب، والواجهات والاعمدة والمثلثات في الأعلى، محفورة كلّها في أدق تفاصيلها وفي إتقان واتسجام تامّين. كانت المنطقة مسكونة، على نحو واضح، بساكني الكهوف، او الهورتس Horites الذين تكّلم عنهم الكتاب المقدّس، ثم جرى توسيع كهوفهم من قبل الشعوب اللاحقة واستخدمت كهياكل واضرحة او حظائر لخيلهم. وفي بعض كهوف البلدات المجاورة المحفورة في الصخر، الأصغر حجماً، وغير المعروفة جيداً للمستكشفين، تزّين الجدران والسقوف زخرفات ومنحوتات مصبوغة بألوان تبدو كما لو انها دهنت أمس. ورسمت على أحد السقوف في البُريد، والذي اكتشفه مستر درايك Drake وأناء، أغصان معرشة من الكرمة واللبلاب وطفلان مجنّحان (الكيوبيدس Cupids) يلعبان بين الأغصان. ومن الواضح أن اللوحة رومانية وهي منجزةٌ باتقان عالٍ. ويتفرع من وادي بترا يساراً وادٍ صغير آخر عند قرية عيرا Aireh تمتد عندها في شكل قوس قناة رومانية. ويسمى العقد الذي يحمل القناة قنطرة بنت فرعون، والمنطقة المجاورة بساتين فرعون:

بل ان كل بقعة ذات شأن في المنطقة، وكل بناء مهم، يحمل أو تحمل إسماً منسوباً الى فرعون مصر. وعلى الجانب الجنوبي الغربي من مدخل الوادي أضرحة قطعت من الصخر، وبقي مكانها فيه واضحاً، ناعماً، وتذكّر بالقبور الحزينة لوادي جيهو شفاط في اورشليم. لم يبق شيء تقريباً من أبنية المدينة، وأكبرها وأهمها واكبرها على الاطلاق، الاثار الباقية لما يسمى بقصر فرعون، ويحتمل أنه هيكل، يقع عند مدخل الوادي لجهة الغرب. وفي مكان قريب صوب الشرق يقوم قوس نصر؛ وأبعد منه بقليل، جنوباً يقف عامود وحيد يسمى زيب فرعون، والذي يبدو انه كان جزءاً من كنيسة لا

هيكل او ضريح في الصخر، بترا
ارتفاع ٨٥ قدماً. ويدعوه العرب خزنة فرعون.

يزال نتؤ قوسها موجوداً. ويرتفع الى الغرب تل عالٍ تقوم فوق قمته آثار قلعة بترا.

تنتمي عمارة بترا الى النمط الروماني المتأخر، والذي نشأ في القرن الثالث او الرابع لظهور المسيحية، حينما استبدلت بساطة الحقبة الكلاسيكية باتجاه آخر يقوم على التنميق والزخرفة والتأثير القوي. وتعتبر وادي الشق Sîk إحدى اجمل الروائع في العالم. ندخل الوادي عبر ممر ضيق بين حائطين صخريين شاهقين، من الحجر الرملي الاحمر البديع، وعلى شكل عامودي، وتمّر فوق الوادي قنطرة حجرية، مكسورة الآن ولا يمكن الوصول اليها، كانت تحمل قناء ماء تأتي من أعالي المنطقة. ويترقرق في الوادي الضيق جدول من المياه الصافية العذبة تحفّ به أو تتدلى من الحيطان، شجيرات الدفلي وعلّيق معرّش ونباتات أخرى.

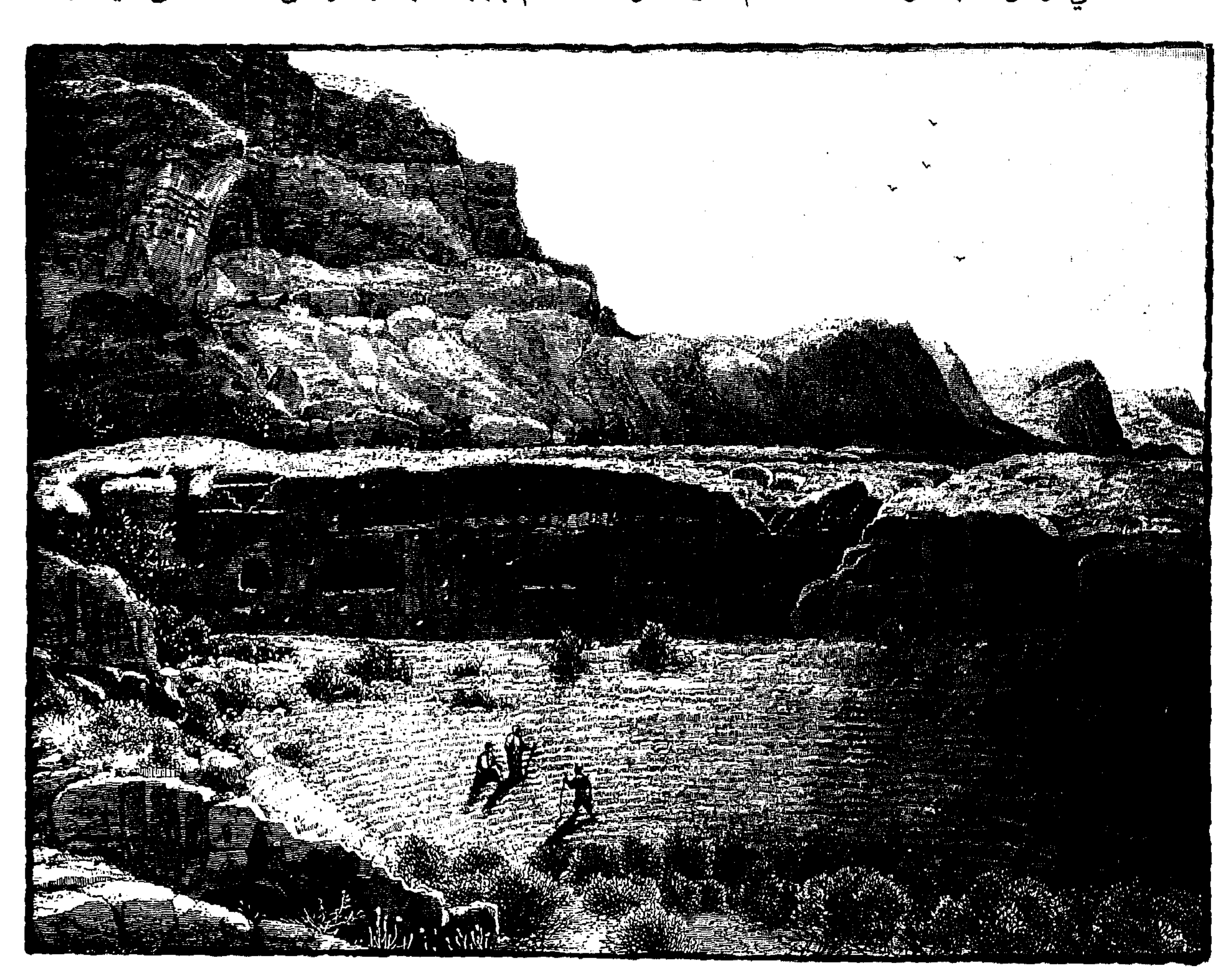


هيكل او ضريح في الصخر، بترا
ارتفاع ٨٥ قدماً. ويدعوه العرب خزنة فرعون.

ويغدو الوادي، كلمّا تقدمنا اكثر فأكثر أضيق واكثر مهابة. وتقوم في جوانب الجدران الصخرية العالية فراغات مستديرة كانت كما يبدو أمكنة للوحات غير موجودة الآن، ونوافذ مقفلة محفورة في الصخر كانت تستخدم، كما يبدو، لتقديم القرابين والأضاحي، وهي من النوع نفسه الذي اكتشف في بانياس وامكنة أخرى. وتقوم تحت هذه الفجوات او المذابح نقوش يونانية غير مكتملة، ونصل إلى نقطة معينة من الشق Sîk حيث يلتف الوادي الى الأثر الاكثر أهمية في بترا وهو ما يدعى بـ «خزنة فرعون» محفورة في الصخر الصلب وتفوق ما عداها من هياكل وأضرحة جمالاً وروعة وألواناً . ولون الواجهات الصخرية المحفورة وردي عميق، ناعم، يشعّ قوياً وسط باقي الصخر الاحمر البنيّ غير المحفور حوله والدفلي الأخضر والعلّيق المعرش في الاسفل. تتألف واجهة البناء من رواق امامي من ستة أعمدة، أحدها مكسور جزئياً وغير موجود. وتدعم الأعمدة الأربعة الوسطى قوصرة (مثلثاً) تمتد فوقها، وعلى قمة القوصرة او المثلث زخرفة وصفت دائماً. الا ان نظرة ثاقبة قريبة توضح أنها في

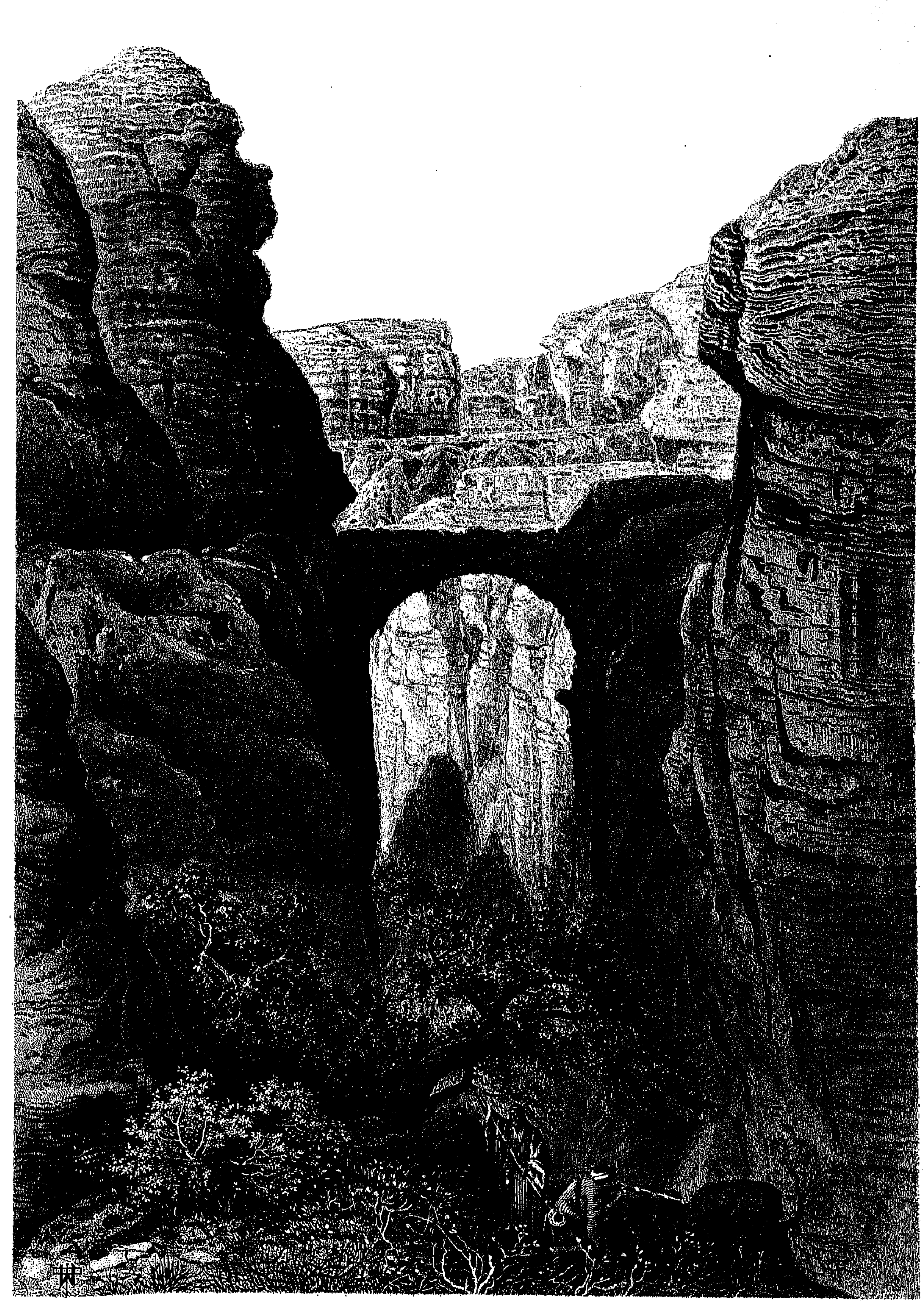
شكل قيثارة. وفي مستوى قمة القوصرة خط من المنمنمات والزخرفات، وفوق الكل قوصرة ثانية مدعمة بعامودين من كل جانب والقوصرة مقطوعة الى ثلاثة أقسام، والقسم الاوسط منها نصب اسطواني يعلوه في ذروته شكل يشبه الجرة Urn وتتألف القوصرة التي قطعت من تسعة وجوه مختلفة للصخر، ثلاثة في كل جزء، الايمن والأيسر والامامي بينما يستند الى الصخر الاساسي ويدعم كل جزء من القوصرة عامودان واحد على كل طرف. اما النصب الاوسط فيرتدي اربعة أعمدة، تزينها وجوه نسائية محفورة يغطيها حفر في شكل قماش فاخر. والعمل بأسره كما يبدو موضوع هندسياً، في نسب الوجوه التسعة وعلاقاتها - وجوه ربما بدت لي، أنا، وجوه موسى التسعة. وربما تضيف القيثاره ورمز أبولو الموجود دليلاً اضافياً على أنه موقوف لأولئك الملائكة التسعة. وبعد، فان هذه الهياكل المحفورة ليست في الواقع غير متحف بترا - وهو ليس بالتأكيد مجرد بيت عتيق في وصف الاتراك بل مؤسسة «فيلهارمونية» كاملة.

والبناء الثاني الذي يلي في الأهمية هو المدرج الصخري، او المسرح المحفور في الصخر الصلب. يبلغ قطره ٣٩ ياردة، ويحتوي على ثلاث وثلاثين صفاً من المقاعد، صفاً وراء صف، ويتسع لثلاثة او أربعة الآف مشاهد. والمشهد من الصف الأخير في المدرج أخاذ ويتضمن معظم الأجزاء المحفورة في الوادي وقد حفرت في الحائط الصخري خلف المسرح غريفات أو صناديق صغيرة، ربما كانت كهوفاً موجودة في الصخر قبل حفر المسرح فيه. وتقوم في مواجهة المسرح مباشرة بعض الاضرحة مع واجهات محفورة جميلة. يحتوي الأول على صف مدافن مثير للاهتمام. فقد قطعت هذه في أرض الكهف وقد ملأت معظم الغرفة دونما اهتمام بجهة اتجاهها. وعلى الحائط الى اليسار أشكال

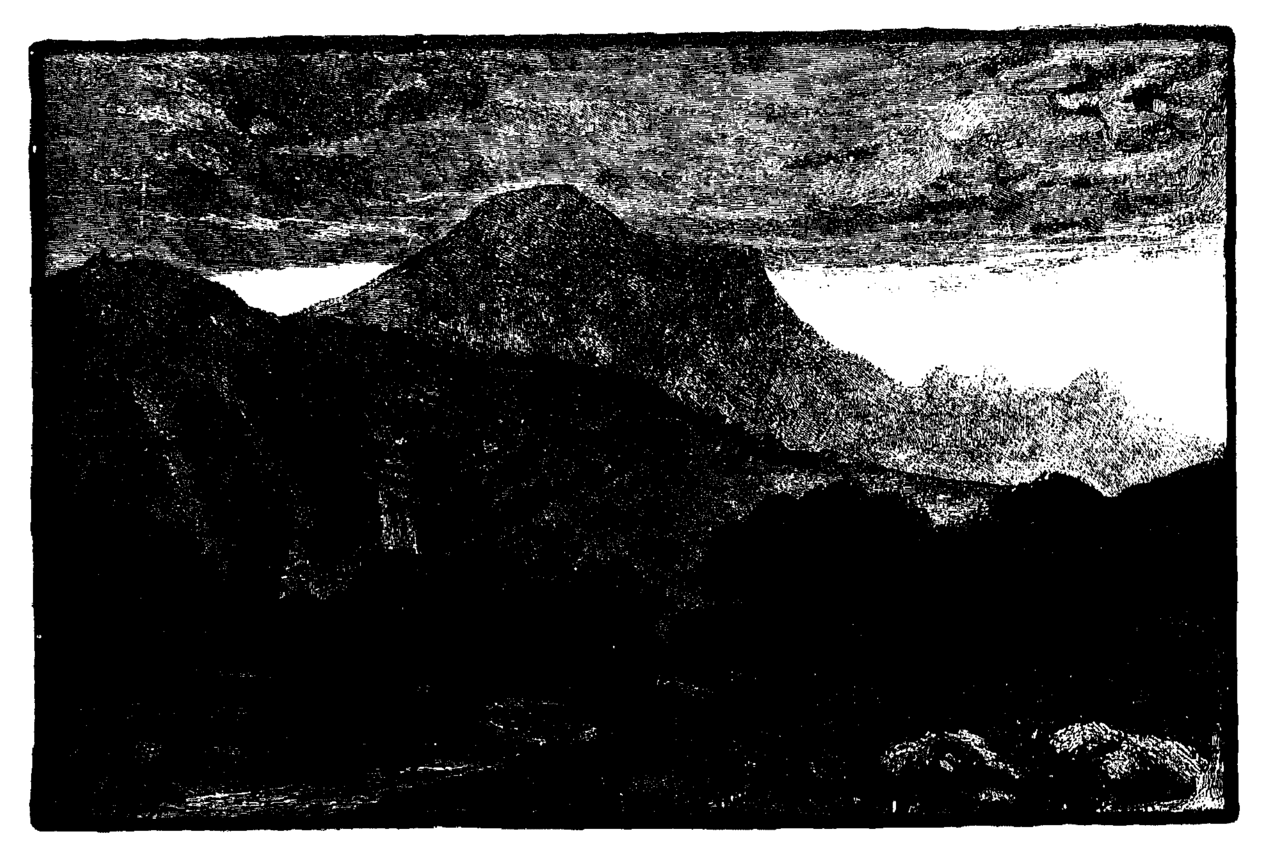


الصخرة المنحوتة مدرجاً (بترا)

نصب أو معابد ناباثانية Nabathaeans خشنة، غير دقيقة، وتتأرجح بين المسلّة والهرم، وتحتها نقشان ناباثانيان. وهناك، أبعد قليلاً هيكل مقوّس بديع كان يحتوي أصلاً على ستة كهوف او غرف، جعلت ثلاثاً مع قوس ناتئ عند طرفها كيما تكون في شكل كنيسة يونانية عادية. وتقوم كتابة يونانية مصبوغة بالاحمر تسجل حقبة سيامتها لكن التاريخ غير مفهوم مع الأسف. ولكل كهف أو ضريح مالكه، اليوم وهو يسكن فيه مع عائلته في الحر كما في القر.



مدخل وادي بترا



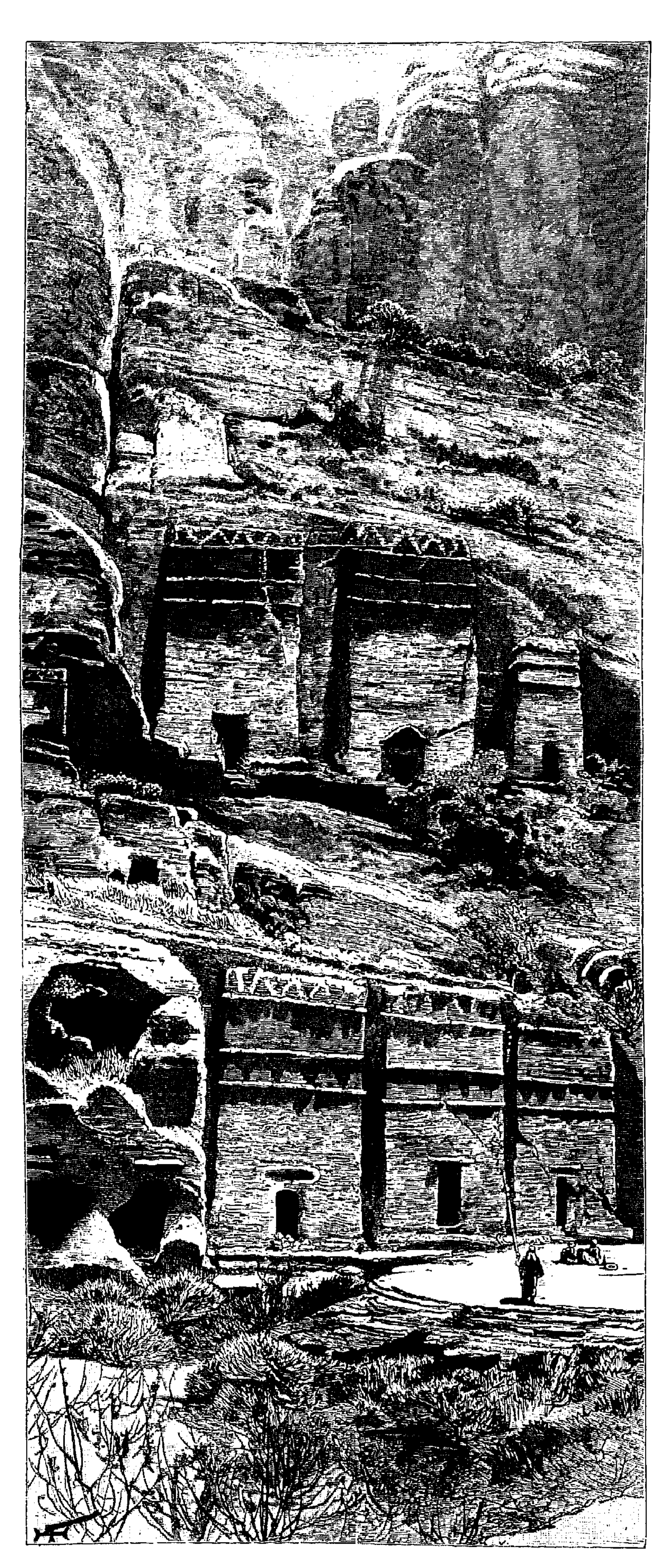
جبل هور
ويصل ارتفاع أعلى قمة فيه ٤٣٦٠ قدماً فوق سطح البحر

جبل هور وجدران إدوم الصخرية

تقدّم اللوحة المقابلة لهذه الصفحة فكرة عن الممر العميق الرئيسي، وربما الوحيد، الذي كان يستخدم في الأزمنة القديمة للوصول الى الوادي الضيق المختبئ في قلب جبال إدوم Edom حيث كانت يوماً مدينة بترا، والتي، لا تضمّ الان سوى موقعها وآثارها وأضرحة وهياكل محفورة في الصخر. ويصل هذا الممر، الشق Es sik وادي بترا من جهة الشرق، ويبلغ طوله ميلاً ونصف الميل، ثم يشق طريقه الى الامام متعرجاً، كما لو كان نهراً يتعّرج مجراه لا شقاً بين جدران صخرية عالية. وقبل حوالى ٥٠ قدماً من مدخل الوادي تمتد قنطرية حجرية جميلة فوق الوادي، من جانب الى آخر، على ارتفاع عالٍ (راجع اللوحة المقابلة). وتقوم عند المجرى، وتحت القنطرة مباشرة، فراغات محفورة في الجدران الصخرية كانت أمكنة لتماثيل، كما يبدو، ومحفورة في واجهة الصخر وارتفاع الجدران عند هذه النقطة يصل الى ٨٠ او ١٠٠ قدم، ولا يصل اتساعه الى أكثر من ١٢ قدماً وهذه النقطة هي الأضيق في الشق، لكن الامكنة الأخرى ليست على كل حال، اوسع بكثير. وينحدر الوادي، الذي تغذيه شتاء مياه عين موسى، عميقاً نحو الغرب وتغدو جدرانه اكثر ارتفاعاً من مئة الى ٢٥٠ قدماً، وأحياناً أكثر. واقتراب الصخرين أحدهما من الآخر يجعلهما يبدوان اكثر ارتفاعاً مما هما فعلاً. ويقدر آربي ومانجلز (Irby & Mangles) ارتفاعهما من ٤٠٠ الى ٧٠٠ قدم، بينما يجعلهما مستر شيڤنز من ٥٠٠ الى ١٠٠٠ قدم. والجدران عامودية دائماً، ويعطي منظر السماء الزرقاء من الشريط الضيق، كما تبدو من الأسفل، انطباعاً قوياً. لكن الجدران تقترب، أحياناً بعضها من بعض لمئات الياردات، ودونما أن تلتقي، فتكاد تحجب منظر السماء. ثم يغمر الوادي فجأة طوفان من الضوء مصدره انخساف في جدران الجانب الشمالي يقابله آخر في الجانب الجنوبي، وخلفه الهيكل البديع الوردي اللون والذي يسمى «خزنة فرعون» (والتي مررنا بها) حيث يبدو على

شكل قوس أسفل هذه النقطة. تقوم في الجدران أضرحة وكهوف لا عدد لها تتجه الى الشمال الغربي إلى أن تفضي إلى حقل يغطيه الدفلي واللبلاب، يلجأ اليه باستمرار سكّان بترا الحاليون، الذين يتخذون من الأضرحة والكهوف المجاورة أماكن سكن لهم. ويقوم الى الاسفل تماماً المدرّج المحفور في الصخر ويتجه نحو الشمال. وتملأ الكهوف والأضرحة الجدران الصخرية، يتصل أحياناً بعضها ببعض إلى أن تنتهي شمالاً في وادي بترا، بينما يشق مجرى مياه الأمطار طريقه فيمر بين آثار بترا قبل أن يدخل الوادي بين التلال الغربية.

ويتفرع واد صغير آخر عند الزاوية الغربية ـ الشمالية الغربية للمنطقة ويعلو تدريجاً الى أن يصل الى «الدير»، أحد أهم آثار بترا محفور على وجه صخر عامودي يشكّل واحداً من المنطقة الصخرية العليا لإدوم. ويمر الطريق الطويل الذي نتسلقه للوصول الى الدير على حافة الصخر، في سلّم الدرجات الصخرية التي لا تنتهي، وعلى الكثير منها نقوش تحمل الطابع السينائي Sinaitic. وبعدما تدخل الطريق في أكثر من دغلٍ وتلتف حول غير صخر ضخم من صخور الحجر الرملي، تصل أخيراً الى مسطح تبلغ مساحته ٢٦٠ قدماً مربعاً حفر جزء منه في الصخر وجرى بناء الجزء الآخر. ويقوم الدير على الجانب الشمالي منه بين حائطين صخريين عملاقين وهو اضخم حجماً من الخزنة إذ يرتفع الى ١٠٠ قدم. واللافت أن العمل في الجزء الاسفل منه، وتحديداً الجزء الأسفل من الاعمدة والنوافذ، ليس مستكملاً، كما يبدو. وفي الداخل غرفة، في مواجهة المدخل، ترتفع قليلاً عن الأرض وامامها منصة توصل اليها بضع درجات من كل جانب. وهناك سلم

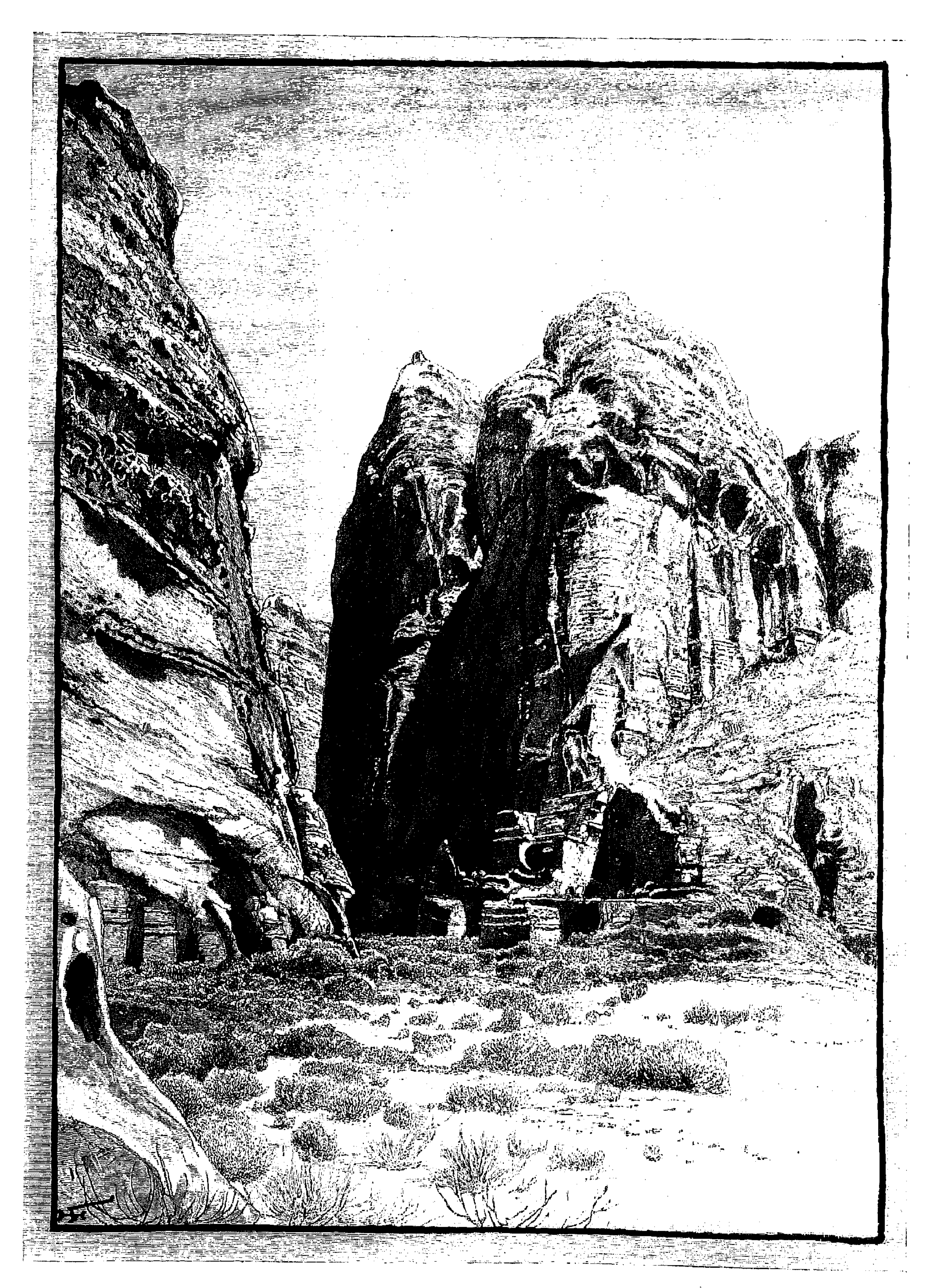


أضرحة في الصخر، بترا.
ويسكنها اليوم افراد القبائل المقيمة في المنطقة.

صخري خشن يقود الى السطح، كما تقوم على المسطح الصخري الذي يتصل به السطح دائرة من الحجارة المنحوتة، وخلفها صومعة محفورة في الجدار الصخري ويتصل بالمسطح ممر صخري ضيق ويقال ان الدير يرتفع فوق وادي بترا بأكثر من ألف قدم، كما يتحدث العدد القليل من الرحّالة الذين زاروه باعجاب عن موقعه المشرف والاراضي الشاسعة التي يمكنه الإطلالة عليها ويمكن من على سطحه الاشراف على الوادي بكامله وبجدرانه الحادة والتي لا يمكن الوصول إلا عبرها، بينما يقف بين يديك كامل الموقع الذي كانت تشغله بترا في ما مضى. وتظهر الى الجهة الجنوبية الغربية، خلف المنحدرات الصخرية المتداخلة، قمة جبل هوروالذي يدعوه العرب جبل هارون. ويمكن مشاهدة المزار المقام على قبر النبي هارون عند أعلى نقطة في ذلك الجبل المقدس.



الدير، بترا
بناء منفرد ذو منظر مشرف، وفي مواجهة جبل هور.



جدران الشق Sik ، بترا.

وتوجد عند سفح الصخر المقابل للدير بقايا ما يحتمل أنه كان هيكلاً لم يستكمل، فقواعد اعمدة الواجهات والقوصرات قد تركت وهي لمّا تنته بعد، كما عثر دافيد روبرتس، الفنان، في حفرة في الأسفل على قاعدة عامود هي ، كما وصفها،«من الرخام الأبيض وتكشف عن ذوق رفيع».

تشكّل العودة المستمرة لجوزافس (Ant.IV.iv,5, 6, 7) لإدوما وبترا في سياق روايته لموت مريم واخيها هارون، ودفنهما، امراً لافتاً؛ كما تلقي رواية الكتاب المقدس بعض الضوء على هذه الارض المقفرة الآن، وتساعد على اعادة رسم خارطة الشعوب القديمة التي سكنتها، وصورة الجموع التائهة التي قادها صاحب الشريعة.

«عندما بلغ موسى بجيشه حدود إدوما أرسل الرسل الى ملك الأدوميين يسأله السماح بالمرور عبر بلاده، وعارضاً تقديم ما شاء من رهائن لضمان سلامته. واضاف انه سيأمر بشراء تجهيزات وبضائع، بل وبدفع ثمن الماء الذي سيشربونه. لكن الملك أبى على موسى، وعلى جيشه، ذلك، واستقدم شعبه بسلاحه لملاقاة موسى فيما لو أراد المرور عنوة. واستشار موسى ربه فأبى البدء بالحرب، وهكذا سحب موسى جيشه ليستدير دورة كاملة وسط البراري (راجع الاعداد 21-17 xx). وتوفيت مريم شقيقة موسى في اثناء ذلك واقيم لها دفن مهيب، ودفنت على جبل معين كانوا يدعونه سين Sîn، وعندما احيوا ذكراها الثلاثين (يوماً) من النواح أعلن موسى شعبه طاهراً....

وعندما انتهت فترة الحداد والتطهر أمر موسى جيشه بالتحرك عبر البراري شمال الجزيره العربية، ولما بلغوا مكاناً يقال له عرق Arke، ولكن يقال له الآن بترا. وعند ذلك المكان الذي تحيط به الجبال العالية ذهب هارون الى قمة واحد منها، على مرأى من الجيش كله، وكان موسى قد أنبأه انه سيموت وعلى مكان هو في مواجهتهم. خلع هارون جبته الحربية وأعطاها لولده اليعازر، ثم مات بينما الحشود تنظر اليه وكان ذلك في العام نفسه الذي خسر فيه أخته وفي اليوم الأول من شهر آبا Abba» (الاعداد 38 xxxiii).

ويقال أنه في عهد القديس جيروم كان قبر مريام معروفاً وقائماً قرب بترا (او قاديش بارنيا وفق الرواية الرسمية القديمة)، لكن موقع هذا الضريح وفق الرواية، ليس معروفاً مكانه على وجه الدقه. فقد ورد في «الأعداد xx.1»، وتحديداً، أن مريام ماتت في قاديش ودفنت هناك. ويورد جوزافس ان موتها حدث في اليوم الأول من الشهر القمري لكزانثيكوس Xanthicus ، وكما يقول دين ستانلي: «فذلك يعني ان إحياء المناسبة كان لا يزال معمولاً به في زمنه»، وان الحج كان يجري الى الضريح، حقيقياً كان أم افتراضياً. ويرى دين ستانلي أن مكان دفن مريام هو على أعلى جبل يتوجه نصب الدير الذي جرى وصفه، ومن المحتمل جداً ان مكان القبر الذي كان معروفاً لسانت جيروم هو في هذا البقعة. ويشير موقعه المتميز وتشعب الدرج الصخري الذي يقود اليه انه كان سابقاً مكاناً سرياً، وتشير الكتابات الى انه كان مكاناً للحج في العصور المسيحية الاولى.

وفي زمننا هذا يقصد الحجاج اليهود والمحمديون، وبخاصة المحمديون، المزار ذي القبة البيضاء المقام على قمة جبل النبي هارون، مكان دفن هارون المفترض. ويبدو موضع اتفاق اليوم ان هذا الجبل المقدس هو «جبل هور على حدود إرض إدوم» مكان دفن هارون. وهو في العبرية «هور، الجبل. وإذا قبلنا تفسير جيسنيوس Gesenius ان «هور» Hor هو تحريف لـ هار Har العبرية التي تعني «جبل» فانها تعني اذذاك وببساطة «جبل الجبال» وهو يستحق، عن جدارة، هذا اللقب، لأنه يقف أعلى بكثير من الجدران والجبال المحيطة، كما يمكن تمييزه من بعد بقمتيه التوأمين. ويقوم مزار هارون على قمته الأعلى، وهي هي شكل قمع، يفصلها عن قمته الثانية منخفض صغير تنمو فوقه شجرة سرو وحيدة. ويقال ان ارتفاع أعلى نقطة في الجبل يصل الى اربعة الآف قدم فوق مستوى سطح البحر.

وبسبب من نزاعات القبائل العربية المحلية، وعدم الاطمئنان اليها أحياناً، يبدو السفر في أرض إدوم صعباً كما يغدو تسلق جبل هور عملاً مستحيلا.

وكان لمستر جايمس فين J. finn، القنصل السابق لصاحب الجلالة في فلسطين، الفضل في تسهيل عبور بعثات الاستكشاف الى بترا وجبل هور، بزيارته الشخصية للمكانين وبترتيباته مع شيوخ القبائل لضمان أمر الرحّالة الانجليز مقابل مبالغ محددة. ويصف مستر فين زيارته لجبل هور فيقول:

«٤ نيسان ـ واخيراً بلغنا السهل الكبير لوادي عربا، او « براري زين» وستكون طريقنا فيه مباشرة الى جبل هور.

«٥ نيسان ـ من الصعب أن تحكم على المسافات في مثل هذه السهوب الشاسعة وفي مثل هذا الصحو المستديم. وليومين نسير وأمامنا جبل هور، والجبل يكبر تدريجاً ولا نصل اليه وعند الجبال الشرقية كان هناك عدد لا يحصى من الحجارة الكبيرة البروفيرية متناثرة على الأرض....

انتقلنا من وادي عربا الى «وادي الطيبة»الذي يتجه الى قلب الجبال، فتسلقنا عدداً من المنحدرات الصخرية، وعند الرابعة الا الربع أطل علينا للمرة الاولى ضريح هارون، وعند الخامسة كنا قد نشرنا خيمنا على جانب الجبل بين الصخور ونباتات نادرة، يعشش فيها الكثير من الحمام البري وشجو عصفور واحد لا غير. ورأينا خلال الساعات التالية بعض الحمام الأزرق وحجلاً واحداً، وعقابين اثنين كبيرين، كل على حدة، رأينا ظلهما على الأرض وحينما التفتنا كانا قد رحلا بسلام.

«٦ ـ نيسان مع الصباح انطلقنا صعداً صوب ضريح هارون، على أيدينا وركبنا أحياناً. وارتحنا قليلاً في ظل شجر العرار.وكان الوزال ينتشر بكثافة وفوقه أزاهير بيضاء جميلة، مع رائحة ذكية، قوية. [تلك هي الرقم المذكورة في الملوك xix,4.5 ، والتي قدمت الملاذ لمارالياس وهي اكبر شجيرات سيناء].

«ولون الجبل كله أحمر قانٍ، وكلما صعدنا أكثر كلما بات الوصول الى القمة أكثر صعوبة. وبدا الامر مستحيلاً، الى ان نظرنا حولنا فوجدنا حفرة بئر، مع محيط حجري حوله، وخلفه درجات حفرت في الصخر حيث تبلغ درجة انحناء الصخر خمسين او ستين درجة. وقدّم لنا ذلك بعض العزاء والتشجيع. والتقطت في مواقع أعلى قطعاً من الموزاييك والرخام والمرمر. وبلغنا بعد طول مسير وتعب اعلى قمة في الجبل حيث تكاد لا تتسع الا للضريح الصغير. [وهو بناء حجري فوقه قبة مطلية باللون الابيض]. «وحينما دخلنا كان هناك قرب المدخل ضريح من النوع العادي مغطى برداء حريري بالأحمر والأخضر والأبيض. لكنه باهت كثيراً. ومقابل العامود الذي يدعم السقف كانت خرق ملوّنة معلقة. وخيطان من صوف وأصداف برية وبحرية بينها في نوع من الزخرفة. وعند طرف الضريح وعاء خشبي يحتمل انه لتلقي الصدقات لإعانة من يقوم على العناية بالضريح، والذي يمارس المداواة بين بدو المنطقة بالرقية والتعاويذ. وكانت الارض كما يبدو مرصوفة برخام جميل، زال معظمه، وفوق الضريح بيض نعام صُف كما في الكنائس الشرقية، وقربها محراب في الجدار يشير الى جهة القبلة للمصلين المسلمين.

وفي احد زوايا ارض الضريح درج يتجه الى أسفل، وحينما نزلناه مستعينين بضوء قنديل، لم نجد شيئاً غير حاجز حديدي يتأرجح دونما قفل، وبعده حائط سقط قسم من تغليفه فسمح برؤية زاوية قبر. لكن القسم المرئي منه لا يكفي لتحديد عمره او الحقبة التي ينتمي اليها. وكان سقف السرداب أسود جراء دخان القناديل. خرجت من السرداب وصعدت الى سطح الضريح. كان المشهد من فوق عصياً على الوصف ، وكل ما في وسعي قوله هو ان صفوفاً من القمم والتلال تتدرج أمامك، كما في الخرائط الطوبوغرافية، والمشهد اجمالاً يمتد الى ما لا نهاية، مقفر وموحش، لا شيء سوى الجبال والصحراء. ولم يكن في وسعي مشاهدة بترا، حيث ترقد في واد عميق بين التلال». [يمكن مع ذلك ومن هذه النقطة مشاهدة «الدير»على تل لجهة الشرق والشمال الشرقي، كما يمكن في طقس صافٍ رؤية البحر الأحمر والبحر الميت بوضوح].

«هبطنا من الجبل من الجهة المعاكسة التي صعدنا منها، جهة بترا، واكتشفنا ان ممراته أيسر سبيلاً، وان تسلقه سهل قياساً بما عانيناه. وكان هناك حمام وحجل بكثرة، وإذا التفتّ الى الخلف كان نسر كبير يحلّق فوق الضريح.

ومن تقاليد الحجّاج المسلمين أن يضحّوا، قبيل صعودهم الى الضريح، بجدي او عنزة او رأس غنم على صخر عالٍ مسطح يسمى «سطوح هارون» Aaron's Terrace، عند اسفل الجبل ولكن في مرأى الضريح. وكان بركهارت رائد مستكشفي هذه المنطقة قد سافر في رفقة حاج مسلم، ثم استأجر دليلاً شرقي بترا سار به عبر المدينة الى مزار هارون، حيث ضحّى على اسفل الجبل، وكانت فرصة لمشاهدة عجائب الوادي. سار به الدليل الى «سطوح هارون»، وقتل بيركهارت شاةً في مكان كانت فيه اكوام من الحجارة. وبينما كان بيركهارت يذبح الشاة، كان الدليل يناجي قائلاً:

«يا هارون أنظر ألينا! جئناك نقدم الاضاحي! هارون إحمنا وسامحنا! ترفق بنا وبأعمالنا! إن هي الا شاة ناحلة! هارون يسِّر أمرنا، والصلاة على رب الخلق أجمعين!» وأعاد الدليل ذلك عدة مرات، قام بعدها بتغطية الدم الذي سال بكومة من الحجارة. وقدّم بعدها أفضل قطعة لحم من الشاة المذبوحة، وكانت الشمس على وشك المغيب، ثم جعل ناراً وقد تملكه الخوف من ان تجذب النار اللصوص وقطاعي الطرق.

ومن أسفل جبل هارون يمتّد ممر جمل نحو الجنوب الغربي بين أودية خضراء فسيحة وممرات صخرية ضيقة الى «وادي عربا». وتحتاج الرحلة من وادي عربا الى خليج العقبة جنوباً الى ثلاثة أيام.

وتعني كلمة «عربا» بالعربية «النهر السريع» (ومن المحتمل انه كان هناك في وقت قديم جداً نهر سريع، اي جار، يمتد في هذا الوادي من لبنان الى البحر الاحمر)، إلا ان المرادف العبري للكلمة يعني «الصحراء»، وهو ما ينطبق تماماً اليوم على المنطقة من الشرق الى منحدرات إدوم وصولاً الى الهضبة الكلسية الواسعة الأرجاء للتيه Tih. انها حقاً «ارض لا تزرع» (Jerii.2). تتألف تربتها، وكما يصفها مستر فين من «الرمل والحصى»، في نسب مختلفة باختلاف الامكنة، بحيث يكون الرمل طاغياً احياناً، وتكون الحصى طاغية في أحيان أخرى، مع كسر صوان يسهم في اعطاء الارض صلابة حديدية. وتبرز بين الحين والحين، وخصوصاً عند جوانب التلال كتل صخرية ضخمة. وتذري الريح في اماكن معينة الرمل الناعم من مكان الى آخر كما على شاطئ بحر».

الا انه تنبت، حتى هنا، انواع من الشجيرات والاشواك تجد وسيلة لتعيش، بطريقة او بأخرى، وبخاصة الميموزا (الطحلب البري). ويكثر في المنطقة شجر النبك Nebk ، ويستطيع ان يغتذي، لأيام، من ثمره الصغير، الدوم Dom . وتعرّش فوق الارض هنا وهناك نباتات الحنظل، «بفاكهته الحادة»، التي تبقى بلونها الذهبي على الارض او الرمل بعدما تموت النبتة، وثمرتها في حجم حبة برتقال، أحياناً. وهي لا تؤكل، ولا يستخدمها العرب في شيء. وتنبت في هذه البراري، وبخاصة في المناطق العالية، حلقات من الأعشاب أو الأزهار، هنا أو هناك. ويشير مستر فين إلى «أزهار نجمية تسمى «الدبية» Dibbaih، ذات لون برّي غامق يغتذي منها العرب وهي بشكل بتول أوسِّويّق أو كاسّية».

ويصف شقيقي إ. ت. روجرز في رسالة من القاهرة، رحلة له في عربا فيقول : «إذا سرت مسرعاً ودونما كبير ضجة فستطالعك قطعان من الغزلان عند الوهاد التي يظهر فيها مرعى او أزهار، وكذا الأرانب البرّية بين الحين والحين. وتفرّ اليربوع Jerboas بين أرجل الجمال، تركض على سيقانها الاربعة قبل أن تقفز على قوائمها وتدخل مخابئها او تختفي خلف الصخور ويمكن متابعة آثار أقدام الوعل الطويلة على الرمال أو آثار الأقدام الضخمة للضباع. وفي حالة واحدة، كانت هناك آثار أقدام غزال وذئب معاً، وكان هناك رمل متطاير على تلك الآثار، كأنما هناك مطاردة وفر وكرّ».

وترتفع أراضي عربا بالتدريج وهي تتجه جنوباً، الى ان تغدو هضبة تسمى محلياً بـ «خرج الريش»، أو الحاجز الجاف بين البحر الميت وخليج العقبة. يبلغ اتساع الوادي هنا حوالى خمسة أميال، لكنها تصبح أربعة حين تتصل بالخليج وتنحدر الوادي غرباً. وتحمل سيول اودية إدوم الشتوية ومياه الجداول التي تتجمع من بين التلال، لتغدو مجرى ماء شتوياً يصبّ في خليج العقبة عند زاويته الشمالية الغربية ويبلغ ارتفاع الجبال الشرقية بين ٢٠٠٠ و ٢٥٠٠ قدم، وارتفاع الجبال في الجهة الغربية بين ١٥٠٠ و ١٨٠٠ قدم.

وفي السجلات أن «الملك سليمان ابتنى اسطولاً من السفن في هزيون جيبير Ezion Geber، عند شاطئ البحر الاحمر، في «أرض إدوم» (الملوك Kings ix. 26). لكن شيئاً من ذلك الميناء البحري القديم لم يبق اليوم، إلا ان موقعه ربما يكون في موقع نبع ماء مالح يدعى «عين الغوديان» مقابل وادٍ يحمل الاسم نفسه ويجري من التلال الغربية الى وادي عربا Araba الكبير، في نقطة تبعد عشرة أميال عن شاطئ البحر والتي ربما كانت في زمن الملك سليمان الطرف الشمالي للبحر الاحمر «في ارض إدوم» (يمكن مشاهدة تغيير آخر في موقع الشاطئ عند رأس خليج السويس) ويتأتى برهان آخر على هذه الفرضية من الاشتقاقات والمرادفات اللغوية للإسم. فاللفظة العبرية هزيون Ezion، في أصلها، واللفظة العربية، الغوديان، تتقابلان حرفاً حرفاً كما أنهما متطابقتان صوتياً، كما يشير البروفسور بالمر Palmer

«ديانا»، الصيغة الرومانية للإسم كما يظهر في ألواح بيتينغر Peutinger Table*. ففي هذه الألواح تبعد ديانا (هزيون) ١٦ ميلاً رومانياً أي ١٤ ميلاً إنجليزياً ونصف الميل من «هايلا» (إيلات) وهو موقع يتطابق تماماً مع الغوديان التي مررنا بها.

اما بخصوص (إيلات) فليس هناك خلاف على موقعها فما زال موقعها محدداً بتلال عالية من الركام عند رأس خليج العقبه، وعند التجويفة الشرقية للخليج وتاريخ هذا المكان معروف ومتفق عليه منذ استخدمه سليمان كميناء بحري. وكان السوريون في عهد أهاز Ahaz قد سيطروا عليه وطرد منه اليهود (الملوك xvi.6). وذكر المكان تكراراً لدى المؤرخين الاغريق والرومان تحت اسم «إيلاه» او إيلينا AElena، وكان مقراً لفيلق روماني. وكان في عهد جيروم طريقاً للتجارة مع الهند. ومع اقتراب الجيوش المنتصرة لخلفاء محمد سنة ٦٣٠م، استسلم جون (حنّا) الملك المسيحي على «إيلا» دونما قتال ودفع الجزية وبقي المكان مهملاً وتضاءلت اهميته تدريجاً. إلا أنه في سنة ١١١٦احتله بلدوين الاول مع ٢٠٠ رجل من أتباعه بعدما وجده مهجوراً. وفي سنة ١١٦٧ استعاده صلاح الدين وبقي كذلك منذ ذلك الحين، رغم أن الفارس المشاكس رينالد شاتيون تمكن من احتلال البلدة، في وقت ما لبضعة أيام.

تمثّل إيلاه، او «عقبة إيلاه» في الاسم الحديث لمدينة إيلات، إحدى أهم المحطات على طريق الحج المصري. أي قافلة الحجاج السنوية من القاهرة الى مكة، تقوم أهمية البلدة اليوم في وظيفتها تلك تحديداً. ولا يقوم في المكان اليوم غير حصن ضخم يسمى «قلعة العقبة»، يحتمل انها ابتنيت في القرن السادس عشر جنوب تلال الركام التي اشرنا اليها. وهي مقر الحاكم ومعه سرية جند صغيرة بهدف حفظ ولاء القبائل المجاورة وتأمين أمن قوافل الحج. والقلعة مربعة الشكل، وجدرانها سميكة عالية، مع أبراج ناتئة على الزوايا وتقوم في الجوار آبار مياه عذبة. كما تحيط بها غابة من أشجار النخيل. وهناك في الداخل، وحول الجدران صوامع أو غرف صغيرة مع سقوف مسطحة أنشئت فوقها أكواخ من اغصان النخيل ويشتق الاسم الحديث للمكان «العقبة» من العقبة الحادة والطويلة القائمة عند الجبال الغربية على طريق الحج.

جزيرة فرعون.
عند رأس خليج العقبه كما تبدو من الشاطئ الغربي.

وغير بعيد عن موقع العقبة (ايلات)، وتاريخها، تقوم جزيرة فرعون، الجميلة. تبعد الجزيرة عن حصن العقبة حوالى تسعة أميال إلى الجنوب والجنوب الغربي، وحوالى نصف الميل عن الشاطئ الغربي المقابل. ويقول الكابتن ر. ف.بورتن الدي زار الجزيرة اخيراً، ان سكان العقبة يدعونها

* هي بيتينغر من أوغسبرغ، السياسي والاكاديمي، مالكها لفترة من الزمن قبل أن تنقل الى المكتبة الامبرطوءية في فيينا، وهي خارطة للطرق العسكرية في الامبرطورية الرومانية والمسافات بينها وتعود بحسب البعض الى الكسندر سافاريس ٢٢٢ ـ ٢٣٥م وليست ابعد من القرن الرابع في مطلق الأحوال. إلا أن النسخة الحالية تعود كما يبدو الى القرن الثاني عشر او الثالث عشر: وقد كانت دائماً مهمة في معرفه طوبوغرافيا الكتاب.

ببساطة «جبل القلعة» الا أن للجزيرة في الواقع غير اسم محيّر؛ «القري» Elkurey والقرية ويدعوها لابورد laborde «الغراي» ElGraie. وهي عبارة عن جبل صخري من الغرانيت، يحيط به خندق بروفيري متآكل، وفيها عروق من الكوارتز الملّون المشّع يبلغ طولها حوالى ٣٤٠ ياردة وعرضها ١٥٠ ياردة، وتتألف من مرتفعين يصل بينهما برزخ صغير. والمرتفع الشمالي هو الاعلى، ويرتفع حوالى ١٠٠ياردة عن مستوى سطح البحر. ويحيط بالجزيرة ريف مرجاني. ويقوم على أقصى الطرف الشمالي برج وعلى المرتفع الشمالي قلعة يحميها سور. وهناك في الجزء الأعلى خزان تحت الارض فيه قنطرتان يفصلهما عامود طويل. وفي الأسفل ميناء صغير، وممر دائري مغطىً يسمح لحرس الجزيرة ان يلتف بأمان حول قاعدة الجزيرة. وتقوم في المرتفع الجنوبي انشاءات مشابهة لكنها أصغر حجماً.

وبحسب الكابتن بيرتون، الذي نستمد منه هذا الوصف فالقلعة أوروبية النمط، ابتنيت ايام الصليبيين بعدما احتلوا العقبة وبغرض الدفاع عنها؛ ولكن يحتمل أنها تقوم على أسس رومانية سابقة، وكذا الرومانية فوق اسس مصرية اقدم عهداً. أما الانشاءات السراسنية فتعود الى أيام حكم صلاح الدين الذي طرد الصليبيين سنة ١١٦٧ ميلادية. وسنة ١١٨٢ حاصر رنيالد شاتييون الجزيرة لبعض الوقت ولكن دونما نتيجة، وكانت الجزيرة في عهد «ابو الفدى» نحو سنة ١٣٠٠م مهجورة وانتقل الحاكم الى القلعة القائمة على اليابسة، قلعة العقبة؛ مما يعني أن الابنية كلها إنما ابتنيت قبل ذلك التاريخ. وظلت الجزيرة لقرون اما مقفرة او ملجأ لصيادي السمك وللقراصنة.

دير سانت كاترين

تمّر طريق الحج، لحجاج سوريا وفلسطين، الى دير سانت كاترين والأماكن المقدسة المجاورة في وادي عربا ثم حول رأس خليج العقبة وأخيراً على شاطئه الغربي. أما المسافرون الذين يدخلون شبه جزيرة سيناء من الشمال الغربي وبدلاً من أن يأتوا من طريق السويس فهم يدخلون من الطريق نفسه، وعبر الكثبان الرملية عند أقدام جبل الغرانيت الرمادي تقطعها أحياناً أودية صخرية مكسوة بالحصى.

وعند نهاية الوادي الفسيح المقفر، وادي مرقا Merakh في مرأى جزيرة فرعون، يجبر المسافر على تبديل مرافقيه، إذ تنتهي المنطقة التابعة لقبيلة الحويط Hai-wat وتبدأ منطقة نفوذ قبيلة الطوارا Tawarh الكبيرة. وتمر الطريق بعد ذلك ولبعض الوقت، جنوباً، فوق رؤوس ومرتفعات تدخل عميقاً في البحر.

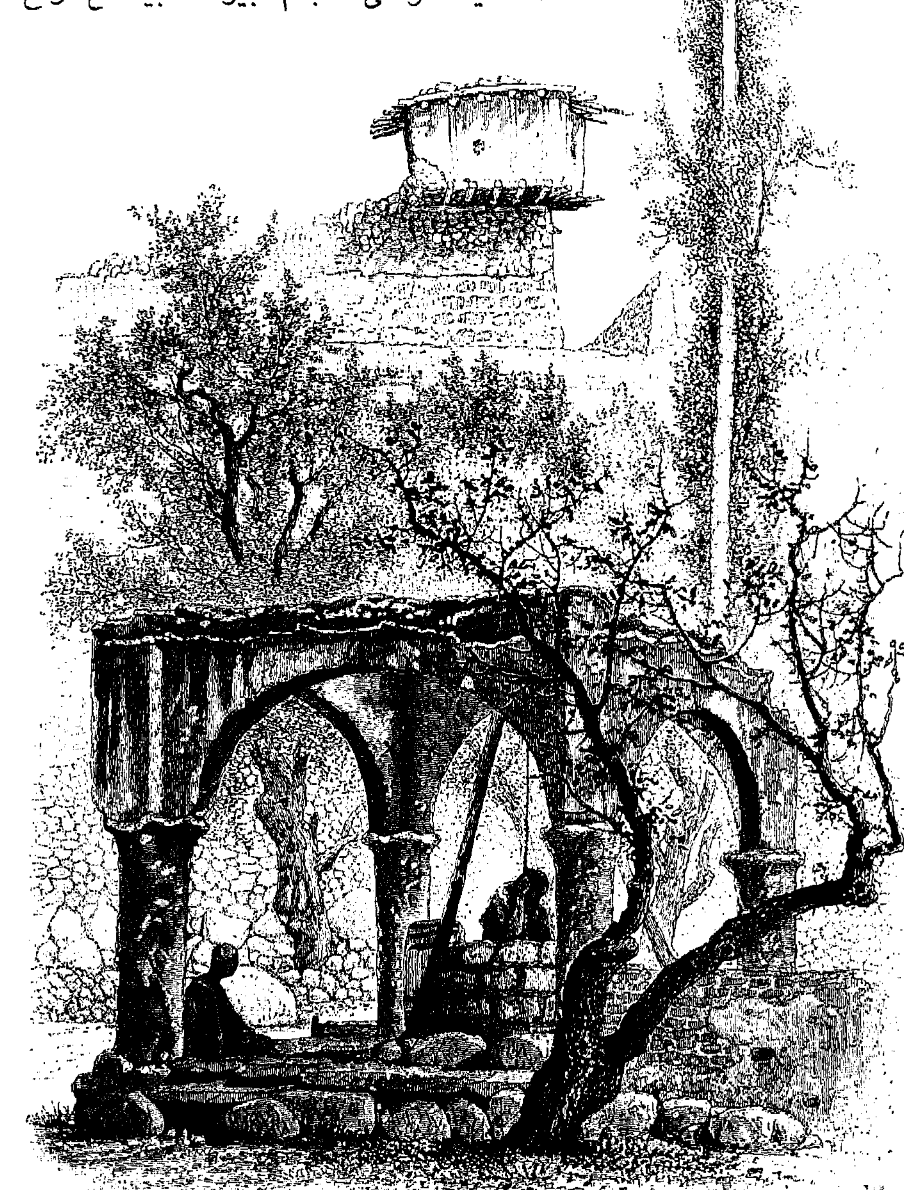
ويمكن بسهولة تبين أرض الميديين Midian عند الجانب الشرقي، المقابل، من الخليج. وبعيداً الى الداخل تظهر سلسلة تلال تبدو من بعد. زرقاء ترتفع كعنق فرس وهي «تلال الشروف Elsharâf، وتنحدر منها هضاب رملية (أو تومات



الصليب والهلال

ماديان حسب البدو) باتجاه شاطئ البحر. ويمر طريق الحج الى مكة عبر هذه الهضاب من «حقل» Hakl، وهي محطة للحجيج عند شاطئ البحر، وفي اتجاه الجنوب الشرقي نحو الجبال البعيدة. أما طريق الحج المسيحي فيشقّ طريقه جنوباً على طول الشاطئ الرملي الواسع، قبل أن يتحوّل بعد مسافة قصيرة جنوب الوادي الضخم، وادي الوتر مقابل عين ماء مالحة يحيط بها شجر نخيل وتدعى عين النويبية En Nuweibi'a وعلى نحو حاد بعيداً عن شاطئ البحر ويدخل سلسلة الهضاب الجبلية العظيمة، نكب البويب Nekbel Bweib بمناظره الجميلة. ويبعد الدير عن هذه النقطة حوالى ٥٠ ميلاً الى الجنوب الغربي، ويعبرها طريق جمال يذهب رأسياً بمقدار ما تسمح طبيعة الأرض الجبلية والصخرية. وبعدما يتجاوز وادي سمخي Wady Samghi، يطلّ على سهل من الصخر الرملي المعرّق بالغرانيت وببعض النبات، ثم يهبط ثانية أودية ويتسلّق منحدرات أخرى ليصل الى سهل آخر، سهل الغور El Ghor ويصبح عند «عين الخضيرا» Ain EL Hûdhera، والتي تمثّل ربما، هازوريه القديمة (الاعداد xi.33). وهناك في الجوار سلسلة من الاودية الصغيرة تدعى «مورد الخضيرا» (أي الممر الى الخضيرا)، مما يشير الى انها كانت في وقت ما مكاناً مهماً. وبعد « وادي مرّه» يدخل الطريق سهلاً واسعاً، وادي سال Sa'al. وتشاهد هنا نباتات الاكاسيا تنمو الى أحجام كبيرة نسبياً، مع مراع صغيرة وكثير من الأشواك، ويمكن جمع الصمغ العربي من تلك الشجيرات.

ويدخل الطريق بعدها ممراً ضيقاً في وادي سال Saal، بين جبلين عاليين من الغرانيت، مع عروق من حجر سماقي وأردوازي Slate، مع حجر رملي هنا وهناك، وكلها قفر من كل نبتة أو زرع، عدا شجيرات قليلة ونادرة تنمو في قعر الوادي. ويصعد الطريق، بعد الوادي، في ممر صخري في الهضبة التي تشكّل برأي روبنسون، «حوضاً بين خليج السويس وخليج العقبة» ويلي الهضبة واد يدعى «وادي السويرية» فيه بئرٌ أبو السويرية، تحيط به بساتين وحدائق. وينتهي هذا الوادي في «وادي الشيخ» (صالح)، قريباً من مزار ولي محمدي، يعلو ٤٤٧٩ قدماً فوق سطح البحر، على اسم النبي صالح وهو محل إجلال عظيم من البدو. وهو كمعظم المزارات، دائري الشكل تعلوه قبة مدهونة بالابيض وفيه مدفن ورفوف معلقه فوقه، فيها نذورات وصدقات من شرابات وبيض وشالات ورسن جمال ولجامات. ويعتبر بدو الطواري (من طور، سيناء) أن النبي صالح هو جدّهم الأول، ولعله النبّي المحمدي الأكرم الذي يحمل الاسم نفسه والذي اشتهر في زمن مبكر ببلاغته، والذي يمتدحه القرآن كأحد الانبياء العظام (راجع سال Sale، القرآن، Ch.vii).



بئر في حديقة دير سانت كاترين

ويقام في شهر آيار كل عام احتفال كبير عند النبي صالح، تصاحبه أضاحي وولائم ومباريات، تحضره النساء كذلك؛ ويقام احتفال أصغر حجماً بعد موسم قطاف البلح. ويصعد الجميع بعد انتهاء الاحتفالات الى قمة «جبل موسى» حيث تقدّم الأضاحي الى موسى. ويمكن من مزار النبي صالح مشاهدة مرتفعات جبل موسى. وترتفع الطريق تدريجاً، بعدما نعبر وادي الشيخ، وقبل أن ندخل وادي الدير حين يبرز امامنا فجأة الدير الكبير، ولكن لا يظهر منه عند هذه النقطة غير سوره الشمالي الغربي العالي وحدائقه الواسعه (كما يظهر في غلاف هذا المجلّد).

والدير مربع الشكل، على غير انتظام تحيط به

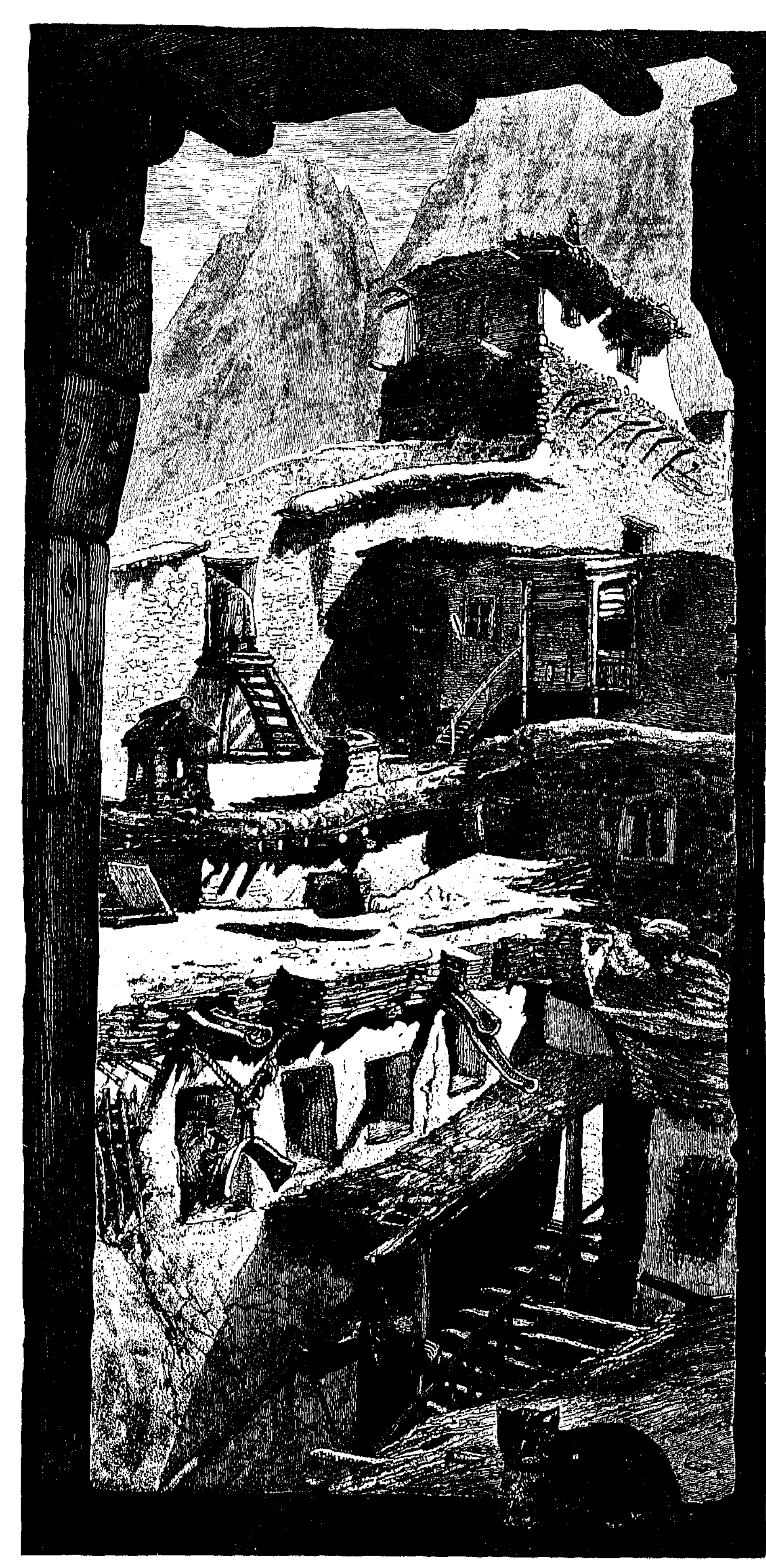


أسوار عالية من الحجارة الغرانيتية، خلا الصفوف الأخيرة فهي خليط من الحجارة الغرانيتية والرملية والحصى، جبلت بالطين واكتسبت صلابة واضحة. وتحمي الاسوار أبراجاً عدة، كما أن هناك منحدراً يحمي السور الجنوبي الغربي. ووادي الدير ضيق في قعره، وبينما يمتد سوره الشمالي الشرقي مع مجرى المياه، فإن القسم الاساسي من البناء هو على المنحدر الجبلي وبحيث يصبح السور الجنوبي الغربي أعلى بكثير من السور الشمالي الشرقي. وتقوم في أسفل السور الشمالي الشرقي بوابة صغيرة، فوقها سقيفة تعلو ٣٠ قدماً عن الأرض. كان المسافرون في الماضي يسحبون منها الى الدير. فحالما يصل المسافر أسوار الدير يتقدّم تابعوه من البدو وينادون: «يا موسى يا موسى»



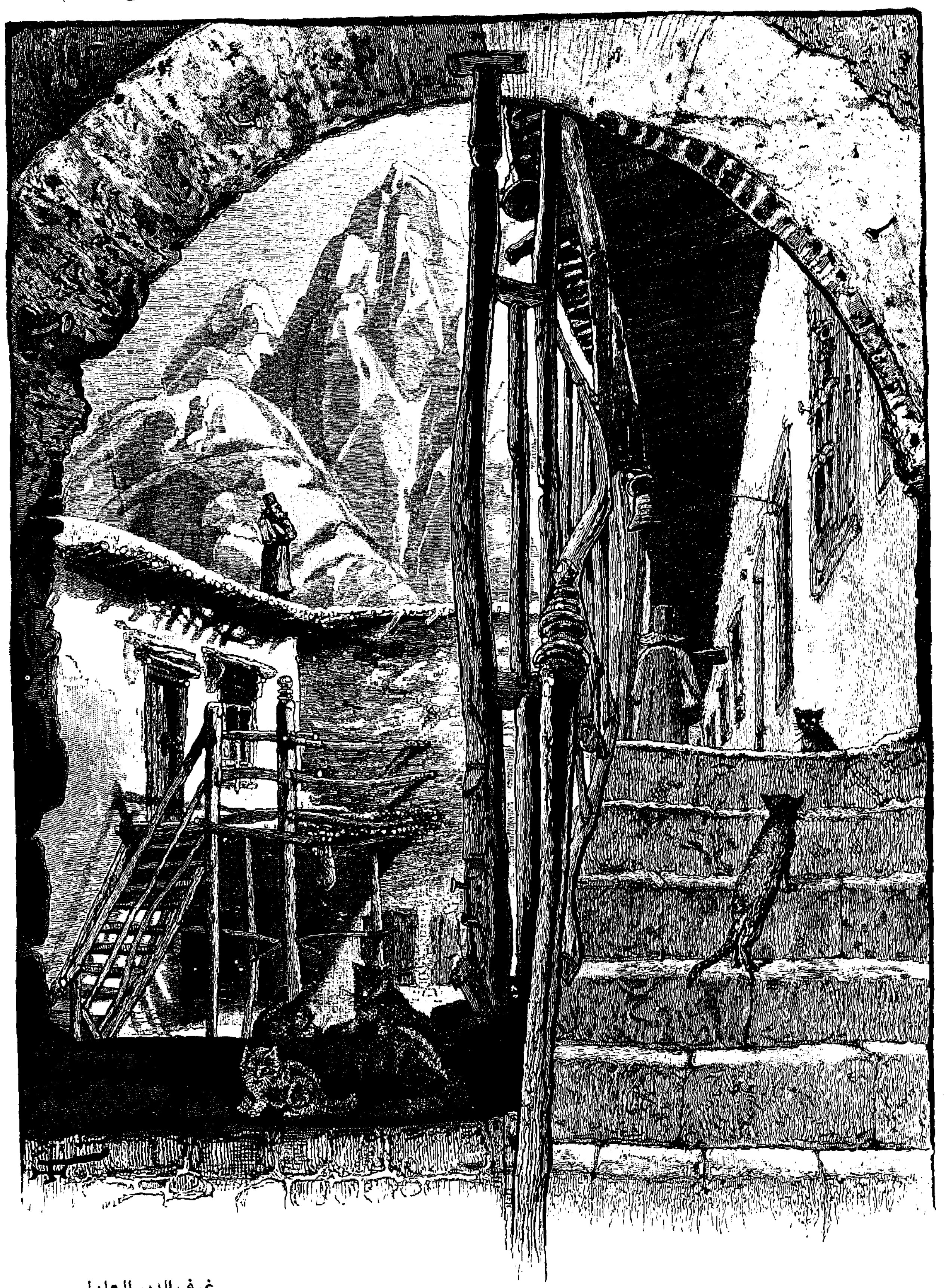
رسالة التوصية او الاعتماد
يقدمها القادم الى وكيل الدير تسحب الى فوق فإذا قبلت يسمح للزائر او المسافر بالدخول من باب جانبي.

وهو اسم الحاجب في الدير. ويطل رأس فوقه عمامة، ثم يتدلى حبل موصول بسلة يضع فيها المسافر رسالة التوصّية التي يحملها، فتسحب بسرعة الى فوق. والدعامات الخارجية القائمة عند البوابة، هي حديثة، وقد ابتنيت بأمر من الجنرال كليبر، قائد القوات الفرنسية في اثناء احتلال مصر. وتشير لوحة داخل الحائط الى ترميم القائد الفرنسي لهذا الصرح. أما اليوم فهناك بوابة حديدية تقود الى الساحة الواقعة بين الحديقة والدير؛ والبوابة مفتوحة، يستقبل أوراق إعتمادك عندها، آكونوموس AE Conomos أو أمين الدير بالترحاب وأحياناً بالقبل. أما التابعون من البدو وجمالهم فيبقون في الخارج، يخيّمون في الواديبينما يدخل الزائر الدير عبر باب منخفض في السور الشمالي الغربي قرب المدخل، الذي ابتني حديثاً. وكان سابقاً باب كبار زائري الدير، ويعرف بـ «باب الراس» او «بوابة آبوت» أي «بوابة رئيس الرهبان» وتقطع المسافة المسورّة داخل الدير قاعات وغرف في كل زاوية واتجاه وبينها شبكة من الممرات صعوداً ونزولاً. وفي ساحة داخلية يقوم بئر ماء حوله أشجار مشمش، وفي خلاء مجاور خضار وازهار مزروعة، وكرمة قديمة تعرّش فوق شبكة بدائية بالية. وهناك غرف وصوامع عالية تقود إليها أدراج حجرية متآكلة او سلالم خشبية، وتشرف هذه الغرف على الاسوار في زاويتيها الغربية والجنوبية. وعلى السور الشمالي الغربي صف طويل من الصوامع، جعل نصفها



منظر من الرواق الشمالي الشرقي.
وتظهر الغرفة العاليه عند الزاوية الجنوبية. وراهب يطل من نافذة غرفة يطرق بالمطرقة قطعة حديدية وهو التقليد في الدعوة الى الصلاة.

للحجّاج والمسافرين، ومفتوحة على رواق مسقوف بالخشب وتصله بدرجين حجريين. وفي السور الذي يقابل الصف الاوّل من الدرجات شرفات صغيرة يمكن أن تطل منها على سهل «الراحه» ER Râhah الفسيح، ويقيم الرهبان



غرف الدير العليا وقمم جبل موسى خلفها.

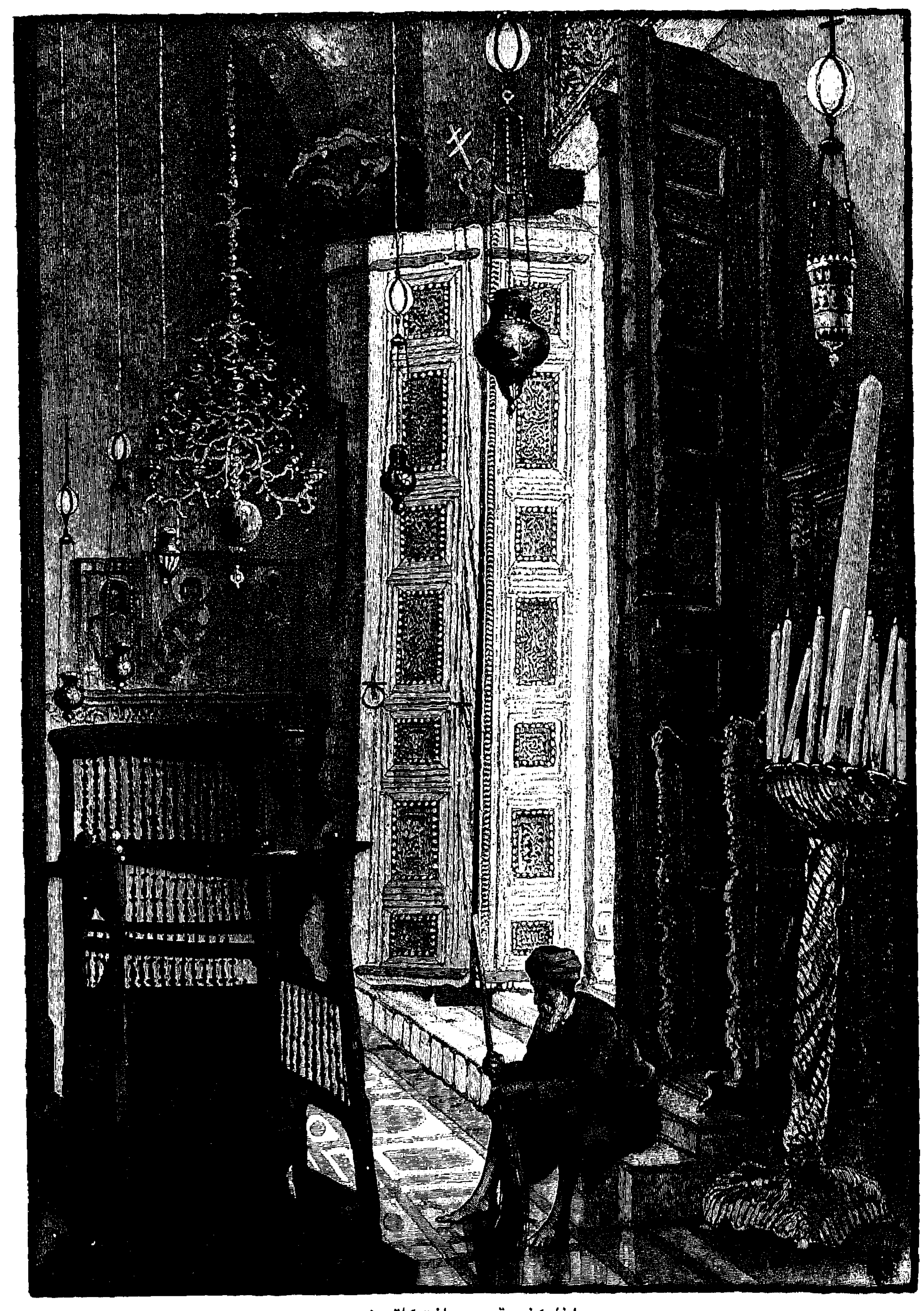
في هذه الصومعات المشرفة على السهل الخارجي. وكل ما في الدير يحمل توقيع التاريخ، وهو يبدو عمل أجيال وقرون متعاقبة.



لمحة من احدى ساحات الدير.
ودرج خشن يقود الى الغرف العليا وقبة الجامع الصغير داخل الدير

وتقوم الى جانب الكنيسة الكبيرة، كنيسة التجلّي، ببرج جرسها الرائع المبني حديثاً، ووسط إنشاءات كثيرة. وفي جوار جامع يندر استعماله الآن، تقوم معابد ومصليات صغيرة متناثرة وتقام فيها القداديس من وقت الى آخر. وتجري الدعوة الى الصلاة بالطرق بمطرقة على قطعة حديدية، تشبه جزءاً من عجلة معلقة في وسطها بحبل. كما تستخدم قطعة مسطحة من الغرانيت معلقة تطرق بعصا خشبية، تؤدي الوظيفة نفسها. كما يقوم في الطبقة السفلى من برج الجرس الكبير لوح خشبي كبير، يصل صوته، اذا ضرب، الى انحاء الدير كافة اما الاجراس فلا تقرع إلا في أعياد الكنيسة، او ابتهاجاً أو في إظهار التكريم لزائر كبير.

وكنيسة التجلّي هي كاتدرائية (باسيليكا) مسيحية قديمة جداً، وتنسب في العادة، الى جوستنيان، اما الداخل فتزينه قطع ديكور، وتصميم اكليريكي يوناني واضح. وتدخل الى الكنيسة في رواق وتهبط بعده في صف من الدرجات. وعند كل حائط سطح لجلوس المصلين يستند الى أعمدة كبيرة من الغرانيت زينت قواعدها بزخارف ونقوش خشنة. وتضيء مماشي الكنيسة خمس نوافذ بيزنطية في كل جانب، ويغطيها سقف مائل، والنافذة الغربية فوق المدخل هي في شكل صليب. واقواس النتؤات مزينة بموزاييك رفيع المستوى، أنجزه فنانون اوروبيون في القرن

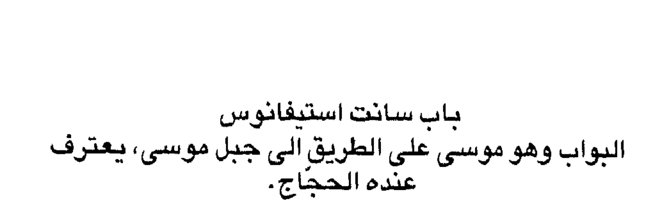


داخل كنيسة دير سانت كاترين.

السابع او الثامن. وأهم هذه اللوحات لوحة تجلّي المسيح، او «المتيا مورفوسيس» كما يدعوها الإغريق الإرثوذكس، في ذكرى تشييد الدير. وعلى جانبي اللوحة مداليتان تحملان كما يقال رسمي جوستنيان وثيودورا.

ومذبح الشجر المحترق عند أقصى القوس هو، ربما، الجزء الأقدم عهداً في البناء. وتشير الى المكان، حيث كانت تنبت شجيرات كما يروى، لوحة فضية مزخرفة. ويحتفظ عند هذا المذبح وعلى نحو دائم بضوء يتوهج، ولا يسمح بالدخول إليه الا حفاة. ويقوم في ساحة غير بعيدة عن الطرف الشرقي من الكنيسة بئر مياهه طيّبة، يدعى «بئر موسى»، يشير الرهبان اليه بوصفه البئر الذي سقى منه موسى قطعان أبنة جترو Jethro .

وتشغل مكتبة الدير الطابقين السفليين من البناء قرب الكنيسة والكنز الكبير فيها هو «كتاب الأناجيل» Gospels الذي يعود الى عهد يثوديوس سنة ٧٦٦م. مكتوب على ورق أبيض نفيس (برشمان Parchment)، وعلى كل جانب من الورقة صفّان أو عامودان من الكتابة الإنشية* المذهبة. وقد اكتشف في الدير هذا م. تيشندورف M. Tis- chendorf نسخة من الانجيل معروفة «كودكس سيناء» والنسخة موجودة الآن في بطرسبرج خلا بضع اوراق يحتفظ بها في جامعة لايبزغ؛



باب سانت استيفانوس
البواب وهو موسى على الطريق الى جبل موسى، يعترف عنده الحجّاج.

* UNCIAL

وأوراق أخرى مفقودة. والعهد الجديد كامل تماماً. وقد انتج هذا العمل على نفقة امبراطور روسيا، الذي قدّم نسخة منه الى مكتبة الدير.

وتقوم في الحدائق عند الجانب الشمالي الغربي من الدير مدافن الرهبان. وعند بوابة رواق الكهنة جمجمة سانت



البرج الشرقي لدير سانت كاترين.
وجزء من حديقة الدير وجزء من سهل الراحة والممر الضيق المسمى «نصب الهوا» في البعيد.

استيفانوس «البوّاب» The porter مغطاة بالمخمل، وكان استيفانوس قد توفي سنة ١٥٨٠ ميلادية. ويمكن خارج هذه البوابة الصعود الى الأماكن المقدسة في جبل موسى عبر ممر يتألف من ٣٠٠٠ درجة ما زالت في حالة سليمة. وأول ما يستوقفنا على الطريق هي «عين موسى» التي تنبع من تحت صخر ضخم. ويقوم أعلى قليلاً «هيكل العذراء» وينحرف الطريق عند هذه النقطة يميناً، وبعدما تصعد في درج حاد، تدخل ممراً ضيقاً في الصخر تعلوه قنطرة حجرية تعرف «بباب استيفانوس»، حيث اعتاد الجلوس هنا، وحيث يعترف الحجاج قبل أن يسمح لهم بالصعود الى الأماكن المقدسة، ولهم أن يكملوا طريقهم وهم ينشدون: «من يستطيع ان يصعد الى جبل الرب! من يستطيع أن يقف في مكانه المقدس؟ فليكن نظيف اليد طاهر القلب»! يتبع دير سانت كاترين الى الكنيسة الارثوذكسية (اليونانية) وعليه أسقف غير مقيم يمثّله وكيل، إلا أن شؤون الدير موكولة عملياً الى إمين الدير. وقوانين الدير صارمة جداً، ويعتبر البعض الدير مقر إقامة جبرية.

ومعظم الرهبان غير متعلمين، وكل واحد منهم تقريباً يمارس حرفة يدوية والآتهم بدائية جداً.

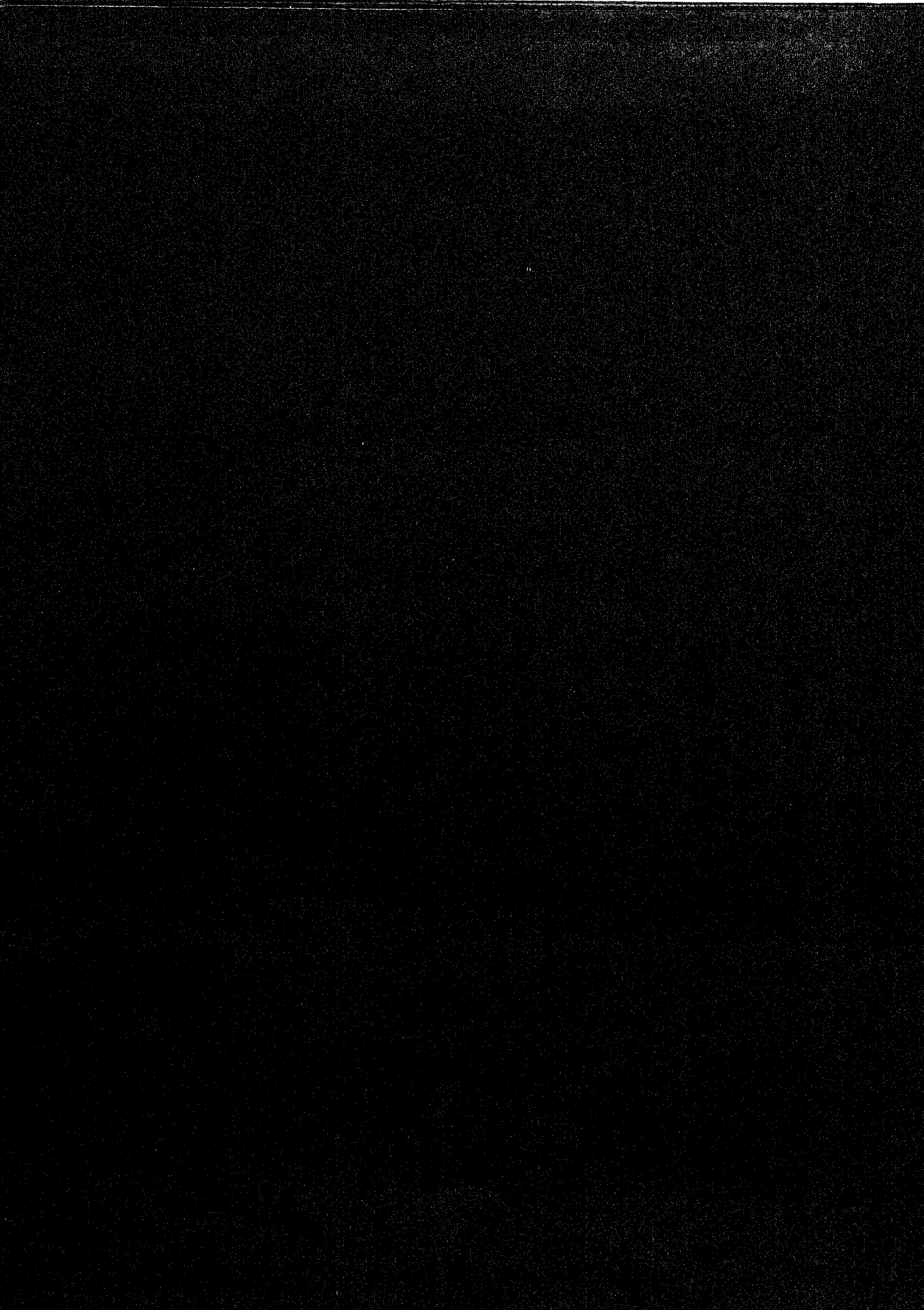
والعرب المقيمون ويعرفون «بالجبلية» يتوارثون منذ قرون خدمة رهبان الدير، وعلاقتهم بالدير خاصة متفردة. وهم يتحدرون من مئة روماني ومئة قن مصري، قدّموا مع زوجاتهم واولادهم من قبل جوستنيان كخدم وحرس للدير. ورغم أنهم مسيحيون في الأصل إلا أنهم لم يمنعوا من اعتناق الإسلام وإشهاره وهم مع ذلك لا يستخدمون الجامع الذي ابتني في القرن الرابع عشر، لاسترضاء حكام البلاد*، الا قليلاً.

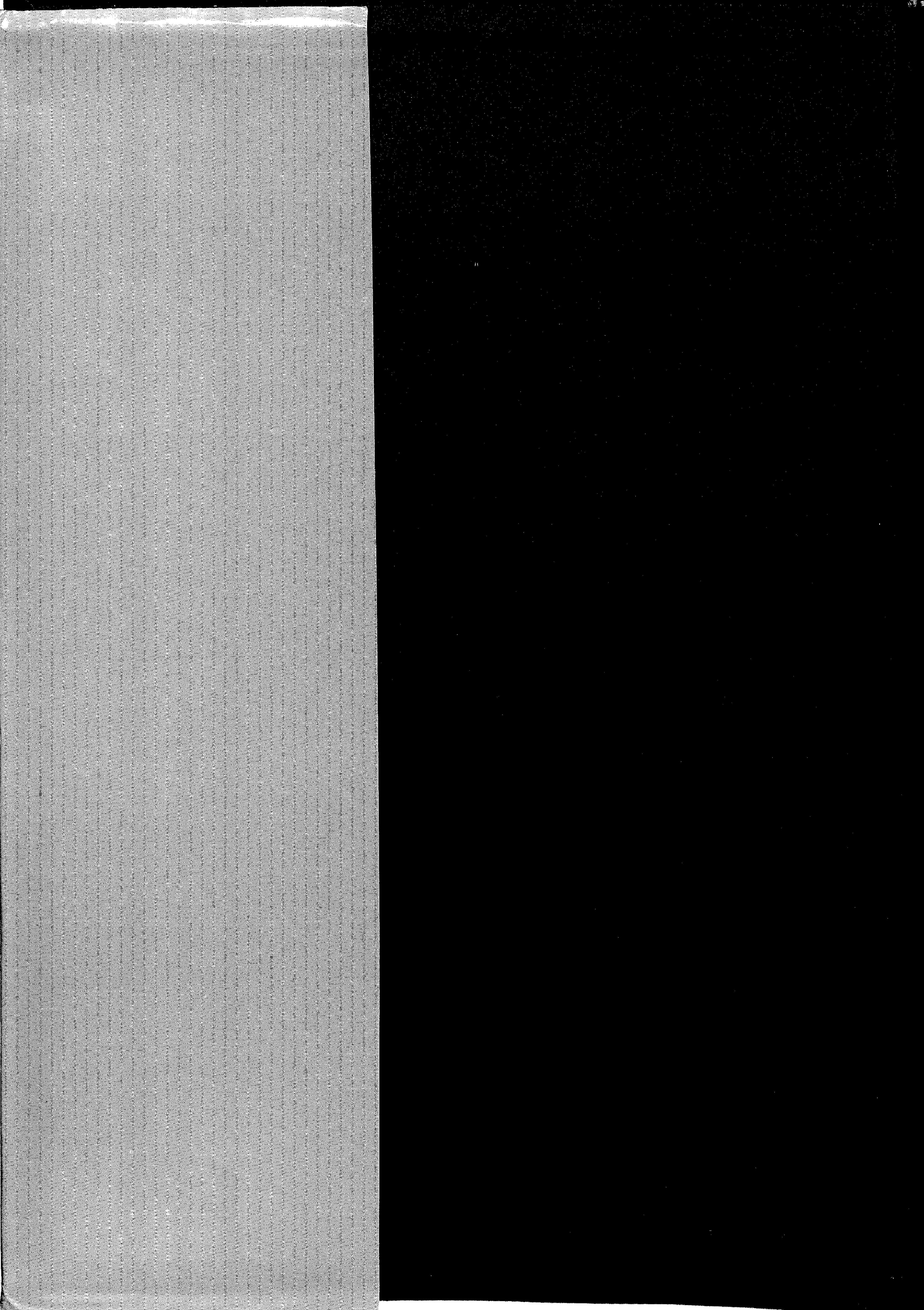
* هي كذلك في النصّ، مع ان الكنيسة القبطية تحتفظ في خطابها المعلن بتفسير مختلف [م]

فهرس اللوحات

الفهرس











هذا الكتاب

ليس بجمال إغماضة عين ... وتذكّر

ولا بمتعة فتح عين... ونسيان

إنه بين الاثنين وحاصل جمعهما.

نص يشدّك، ولوحة تريحك... إلخ

نبيل سليمان حيدر